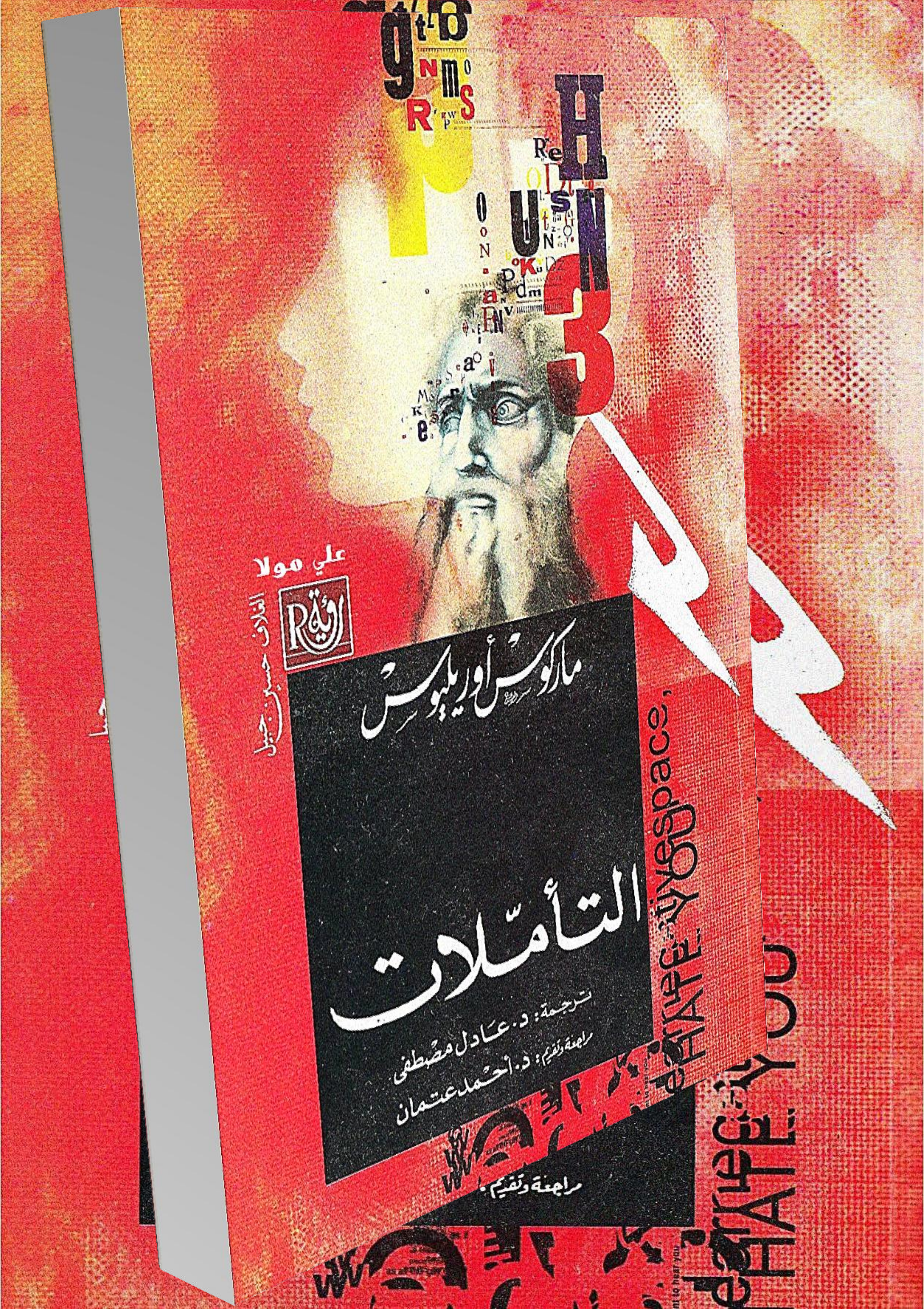

ماركوس أوريليوس
التأمّلات
ترجمة: د. عادل مصطفى
مراجعة وتقديم: د. أحمد عثمان
مراجعة وتقديم:
علي مولا
الغلاف حسين جبيل



التَّأمُّـــلات

مرايا الكتاب

الكتاب : التَّـأمُّـلات
ماركوس أوربليوس
ترجمة : **د. عادل مصطفى**
مراجعة وتصدير : **د. احمد عثمان**
المدير المسؤول : رضـا عـوض
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة ٠١٢/٣٥٢٩٦٢٨
٨ ش البطل أحمد عبد العزيز - عابدين
تقاطع ش شريف مع رشدى
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : 25754123
هاتف : 23953150
الإخراج الداخلى : حسين حبيل
جمع وتنفيذ : القسم الفنى بالدار
خطوط الغلاف : الفنان محمد العيسوي
الطبعة الأولى 2010
رقم الإيداع : 11493 / 2008
الترقيم الدولي : 977-6174-61-2

ماركوس أوريليوس

التَّأمُّلات

نقله إلى العربيةِ وشَرَحَهُ وعلّقَ عليه

د. عادل مصطفى

مراجعة وتصدير

د. أحمد عتمان

هذا الكتاب ترجمة للنص الكامل لكتاب "التأملات" للامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس، عن الترجمتين الإنجليزيتين التاليتين:

- Marcus Aurelius Meditations. Translated by Martin Hammond, Penguin Classics, 1996.
- Marcus Aurelius. The Meditations. Translated by G. Long, Amherst: Prometheus, 1991.



للنشر والتوزيع

2010

■ الإهداء ■

إلى جِيلِ الأخطاءِ والخطايا

- جيل "أهل الثقة" و "ذوي القُربَى" والولاء والرياء

الجيل الذي حَوَّل مصر من مَهجَرٍ إلى مَزْجَر

من حِضنِ أُمٍّ رَءُومٍ إلى ظَهرِ قِطٍّ مُغْضَب -

عساه أن يتعلمَ شيئاً من ماركوس أوريليوس

الذي ارتقى العرشَ بكفاءته لا بولائِه

وكان يفضِّل خطوةً في الواقع على خطواتٍ في الوهم

ويعرف أن ما لا يفيد السِّربَ لا يفيد النحلةَ

ويتعلَّم كيف يحكم نفسَه قبل أن يحكمَ العالم

وكيف يتطهَّرُ بالاعترافِ قبل أن يُطَهِّرَه زَوالُه

عادل مصطفى

تصديـــر

تأملات في "تأملات"

الإمبراطور الرواقي

بقلم د. أحمد عتمان

يحفل التاريخ الروماني بأحداث وشخصيات عجيبة لا مثيل لهـا مما يجعل هذا التاريخ سفراً شائقاً إذا شرعت في تصفحه ليس بوسعك أن تتركه دون أن تكمله. بل وتطلب المزيد والمزيد من المعرفة به وملابساته وتطوراته منذ أن كانت روما حصناً صغيراً علي نهر التيبر ثم صارت عاصمة لإمبراطورية ضخمة لا سابق لها في التاريخ، فهي تغطي كل العالم المعروف آنذاك من حدود الهند وأواسط آسيا شرقاً إلي الجزر البريطانية غرباً .

ومن أعجب الشخصيات التي تزين سماء ذلك التاريخ الرائع هو مؤلف هذا النص الذي نقدم لترجمته بهذه السطور البسيطة

وتعد فترة حكم "الأباطرة الخيرين" أسعد فترة في تاريخ الامبراطورية الرومانية ويطلق عليها "العصر الأنطونيني". كانت حياة أنطونينوس (138- 161) Antoninus Pius، كلها طاهرة ونقية قضاها في الكفاح من أجل إسعاد رعاياه، فساد النظام والهدوء. كان رجلاً واضحاً خيرا مرحا، هادئا وبريئاً، استطاع أن يقدم صورة مثالية للوثنية في أزهي عصورها. ويأتي عهده هكذا علي النقيض من حكم الطغيان الفاسد والمستبد الذي تلي عصر أوغسطس وكذا الفترة الكئيبة والفوضى التي ستسود القرن الثالث الميلادي .

وبناء علي رغبة هادريانوس كان أنطونينوس قد تبني إبن عمه وصهره ماركوس أوريليوس أنطونينوس (الفيلسوف) Marcus Aurelius Antoninus الذي امتد حكمه من 161 إلى 180م وكان رجلاً فاضلاً بمعني الكلمة، كرس حياته كلها للأدب والفلسفة ولا سيما المدرسة

الرواقيـة، ووصلنا كتـابة "تأملات" (Meditationes أو باليونـانية Ta eis heauton أي إلي نفسه") الذي يسـجل فيه بالإغريقيـة أفكاره وأحاسيسه عـن المسائل الأخلاقية والدينيـة . وفي عهده بدأت الأمم علي حـدود الإمبـراطورية الشـمالية تثيـر القلاقـل وقامت حـروب بين الماركومـانيين Marcomanni (في بلاد تقع الآن علي أرض بوهيميـا وبافاريا الحديثـة) وقبائل جرمـانية أخري وبين الرومان. ومات ماركوس أوريليوس في مارس 180م.

ولعله من المفيد أن نلقي نظرة سريعة علي نشأة الفلسـفة الرواقية لكي نفهم الأفكار المطروحة في "التأملات".

عاش زينون Zeno في كيـتيون (335-263 ق.م). كـان أبوه تاجراً ويدعـي مناسيـاس Mnaseas وعمل زينـون نفسه في بداية حـياته بالتـجارة. وفي سن الثـلاثين تحول إلي الفلسـفة . وهناك رواية تقول إنه كـان في سفينة تحمل بـضاعة من أرجوان فـينيقيا فتوجه بها إلي أثينا فـغرقت علي مقربة من بيريه. ونجا زينون واستقر فـي أثينا وكان الأثينيون يلقبونه بالفينيقي. وهو الذي أسس المدرسة الـرواقية في أثينـا حوالي 301 ق.م. لقـد بدأ بدراسة فلسـفـة سقـراط عن طريق كتـابات كسينوفون ثم انتقل إلي أنتيسثنيس الشكاك (الكلبي) فدرس هذه الفلسفة مع الميجاريين ديودوروس وكراتيس، وكـان للأخير التأثيـر الأكبر علي حيـاته. بعد ذلك تتلمذ زينون علي بوليـمون؛ -Pole mon في الأكاديمية، وتأثر بكل من ستيلبو Stilpo وكسينوكراتيس Xenokrates.

كان زينون طويل القامة نحيف الجسم شديد سواد الجلد، رأسه مائل علي كتفه. وكان يرتدي الأقمـشة البسـيطة الرخيصـة، ويقنع في مأكله بالقليل من الخبـز والتين والعسـل والقليل من النبـيذ.

وكان سلوكه سلوك الرجل الوقـور، وتبدو علي هيئته سمات الجـد والانقباض،ولكنه لم يكن يأنف أن يغشي أحياناً مجالس الأنس والمرح، فإذا سئل في ذلك أجاب بأن طبيعة الترمس المرارة ، فإذا نقع بالماء مـدة طاب مساغـا. وكان زينون يؤثـر الصمت علي الثـرثرة في حين كان الأثينيـون يميلون إلي كثرة الكلام. يروون أن زينون قال في ذلك : "إن لنا لسانا واحدا وأذنين ، لنعلم أننا ينبغي أن ننصت أكثر مما نتكلم". وكان زينون موجـز العبارة ، لم يعن في كـتابته بفـصاحة ولا أسلوب. كـان بنشأته يميل إلي السليقة ويحتقر التصنع أو التكلـف علي أن خشونة الطبع وغلظة القول، وسط قوم مغرمين بالرشاقة والجـمال، لم يكونا ليحولا بين زينون وبين التـأثير في مستمـعيه أبلغ تأثير. أجـمع القدماء علي أن زينون كان علي خلق عظيم، وأن حياته علي بساطتها كانت دائمـاً قدوة طيبة ومثالاً أخلاقياً عالياً. بلغ هذا الحكيم من قوة الإرادة وطول الصبر وضبط النفس والعفة والسيطرة علي الهوى مبلغاً أدهش معاصريه، فكان الأثينيون يضربون به المثل قائلين" "أضبط لنفسه من زينون!".

عاش زينون حتي بلغ من العمر 98 سنة . ولما مات رثاه الأثينيون رثاء رسمياً، وأصدر أولو الأمر قراراً أعلنوا فيه أنه استحق تقدير الوطن لخدماته وحـثه الشبيبة علي الفضيلة والحكمة، ولذلك منحوه تاجاً من ذهب وقبراً من مدافن العظماء .

وفي سن صغـيرة كتب "جـمهـورية الحكماء" (Politeia ton spoudaion) والتي من بعض الجـوانب قدمت التـبرير الـفكري لفتـوحات الإسكندر الأكـبـر وحلمه أي الحكومـة العالميـة والإخـاء بين البـشر. وبذلـك قدم زينون الـنموذج الذي احـتـذاه الرومـان وغـيرهم من مـؤسـسي الإمبراطوريات فيما بعد. كانت جمهورية زينون الرواقية يوتوبيا أفلاطونية النزعة والنكهة، وإن كان بها ما يتناقض مـع أفلاطون ومبادئه فهي تركـز علي المبادئ الكلبية والأفكار الأقـدم عن "الحياة وفق الطبيـعة" التي يحـياها الحكيم الروافـي، وهو ما صار يعـرف فـيما بعـد في روما (ad naturam vivere). كانت الآلهـة عند زينون كائنات كـونية وليست أنثـروبومورفيـة هومرية، إنهـا الشمس والقمر والنجوم . إنها آلهة تعيش في عالم واحد مع البشر (Cosmopolis) حيث تشاركهم كل شئ . وهنا نلاحظ تأثير الفلك البابـيلوني علي زينون . وهذه المبادئ الرواقية تجسد القـانون الطبيعي الإلهي والعدالة الكونية ، التي جاءت إستجابة أخلاقيـة للفرد اليائس والمغترب بعد فقدان نظام دولة - المدينة Polis وطغيان القوي الكبرى والضاغطة علي الكيانات الصـغرى وفي مقدمتها الفرد. في تلك الظروف لم يعد من هاد للبشرية في هذه المتاهة الحديثة سوي اللجوء للمنطق ، الحب ، الحرية ، الوئام وما شابه ذلك. وجمهورية زينون يحكمها الحكماء الممتازون Spoudaioi ويتبعهم الباقون ويعتمـدون عليهم . كان بوسع أي واحد من هؤلاء الأفـراد العاديين أن يصعد إلي قمـة الحكمة مثل هؤلاء الحكـمـاء بالتدريب والتمرين والمثابرة وبممـارسة الفـضيلة أيضـاً ، فالسعي فـي حد ذاته إلي الفضيلة فضيلة.

ولقـد ضرب زينون نـفسـه القـدوة التي تحتـذي، لأنه عـاش زاهداً يواصل الليل بالنهـار في دراساته وتأملاته التي إعـتبرها رسالة سـماوية كلف بأدائها . ولقد ورد عند ديوجـينيس لائيرتيوس هذه الأبيات في وصف زينون

لا برد الشتاء القارس ولا وابل السيل المنهمر علي الدوام

ولا شعلة الشمس القائظة ولا المرض العضال

لا شئ يقهره أو ينال من قواه

بل إن جمهرة الناس بلا عدد ودون أن ينفد لها دأب

تزحف إليه وتلتف حول درسه ليل نهار

ومن بين أتبـاع زينون لا مفـر من الإشارة إلي برسـيوس Perseus من كـيتيـون ، فهـو من أفضل تلاميـذه. وكان قد أرسله إلي أنتيـجونوس جوناتاس Antigonos Gonatas (320-239ق.م) ملك مقـدونيا لكي يقوم علي تعليم إبنه وتثـقيف شعبـه . هذا في قبرص أما خـارجها فكان أتبـاع الرواقيـة من الكثـرة بحـيث لا يمكن حصـرهم . ونشـير فـقط إلي بعـضهم هنا. وكـان ديموناكس Demonax (القـرن الثاني الميـلادي) من أشـهر القـبارصة الرواقـيين وكـان صديقـاً لإبيكتيـتوس Epictetus 50-138 (50-138م) ، وكان ألمعـياً وساخـراً، كان فيـلسوفاً كلبـياً بالأساس وكـتب لوكيانوس سيـرته . ومع أنه كان من أسرة ثرية إلا أنه فـضل العيش في زهد . هذا مع أنه تجنب مـغالاة بعض الرواقـيين إلا أنه صـام وامتنع عن الطـعام حـتي الموت وهو في سن المائة تقريبـاً . أما عبـارته " محظوظ ذلك الذي لا يخاف ولا يأمل " فـلربما كانت مصـدر النقش الموجود علي قبر كازانتـزاكيس الروائي والشاعر اليوناني الحديث في هيراكليون بكـريت "لا أخاف شيئاً لا آمل في شئ إني حر" ومن أتباع الرواقـية كذلك فيلولاوس Philolaus من كيتيون (القرن الأول الميلادي) . وأريستوديموس Aristodemos القبرصي كذلك (القرن الأول - الثاني الميلاديين)"

أما سـينيكا الفيلسـوف الشاعـر الروماني (4ق.م-65م)، فهـو الشخصـية الثانيـة من حيث الأهمية بعد زينون في سجل المدرسة الرواقية، ويقول عن مؤسسها القبرصي"

نحن بالفعل الذين نقـول إن كلاً من زينون وخريسيبوس حـققاً إنجازات أكبـر مما لو كانا قد قادا الجـيوش أو تقلدا المناصب أو سنا التـشريعات . لأن السـنة التي سناها لم تك لدولة ما بعـينها ، وإنما للبشرية أجمعين . ولذا فلماذا لا يكون وقت الفراغ ملائماً للرجل الفاضل ، في خلاله يستطيع أن يهيـمن علي الأجيـال القادمة ويـوجهـا ويخاطب ليس فـقط القلة المحدودة حولـه بل أيضاً كل البشر في سائر الأمم الموجـودة الآن والتي ستأتي من بعد ؟ باختصـار شديد أسألك : هل عاش كل

من كليانثيس وخريسيبوس وزينون وفق التعاليم التي نادوا بها ؟ وبدون شك ستجيب أنهم بالفعل عاشوا علي النهج الذي قالوا إنه من الواجب إتباعه في الحياة " .

وورد عن سينيكا أيضاً ما يلي :

"من الشائع أن هوميروس لم يمتلك سوي عبد واحد ، وكان لأفلاطون ثلاثة ، أما زينون مؤسس المدرسة الرواقية الصارمة والرجولية فلم يكن لديه ولا عبد واحد "

ويركز الدكتور عثمان أمين علي تأثير زينون في الفلاسفة العرب والمسلمين ويشير إلي ما حفظه الشهرستانى من حكم وأمثال كثيرة منسوبة لزينون . فقد ذكر الشهرستاني حكماً كثيرة أثرت عن زينون وهي تلائم ما نعرفه من أخلاقه ...ونورد هنا بعضها: رأي زينون فتي علي شاطئ البحر محزوناً يتلهف علي الدنيا ، فقال له : " يافتى ، ما يلهفك علي الدنيا؟ لو كنت في غاية الغني ، وأنت راكب في لجة البحر ، قد إنكسرت السفينة وأشرفت علي الغرق ، وكانت غاية مطلوبك النجاة ويفوت كل ما في يدك ؟ "قال: نعم ، قال " لو كنت ملكاً علي الدنيا ، وأحاط بك من يريد قتلك ، كان مرادك النجاة من يده؟ " قال: نعم، قال: " فأنت الغني وأنت المالك الآن ". وقيل لزينون " أي الملوك أفضل : ملك اليونانيين أم الفرس ؟ " قال : " من ملك شهوته وغضبه ". ونعي إليه إبنه فقال : " ما ذهب ذلك علي . إنما ولدت ولداً يموت وما ولدت ولداً لا يموت !". وقيل له وقد كان لا يقتني إلا قوت يومه : " إن الملك يبغضك " فقال : " وكيف يحب الملك من هو أغني منه ؟".

وفي مقامنا هذا لا نملك إلا أن نسلط الضوء في عجالة علي بعض مبادئ الرواقية الرئيسة. وأول هذه المبادئ الذي يعد مفتاحاً لكل الفلسفة الرواقية هو مبدأ "العيش وفق الطبيعة

ad naturam vivere

to kata physin zein

وكلمة الطبيعة (natura, physis) تعني هنا طبيعة الإنسان نفسه والطبيعة الكونية، ففي إطار الفلسفة الرواقية لا فرق بينهما، وهما متداخلان ومتفاعلان ويشكلان معاً كياناً عضوياً.فالعيش وفق الطبيعة إذن يعني الانسجام والوئام بين الإنسان والبيئة من حوله. وأدعو القارئ الحصيف أن يتأمل الآن فيما يجري في دنيانا الراهنة من تغير مناخي وتلوث البيئة والكوارث الطبيعية المتتالية ...

أفليس هذا كله نذيراً لنا بأننا لا نعيش وفق الطبيعة ؟

النار هي خالقة الأشياء وهي أسمي عناصر الكون. أما النفس الإنسانية فهي من هواء ساخن فهي متصلة بأسمي العناصر وخالق الأشياء أي النار. وأي خلل يصيب النظام الكوني من الطبيعي

أن يصيب النفس الإنسانية، التي هي أيضاً إذا تعرضت للخلل أصابت النظام الكوني بالخلل .
ويتمثل الخلل الذي يصيب النفس الإنسانية في هزيمة العقل أمام العاطفة والأهواء. هذه الهزيمة المنكرة تتجسد شراً مستطيراً في تراجيديات سينيكا. فعلي سبيل المثال تعشق فايدرا في المسرحية التي تحمل اسمها (أو اسم هيبوليتوس) .عنواناً - ابن زوجها الشاب العفيف هيبوليتوس وعندما يصدها وقبل أن تموت تترك رسالة تتهمه لدي أبيه بأنه اغتصبها .عاطفة مستعرة وشر مستطير حطم الأسرة جميعاً والمدينة بأكملها ثم امتد الشر الي الطبيعة نفسها حيث خرج من البحر وحش اسطوري لا مثيل له أصاب خيول عربة هيبوليتوس بالجنون فمزقت الخيول صاحبها إرباً إرباً.......كوارث طبيعية تصيب النظام الكوني بالخلل لأن العقل داخل النفس الإنسانية تلقي هزيمة فادحة علي يد جحافل العاطفة والأهواء الفتاكة .

علي أن النار خالقة الأشياء وحارسة النظام الكوني تحرق الأشياء جميعاً في حريق كوني هائل ekpyrosis . هذا الحريق الكوني يحدث علي فترات متباعدة جداً بهدف تطهير الكون من أكوام الدنس المتراكمة عبر العصور .

إنها إذن النار الإلهية الخلاقة التي تدمر الكون لتخلقه من جديد. هذه النار الإلهية لا يمكن مقارنتها بالنار البشرية التي نستخدمها كل يوم فهي نار مدمرة تحرق الأشياء ولا تعيد خلقها . ومن هنا كان حرق الموتى ولا سيما حرق الأباطرة بعد موتهم جزءاً من طقوس تأليههم. إذ يخلصهم الحرق من أدران الجسد ويطير بروحهم إلي السماء لتتحد مع النجوم التي هي إحدى التجليات للنار الإلهية الخلاقة.

الحكيم الرواقي sapiens stoicus هو الحر الوحيد وهو السعيد الوحيد وهو الملك بحق وهو المنتصر الأوحد. لماذا ؟ لأنه أولاً وأخيراً قهر نفسه. ومن قهر نفسه فقد قهر العالم. إنه قهر في نفسه الطمع في أي شئ، ولذا فهو حر وسعيد. وقهر في نفسه الخوف من الموت. هو قاهر الموت فماذا يخشي بعد ذلك ؟ يقسم الرواقيون الأشياء إلي:

- أشياء مهمة وضرورية فهي خير

- أشياء غير مهمة وغير ضرورية فهي شر

- أشياء وسط media أولاً هي خير ولا شر أي كما يترجمها المترجم لنص أوريليوس " لا فارقة" differentia إنها أشياء يمكن أن تكون خيراً ويمكن أن تكون شراً. المهم أن نعرف ما هي هذه الأشياء الوسط بالنسبة للرواقيين هي: الفقر والغني ، المرض والصحة ، الحكم والملك ،........الخ

وأهم شئ في هذه الأشياء الوسط الموت. فالموت بالنسبة للرواقيين هو كأي شئ في حياتنا لا هو خير في حد ذاته ولا هو شر في حد ذاته . بل إن الموت أحياناً يكون باباً للحرية والخلاص والسعادة الأبدية . فلماذا نخاف الموت ؟ جبان ذلك الذي يقبل الحياة بأي ثمن، وحكيم رواقي بحق من يقدم علي الموت بل يطلبه إذا سدت كل السبل أمامه ولم يعد هناك من وسيلة ليحفظ كرامته وحريته ومبادئه . إذن لا استسلام وإنما إقدام علي الموت. ويأخذ البعض علي الرواقيين هذه الدعوة إلي الانتحار . وهذا سوء فهم وسوء تفسير . فهم أي الرواقيون لا يحبذون الانتحار لأسباب تافهة ex frivolis causis وإنما الانتحار هو الحل الأخير لحفظ كرامة الحكيم الرواقي ومبادئه . إنه بهذا الانتحار يقهر قاهرة وينتصر عليه. فالموت في مثل هذه الحالة هو النصر المبين. ويقول سينيكا في ذلك " ليس شقياً قط من تيسرت له سبل الموت " ويقول أيضاً إن الطبيعة نفسها تعلمنا . لقد جئنا جميعاً للحياة من طريق واحد هو رحم الأم ،أما الخروج من الحياة فله آلاف الطرق .

ومن اللافت للنظر في "تأملات" ماركوس أوريليوس أنها أشبه ما تكون بمفكرة دون فيها هذه التأملات ربما وهو في خضم المعارك وفوق الجبال أو في أعماق الغابات. وربما كان أحياناً في قصره المنيف. المهم أنها تأملات مكتوبة بعيداً عن قصدية الدرس المتعمق أو الخطاب المنمق وما شابه . ومع ذلك فالمرء يدهش من كثرة الإشارات لعيون الكتب والمؤلفات في الأدب الإغريقي واللاتيني. فليس الأمر قاصراً علي الرواقيين السابقين، بل يشمل كل المدارس الفلسفية والمذاهب الأدبية عند الإغريق والرومان . هذه التعددية في مصادر أوريليوس تدل دلالة واضحة علي عمق ثقافته وغزارة اطلاعه.

أما الترجمة التي نقدم لها فتنم عن دارس مجتهد للفلسفة وذواقة للأدب. إنه مترجم يحب المادة التي يترجمها ويعيش المبادئ التي يشرحها. لذلك كان أسلوبه في الترجمة مستساغا. ومع أنه يترجم النص الإغريقي عن الإنجليزية فإنه لم يفقد الكثير من روح النص الإغريقي الأصلي الذي وضعته أمامي وأنا أراجع الترجمة .

لقد نجح المترجم في أن يصل إلي صيغة شائقة لأفكار الفيلسوف الرواقي. وأنا علي يقين تام من أن القارئ العربي سيجد متعة فائقة وفائدة ملموسة في قراءة هذا النص الذي يمكن أن نجد فيه العزاء الوافي عما نقاسيه في أيامنا هذه .

والله ولي التوفيق

الجيزة - فبراير 2010

مقدمـــة

"إذا شئتَ أن تملكَ سيطرةً على الألم
فافتَحْ كتابَه المبارَك
وأَوْغلْ فيه
ولَسَوْفَ يَتَسَنَّى لكَ بغَدَق فلسفته
أن ترَى كلَّ المستقبل
والحاضر والماضي
ولَسَوْفَ تدركُ أن كلاً من الفرَحِ والتَّرَح
لا يَعْدو أن يكونَ دُخاناً"
"قارئ يوناني للتأملات"[1]

(1) قد يكون هو سيموكاتِس ثيوفيلاكتوس في بدايات القرن السابع الميلادي. وهي قصيدة يونانية من ثمانية أبيات ذَيَّلَ بهـا خاتمة الكتاب الثاني عشر الرفيعة في مخطوطة الفاتيكان.

نفسٌ كبـيرة، تَنْسَلُّ كلَّ يومٍ من ضـجيج الجيشِ ومن عـجيج المعسكر علـى ضفاف الدانوب، لكي تدوِّنَ خـواطرَها، في مُنبَلَج الصباح، وتسجِّلَ خلجاتهـا وتُقيِّدَ أوابِدَها؛ وتفرغَ بعضَ حينٍ مِن حُكْمِ العالَمِ لكي تؤكِّدَ حُكْمَها لنفسِها!

ذلك هو مـاركـوس أوريليـوس (١٢١-١٨٠م) الفـيلسـوف الرواقي ورأس الامبراطورية الرومانيـة، الملقَّب بـ "الفيلسوف على العرش" إذ تحققَتْ فـيه، إلى حد كبير، صـورةُ الحاكم الفيلسوف التي تمثَّلهـا أفلاطون في جـمهوريتـه، وكان "الحـاكم المطلق على العالم المتحضر كله آنذاك، وبلغ من الحكمة والأستاذية ما لم يبلغه أحد من مـعاصـريه، وكان مثـالاً لرقة القلب، وللعـدالة التي لا يشـوبها شيءٌ اللهم إلا السـمـاحة الزائدة" على حـد قول جـون ستيوارت مِل.

كتبَ مـاركوس هذه اليـوميـات باليونانيـة، لغة الصـفوة من مثقفي الـرومان في ذلك الوقت، ووَسَمَها بعبـارةٍ غامضة: ta eis heauton وتعني "إلى نـفـسـه"، أي أن "الامـبـراطور في هذه الصحائف يخاطب نفسَه ولا يخاطب جهةً أخرى"، تمييزاً لها عن الوثائق الأخرى التي تودع في خزانته؛ ولا هو يُبيِّتُ في كتابتِها نيَّةَ النَّشْر على القراء، ولا نية التخطيط لمؤلَّفٍ يتـركه لقومه وللأجيال من بعده.

لِمَ الكتابة؟!

الكتابةُ "تَضَايُفٌ"(1) بقارئ (قراء): الكاتـبُ يعرف أنه جزء من مجتمع. يكتب الكاتبُ وفي خاطره وضميره قراء يتوجه إليهم بحديثه ويناجيهم بما يجد، فيكون القـارئ هو "المكمل الضروري

(1) correlation

منطقياً" لعلاقة الكتابة: كالشراء بالنسبة للبيع، والابن للأب، والتلميذ للأستاذ، والزوج للزوجة. يأخذ كلٌّ منهما من الآخر معناه ومأْتاه.

فلماذا إذن يكتب ماركوس وقد انتَفَتْ لديه نِيةُ النشر؟!

وفي غياب القارئ ماذا يبقى من غرضٍ للكتابة؟!

يبقَى الكثير. الكتابة ارتقاءٌ من الخصوصية إلى العمومية، تحقيق لما هو كامنٌ في العقل، وتحديدٌ لما هو غائم، وتثبيتٌ لما هو هائم. بل هي بحثٌ عن المجهول من خبايا النفس، ومعرفة بما هو ضائع في تضاعيف الذات.

لستُ أعرفُ بالضبط ما أنا أفكر فيه؛ ربما لذلك شرَعْتُ في كتابته.

بذلك يتحول "الذاتي" إلى "موضوعي" (ينتقل من "العالم ٢" إلى "العالم ٣" بلُغة كارل بوبر)، فتَتَمَلَّكُه الذاتُ بعد أن كان يَتَمَلَّكُها! وتتناوله بالاستيعاب والهضم والمراجعة والتصويب، وربما تحوله، بالمران والتكرار، إلى كيانها وبِنْيَتِها، فيصير نسيجاً من أنسجتها، وعضواً من أعضائها (يتحول "الميروس" إلى "ميلوس" بلغة ماركوس)، عضواً جاهزاً للاستعمال طوع إرادتها وتحت إمرتِها ورهن إشارتها[1].

(1) يقول ماركوس: "في تطبيقك لمبادئك كن كالملاكم لا المجالِد: فالمجالدُ مرتهَنٌ لسيفه الذي يستخدمه، يرفعه أو يُسقَط عنه ويُقتَل؛ أما الملاكم فلديه دائماً يدُه وليس عليه إلا أن يستخدمها" (١٢-٩).

لمَ التكرار في التأملات؟

التكرار بحاجة إلى رد اعتبار. التكرار ضرورة بيداجوجية (تتعلق بأصول التربية والتدريس). فماركوس إذ يخط تأملاته إنما هو في مران وتدريب. إنه يخاطب نفسه، ومن البين أن هذه النفس قد انقسمت قسمين: نفسًا عاقلة عليا تواجه نفساً واهنةً دنيا انزلقَتْ إلى مواقف غير فلسفية وتَنَكَّبَتْ طريقَ الفضيلة، وتُلِح عليها بالتنبيه والتذكير: "اذكُرْ.."، "تَذَكَّرْ.."، "ضَعْ في اعتبارِك.."، "لا تَنْسَ.." . التكرار هنا تدريبٌ رواقي و"صباغة للنفس بالأفكار"، وتحويل لـ "المعرفة" الأخلاقية، بالمجاهدة والكدح، إلى خليقة مكِينةٍ وسلوكٍ ثابت (تحويل "اللوجوس" logos إلى "هِكْسِيس" hexisبِلُغة أرسطو).

ماركوس أوريليوس الفيلسوف

الرواقية فلسفة عملية، تعلمنا كيف نتحلى بالثبات ونتحمل المحنةَ ونخرج من رماد الفشل. نشأت الرواقية بعد أرسطو وامتدت قروناً في الحقبة الهلينستية وما بعدها. ومن ثم فقد كانت الرواقية، شأنها شأن المذاهب التي أعقبت أرسطو، فلسفة عملية بالدرجة الأساس؛ إذ كانت، كأخواتها، وليدةَ اضطراباتٍ وفكرَ أزمة.

وفي فترات الأزمات الاجتماعية والسياسية العنيفة يُلِح الجانبُ العملي للفكر وتعلو نبرتُه وتَحْتَدّ، وينتزع الصدارةَ من الجانب النظري الذي يتراجع إلى الخلفية وكثيراً ما يبدو كأنه وُضِعَ وَضعاً

لكي يدعم المذهبَ العمليَّ ويلمَّ شعثَه ويسدَّ ثلْمَتَه. وكثيراً ما تبقى الثمارُ العملية يانعةً نضرة، وتعيش عمراً ثانياً بعد أن يزهق المذهبُ النظري وتتقوض أركانُه.

يقول ثورو: "أن تكون فيلسوفاً لا تعني أن تكون لديك أفكارٌ حاذقة، ولا حتى أن تؤسس مدرسة؛ بل أن تحب الحكمةَ بحيث تحيا وفقاً لإملاءاتها، حياةَ بساطةٍ واستقلال وسماحة وصدق. أن تكون فيلسوفاً هو أن تحل بعض مشكلات الحياة، لا حلاً نظرياً فقط، بل عملياً أيضاً".

كان ماركوس أوريليوس قائداً عسكرياً محنكاً، ومنتصراً في كل ما خاض غمارَه. غير أن موقفه الفلسفي من السلك العسكري تترجمه الشذرة العاشرة من الكتاب العاشر من "التأملات": "العنكبوتُ فخورةٌ حين تصطاد ذبابة. والإنسان فخور بصيده_ أرنب مسكين، سمكة صغيرة في شبكة، خنازير، دببة، أسرَى من الصرامطة[1]. والجميع من حيث الدافع لصوص".

وكان ماركوس ملكاً وحاكماً قديراً، يدير شئون امبراطورية تمتد عرضاً من الفرات إلى المحيط الأطلسي، وتمتد طولاً من جبال اسكتلندا الباردة إلى رمال أفريقيا المتلظية؛ ولكن موقفه من الملك كموقفه من الحياة العسكرية: المُلكُ عِبءٌ وابتلاء، ولكنه لا يُعفيكَ من الفضيلة؛ بوسعكَ أن تحيا حياةً فاضلةً حتى في قفص البلاط: "حيثما أمكن لإنسان أن يعيش أمكنه أيضاً أن يعيش حياةً صالحة.

(1) من القبائل الجرمانية التي حاربها ماركوس أوريليوس على جبهة الدانوب.

ولكن عليه أن يعـيش في قصر ـإذن بوسعه أن يعـيش في القصر حياةً صـالحة" (التأملات: ٥-١٦). "احذَر أن تَتَقَـيْصَرَ أو تتلطخ بالأرجوان. . " (٦-٣٠). "قدَرُ الملوكِ أن تفعل الخيرَ وتُذَم عليه" (٧-٣٦).

القيادة العـسكرية والحكم المدني كانا عبئـين اضطلع ماركوس بحملهما بمهارة واقتدار، امتـثالاً للواجب الاجتماعي وليس شغفاً بالقيـادة والمُلك. أما الفلسفـة فإنه لَيَنْتَـحي إليها بـوصلةِ روحه، ويَعُدُّها أمَّه إذا كانت الوظيفةُ هي زوجة أبيه. كانت الفلسفة ملاذه وراحته، كَيْما يحتملَ القصر ويحتملَه القصر. الفلسفة هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يَخْفِرَنا في مُغْتَرَب وجودنا.

تأثر مـاركوس بكثـير من الفـلاسفـة السابقين عليـه؛ ولكن أكثرهم تأثيراً كان سقراط، وهيراقليطس، وإبكتيتوس. أما سقراط فقد كان التجسيد الحي لمثال "الحكيم" sophos عند الرواقيين عبر تاريخهم كله: مـوقفه عند المحـاكمة، رفـضه للهرب وقـد عُرِضَ عليه، ثباته ورباطة جـأشه في مواجهة الموت، ويـقينه بأن مرتكب الظلم إنما يؤذي نفسَـه أكثر مما يؤذي ضـحيتَه، وأن الفـضيلة علم والرذيلة جهل، وأن لا أحد يرتكب الإثم عن قصدٍ أي عن علم، وعدم اكتراثه بالحر والبرد، وبساطة مأكله وملبسه، وتجرده من كل ضروب الترف والرفاهـية الجسدية[1]. وأما هيراقليطس فـقد أخذ

(1) Bertrand Russell: History of Western Philosophy; 2nd edition,8th impression, London,George Allen &Unwin LTD, 1975, p. 261.

عنه نظرية اللوجوس، والعَود الأبدي، ونهر التغير، واغتراب المُنْبَتِّ (عن مجموع البشر)، والأسلوب المقطعي. وأما إبكتيتوس فقد أخذ عنه مواضيع topoi الدراسة الثلاثة: الانفعال (الرغبة والنفور) وهو مَنوط بعلم الطبيعة، والنزوع (الإقدام والإحجام) وهو منوط بعلم الأخلاق، والحُكم judgement أو التصديق assent ومجاله علم المنطق. وعنه استمد التدريبات الفلسفية التي تترجم هذه المباحث النظرية إلى سلوك وأفعال.

ثمة تناقضاتٌ في فكر ماركوس النظري أشرنا إليها في مواضعها. غير أن ما يعنينا من "التأملات" ليس المذهب النظري بل الحكمة العملية. ولعل هذه التناقضاتِ عينَها هي ما أضفَى على "التأملات" جاذبيةً باقيةً على مر العصور، وحفظ لها مكانها الراسخ في "الفلسفة الخالدة" : philosophia perennis فلو أن ماركوس ظل متسقاً مع نفسه إلى نهاية الشوط لما خرج علينا إلا بمذهبٍ رواقيٍّ متحجر، يولد ميتاً، أو يزول على أفضل تقدير بزوال مبرراته التاريخية. يقول رسل: "إن منطق المدرسة الرواقية قد أفضَى إلى مذاهبَ متصلبةٍ هَذَّبَتْها إنسانيةُ أتباعِها، الذين كانوا أفضلَ حالاً بكثيرٍ مما كان يمكن أن يكونوا عليه لو أنهم كانوا متسقين مع مذهبهم"(1).

لعلها فرصةٌ لمدح التناقض!!

(1) Ibid., p. 263.

أليس التناقضُ، أحياناً، أنبلَ وأحمَدَ من التمادي في الاتساق حيث يـفضِي الاتسـاقُ إلى نهاياتٍ وبيلة؟ أليس التطرفُ المَـقيتُ، أحـياناً، هو ثمـرة التـعنت في الاتسـاق والتشـبث به إلى نهـاية الشوط؟ يبـدو أن ذكاء الفكر لا يستـغني عن ذكاء الشعور، كـما يقول السيكولوجيون هذه الأيام، ويبـدو أنَّ مَن اعتاد الفضيلة ولم يحِد عن سواء الفطرة يعرف بالسليقـة متى يتمسك بالاتساق ومتى يدعـه، ويعرف أن لكل قـاعدة شواذًّا ولـكل تعمـيمٍ "مُقَـيِّدات" qualifications، وأن الفـضـيـلة شيءٌ علويٌّ لا يصطدم بِغُـثـائنا الأرضي ولا يعـرفه. يقـول ماركـوس في "التأمـلات": "أعلى وأسفل، هنا وهناك، تمضي حركةُ العناصر. أما حركة الفضيلة فلا تتخبط هكذا أبداً؛ فهي شيءٌ أكثـر قُدسيَّة، وعلى طريقٍ ليس من السهل تَبَيُّنُه تمضي قُدُماً في غِبطة" (٦-١٧).

توفي ماركوس في معسكره على جبهة الدانوب في السابع عشر من مارس عام ١٨٠م، وقد ناهز التاسعة والخمسين؛ تاركاً في خاتمة التأملات أذاناً برحيله: "أيها الإنسانُ الفاني، لقد عشتَ كمواطنٍ في هذه المدينة العظيمة. مـاذا يُهِم إذا كانت هذه الحياةُ خمـسةَ أعوام أو خـمسين؟ على الجـميع تَسـرِي قوانـينُ المدينة. فمـاذا يخيـفك في انصرافك من المدينة؟ إن مَن يصرفكَ ليس قاضيـاً مستبداً أو فاسداً، إنها الطبيـعةُ ذاتها التي أتت بك. إنها أشبه بمدير الفـرقة الذي أشركَ ممثلاً كوميدياً في الرواية وهو يصرفه من المسرح.

- " ولكني لم أُمَثِّل مشاهدي الخمسة، مَثَّلْتُ ثلاثةً فقط".

- حقاً، ولـكن في الحياة قد تكون ثلاثةُ مـشاهدَ هي الرواية كلها.

استئناف الحيـاة إنما يحدده الكائن الذي رَكَّبَكَ أول مرة والذي هو الآن يفـنيك. ومـــا لك مـن دور في أي من العلـتين. اذهبْ بســلام إذن: فـــالرب الذي يصـــرفك هو في ســلام مـــعك" (التأملات: ١٢-٣٦).

جادَ مـاركوس بنفـسه "فاتحـاً ذراعيـه لشيءٍ أبعد، حـباً في الشاطئ الأبعد[1]" كما يقول ماثيو أرنولد. حـقاً إن ما تشير إليه "التأملات" لَأرحبُ كثيراً مما تقوله.

يقـول ماثـيو أرنولد عن مـاركـوس أوريليـوس: "ربما يكون أجمل الشخصيـات في التاريخ كله. إنه واحدٌ من تلك العلامات التي تواسِي وتَبُثُّ الأمل، وتقف إلى الأبد لتـذَكِّرَ جنسَنا البـشريَّ الواهنَ والمنخذل ـ تُذَكِّرَه بالأعـالِي التي بلغَتْهـا الفضيلةُ الإنسـانية والدأبُ البشري ذاتَ يومٍ، ويمكنُ أن يَبلُغها مرةً ثانية"[2].

---

(1) يعني ماثيو أرنولد بالشاطئ الأبعد نور المسيحية.

(2) Matthew Arnold, Marcus Aurelius (1865) in Lectures and Essays in Criticism, ed. R. H. Super, The Complete Prose Works of Matthew Arnold (Ann Arbor, Mich., 1962), pp. 133-57

- الذات الخالية من الانفعالات قلعةٌ وحصنٌ ومُنْتَجَع.
- "الآخر" قريبُكَ في العقل، ولا يأثم إلا عن جهل منه بما هو خير، إذن علِّمْه أو احتَمِلْه.
- لا تَنبَتَّ عن إخوانك في البشرية فتكونَ ورماً على جسم العالم.
- ألاّ تصيرَ مثلَ الذي أساءَ إليك.. ذلك هو خيرُ انتقام.
- "التغير" أنطولوجيا.. أسلوبٌ للطبيعة في عملها. فلتألفْه مثلما تألف وجودك.
- العقل مبثوث كالهواء في كل مكان طوع من يريد أن يتشرَّب به.
- اللحظة الحاضرة هي مُلكُك النهائي، اقبض على اللحظة؛ أطياف الماضي وهواجس المستقبل تجتمع على التهام الحاضر الذي لا نملك سواه.
- لا تُعَلِّقْ سعادتَك على آراء الآخرين فيك ولا تَضَع هناءَك في أيديهم. ذلك "استرقاق" طوعي و"مصادرة" حياة و"نفي" خارج الذات. وما كنتَ لِتَرضَى أياً من ذلك لو كنتَ تعرف اسمَه الحقيقي.
- لكل شيء في الطبيعة دورُه في حَبكة "الكل"، حتى النائم وحتى المخرِّب؛ حتى مخلفات الطبيعة وعوارضها الضارة هي نواتج بعدية للنبيل والجميل.

- فِعْلُ الخيرِ ثوابُ ذاته.
- أحِبَّ قَدَرَك: قـدَر الإنسان هو رفيـقه وحاديه معـاً. القدرُ يحدو العقلاء ويجرجر الحمقى.
- اصطَبِغْ بالأفكار الصائبـة حتى تصبح فيك طبيـعةً وسَوِيَّة. مبادؤك الرواقية هي عُدَّتُكَ في الطوارئ.
- طولُ الحياة غـيرُ فارق. لا جديد. إذا بلغتَ الأربـعين فقد رأيتَ كلَّ شيء، وقد أفرغَتْ دنياكَ طرافتَها. الموتُ فعلُكَ الطبيعي الأخير، فلْتُنْجِزْه ولْتُتْقِنْه.
- لا تكنْ دُميةً تحركها خيوطُ الرغبة.
- العـالم وطنك، والبـشـر إخـوتك، و"خـيـر البـلاد مـا حَمَلَك".
- لا تُزايد على المُدرَكات بما لـيس منها. الأذى لا يأتيك إلا من ذاتك. الأشياء بريئة وخاملة ومـحايدة. ليست الأشياء ما يكربك بل فكرتك عنها.
- ناوِر العقـبات، واتخذ منهـا وقوداً لفـضيلتك، واسْعَ إلى مقاصدِك بتحفظٍ يخفف عنك صدمةَ الإخفاق.
- لا مجد لك بمعزل عن مجد قـومك. ما لا يفيد السِّربَ لا يفيد النحلة. لا مجدَ لنحلةٍ في خليةٍ منهارة.
- الزهو بالخُلُوِّ من الزَّهْو هو أثقـل ضروب الزهوِ وأصـعبـها على الاحتمال. أثقلُ الغرور التواضعُ الزائف.

- خُذْ نظرةً من فوق لترَى الأشياءَ بحجمها الحقيقي كما تتراءى في أعين الأفلاك.

هذا غَيْضٌ من فيض "التأملات" التي دوَّنها ماركوس أوريليوس في أضابيرَ كَتَبَ عليها "إلى نفسه". ولدينا ما يدل بقوة على أنه لم يقصد بها أن تكون كتاباً يُقرأُ أوْ مذهباً فلسفياً يُشَيَّد ويُذاع على الناس: فهي في أغلب الأحيان شخصية للغاية وموجَّهة إلى الداخل؛ وهي كثيرة التكرار، ولا ينتظمها نسقٌ معين؛ وهي في بعض الأحيان اقتباسات مشفوعة باسم صاحبها، وفي أحيان أخرى اقتباسات غير مشفوعة باسم. وهي غامضة مبهمة في غير موضع لا نعرف فيها ماذا يقصد ومَن يعني وإلامَ يشير؛ مما يدل على أنه يكتب حقاً لنفسه، ولا يملي على سكرتيره اليوناني أبولونيوس.

* * *

مُؤْتَنِساً بخلْوَتِه، وبعقله الثري ونفسِه الرحبة، راح ماركوس أوريليوس يخط على صحائفه: "قُلْ لنفسكَ حين تقوم... تَمادَيْ في إيذاءِ ذاتكِ أيتها النفس... إنهم يطلبون منتجعات لهم... كن مثل رأس الأرض في البحر... تأمَّلْ مَلِياً كيف يُزاح كل ما هو قائم... لَكَأَنَّما أُلقِيَ على الأشياء حجابٌ كثيف... طريق الطبيعة قصير. نَقِّبْ في ذاتك... الأشياء واقفة خارجنا... أَتقِن الموتَ.."

لم يكن هناك من أحـدٍ يشوب خلوةَ ماركـوس، غيـر "كائنٍ اعتباري" مَهيبٍ كـأني به قد أقحمَ نفسَه على هذه الوَحدةِ الجَلَل: إنه "التـاريخ" بلحـيتـه الشـهبـاء وقـوامه السـامق النحـيل. إنه "الزمان"، "غَزْلِ القَدَر"، يشهد ميلادَ الأحرف ويرمقها من وراء كتفه، فيكتم غِبطتَه ويُسِرُّ إلى نفسه:

"هذا كلامٌ أكـبرُ من زمنِه، ونغـمٌ أفسحُ من عُودِه؛ لـيست "إلى نفسه" هذه الصحائف بل "إلى الأجيال" جميعاً. سأُدبِّرُ لها سبباً وأحفظُها من عَوادِي الضـياع؛ لِتكونَ لِمَنْ خَلْفَه مثلما كانت له".

عادل مصطفى محمد

الكويت في 1/12/2008

التأملات

ماركوس أوريليوس

النص الكامل

"كانت كتابات ماركوس أوريليوس هي أرفع ما أنتجه العقلُ القديم في الفكر الأخلاقي،ولم تكن تختلف اختلافاً يُذْكَر عن أَخَص تعاليم المسيح"

"جون ستيوارت مِل _عن الحرية"

1

الكتاب الأول[1]

١-١ مِن جَدي[2] فِيروس Verus تَعَلَّمتُ الدماثةَ وضَبْطَ النفس.

١-٢ ومما سمعتُ عن أبي[3]، وما أتذكَّـرُه عنه، تعلمتُ التواضعَ والنخوة.

١-٣ ومن والدتي تعلمتُ التـقوى والإحسـانَ والتعـففَ عن فعلِ السيـئات وعن مجـردِ التفكيرِ فـيها. وتعلمتُ منهـا أيضاً

(1) في هذا الكتاب يتحدث ماركوس عن دَيْنِه لأهله وأسلافه ومعلمِّيه، ونحو ذلك من أمـورٍ شـديدة الخـصـوصـيـة وغـيـر ذات صلة بالأفـكار المحـورية لـ "التأملات". وللقارئ غير المتخـصص في الفلسفة أو الكلاسيكيات أن يعبره إلى الفصل الثاني، حتى لا يصدَّه عن إكمالِ نصٍّ ممتِع.

(2) جـده بالتبني، مـاركـوس أنيوس فـيروس، عين قـنصلاً ثلاث مـرات. تبنى ماركـوس أوريليوس عندما تُوُفِّي والـده الطبيعي وهو بعـدُ صبي صغـير في الثالثة من عمره.

(3) والده الطبيعي، وهو أيضاً يُدعَى ماركوس أنيوس فيروس. تُوُفِّيَ مبكراً حوالي عام ١٢٤م.

بســاطةَ العـيش، بساطةً غـيـرَ معـهـودةٍ في الأثرياء على الإطلاق.

١-٤ ومن جــدي الأعلَى[1] تعلمــتُ ألا أخـتلـفَ إلى المدارس العــامــة، وأن يكونَ لديَّ مـعلمــون ممتــازون بالمنزل، وأن أعرفَ أنه في مثلِ هذا يليقُ بالمرء أن يُنفِقَ بسخاء.

١-٥ ومن معلمي تعلمتُ ألا أكـونَ من مشجعي "الأخـضر" أو "الأزرق" في السـبـاقـات، ولا أشـايع "الخِـفـاف" أو "الثِّقـال" من المجالدين فـي المدرَّج؛ وأن أحتمـل المشاقَّ وأكتـفي بالقليل، وأن أعملَ بيدَيَّ وأن أنصـرفَ إلى شأني وأتركَ ما لا يعنيني[2].

(1) جده الأعلى لأمه، لوشيوس كاتيليوس سيفيروس.

(2) الأخضر والأزرق لونا فـريقي سبـاق العـربات، وكان يحظى لدى الرومـان بحماس شديد وتشجيع يبلغ أحـياناً حَدَّ التعصب؛ ولا يناظـــره عندنا =

١-٦ مِن ديوجـنيـتـوس[1] Diognetus تَعَلَّـمتُ ألا أنشـغلَ بالتفـاهات، وألا أصَدِّقَ حديثَ المُشَعْـوِذين والدجالين عن الرُّقَى والتعاويذ وطردِ الشياطين وما شابَه، ولا أربي طيور العِراك[2] ولا أتحـمس لمثل هذه الرياضـات، وألا أَضِـيقَ بالصـراحـة، وأن أنجـذب إلى الفلسـفـة، وأحـضـر أولا محاضـرات باخيوس ثم تانداسيس وماركـيانوس، وأكتب محاوراتٍ منذ نعومة أظفاري، وأحب السرير النقال والدثار وكل ما ينتمي إلى نُظُم التدريب اليوناني[3] .

١-٧ مِن رُستيكوس[4] Rusticus تَلَقَّيتُ الانطباعَ بأن شـخصيتي بحـاجـةٍ إلى تحـسينٍ وتدريب، وتـعلمتُ ألا أنجـذب إلى الخطابة فأكتب خواطري أو أُلقِي خُطبي الوعظية الصغيرة، أو أُرائي بمظهر المُتَنَسِّك أو المُحسِن؛ وأن أبتـعد عن البلاغة

= إلا تحمـس الجماهيـر لمباريـات كرة القـدم. والخفاف والثـقال نوعـان من المُجالِدين gladiators في حلبـات المنازلة، مُـصَنَّفان وفـقاً لأسـلحتـهمـا المستخدمة ووزن الدرع المُسْبَغ. وقد كان ماركوس أوريليوس ضَجِراً بمثل هذه المسابقات والمنازلات وغير شغوف بعروض المُدَرَّج.

(1) مـعلم ماركـوس للرسم، وقد تجـاوز تأثيـره على ماركـوس مجـال الفن إلى مجالات أخرى كثيرة.

(2) مصارعة الديوك.

(3) التـدريب اليوناني يعني لبس الـسـتـرة الثقـيلة والنوم على الأرض والمران على الحياة الخشنة المتقشفة، وقد كانت والدته تثنيه عن ذلك.

(4) سياسي رواقي كان تأثيره حاسـماً في تحول ماركوس أوريليوس من الخطابة إلى الفلسفة، وفي تنامي اهتمامه بالفلسفة الرواقية.

وقرض الشعر وكتابة الإنشاء؛ وألا أتجول في البيت بالملابس الرسمية، أو أفعل فعلاً من هذا القَبيل؛ وإذا كَتَبتُ رسائلَ أن أكتبها بأسلوبٍ بسيطٍ مثل رسالته التي كتبها إلى والدتي من سينوئيسّا؛ وأن أكون مُرَحِّباً بالصلح مع مَن أساءوا إليَّ بمجرد أن يَجْنَحوا للسَّلْم؛ وأن أقرأ بتَمَعُّنٍ ولا أكتفي بأفكاري السطحية أو أسارع بقبول آراء المتفيهقين؛ وإنني لَمَدينٌ له بتعرُّفي على "مذكرات إبكتيتوس"[1] التي تَفَضَّلَ عليَّ بنُسختِه الخاصة منها.

١ ٨ ومِن أبولونيوس[2] Apollonius حريةَ الإرادة، وعدمَ الحيود

---

(1) إبيكتيتوس فيلسوف رواقي عاش في النصف الثاني من القرن الأول والثلث الأول من القرن الثاني الميلادي. وُلِد في هيرابوليس بآسيا الصغرى وأُرسِل إلى روما حيث صار عبداً لرجل يُدعَى إبافروديت، ومن هذا اشتُق اسم "إبيكتيتوس" وتعني "العبد" باليونانية. وحين تولى الامبراطور دومتيانوس أصدر أمره بإخراج الفلاسفة من إيطاليا حوال عام ٩١م، فهاجر إبيكتيتوس من روما واستقر في نيقوبوليس في اليونان، وأسس بها مدرسة توافد عليها شباب الأرستقراطية الرومانية. كان إبيكتيتوس رواقياً في حياته وأقواله، ولم يدون فلسفته بنفسه، ولكن تلميذه أريان جمع طرفاً من أقوال أستاذه كما قيدها عند سماعها ونشرها في كتاب بعد وفاته أسماه "مذكرات إبكتيتوس" Discourses. يحتوي على ثمانية أبواب لم يبق منها إلا أربعة. ويعد إبيكتيتوس أعظم الفلاسفة تأثيراً في تفكير ماركوس أوريليوس، وقد أكثر ماركوس من الاقتباس منه في تأملاته ومن إعادة صياغة الكثير من أفكار إبيكتيتوس في "المذكرات".

(2) فيلسوف رواقي ومعلم فلسفة من خلقيدونيا، استدعاه أنطونينوس بيوس إلى روما لكي يُعَلِّمَ ماركوس.

عن الهدف أو التعويل على أي شيء آخر سوى العقل، وأن أظل كما أنا لا يُبَدِّلُني الألمُ المفاجئُ أو فقدان طفلٍ أو المرض الطويل؛ وأن أرى فيه مثالاً حياً يبين أنه بوُسع المرءِ أن يجمع بين الشدة واللين، ولا يكون فَظاً في إصدار تعليماته، وأرى أمام عينيَّ إنساناً يَعتبِر خبرتَه ومهارتَه في بَسْط نظراته الفلسفية هي أقل مواهبه. وتعلمتُ منه أيضاً كيف أتلقَّى من الأصدقاء أفضالاً عظيمةً فلا يحط ذلك من قدْري عندهم ولا أنا أنكر فضلَهم أو أغفله.

١-٩ من سكستوس[1] Sextus تَعَلَّمتُ الأَرْيَحيَّةَ، ونَمَطاً من العائلة التي تُحكَم بطريقة أبوية، ومفهومَ الحياة التي تُعاش وفقاً للطبيعة، ووقاراً في غير تَكَلُّف، ورعايةَ مصالح الأصدقاء، والتسامح تجاه الجُهَّال من الناس وتجاه راكبي رءوسهم، والتلَطُّف مع الجميع بحيث كانت متعة الحوار معه أعظم من أي تَمَلُّق، وكان مجرد حضوره يجلب إليه الإجلال من جميع جلسائه. كان لديه مَلَكة اكتشاف، وتنظيم، المبادئ الضرورية للحياة بطريقة ذكية ومنهجية. لم يتملَّكْه الغضبُ قَط أو أي انفعال آخر بل كان خَلِياً تماماً من الانفعال وشديدَ الرقة والعطف، وكان بوسعه أن يعبر عن استحسانه بلا صخب، وكان يمتلك معرفةً عريضة بلا تظاهر ولا ادعاء.

(1) فيلسوف محترف من قيرونيا بإقليم بؤوتيا بوسط اليونان؛ عمه بلوتارخوس المؤرخ الشهير؛ وقد ظل ماركوس يحضر محاضراته حتى بعد أن أصبح امبراطوراً.

١ ١٠ ومن الاسكندر النحوي تعـلمتُ ألا أَتَسَقَّطَ الأخطاء، وألا أُقَرِّع مَن يرتكبُ خطأً في المعجم أو التركيب أو النطق، بل أُدْخِل بحِذْقٍ نفسَ الـتعبـير الذي كان ينبـغي استخـدامُه، وذلك في شكل إجابة أو توكيد، أو بالاشـتراك في مناقشة حول الشيء نفسه لا حول الـصياغة، أوْ بأي لونٍ آخر من مثل هذا التنبيه اللبِق.

١ ١١ ومن فـرونتـو[1] Fronto تعلمتُ أن أفـهـم فِـعلَ الشك والهـوى والنفاق في ممارسـة الاسـتبـداد، وأن أَغلب مَن نسـمـيـهم "النبـلاء" Patricii يفـتـقـرون إلى العطف الإنساني.

١ ١٢ ومِن الإسكندر الأفلاطوني تعلمتُ ألا أقـول أو أكتب لأي شخص بأني مشغولٌ جداً ما لم تكن هناك ضرورةٌ فعلية، وألا أنتحل أعذاراً قهرية للتـنصل من واجباتي تجاه إخواني وتجاه مَن أعيش معهم.

١ ١٣ ومن كـاتولوس[2] Catulus تعلمتُ ألا أرفـض أي نقـدٍ

(1) محام وخطيب شـهير، عُيِّن قنصلاً عام ١٤٣، انتـدبه أنطونينوس بيوس ليعلِّم ماركوس البلاغة. ظلت عـلاقته حميمة بتلميذه مـاركوس حتى بعد أن هجر البلاغة إلى الفلـسفة. وقد تبادل مع مـاركوس المراسلة الكثيفـة. وقد بقيت لدينا من أعمال ماركوس، عدا "التأملات" اليـونانية الشهيرة، مجموعة من الرسائل اللاتينية إلى فرونتو.

(2) رواقي كان ماركوس يغشى محاضراته.

موجهٍ من صديق، حتى لو كان نقداً لا مبرر له، بل أُؤَلِّف قلبَه وأعيده إلى صفائه المعتاد؛ وأن أذكر أساتذتي بخيرٍ وعرفانٍ قلبي، مثلما كان يَذكر دوميتيوس وأثينودوتوس، وأن أحب أبنائي حباً حقيقياً.

١-١٤ ومن أخي سيفيروس Severus تعلمتُ أن أحب أقربائي وأحب الصدق وأحب العدل، ومن خلال عَونه لي صرتُ أفهم ثراسيا وهيلفيديوس وكاتو وديو وبروتوس؛ ومنه تلقيتُ فكرةَ دولةٍ يسري فيها القانونُ الواحد على الجميع، دولة تقوم على المساواة في الحقوق والمساواة في حرية الرأي، وفكرة حكومة ملكية تحترم حرية المحكومين فوق كل شيء. وتعلمت منه أيضاً توقير الفلسفة توقيراً دائماً وثابتاً لا يتزعزع. وتعلمت منه الإحسان والكرم والتفاؤل، والثقة بشعور الأصدقاء، والصراحة في الانتقاد، والوضوح في ما يريد وما لا يريد بحيث لا يُلْجِئ أصدقاءَه في ذلك إلى الحدس والتخمين.

١-١٥ ومن مكسيموس[1] Maximus تعلمتُ ضبط النفس، والتمنع على النزوات العابرة، والمرح في جميع الظروف حتى في المرض، وتوازناً حميداً في الشخصية بين اللطف

(1) كلوديوس مكسيموس، سيناتور رواقي كان ماركوس معجباً بشجاعته، وقد نَوَّه في نهاية هذه الشذرة بشجاعته في مرضه. وفي الشذرة التالية يذكره بين ثلاثة يحمد الآلهة على أنه تعرف بهم في حياته.

والوقار، وأن أؤدي مـا ينبغي أداؤه مهـما كلفني ذلك من جهد؛ والثقة التي يَبُثُّـها في الجميع بأنه يعني ما يقول وأنه حسن النية فيمـا يفعل، لا تتملكه الدهشة ولا الهلع، ولا يعرف العجلة ولا التردد، ولا يكلُّ ولا يتوانى، ولا يرتبك ولا يغْـتَمُّ، ولا يضـحك ليـداري غـيظه، ولا ينفـعل في الوقت نفسـه ولا يشك. وقد دأب على فـعل الخيـر وكان سمحاً وصادقاً، يتخـذ الطريقَ المستقيم طوعاً لا كرهاً، لم يشعر أي إنسان قَط أنه ازدَراه يومـاً أو استعلَى عليه؛ وكان فَكِهاً رقيقَ الحاشية.

١ - ١٦ من أبي[1] تعلمتُ الرفقَ، وصحةَ العزم في القرارات التي يخلص إليها بعد تَرَوٍّ تـام، وألا أنخدع بتلك الأشياء التي يسـميـها الناسُ مَـبعَثَ فـخر، وتعلمتُ منه حب العـمل والمثابرة، والإصغاء لكل من لـديه اقتراحٌ من أجل الصالح العام؛ وأن أعطي كل ذي حق حقه، وأن أعرف متى أشتد ومـتى ألين، وأن أتعـفف عن الغلمـان. كـان يعـفي مَن بالبـلاط من ضرورة الحضـور الدائم معـه على العـشاء أو مرافقته خارج المدينة، ولم يجد الذين يضطرهم التزامٌ آخرُ بالابتعاد أيَّ حَرَجٍ في ذلك ولا آنسـوا منه استنكاراً. وكان دقـيقَ البـحث في كل الأمـور التي يتـشاور حـولهـا في

(1) يقصد أباه بالتبني الإمبراطور أنطـونينوس بيوس: إمبراطور من عام ١٣٨ خلفاً للامبراطور هادريان، حتى عام ١٦١ عندما خلفه ماركوس على العرش.

المجلس، ولا يَقنَع بالانطباعات الأولى ويترك أمراً دون تَدَبُّر، وكان حريصاً على أصدقائه، لا يَضجَر منهم سريعاً ولا يسرف في محاباتهم، متماسكاً مرحاً في جميع الظروف، بعيدَ النظر في الأمور الطويلة الأمد، حاسباً لأدق التفاصيل دون تَنَطُّع، يلجم أيَّ تهليلٍ أو مداهنة، ساهراً على احتياجات الامبراطورية، مدبراً في الإنفاق، متسامحاً تجاه نقد البعض له في هذه المسألة. لم يكن مشعوذاً تجاه الآلهة، ولا متقرباً للناس بالهدايا لاسترضائهم، ولا مداهناً للجماهير، بل كان رصيناً في كل شيء وحازماً لا تستهويه المَباذِلُ والبِدَع.

وكل ما يفضي إلى لِين العيش، وقد منحه الحظُّ الكثيرَ، فقد كان يستمتع به من غير تباهٍ ولا اعتذار، فإذا جاءه تمتع به دون تكلف، وإذا غاب عنه لم يطلبه. لم يكن يوماً مخادعاً أو دجالاً أو متحذلقاً، بل كان محنكاً خبيراً لا ينطلي عليه التملقُ، وقادراً على إدارة شؤونه وشؤون غيره.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يُوَقِّر مَن هم فلاسفةٌ حقيقيين، ولا يُغلظ القولَ لأدعياء الفلسفة وإن كان يكشفهم بسهولة. وكان اجتماعياً أيضاً وذا حِسٍّ فكاهي من غير أي تكلف ممجوج. وكان يهتم بصحته الجسدية اهتماماً معقولاً، لا عن حرصٍ زائد على الحياة أو على المظهر الشخصي، ولا بإهمالٍ أيضاً، بحيث إن

اعتناءه بنفسه لم يترك لديه أدنى حاجة إلى الأطباء ولا إلى الجرعات الدوائية ولا الدهانات.

وأهم من ذلك جميعاً استعدادُه للإذعان بلا تحفظ لأولئك الذين لديهم قدرةٌ خاصة معينة، في البلاغة مثلاً أو في دراسة القوانين أو العادات أو أي موضوع آخر؛ وكان يدعمهم ويساعدهم على أن يصلوا في مجالاتهم إلى ما يستحقونه من مكانة. وكان دائماً يراعي التقاليد وإن لم يجعل الحفاظ على التقاليد هدفاً هاماً. وكان لا يحب التغيير ولا يعتمد على الحظ بل على المثابرة والدأب في نفس المواقع ونفس الممارسات. وكان إثر نوبات الشقيقة التي تنتابه يعود للتو نشطاً وعفياً إلى استئناف أعماله المعتادة. لم يكن يُخفِي أسراراً إلا أقل القليل، وذلك في شؤون الدولة فحسب. وكان حصيفاً مقتصداً في المظاهر والعروض والمشاهد الشعبية وتشييد المباني العامة والعطايا والمِنَح، وما شابَهَ، فقد كان ينظر إلى ما يلزم عملُه لا إلى مجرد الصيت المستفاد من عمله.

لم يكن يغشَى الحمامات طوال الوقت، ولم يكن مغرماً ببناء منازل واستراحات، ولا مغرماً بالطعام، ولا مهتماً بلون ثيابه وخامتها، ولا بجمال عبيده. كان كساؤه يأتي من لوريوم ويُرسَل من مقره الريفي هناك. وانظرْ إلى طرائق عيشه في لانوفيوم، وكيف تَعامَل مع اعتذار المراقب الحكومي في توسكولوم، ومثل هذه الأنماط السلوكية جميعاً.

لم يكن فيــه أي جـفاء أو غـلظة أو عنف، أو قُل أي شيء يخـــرج به عن طوره؛ بل كـــان يمنح كل شيء حظـه من الوقت والفـحص وكـأنه متـفـرغ له _كـان دَيْدَنُه المهل والنظام والنشـاط والاتساق في كل شيء. وقد ينطبق عليه مـا عُرِفَ عن سقراط من أنه كان بوسعه الامتناع والاستمتاع تجاه الأشياء التي يضعف أمامها الكثيرون ولا يستطيعون الانغماس فيها من غير إفراط.

أما أن تكون قـوياً بما يكفي لاحتمـال هذا والامتناع عن ذاك حسـب الحالة، فـتلك شيـمةُ الإنسـانِ ذي النفس الكاملة التي لا تُقهَر، مثلما تَجَلَّى في مرض ماكسيموس.

١-١٧وأنا مَدينٌ للآلهة التي منحتني أجداداً صالحين وآباء صالحين وأختاً صالحة، ومعلمين وأسرة وأقارب وأصدقاء صالحين_ كل شيء تقريباً، وأحـمدها على أنني لم أزِلَّ بالإساءة إلى أي منهم رغم أن بي نزعـة كانت كـفيلة بأن تحـملني على مثل ذلك الزلَل إذا دَعَت الظروف _ولكن مِن فضل الآلهة أنها لم تضـعني قَط في هذا الامتحان. ومن فـضل الآلهة أنه لم تَطُل نشأتي في كنف خليلة جـدي، وأنني حافظت على زهرة شبابي، وحـافظت على براءتي، ولم أشرع في ممارسة رجولتي إلا في الوقت الصحيح، وربما بعده بقليل. وأحـمـد أنني نشـأت في كنف حـاكمٍ وأب انتـشلني من الغرور وبَصَّرَني بأنه بوسع المرء أن يعيش في قصرٍ دون أن يشعر بحاجة إلى حرسٍ شـخصي أو ملابس مزركشة، أو

شمعدانات أو تماثيل أو الزخارف الأخرى لمثل هذه الأبهة، بل بوسعه أن يعيش حياة قريبة جداً من حياة المواطن العادي دون أن يفقد أي كرامة أو بأس في إدارة مسؤوليات الحاكم تجاه الصالح العام.

وقد أنعمَت عليَّ بأخٍ[1] كان قادراً بشخصيته القويمة على أن يحثني على الاهتمام بنفسي، وكان يغدق عليَّ في الوقت نفسه احترامَه وعطفه. وأحمدها على أن أبنائي لم يكونوا محدودي الذكاء أو مشوهي الجسم[2]. وأحمدها على أنني لم أتمادَ في طلب البلاغة والشعر وغير ذلك من الأغراض التي كنتُ حرِياً أن

(1) يقصد أخاه بالتبني لوكيوس كيونيوس الذي عرف فيما بعد بلوكيوس فيروس، تبناه أنطونينوس بيوس مع ماركوس، وحمل لقب الإمبراطور المشارك، وتزوج من ابنة ماركوس الكبرى لوكيلا عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. مات فجأة بسكتة دماغية عام ١٦٩ وعمره تسعة وثلاثون عاماً. تصوره التواريخ القديمة، ربما بشيء من المبالغة، كشخصية ضعيفة شديدة الانغماس في الملذات وعاجزة عن قيادة الجيش في الحرب البارثية. غير أن ماركوس هنا يصوره على نحو مختلف يعيد إليه شيئاً من الإنصاف، ويعكس الكثير من كرم ماركوس ونقاء سريرته.

(2) تزوج ماركوس من فاوستينا عام ١٤٥، وأنجب أربعة عشر طفلاً مات منهم سبعة في سن الرضاع: ستة منهم ذكور، وابنة واحدة. وعندما مات ماركوس عام ١٨٠ خلفه ابنُه الوحيد الباقي كومودوس، وكان في الثامنة عشرة، على العرش، فكانت فترة حكمه كارثية انتهت باغتياله عام ١٩٢، حتى قيل بحق إن الضرر الوحيد الذي ألحقه ماركوس ببلاده هو أن أنجب ابناً!

أُستغـرَقَ فيها لو آنستُ أنها طريقي الصـحيح. وأنني لم أُبطئْ في ترقيـة معلميَّ إلـى المناصب العامـة التي كانوا يَصـبون إليـها ولم أُسَـوِّفْ ذلك بحـجة أنهم صـغـار السن مع وعـودٍ بالتـرقيـة في المستقبل. وأنني عرفتُ أبولونيوس وروستيكوس وماكسيموس.

وأنني اكتـسبتُ صورةً واضحـة وثابتة عمـا تعنيه الحياة وفـقاً للطبيعة، بحيث إنه من ناحية الآلهة وعطاياها وعونها وإلهامها فلا شيء يعوقني الآن عن حيـاة الطبيعة، وإذا كنتُ مـقصراً عن ذلك بعض الشيء فالخطأ خطئي والـتقصيـر تقصيري في الالتـفات إلى إشارات الآلهة ولا أقول تعليماتها[1].

وأحمد الآلهة أن جـسدي قد صَمَدَ حتى الآن في حـياة مثل حياتي. وأنني لم أَمَس قَط بنديكتا أو ثيودوتوس[2]، وأنني شُفيتُ بعد ذلك من سـعار الشبَق بعـد أن وقعتُ فيه. وأنني رغم كـثرة خلافاتي مع روستيكوس فلم أفعل في ذلك قَط ما أندم عليه. وأن والدتي رغم وفاتها المبكرة فقد عاشت سنيها الأخيرة معي.

وأنني ما رغبتُ في مساعدة أحدٍ في عَوَزٍ أو أي حاجة أخرى فقيل لي إن الموارد لا تسمح؛ وأنني شـخصياً لم أقع قَط في عَوَزٍ

(1) تشير هذه العبارة بقوة، بالإضافـة إلى ذِكر العلاج من خلال الأحلام في نهاية الشذرة، إلى أن خبرة ماركوس الروحية وعقيدته الدينية كانت تتجاوز التقوى المعتادة والتدين **التقليدي**.

(2) ربما كانا من **عبيد أنطونينوس** بالقـصر، وقد كان الاتصال الجنسي بمثل هذين، سواء المثلي **أو** المغاير، غير مستنكَر، بل كان معهوداً ومتوقعاً.

احتياج إلى عون مالي من أحد. وأن زوجتي[1]، مثلما هي، جد مطيعة ومحبة وتلقائية. وأنني وجدتُ لأبنائي كثيراً من المعلمين الممتازين.

وأن العلاجات كانت تُوصَفُ لي في الأحلام، وبخاصة كيف أتجنب بصاق الدم ونوبات الدوار. وأنني حين شُغفْتُ بالفلسفة لم أقع في يد سفسطائي، ولم أُضِعْ وقتي في تحليل الأدب أو المنطق، أو أشغل نفسي ببحث الظواهر الكونية؛ فهذه الأشياء تحتاج إلى "عون الآلهة ومحاباة الحظ".

(1) هي أنيا جاليريا فاوستينا، ابنة أنطونينوس بيوس، تزوجها ماركوس عام ١٤٥ وأنجب منها أربعة عشر طفلاً. صحبت ماركوس إلى الجبهة في بعض حملاته، فلُقِّبَت بـ"أم المعسكر". توفيت فجأة عام ١٧٥ عند هالالا في كبادوكيا وعمرها إذاك سبعة وأربعون عاماً. يكتنف اسمَها كثيرٌ من الشبهات وتحوم شائعات حول علاقة لها بأفيديوس كاسيوس، والي سوريا، الذي قاد تمرداً خطيراً عام ١٧٥ أُخْمِد سريعاً. وعبارات ماركوس هنا، وهي متزامنة مع سريان الشائعات، لا تعكس إلا حباً وعطفاً وثقة.

2

الكتاب الثاني

كُتِبَ بين القادي[1] Quadi على نهر جران[2].

٢-١ قُل لنفسكَ حين تقوم في الصباح: اليومَ سألقَى من الناس مَن هو متطفلٌ ومَن هو جاحدٌ ومن هو عاتٍ عنيف؛ وسأقابل الغادرَ والحسودَ ومَن يُؤْثِرُ نفسَه على الناس. لقد ابتُلِيَ كلٌّ منهم بذلك مِن جَرَّاء جهلِه بما هو خيرٌ وما هو شر[3]؛ أما أنا وقد بَصُرْتُ بطبيعةِ الخير وعرفتُ أنه جميلٌ، وبطبيعةِ الشر وعرفتُه قبيحاً، وأدركتُ أن مرتكبَ الرذائلِ لا يختلفُ عني أدنى اختلافٍ في طبيعتِه ذاتِها_

(1) هم قبيلة جرمانية شمال الدانوب في سلوفانيا الحالية، كان ماركوس يشن الحملة عليها في سبعينيات القرن الثاني الميلادي.

(2) رافد شمالي للدانوب، يصب فيه عند إزتيرجوم الحديثة بالمجر.

(3) أخذ الرواقيون بفكرة سقراط القائلة بأن الفضيلة علم (أي علم بالخير الحقيقي) والرذيلة جهل؛ ومن ثم فمَن يعلم الخيرَ فإنه لا بد فاعلُه، وليس ثمة من يفعل الشر عن قصدٍ أي عن علم.

فنحن لا تَجْمَعُنا قَرابةُ الدم والعِرق فَحَسْب بل قرابةُ الانتساب إلى نفس العقل ونفس القَبَس الإلهي _أما أنا وقد بَصُرْتُ بهذه القرابةِ فلن يَسُوءَني أيٌّ واحدٍ من هؤلاء ولن يعديني بإثمه. وليس لي أن أنقِمَ منه قرابتي أو أسخَطَ عليه. فقد خُلقنا للتعاون، شأننا شأن القدمين واليدين والجَفنين وصَفَّي الأسنان. التشاحنُ ضدٌّ للطبيعة، وضدُّها، مِن ثَمَّ، العداوةُ والبغضاء(1).

(1) في هذه الفقرة ينوه ماركوس بالمبدأ الرواقي القائل بقرابة البشر جميعاً، قرابة الدم وقرابة العقل أيضاً، ذلك العقل الذي يعده ماركوس "الألوهة التي بداخلنا"، والمبدأ الحاكم والموجِّه في الكائن الإنساني؛ ويراه نظيراً داخلياً للعقل الكوني، أو محايثة داخلية لعقل "الكل" وللمبدأ الموجِّه للعالم. ويستمد ماركوس من هذا المبدأ الثيولوجي أو الميتافيزيقي أمراً أخلاقياً يُلزِم الإنسانَ الفردَ برعاية مصلحة إخوته في الإنسانية، والرفق بهم، واحتمال إساءاتهم.

٢-٢ أياً ما كنتُ فإنني مَجبـولٌ من قطعة لحمٍ ونَفَسٍ وعقلٍ مُوَجِّه. أَلْقِ بكُتُبِكَ وأَقْلِعْ عن تعطُّشِكَ إليهـا.. لا تُشَتِّتْ نفسَك.. لاتَ حين[1].. بل انظرْ إلـى الأمـر نظـرةَ المُوَدِّعِ الراحل: احتـقِر الجَسَـدَ.. إنه دَمٌ وعظامٌ.. مجردُ نسـيجٍ وشبكةٍ من الأعصاب والأوردة والشرايين. وتَأَمَّل النَّفَسَ أيضاً ما هو.. إنه هواء. ولَيْـتَه ثابتٌ دائم؛ إنمـا هو يُزْفَر كلَّ حينٍ ويُشْـهَقُ مرةً ثانية. لم يَبْقَ الآن إلا الشطرُ الثالثُ: العقلُ المُوَجِّه. لقد بَلَغْتَ من الكِبَر عتياً فلا تَدَعْ عقلَكَ المُوَجِّهَ يُستعبَد مرةً ثانيةـ لا تُحَرِّكْكَ نوازعُ الجسد مثلَ الدُّمَى تُحَـرِّكُها الخيوط[2]. لا تبرمْ بحاضِرِك أو تُوجِسْ من المستقبل.

٢-٣ أعمالُ الآلهةِ مُـفْعَمَةٌ بالعناية؛ وأعمالُ القَـدَرِ ليست منفصلةً عن الطبيعة أو عن النسـيج الذي تَنْسجُه العناية. من ذلك تَصدُرُ الأشيـاءُ جميعـاً، إلى جانبِ مصدرين آخـرين هما الضرورةُ ومصلحـةُ "الكل" الذي أنتَ جزءٌ منه. على أن كلَّ جزءٍ من الطبيعةِ يستفيدُ مما تُحْدِثُه طبيعةُ "الكل" ومن كل ما يحفظُ هذه الطبـيعةَ. ونظام العالم تحفظه التـغيراتُ

(1) نصيحة ذاتيـة ستتكرر كثيراً في "التأملات"، ربما تـعكس ميلَه الشديد للقراءة من ناحية، ويقـينه باقتراب الأجل وفوات الأوان من ناحية أخـرى، واعتقاده بفشله في أن يصبح فيلسوفا.

(2) تشبـيه بليغ سيـتكرر كثيراً فـي "التأملات": فالرغـبات الأنانية والانفـعالات والشهوات تسلبُ المرءَ إرادتَه الفاعلةَ وتحركه سلبياً كالخيوط التي تحرك عرائس الماريونيت.

التي تَعْتَوِر العناصرَ مثلما تحفظه التغيراتُ التي تعتور الأشياءَ المكوَّنةَ من هذه العناصر[1]. بحسبكَ هذه المبادئ ولتكنْ لديك بمثابة مذهبٍ ثابت؛ وأقلِعْ عن تعطشكَ للكُتُب حتى لا تموتَ محنقاً، بل تلقى الموتَ بابتهاجٍ وتسليمٍ وحمدٍ للآلهة من القلب.

٢-٤ كم ذا تُسَوِّفُ هذا وتُرجِئُه، وكم ذا تمنحُك الآلهةُ فرصةً فتضيعها. ألمْ يَأْنِ لكَ أن تفهمَ هذا العالمَ الذي أنتَ جزءٌ منه وتفهمَ مدبِّرَ هذا العالم الذي أنتَ فيضٌ منه؟ ألا تدركُ أن هناك حداً لعمركَ، فإذا لم تستغلَّه لتبديد غيومك فسوف يذهبُ العمرُ وسوف تذهبُ ولن تعودَ الفرصةُ مرةً أخرى؟

٢-٥ في كل لحظةٍ من حياتك أوْلِ كلَّ انتباهك، كرومانيٍّ وكإنسان، إلى أن تؤدي المهمةَ التي بين يديكَ بتحليلٍ دقيق، ورزانةٍ غير متكلَّفة، وتعاطفٍ إنساني، وعدالةٍ ونزاهة، وأن تُفرِغ عقلَك

(1) يعد التغير الدائب في العناصر مبدأ محورياً في الفيزيقا الرواقية؛ فالعناصر، التي باتحادها يتكون العالم الفيزيائي وموضوعاتُه، هي في تبادل مستمر فيما بينها وانفصال وإعادة اندماج بحيث تحقق استمرار العالم وتَجدده، وبحيث يظل العالم صبياً عَفياً دائماً أبداً. العالم هو التغير، وطبيعة الكل "تحب" التغير و "تبهج" بالتغير، وعملها في ذلك أشبه بعمل الحِرفيِّ الحاذق: فالتغير هو طريقتها في العمل وأسلوبها في الأداء ووسيلتها لحفظ نظام العالم وضمان بقائه؛ وفي التغير مصلحة الكل وبالتالي مصلحة الأجزاء. ويستخدم ماركوس هذا المبدأ في "التأملات" استخدامات شتى: كترياقٍ ضد الخوف من الموت، وعزاءٍ في البلايا والخطوب، وتذكير بقِصَر الحياة. إلخ.

من كل أفكاره الأخـرى. ولسوف تمنحُ عـقلَكَ انفراجـاً إذا أديتَ كلَّ فـعلٍ كمـا لو كان آخـرَ شيءٍ تؤديه في حيـاتك: نافضاً عنكَ روحَ الإهمال وانعدام الهدف، وكلَّ نفورٍ عنيف من أوامرِ العقل، وكلَّ رياءٍ وكلَّ أَثَرَة، وكل تبرُّمٍ من نصيبكَ المقـسوم. أرأيتَ كم هي قليلـةٌ تلك الأشيـاءُ التي تلزم المرء لكي يعيشَ حياةً هادئةً تقية؟ الآلهةُ نفسُها لا تطلبُ من المرء أكثرَ من أن يراعي هذه الأشياء.

٢-٦ تَمـادَيْ في إيذاء ذاتك أيتهـا النفس[1] .. إنْ هي إلا لحظة ولن يعـودَ لديك مُـتَّسعٌ لاعـتـبارِ ذاتك. الحـيـاةُ لحظة، ولحظتُك الخاصةُ تُوشك على النهاية. والسعادة تتعلق على تقدير الذات لذاتهـا، ومازلتِ تحرمـينها من ذلك وتُعَلِّقين سعادتَك على الآخرين: ذواتِهم وآرائهم وتقديراتهم[2].

٢-٧ لماذا تُشَـتِّتُكَ الماجـرياتُ الخارجـيةُ كل هذا التـشتـيت؟ أَعط نفسَكَ قـسطاً من الفراغ لكي تتعلمَ درسـاً جديداً مفـيداً، وكُفَّ عن التخـبطِ هنا وهناك. وعليكَ بعـد ذلك أن تحذَرَ ضرباً آخر من التخبط. إنه لَضَربٌ آخر من الكسل والمَوات مـا يأتيـه أولئك الذين يكدحـون بلا هدفٍ ويضـربون في

(1) يذهب ماركوس إلى أن الأذى الحـقيقي الوحيـد الذي يمكن أن يصيب المرء هو ما يُلحِقُه المرءُ بذاته؛ (ومن ثم فإن بمقدوره تماماً تَجَنُّب هذا الأذى).

(2) ضرورة الاستقلال عن الآخرين وآرائهم ـ ثيمةٌ ستتكرر كثيراً في "التأملات"، وبخاصة في الكتاب الثالث.

الأرض بلا وجـهة، لا وجـهـة في الفـعل، ولا وجهـة، بالأحرى، في القول والتفكير.

٢ ٨ ما كـان يوماً جَهْلُ المرءِ بمـا يدور في رءوس الآخرين سببـاً للتعاسة والشقاء. إنما الشقيُّ مَن لا ينتبهُ إلى خَطَراتِ عقلِه هو، ولا يهتدي، مِن ثَم، بهَدْيِهِ وإرشادِه.

٢ ٩ ضَعْ نُصبَ عـينيكَ دائمـاً هذه الأشـيـاء: مـا هي طبيـعـةُ "الكل"؟ ما هي طبيـعتي الخاصة؟ ما علاقةُ هذه الـطبيعةِ بتلـك؟ أي صنفٍ من الجـزء لأي صنفٍ مـن الكل؟ وأن ليس بإمكانِ أحدٍ أن يَـحُول بينَكَ وبين أن تقولَ مـا تقولُ وتعملَ ما تعملُ وفقاً لتلك الطبيعةِ التي أنت جزءٌ منها.

٢ ١٠ في مقارنـته بين مختلفِ الذنوب، تلك المقـارنة التي تتفقُ فيها الفلسفةُ مع رأيِ الرجلِ العادي، يقول ثيوفراسطس(1) Theophrastus إن ارتكابَ الخطيئة بدافعِ الرغـبةِ أشدُّ من ارتكابها بدافع الغضـب. إذ يبدو أن مَن أثارَهُ الغضبُ إنما يحيد به عن العقل شـيءٌ من الألمِ والتشنجِ غيرِ الإرادي، أما المدفوع إلى الخطيئة بالرغبة فـيبدو إذ يستسلمُ للذة أكثرَ تَهتُّكاً في إثمه وأقلَّ رجولة. كان ثيـوفراسطس إذن مُصيباً وفيلسوفاً بحق حين قال إن خطيـئةَ الرغبةِ أجدرُ باللوم من خطيئةِ الغضب. إذ إن الأولَ أشـبهُ بشخصٍ أُوذيَ فاضطَرَّه

(1) ثيوفراسطس هو تلميذ أرسطو وخليفته على مدرسته المشائية. ورغم بقاء الكثير من كتاباته فإن الكتابات التي يشير إليها ماركوس هنا مفقودة.

الألمُ إلى الغـضبِ أمـا الثانـي فإنه هو هو مـصـدرُ نزوتهِ ومنشأُ اندفـاعتهِ إلى الإثم حين تحدوه الشـهوةُ إلى ارتكابِ ما ارتكب[1].

٢-١١ رُبما تُغادرُ الحياةَ في أية لحظة. فَلْتَضَعْ هذا الاحتمالَ نُصْبَ عـينيك في كل مـا تفعـلُ أو تقولُ أو تفكـر به. غيـر أن مغـادرةَ دنيا البـشر ليـست بالأمـر المخيفِ إذا كان الآلـهةُ موجودين؛ فما كان الآلهةُ لِيضيروكَ في شيء. أما إذا كان الآلهةُ غيرَ موجـودين، أو كانوا لا يُلقُونَ بالاً لِبَنِي البشر، فمـا قيمةُ الحـياةِ لي في عالمٍ خـلْوٍ من الآلهة أو خلْوٍ من العناية؟ غيـر أن الآلهةَ موجودون حقـاً، ويُلقون بالاً لبني الإنسان. ولقد جـعلوا بمقدور الإنسان أن يجتـنبَ السقوطَ في الشرور الحقيقية. فإذا كان هناك أيُّ شيءٍ ضار في بقيةِ الخبرة فلا بد أنهم قَدَّمـوا ما يَلزَم لذلك أيضاً لكي يجعلوا بقدرة أيِّ إنسانٍ أن يجتنبَ السقوطَ فيه. ومن حيث إنه لا يمكن لأيِّ شيءٍ أن يجـعلَ الإنسـانَ أسـوأَ فكيف يمكنُه أن يجعلَ حياتَه أسوأ؟

(1) هنا يختلف ماركـوس مع المبدأ الأخلاقي الرواقي القائل بتساوي الآثام جـميعاً في الدرجة. والحق أن ماركوس لم يكن متشدداً ولا جافياً في رواقيته، ولقد تخلى عن بعض عقـائد الرواق التي لا توافق نظرته الإنسانية المعـتدلة اللينة: فلم يُرِد مـثلاً أن توضع جـميع الذنوب في مـرتبة واحدة، بـل كان يرى أن ارتكابَ الخطيئة ابتغاءَ اللذة أشدُّ من ارتكابها لتجنب ألمٍ أو لدفع مَضَرَّة.

وما كـان لطبيـعةِ العـالمِ أن تغفلَ عن ذلـك، لا من خلال الجـهل ولا من خـلال العـجـز عن تفـادي هذه الأشـيـاء وتصحيحـها. ولا هو من الممكن أن تكونَ قد ارتكَبَتْ خطأً بهذه الجسامة، لا من خلالِ الضعفِ ولا من خلال الرعونة، بحيث يحلُّ الخيـرُ والشر بالأخيار والأشرار من غيـر تمييز. صحـيحٌ أن الموتَ والحياةَ، النباهةَ والخـمول، الألم واللذة، الغنى والفـقر، صـحيحٌ أن كلَّ هذه الأشـياء تقعُ بالأخـيار والأشرار على السـواء، غير أنهـا ليست في ذاتهـا حسنةً أو سيئة، وبالتالي ليست في ذاتها خيراً ولا شراً[1].

٢ ١٢ سرعان ما تزول الأشياءُ جمـيعاً، في العالم تزول الأجسادُ نفسُها، وفي الزمن تزول ذكراها. مـا هي الأشياءُ المُحَسَّة ـ وبخاصة تلـك التي تُغْرِي باللذة أو تَرُوعُ بالألم أو تَزدهِي ببريق الغرور ـ كم هي حقيرة تافهة زائـلة وميتة؛ عِبَرٌ لِمَن يَعـتَبِر. ومَـن يكونون أولئك الذين تتوقف سـمعـتُنا على أحكامِهم وأصواتهم؟

وما الموت؟ إن مَن يتأمل الموتَ في ذاته، ويُعمِل فيه التحليلَ العقلي لِـيجَرِّدَه مما يرتبطُ به من دلالات سـوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفةً طبيـعية. ومن يرتاع لوظيفةٍ من

(1) يطلق ماركوس، والرواقـيون بعامة، على هذه الأشـياء الخارجية التي يعـتبرها عامة الناس خيراتٍ وشروراً اسم "الأشيـاء الأسواء" أو السواسية أو اللافارقة indifferents ويعنون بذلك أنها لا يمكنها بذاتها أن تؤثِّر في العقل الموجِّه أو الحالة الداخلية للمرء، ومن ثم فإنها ليست في ذاتها خيراً ولا شراً.

وظائف الطبيعة فهو طفلٌ غَرير. ليس الموتُ وظيفةً طبيعية فحسب بل إنه أيضاً لِخير الطبيعةِ وصالحِها.

تأملْ أيضاً كيف يدنو المرءُ من الألوهة، بأي شطرٍ من وجوده؟ ومتى يدنو هذا الشطرُ وأيَّ مَيْلٍ يميل؟

٢-١٣ ما أشقى ذلك الإنسانَ الذي يظل دوماً لائباً مُحَوِّماً حول كل شيء، كما يقول بنداروس[1]، "مُنَقِّباً في أحشاءِ الأرض"، متحرقاً إلى استشفافِ ما يدور ببالِ جيرانه. وما يدري أن بحسبه أن ينصرفَ إلى الألوهةِ التي بداخله ويكونَ لها خادماً حقيقياً[2] تلك الخدمة هي أن يظلَّ مُبَرَّءاً من الانفعال والطيش والسخط على ما قَسَمَته له الآلهة. فما يأتي من الآلهةِ يستحقُ الإجلالَ من أجل عظمتهم، وما يأتي من البشر ينبغي أن نعزَّه أيضاً من أجل قرابتهم لنا، بل أحياناً ما يثير شفقتَنا، بشكلٍ ما، بسبب جهلِهم بالخير والشر. وهو ضربٌ من العجز لا يقل بحالٍ عن العجزِ الذي يحرمُنا من القدرةِ على تمييزِ الأبيضِ من الأسود[3].

(1) رائد الشعر الغنائي في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد. راجع أحمد عتمان، الأدب الإغريقي تراثًا إنسانيًا وعالميًا (ط ٢٠٠١) ص ١٨٧-٢٢٠.

(2) يقول نيتشه في "تأملات لغير زمانها": ". فليس في الطبيعة مخلوق أولى بالرثاء أو أدعى إلى النفور والاشمئزاز من إنسان تهرب من روحه الحارس وراح يطوف بعينيه فيما حوله، ويتلفت مرة ذات اليمين وأخرى ذات اليسار أو الخلف.."

(٣) توكيدٌ بليغ على المبدأ السقراطي-الرواقي القائل بأن الفضيلة علمٌ والرذيلة جهل، والذي يترتب عليه أن العمَى الأخلاقي حالةٌ غير إرادية تثير الشفقة أكثر مما تثير السخط.

٢ ـ ١٤ حتى لو قُدِّرَ لك أن تعيشَ ثلاثةَ آلاف عام، أو عشرةَ أضعاف ذلك، فاذكر دائماً أنْ لا أحدَ يفقد أيَّ حياةٍ غير تلك التي يحياها، أو يحيا أيَّ حياة غير تلك التي يفقدها. ينتج من ذلك أن أطولَ حياةٍ وأقصرَها سيان؛ فاللحظة الحاضرة واحدة في الجميع، ومن ثم فإن ما ينقضي متساوٍ أيضاً. يتبين إذن أن الفقدانَ إنما هو فقدانُ لحظةٍ لا أكثر. ذلك أن المرء لا يمكن أن يَفقِد الماضي ولا المستقبلَ، فكيف يمكن أن يُسْلَبَ ما ليس يملك؟![1].

تَذَكَّرْ إذن هذين الشيئين: (١) أن الأشياء جميعاً هي ما هي منذ الأزل، تبدأ وتعود دواليك، وسيان أن يرى المرءُ نفس المشهد لمائة عام أو مائتين أو ما لا نهاية من الأعوام[2]. (٢) أن ما يُسْلَبُ مِن المُعَمَّر هو ما يُسلَب من أقصرِ الناسِ عمراً ـ فليس غير اللحظة الحاضرة ما يمكن أن يُسْلَبَ من الإنسان. فإذا صَحَّ أن هذه اللحظة هي كل ما يملكه فمن غير الممكن أن يفقد ما ليس يملك.

---

(1) أن الموت فقدانٌ للحظة الحاضرة فحسب: مواساة وحجة ضد الخوف من الموت، ستتكرر في ٣-١٠ و ١٢-٢٦

(2) فكرة التماثل الأبدي للأشياء ـ فكرة محورية في "التأملات" تأخذ شكلين مختلفين اختلافاً بعيداً: الأول مستمد من المبدأ الرواقي التقليدي عن العَود الأبدي (العالم يمر بدوراتٍ متماثلة في تعاقبٍ لانهائي)، والثاني هو مبدأ "لا جديد تحت الشمس"، وبموجبه يستوي أن تعمِّرَ في الحياة الدنيا أو لا تُعَمَّرَ: فالمشاهد واحدة والحكايات مكرورة.

٢-١٥ ثمة اعتراضاتٌ واضحةٌ على مقولةِ مونيموس[1] الكَلبي "كلُّ شيءٍ هو كما يريدُه الفكرُ أن يكون". ولكنَّ قيمةَ هذه الحكمةِ واضحةٌ أيضاً إذا أخذنا لُبابَها، بقدرِ ما فيه من حَق.

٢-١٦ إنما تؤذِي النفسُ نفسَها، أولَ ما تؤذي، عندما تصبح _ما أمكنها ذلك _كياناً منفصلاً، أشبهَ بورمٍ على جسدِ العالم. فالسخطُ على أي شيء تجري به الأقدارُ هو تمردٌ انفصالي عن الطبيعة التي تضم معاً الطبائعَ الجزئيةَ لجميعِ الأشياءِ الأخرى. وتؤذي النفسُ نفسَها ثانياً حين تنأى بجانبِها عن كائنٍ إنساني آخر أو حين يَلِجُّ بها الخصامُ فتَعمِدُ إلى إيذائه. تلك هي حالُ الأنفس التي استبَدَّ بها الغضب. وتؤذي النفسُ نفسَها، ثالثاً، حين تستسلم للذة أو للألم. وتؤذي نفسَها رابعاً حين تتكلفُ وتُرائي، وتفعلُ أو تقول غيرَ الصدق وغير الحق. وخامساً عندما تفقدُ الهدفَ في

(1) فيلسوف كلبي في القرن الرابع قبل الميلاد. و"الاعتراض الواضح" على مقولته هو أنها تفنِّد ذاتَها، من حيث كونُها "ما يريده فكره" ليس إلا! غير أنها، بعد كل شيء، فكرة خصبة ألهمت الكثيرين من إبكتيتوس إلى ماركوس أوريليوس، ومن المتنبي إلى شكسبير، ومن سبينوزا إلى مارك توين. ومفادُها أن ما يؤثر في الناس ليس الأحداث "الخارجية" بحد ذاتها بل فكرتهم "الداخلية" عنها وتقييمهم العقلي لها وحكمهم الذهني عليها، وكلها أمور بوُسع الإنسان التحكم فيها وتعديلها أو إزالتها. وتشكل هذه الفكرةُ البسيطةُ الأساسَ النظري للعلاج المعرفي للاضطرابات النفسية، ذلك الصنف العلاجي الذي ساد على غيره في الزمن الحالي وأثبتَ فعاليته ونجاعتَه.

أي فعل من أفعالها أو مَيلٍ من ميـولها، فتَحيدُ عن القَصدِ وتخبِطُ خَبْطَ عَـشْواء؛ فالفعل مهما صَـغُرَ ينبغي أن يؤدِّي لغـايةٍ ويرمِي إلى هدف. وغـايةُ الكائناتِ العـاقلةِ هي أن تتبعَ العقلَ وتلتزمَ قانونَ أقدمِ دولةٍ وحكومة _العالم.

١٧-٢ المرءُ في الحياة زمانُه لحظةٌ، ووجودُه في انسياب، وإدراكُه في ضباب، وبدنُه كلُّه فـي اندثار، وعقلُه دوامة، ومصيـرُه غير معروف، ومَجْدُه غير متَـيَقَّن. وباختصار، كلُّ ما في الجسد ينسابُ بعيداً وكل ما في العـقل أحلامٌ وأوهام. الحياةُ صراعٌ ومُقـامُ غُرْبَة، والمجدُ الوحـيدُ الباقي هو الخُـمول. أيُّ شيء إذن بِوُسْـعِهِ أن يَخْـفِرَنا فـي طريقِنا؟ شيءٌ واحدٌ، وواحـدٌ فقط: الفلسـفة. وما الفلسفة سـوى أن تَحْفَظَ ألوهتَكَ التي بداخلك سـالمةً من العـنف والأذى، وأن ترتفعَ فـوقَ الألم واللذة، ولا تفعل شيئاً بلا هدف أو بلا صدق أو بلا أصالة، وأن تتركَ ما لا يَعْنيك مما يفعله الآخرون أو لا يفعلونه. وأن تَقْبَلَ كلَّ مـا يجري عليك ويُقَـدَّرُ لك بوصفه آتـياً من نفس المصـدر الـذي منه أتيتَ. وأخـيـراً أن تنتظرَ المـوتَ بنفسٍ مُنشرِحَـةٍ على أنه مجردُ انحلالٍ للـعناصر المكوِّنة لكل شيء حي. فـإذا لم يكن بأسٌ في التـحـرك الدائم للعناصـر من عنصرٍ إلى آخـر ففـيمَ التوجُّسُ من تغـير العناصرِ جـميـعاً وانحلالها؟ ذلك شيءٌ موافِقٌ للطبيعة، ولا ضيرَ البتة في أيِّ شيءٍ موافقٍ للطبيعة.

3

الكتاب الثالث

كُتِبَ في كارنَنْتَم[1]

٣-١ ينبغي أن نضعَ في حِسبانِنا، ليس فقط أن الحياةَ تنقضي يوماً بعد يوم وأن رصيدَنا الباقي يتناقص، بل أيضاً أننا إذا امتَدَّ بنا الأجلُ فلا ضامنَ لنا أن عقولَنا ستظل محتفظةً بالقدرةِ على فهمِ العالمِ وتأملِه، تلك القدرة التي تشكل خبرتَنا بالأمور الإلهية والإنسانية. فإذا أدْرَكَنا العَتَهُ فلن يتوقفَ فينا التنفسُ ولا الغذاءُ ولا الخيالُ ولا الرغبة، بل قبل أن تذهبَ هذه سيذهب استخدامُ المرءِ لنفسه استخداماً صحيحاً، تقديرُه الدقيق لما يتوجب فعلُه، قدرتُه على تحليل الانطباعات، وعلى معرفةِ هل عليه أن يَرحَلَ مختاراً عن الحياة[2] أو لا، هذه وكل الأمور الأخرى التي تتطلب

---

(1) هي هينبرج الحديثة بالنمسا، وكانت مركز قيادة ماركوس في حملاته الشمالية في أوائل السبعينيات من القرن الثاني الميلادي.

(2) بالانتحار، وكان مباحاً في الأخلاق الرواقية في ظروفٍ معينة. وقال إن =

حساباً حصيفاً. فَلْنُعَجِّلْ إذن، ليس فقط لأن الموتَ يدنو حثيثاً، بل أيضاً لأن قدرتَنا الفكريةَ على معرفةِ الطبيعةِ الحقة للأشياء وتسيير أفعالِنا وفقاً لهذه المعرفة سيعروها الزوالُ قبلنا(1).

= مؤسسَي الرواقية زينون الكتيوني وكليانثيس قد اختتما حياتيهما بالانتحار في ٢٦٣ ق.م و ٢٣٢ ق.م على الترتيب.

(1) يقول المعري في وصف هذه الحال:

بَقائيَ في الدنيا عليَّ رَزِيَّةٌ وهل أنا إلا غابرٌ مثْلُ ذاهبِ؟

أي أن امتداد الأجل مصيبةٌ ورُزء، وما الشيخ المعمَّرُ إلا حيٌّ كميت. ويقول آخر:

مَنْ شاخَ في الناسِ ماتَ حَيّاً يَمْشي على الأرضِ مَشْيَ هالكْ

وفي الكتاب العزيز: "ومَن نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلْق" (يس-68)؛ أي نُعدْه إلى حال كحال الطفولة في الضعف والعجز؛ وفيه "ومنْكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لِكَي لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً" (الحج-5)؛ وأرذل العمر آخره في حال الكِبَر والعجز والخَرَف.

٣-٢ شيءٌ آخرُ عليكَ أن تَلْحَظَه: أنه حتى النواتجُ العرَضيَّةُ لما يتم وفقاً للطبيعة لا يخلو من فتنةٍ وجاذبية. حين يُخبَزُ رغيفٌ، على سبيل المثال، فلا بد من أن تحدثَ تشققاتٌ هنا وهناك ضد ما يَقصدُه الخبازُ. على أن هذه التشققات غيرِ المتعمَّدة تجذبُ العينَ بطريقةٍ ما وتثيرُ الشهيةَ. التينُ أيضاً ينفلقُ عند تمامِ نضجه. وفي حالة الزيتون الذي يُنْضَجُ على شجرته فإن قُربَ التحللِ نفسه يمنح ثمرتَه رَوْنقاً معيناً. كذلك سنابلُ القمحِ المنحنيةُ إلى الأرض، وجفنُ الأسد المُغَضَّنُ، والزَّبَدُ المتدفقُ من فم الخنزير، وغيُر ذلك كثير؛ كلُّ أولئك أشياءُ تبدو بعيدةً عن الجَمال حين تؤخذُ على حِدَة، ولكن تَرَتُّبَها على عملياتِ الطبيعةِ يُضْفِي عليها جمالاً وجاذبيةً. ومن ثم فأي إنسانٍ لديه شعورٌ واستبصارٌ عميقٌ بتشغيلات "الكل" سوف يجد لذةً ما في كل جانبٍ منها تقريباً، بما في ذلك النواتج العرَضية. مثلُ هذا الإنسانِ سوف تبهجُه زمجرةُ الوحوش بهجةً لا تَقِلُّ عن بهجته بكل تمثيلاتِ المصورين والمثَّالين؛ سوف يرى لوناً من التَّفَتُّحِ والوسامةِ في امرأةٍ أو رجلٍ عجوز؛ ومثلُ هذا الإنسانِ سيكونُ قادراً على أن ينظر بتَوَقُّرٍ إلى الفتنةِ الآسرَة في غلمانه أنفسهم. وكثيرٌ من مثلِ تلك المدركاتِ لن تَرُوقَ كلَّ إنسانٍ بل ذلك الذي أصبح على ألفةٍ حقيقيةٍ مع الطبيعة ومع أعمالها.

٣-٣ شَفَى أبقراطُ[1] ما لا يُحصَى مـن الأمراض ثم مَرِضَ هو نفسُه ومات[2]. تنبأ المنجمون الكلـدانيون بموت الكثيرِ من الناس ثم لم يلبثْ كلٌّ منهم أن وافـتْه مَنِيَّـتُه. الإسكندر، وبومبي، ويوليوس قيصر، أفنَوا مدناً بكاملها يوماً بعد يوم وذبحوا عـشراتِ الآلاف من الفرسان والرَّجْل في مـيادينِ المعارك، غـير أن أجَلَهـم هم أيضاً قـد حان لكي يفـارقوا الحياة. طويلاً مـا تأمَّلَ هيراقليطس[3] في الحريقِ النهائيِّ للعالم، غـيرَ أنَّ ماءَ الاسـتسقـاءِ مَلأَ بطنَه ومـات مكْسُوَّاً بكمادة من روث البـقر. مات ديمقريطس بالقُـمَّل، وقَتَلَت سقراطَ حشراتٌ من صنفٍ آخر[4].

مـاذا يعني كلُّ هذا؟ لـقـد صعـدتَ الـسـفـينةَ، أقلعتَ، رَسَوتَ. فـارحل الآن. فإذا كـان لحياةٍ أخـرى فلن يخلوَ حتى هذا الشاطئُ من الآلهـة، وإذا لم يكن هناك أيُّ حياةٍ

(1) أبقراط (هيـبوكراتيس)، أبو الطب، طبـيب معاصـر لسقراط عـاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(2) يقول المعري:

داءُ الحياةِ قديـــمٌ لا دَواءَ لــــه لَمْ يَخلُ بُقْراطُ مِنْ سُقْمٍ وأَوْصابِ

(3) هيـراقليطس من الفـلاسفـة الســابقين على سقـراط pre-Socratic، نبه في نهايات القرن السادس وبدايات القرن الخامس قبل الميلاد. تنبأ بأن العالم كله سوف يشمله احـتراق عام. وقد أخذ الرواقيـون عنه فكرة الاحتراق الدوري وتجدد العالم.

(4) يعني مجلس القضاة الذين حكموا على سقراط بالموت عام ٣٩٩ ق.م

أو حِس فلن تعودَ تعاني من الآلام واللذات[1]، ولن تعودَ مستـعبَّداً لوعاء جـسدي هو سيدٌ بالغُ الدنـاءة بقدر ما إن عَبْـدَهُ بالغُ الرِّفعة. فـهذا عقلٌ وروحٌ، وذاك مـجردُ ترابٍ ودم[2].

٣-٤ لا تُضيِّع ما تَبَـقَّى مِن عمرِكَ في الانشغال بالغَـير، ما لم يكن ذلك متصلاً بوجهٍ ما من أَوْجُهِ الخيرِ العام. لماذا تُجَرِّدُ نفسَكَ من الوقت من أجل مهمـةٍ أخرى؟ أعني أن التفكير حول فلان، ماذا عساه يفعل ولماذا وماذا يقول أو يُضمِر أو يخطط وكل هذا الخط من التـفكير، يَضِلُّ بك عن الـتأمل الدقيق في عقلِك المُوَجِّه نفسِه.

لا.. عليكَ أن تجـتنبَ في مـسـار فكرِك كلَّ مـا ليس له هدفٌ أو فائدة، وبخاصة كل مـا هو فضولي خبيث. رُضْ نفـسَكَ علـى ألا تُجِـيلَ بخـاطرِكَ إلا تلـك الأفكارَ التي

(1) تعج "التأملات" بالحـديث عن احتمالات المصيـر الإنساني بعد الموت، والتي يضعها ماركـوس جميعاً في حسبانه (الفناء أو الامحـاء، والتشتت، والبقاء) وإن كان يميل ميلاً إيمانياً إلى الاحتـمال الأخير: أي خلود الروح ودوام الحياة إلى الأبد على نحو آخر.

(2) ثنائية العـقل/الجسد dualism: ثيمـة تتكرر في التأمـلات، مع ازدراء واضح للجسد المادي (جثـة، طينة من التراب والدم.. إلخ)، وإجلال واضح للعقل (الحاكم الموجِّـه، الألوهة الداخلية في الإنسـان). يقول المعـري في معنى قريب:

تَجاوَرَ هذا الجِسْمُ والروحُ بُرْهَةً فَما بَرِحَتْ تَأْذَى بِذاكَ وَتَصْدَأُ

بوُسْعِك إنْ سُئِلْتَ فجـأةً "فِيمَ تفكرُ الآن؟" أن تقولَ لتوِّكَ مـا هي بصـراحة فـتكونَ إجـابتُكَ دليـلاً على أن أفكارَكَ مـستـقيـمةٌ وحَـسَنَةٌ وتَليقُ بكائنٍ اجـتمـاعيٍّ لا يُلقِي بالاً لخيالاتِ اللذة أو المتع الحسيةِ على الإطلاق، ومُبَرَّأ من أي غـيرةٍ أو حـسـد أو شكٍّ أو أيِّ شيءٍ يَخْـجَلُ المرءُ من أن يعترفَ أنه خَطَرَ له.

فإنسانٌ مثل هذا، إذا لم يَعُـد يتنازلُ عن مكانه بين الصفوة الأخيـار، هو أشبَـهُ بكاهنٍ وخادمٍ للآلهـة. إنه يلبي نداءَ الألوهةِ القـابعـةِ داخلَه، والـتي تجـعل المرءَ غـيـرَ ملطخٍ بالملذات وغـيرَ منغَّصٍ بالآلام، لا تناله الإهانةُ ولا يـعرف الخبث.. مقـاتلاً في أنبل حرب.. لا يجرفـه أيُّ انفعال. متشرباً بالعدل حتى النخاع. يتـقبلُ بِملءِ قلبِه كلَّ ما يصيبُه وكلَّ مـا هو مقـسـومٌ له، وقلما يتـطلع إلى الآخرين مـا عساهم يقـولون أو يفعلون أو يفكرون. فبِحَسْـبِهِ ما يُكِبُّ عليه مـن عملٍ لكي يُتِـمَّه، وبحسـبه نصـيبُـه المقدورُ من "الكل" لكي ينصـرف إليه بهـمةٍ لا تنقطع. فـأما عـمله فيتقنه أيَّما إتقان، وأما نصيبه المقدور فهو قانعٌ به. فنصيبُ كلِّ امرئٍ هو رفيقُ رحلتِه وهو حاديه في آنٍ معاً.

وهو يَذكر أيضـاً أن كلَّ كائنٍ عاقلٍ هو قريبُـه، وأن رعايةَ جميعِ البشر هي أمرٌ تقتضيه طبيعةُ الإنسان. وعلى المرء ألا يـأخذ آراءَ الجمـيع بل آراءَ الذين يعـيشون وفـق الطبيـعة

فحسب. أما أولئك الذين لا يعيشون كذلك فإنه ليذكر دائماً أي صنفٍ من البشر هم في بيوتهم وخارجها، في ليلهم ونهارهم، يذكر ماذا يكونون ومع من يعيشون حياتَهم الآثمة. وبالتالي فهو يزدري أيَّ إطراءٍ يأتي من مثلِ هؤلاء؛ إنهم أناسٌ غيرُ راضين حتى عن أنفسِهم[1].

٣-٥ لا تفعلْ شيئاً ضدَّ إرادتك، أو دون اعتبارٍ للصالِح العام، أو دون رَوِيَّة، أو بدوافعَ مُصْطَرِعة. لا تَصُغْ أفكارَك في أسلوبٍ متكلِّفٍ مُبَهْرَج[2]. لا تكنْ ثرثاراً متطفلاً. ثم لتكن الألوهةُ التي داخلك هي حارسة الكائن الذي تكونه: كرجلٍ، مُسِنٍّ، سياسيٍّ، رومانيٍّ، حاكم؛ رجلٍ يقوم بوظيفته مثل جنديٍّ رَهْنِ إشارةِ استدعاءٍ من الحياة، ومستعدٍّ للذهاب[3]، لا يحتاج إلى قَسَمِ ولاءٍ ولا إلى شهادةِ أيِّ إنسان. كن مرحاً أيضاً، وغنياً عن أي عونٍ

(1) رغم اعتقاد ماركوس بقرابة بني الإنسان جميعاً ودعوته إلى الإحسان إليهم وتحملهم، فثم صوتٌ آخر مصاحب لذلك في التأملات يشير إلى "آخرين" غير محددين، يذكرهم دائماً بصيغة الغائب (هم)، ويزدريهم ازدراءً شديداً. والحق أن ماركوس لم يكن معجباً بمعاصريه، فما بالك بالطغام الجاهلين منهم.

(2) يقول بول فرلين في قصيدة "الفن الشعري": "خُذ البلاغةَ واهصرْ عنقَها".

(3) تشبيه الحياة بنوعٍ من الخدمة العسكرية _تشبيه سيرد غير مرة في "التأملات". والاستعداد للرحيل عن الحياة _خاطر سيتكرر كثيراً (في الكتاب الرابع مثلاً: "كزيتونة ناضجة جاهزة للسقوط")

خارجـي وعن أي سكينةٍ تأتيك من الآخرين. واجـبُك أن تقومَ بذاتكَ ولا تقومَ بغيرك(1).

٣ ٦ إذا عثَـرْتَ في حيـاةِ الإنسانِ على أي شيءٍ يفـضل العدالةَ والصدق والاعـتدال والشجـاعة _وباختصـار شيء يفضل اكتفاءَ عقلِكَ بذاته، ذلك الاكتفاءَ الذي يُمَكِّنُكَ من العمل وفقـاً للعقل الصـحيح ومن قـبول مـا ليس لك به يَدٌ من أحكامِ القضاء _أقول إذا أمكنكَ أن ترى شـيئـاً أفضل من هذا فاتجهْ إليه بكل قلبِك وتمتعْ بما وجدتَه أفضل. ولكن إذا لم يتبينْ لك ما يفضُل الإلهَ نفسَه القابعَ في داخلك والذي يحكمُ جمـيعَ اندفاعاتِك، ويُـمَحِّصُ أفكارَك، والذي نَأى بنفسِه، على حد قول سقراط، عن كل إملاءات الحواس، والذي يعنو للآلهة ويَرعَى بني الإنسان _إذا وجدتَ كلَّ ما عداه ضـئيلاً حقـيراً بالقيـاس إليه فلا تأبَهْ لكلٍّ مـا عداه. فأنتَ إذا مِلْتَ مـرةً إلى أي بديلٍ آخر سيكون من العسـير والمعنت أن تسـتعيـدَ الصدارةَ لذلك الخيـر الذي تملكه ولا تملك غيره. ذلك أن مِن الضلال أن يوضعَ أيُّ شيءٍ آخر، من مـثل إطراءِ الناسِ أو السـلطة أو الثـروة أو اللذة، في منافسةٍ مع الخير العـقلي والاجتماعي. قد تروقُك كلُّ هذه الأشيـاءِ لحظةً صغـيرة، ولكنهـا قد تأخـذُ بزمامك فـجأةً

(1) لا يمنع هذا أن يقـول ماركـوس في الكتـاب السابع - ١٢ "قُم بنفسكَ.. أو بغيرك".

وتحمُّلك بعيداً. فعليك، مرةً أخرى، ببساطةٍ وحرية، أن تختارَ الأفضلَ وتتشبثَ به.

- "ولكنَّ الأفضلَ هو ما ينفع".

- إذا كان نافعاً لكَ ككائنٍ عاقلٍ فاتخذْه، ولكن إذا كان نافعاً لك كمجرد حيوانٍ فانبُذْه وتَمَسَّكْ بحكمِ العقلِ دون مكابرة. كُنْ فقط على بَيِّنَةٍ من أنك قد أعمَلْتَ الرأيَ على نحوٍ صحيح.

٣-٧ لا تَعُدَّهُ نافعاً لكَ أيَّ شيءٍ سوف يَضطَرُّكَ يوماً إلى أن تُخلفَ وَعدَك، أو تتخلى عن وقارك، أو تَكْرَه أحداً، أو تَشُكَّ، أو تلعن، أو تُرائي، أو تشتهي أيَّ شيءٍ يتطلبُ التسترَ بالحيطان والحُجُب. فالرجلُ الذي أسلَمَ قِيادَه لعقله وألوهته وقَدَّسَ عُلُوَّها وامتيازَها، لا يجعلُ من حياته مأساةً، ولا يئنُّ، ولا يلجأُ إلى الوَحدةِ ولا إلى الصحبةِ الزائدة. والأهم أنه سوف يعيش دون سعيٍ إلى الموت ولا فرارٍ منه، ولن يبالي على الإطلاق بما إذا كانت مدةُ إقامةِ روحِه في جسده ستطولُ أو تقصر. وحتى إذا تعيَّنَ عليه أن يرحلَ هنا والآن فسوف يرحلُ بسهولةٍ كما لو كان يؤدي أيَّ عملٍ آخر تقتضيه الأمانةُ واللياقة. إن شغلَه الوحيدَ طولَ حياتِه هو ألا يَحِيدَ بفكرِه عن أيِّ شيءٍ ينتمي إلى الكائنِ العاقلِ والاجتماعي.

٣ ٨ في عــقلِ مَن هُذِّبَ وطُهِّـرَ لن تجدَ أثراً لـصديدٍ أو لقــروحٍ متهيجة أو لتـقيُّحٍ مؤلم تحت الجلد. إن أجَلَه لا يوافيه قبل أن تكتملَ حــياتُه كشــأنِ ممثلٍ يغادر المسرحَ قــبل أن ينتهيَ دورُه وتتمَّ المسرحــية. وفضلاً عن ذلك، فلن تجـدَ فيه أيَّ تَذَلُّلٍ عُبُودِي أو تَصَنُّعٍ أو اعتــمادٍ على الآخرين أو انفصالٍ عنهم، أو أي شيء يُستَجوَبُ عليه أو أي شيء يتستر له.

٣ ٩ احترمْ مَلَكَةَ الرأي، فإليهــا يرجعُ كلُّ شيء وعليها يتوقفُ ما إذا كان عقلُكَ المُوَجِّهُ مازال يُضْمِــرُ أيَّ حُكْمٍ غير متفق مع الطبيــعة أو مع جِبِلَّة الكائنِ العــاقل. وهذه الملكةُ هي التي تكفُلُ لك التــفكيــرَ المتــأنِّي، والألفةَ بالآخــرين والطاعــةَ للآلهة.

٣ ١٠ تَمَسَّكْ بهذه الأشياءِ المعدودةِ وأَعرِضْ عَما سواها: اذكرْ أن كلاً مــنا لا يعيشُ إلا اللحظةَ الحــاضرة، ومــا أضألَهــا في الزمن، وأن كلَّ ما سواها من العمر هو إما ماضٍ غيرُ عائدٍ وإما مستقبلٌ غيــرُ مَعلوم. فما أقصرَ مدةَ المرءِ إذن في هذه الحياة، وما أصغرَ البقعةَ التي يقطنُها على الأرض. وقصيرٌ أيضاً مجدُه بعدَ وفاتِه مهما امتد[1]، فهو قائمٌ على تعاقبِ قليلٍ من البــشر ســرعان ما يمــوتون ولا يعودون يعــرفون أنفسَهم ناهيكَ بمن ماتَ منذ زمنٍ بعيد!

(1) ضآلة الحياة، والبقعة الجغرافية، والعمر، والمجد، حين يُنظَر إلى كل ذلك في الإطار الأعرض للأشياء، أو "من منظور الأزل" sub specie aeternitatis.

٣-١١ أضِفْ هذا إلى القواعـد المذكورة للتو: ضعْ لنفسكَ دائماً تعـريفاً أو وصـفـاً للشيء الذي يَعرِض لـعقلك، بحـيث يمكنُك أن تتـبينَ بوضـوحٍ أي صنفٍ من الأشـيـاء هو في جوهرِه وتجردِه، وفي كلِّيَّتِه وفي أجزائه، وبحيث يمكنُك أن تُفضِي إلى نفسِك بـاسمه الصحيحِ وأسـماءَ تلك العناصرِ التي يتركبُ منها والتي سوف ينحلُّ إليها[1].

لا شيءَ يؤدي بك إلى سمـوِّ العقلِ مـثل قدرتك على أن تَعـرِضَ كلَّ عنصرٍ مـن عناصرِ خـبـرتك في الحيـاة على الفـحصِ المنهجي والصـادق، وقـدرتك على أن تنظرَ إلى الأشياء دائـماً بحيث يمكنُك في الوقت نفسـه أن تتأملَ أي صنفٍ من العـوالم هذا وأي دورٍ يُسـهِمُ به هذا الشيءُ أو ذاك في هذا العالم، وأي قيمةٍ يتحلى بها كلُّ شيءٍ بالنسبةِ إلى "الكل" وبالنسـبة إلى الإنسانِ الذي هـو مُواطنُ هذه المدينةِ العليا التي تُعَدُّ سائرُ المدنِ مجردَ عائلاتٍ فيها.

سَلْ نفـسَكَ إذن مـاذا يكونُ هذا الشيءُ الذي يَعـرِضُ لي الآن؟ وأي نوعٍ من الفضائل يلزمني لمواجهته: اللطف مثلاً أم الشجـاعة أم الصـدق أم الولاء أم البسـاطة أم الاكتـفاء

(1) التحليل الردِّي أو الاختزالي reductive analysis، أي رد الشيء إلى أجزائه المكوِّنة وتجريده من مظاهره الخارجـية العرضية، أداة يستخدمـها ماركوس في السياقات الأخلاقية والمادية جميعـاً؛ ويعني به شيئاً مختلفاً عن "الاختزالية" أو "الردِّية" reductionism بمعناها السلبي الحديث.

الذاتي. . إلخ؟ إذن علينا في كلٍّ حالةٍ أن نقول: هذا جاء من الله، هذا من تصريفِ القَدَرِ وغَزْلِه، أو شيء أشبه بالمصادفة والاتفاق، وهذا من أحد إخوتي من بني الإنسان، قريبي وزميلي، وإن كان لا يعرفُ ما يَليقُ بطبيعته ذاتها. غيرَ أني أعرف: ومن ثَم أعامله برفقٍ وعدل، متبعاً في ذلك القانونَ الطبيعي للأُخُوَّة، على أن أحاول برغم ذلك أن أعطيه ما يستحقُّه بالضبط في الأمور المحايدة أخلاقياً.

٣ ١٢ إذا ما انصرفتَ إلى المهمة التي بين يديك، متبعاً العقلَ الصحيح بكل العزم والجِد وخلوصِ النية، دون أن تسمحَ لأي شيء أن يشتتَك، بل حافظتَ على الجانبِ الإلهي فيك نقياً ثابتاً كما لو كان مقدَّراً عليك أن تُقْبَض حالا؛ إذا تمسَّكْتَ بذلك غيرَ طامعٍ في شيءٍ ولا متوجس من شيء، بل راضياً بما تفعله الآن وَفْقاً للطبيعة وبصدقٍ بطولي في كل ما تقول وتقصد، فلسوف تعيشُ سعيداً، ولن يملكَ أيُّ إنسانٍ أن يصدَّكَ عن ذلك.

٣ ١٣ تماماً مثلما أن الأطباءَ دائماً جاهزون بأدواتهم ومباضعهِم لعلاجِ أيِّ حالةٍ طوارئَ، ينبغي أن تكونَ لديكَ مبادؤكَ العقليةُ جاهزةً لفهمِ الأمورِ الإلهية والإنسانية(1)، وأداء كل

(1) تومئ المماثلات الطبية إلى أن كتابة "التأملات" كانت ضرباً من العلاج الذاتي بالنسبة لماركوس. يتجلى ذلك بصفة خاصة في الكتاب الخامس-٩، حيث=

فعل، مهما كـان ضئيلاً، بوعيٍ بالرابطةِ التي تربطُ الإلهيَّ بالإنسـاني. فلن يتـسنى لك أن تجـيـدَ أيَّ عـملٍ يتـعلقُ بالإنسانِ دون أن يكـونَ لديك أيضاً مرجـعيـةٌ إلى الأمورِ الإلهية، والعكس بالعكس.

٣-١٤ لا تتخـبط ولا تخدع نفسك أكـثر من ذلك؛ فما أحـسبُكَ سوف تقـرأُ مدوناتِك، ولا تواريـخك عن قدمـاء الإغريق والرومان، ولا مـختاراتك من الأدب التي أعـددتها لزمنِ شـيخـوختِك. أسـرِعْ إذن إلى النهاية، وأقلِعْ عن الآمـال الزائفة. أنقـذْ نفسَكَ إن كان لـنفسك عندك أدنى اعتـبار، قبل أن يفوتَ الأوان.

٣-١٤ إنهم[1] لا يعرفـون كلَّ ما تعنيـه هذه الكلمات: السـرقة، والبَذْر، والشـراء، والاسـتجمام، والـواجب؛ فذاك شيءٌ يحتاجُ إلى رؤيةٍ أخري غير رؤيةِ العين.

٣-١٦الجسد، النفس، العقل. إلى الجـسد تنتمي إدراكاتُ الحس، وإلى النفس تنتـمي النوازعُ، وإلى العقل تنتـمي الأحكام. أما اسـتقبالُ انطبـاعاتِ الحس فتـشارك فيه الأنعـام. وأما الاسـتجـابةُ لخيـوطِ دُمَى الرغبـةِ فتـشاركُ فـيه الوحـوشُ

= يقول ماركوس: "لا تَعُدْ إلى الفلسفة كما يعود الطفلُ إلى المعلم، بل كما يعود الأرمدُ إلى إسفنجته ومرهمه، أو يعود آخر إلى كمادته وغَسوله".

(1) صيغـة الغائب التي دأب ماركوس على استخـدامها ليشير إلى "آخـرين" غير معيَّنين، بغير قليل من الازدراء.

والمَأْبونون ومَن على شاكلة فالاريس[1] أو نيرون. وأما امتلاكُ العقلِ كمرشدٍ إلى ما يبدو فعلاً مناسباً فيشاركُ فيه أولئك الذين لا يؤمنون بالآلهة، والذين يخونون أوطانهم، والذين يقترفون الإثمَ من وراء الأبوابِ المغلقة.

فإذا كان كلُّ شيءٍ آخر مشتركاً مع كل ما ذَكَرْتُ، يبقى هناك ذلك الذي يميزُ الإنسانَ الصالح: أن يَرضَى ويَقْنَعَ بما يجري عليه به القضاءُ وتنسجه خيوطُ قَدَره، وألا يدنسَ ألوهتَه التي تقبعُ داخلَ صدرِه أو يعكرَ صفوَها بخليطٍ من الانطباعاتِ المشوشة، بل يحفظها في سكينةٍ واتصالٍ وثيقٍ بالله، لا يقول غيرَ الحق ولا يفعل غير العدل.

وإذا أنكرَ كلُّ الناس أنه يعيشُ حياةً بسيطةً ومتواضعةً وراضيةً فإنه لا يغضبُ على أيٍّ منهم، ولا يتنكَّبُ الطريقَ التي تؤدي إلى الغايةِ النهائيةِ للحياة: إلى هذه الغايةِ ينبغي أن يأتي نقياً، مطمئناً، متأهباً للرحيل، مصطلِحاً تماماً مع قَدَرِه دون أيِّ إكراه.

(1) طاغية أكراجاس في صقلية في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. اشتهر بالقسوة والسادية.

4

الكتاب الرابع

٤-١ تلك القـوةُ الحاكـمـةُ بداخلنا، حيـثـما كـانت في توافقٍ مع الطبيعة، تتـخذُ موقفاً مَرِناً من الظروف وتُكَيِّفُ نفـسَها دائماً بسهـولة ويسرٍ مع مـا يَعْرِض لهـا من أحداث[1]. فهي لا تتطلبُ مادةً مـعينةً لعملِهـا، بل تتجهُ إلى غرضِـها بأسلوبٍ تكيفي فتُحوِّلُ أيَّ عقبةٍ في طريقِها إلى مادةٍ لاستعمالها. إنها أشبهُ بنارٍ تسيطرُ على أيِّ شيءٍ يسقطُ في جوفِها. قد تنطفئُ الجذوةُ النحيلةُ إثرَ ذلك، أما النارُ المضطرِمةُ فتتملَّكُ المادةَ التي تُركَمُ عليها، وتلتهمُها وتَنْزُو فوقَها بفضلِ هذه المادةِ نفسِها.

(1) الاتجاه إلى الهدف بـ "تحفظ" وبطريقة تكيفية تمتص الصدمات وتداور العقبات وتحـوِّل العائقَ إلى حـافـزٍ والموقفَ الصعبَ إلى تـدريبٍ جديد على ممارسـة الفضيلة _مبـدأ رواقي يوصِي به ماركـوس في غيـر موضع من التـأملات؛ فالاستهداف المتصلب غير المشروط الذي يتغافل حدود الممكن هو عدوان على العقل وتواطؤ مع الفشل وتضخيم لصدمة الإخفاق.

٢ ١ لا تفعلْ شيئاً من غير هدف، أو من غير وفاقٍ مع مبادئ الفن- فنِّ الحياة.

٣ ١ إنهم يبحثون عن مُنتجَعات لهم -في الريف، على البحر، على التلال. وأنتَ بصفةٍ خاصة عُرْضَةٌ لهذه الرغبة المشبوبة. ولكن هذا من شِيَمِ الطَّغام، فمازال بإمكانك كلما شئْتَ مَلاذاً أن تطلبَه في نفسكَ التي بين جَنْبَيْكَ. فليس في العالم موضعٌ أكثرُ هدوءاً ولا أبعَدُ عن الاضطراب مما يجدُ المرءُ حين يخلو إلى نفسه، وبخاصة إذا كانت نفسُه ثريةً بالخواطر التي إذا أظَلَّتْه غَمَرَتْه بالسكينة التامة والفورية[1]. ولستُ أَعني بالسكينة إلا الحياةَ التي يحكمُها العقلُ ويُحْسِن قِيادَها.

١٧ "قلعة الذات" -من أشهر الثيمات التي تؤثَر عن ماركوس أوريليوس: فالعقل الخالي من الانفعالات والمزوَّد بالمبادئ هو حصنٌ منيعٌ بوسعِ المرءِ أن يلجأ إليه وقتما يشاء التماساً للأمن والسكينة، والاستجمام والتجدد.

فَلْتَمنَحْ نفسَكَ دائماً هذا الاستجمام، ولتجددْ نفسَك ولتكن المبادئُ العقليةُ التي سوف تعودُ إليها هناك وجيز وأساسيةً وكافيةً لأن تذهبَ بكل ألمكَ في الحال وتعيد إلى أمورِك المستأنَفة خالياً من السخطِ عليها أو التبرمِ بها.

فَعَلامَ أنتَ ساخطٌ؟ على اللؤم البشري؟ تَذَكَّرْ أن الكائنات العاقلةَ قد خُلِقَت من أجل بعضها البعض، وأن الصفح جزءٌ من العدل، وأن الناسَ تفعل الشرَّ عن غير عَمْد واذكرْ كم من الناسِ قد قَضَوا حياتهم في عداوة وشك وبغضاءَ وحربٍ مُعلَنة، ثم لَفَّتْهم الأكفانُ وصاروا رماداً، وكُفَّ عن لجاجتِك.

أم تراكَ ساخطاً على ما قُسِمَ لكَ من نصيبٍ في "الكل"! إذن فاذكرْ أنك مضطرٌّ إلى أن تختار: فإما عناية مُدَبِّرة وإما ذرات عمياء تلتقي كيفما اتفقَ وتفترق. واذكرْ البيِّنات الكثيرةَ على أن العالمَ نوعٌ من المجتمع السياسي وكُفَّ عن لجاجتك. أم لعلك ماتزال واقعاً في قبضة الحاجات الجسدية؟ إذن فاذكرْ أن العقلَ ما ان يَسُلّ نفسَه ويكتشف قواه الخاصةَ حتى ينفصلَ بذاته عن حركة النفسِ الجسدية سواء أكانت هذه الحركةُ هادئةً أم عنيفة؛ واذكرْ أيضاً كلَّ م سمعتَه وتبيَّنتَه عن الألم واللذة، وكُفَّ عن لَجاجَتِك.

أم لعلكَ إذن تتحرقُ إلى شيءٍ من المجد. فاذكرْ كم هو سريعُ النسيانِ هذا العالم، واذكر الفجوةَ الزمنيةَ السابقة

للحاضر واللاحقةَ عليه، وكم هو فارغٌ ذلك الإطراءُ الذي تجدُه من الآخـرين وكم هم متقلبـون وعديمو الرأي أولئك الذين يتظاهرون بتأييدك، وكم هي ضيقةٌ تلك المساحةُ التي يجولُ فيها مجدُك. الأرضُ برُمَّتِها مجردُ نقطة في الفضاء، فـمـا أهْوَنَ ذلك الركنَ الذي تقطنُـه وما أقـلَّهم وأهونهم أولئك الذين تَرتقِبُ منهم هاهُنا التمجيدَ والمدح.

لن يبقى سـوى هذا: حصنكَ الصغيـر الذي بين جنبيك، فَأْوِ إليه.. حـيث لا كَربَ، على الأقل، ولا وَصَب. كنْ سـيـدَ نفسِـك، وانظرْ إلى الأشـياءِ كـرجلٍ، كـإنسـان، كمواطنٍ، ككائنٍ فـان. وبين أسرعِ الأفكارِ تلبيةً وإسـعافاً لك اتجهْ إلى هاتين: الأولى: أن الأشـياءَ لا يمكنُها أن تمسَّ العقلَ: إنهـا خارجيـةٌ وخاملة، والاضطرابات لا تأتي إلا من رأيِكَ الداخلي. والثانية: أن جـميعَ تلك الأشياءِ التي تراها حـولك ما تكادُ تنظـرُ إليهـا حتى تتـغيـرَ ثم تزول. واعتبر دائماً بكل ما شَهِدتَه بنفسك وقد تَغَيَّرَ وزال. العالمُ هو التغير.. والحياةُ هي الرأي.

٤-١ مادام الجزءُ المفكرُ مشترَكاً بينـنا، فالعقلُ مشترَكٌ أيضاً، وهو ما يجعلنا كـائنات عاقلة. ومشتركٌ بـيننا أيضاً الآمرُ الذي يُمْلِي علينا مـا نفعلُ ومـا لا نفعل. وإذا صَحَّ ذلك فبـيننا أيضاً قانونٌ مشتـرك. ومن ثم فنحن مواطنون. نستظل معًا بدستور واحد. إذا صَحَّ ذلك فلعالم كله كأنه دولة واحدة

وإلا فكيف يمكنُ للمـرء أن يقـولَ إن الجنسَ البشـري كلَّه يشاركُ فـــي دســـتـورٍ عام؟ مِن هنا إذن، من هذه المدينة - الدولة المشترَكة، نستمـدُ عقلَنا نفسَه، قانونَنا، وإلا فمن أين نستمد؟ فكما أن الشطرَ التـرابي مني مستمَدٌ من تراب ما، والمائيَّ من عنصـره، والنفَسَ الهوائي من مصـدرٍ ما، والحـارَّ الناري من مـصـدرِه الخـاص (فـلا شيء يأتي من لاشيء، ولا يعـود إلى لاشيء) كذلك الـعقلُ لديه أيضـا مصدرُه.

٤-٥ الموتُ، شأنُه شأن الميـلاد، سرٌّ من أسرار الطبيـعة: تَضامٌّ، ثم انحلالٌ، للعناصرِ نفسِها. لا عارَ في الأمر بكل تأكيد: فلا شيءَ فيه مناقض لطبيعة الكائن العاقل، أو مناقض لمبدأ تكوينِه(1).

٤-٦ من الطبيعي، والضروري، أن تأتي مثلُ هذه الأفعالِ من مثل هؤلاء الناس. وإلا فـهل تُؤَمِّلُ في التين ألا يعـودَ يُنتِجُ أنفحَتَه؟ تَذَكَّرْ على كل حال أن كليكما سوف يموتُ وشيكاً جداً، ولن يعودَ يُذْكَرُ بعد ذلك حتى اسماكما.

(1) لون من **ألوان التـعزِّي** تجاه الموت: فـالموت فعلٌ طبـيعي ينبغي أن يـتلقاه المرء بابتهاج **وتسليم، تحوُّل** للعناصر موافق للطبيعة، ولا ضير البتة، ولا عار، في أي **شيء موافق للطبيعة**.

٧-١ أزِل الحُكْم، تكنْ قد أزَلْتَ فكرة "لقد تَضَرَّرْتُ". أَزِلْ فكرة "لقد تضرَّرْتُ" بنا يكون الضررُ نفسُه قد أُزِيل[1].

٨-١ ما لا يجعل المرءَ أسوأ لا يمكن أن يجعل حياتَه أسوأ. فليس بِوُسعِه أن يضيره لا من داخل ولا مِن خارج.

٩-١ كان من المفيد للطبيعة أن يكون (الشيء) هكذا، ومِن ثم كان من الضروري.

١٠-١ "كل ما يحدث في العالم فهو حق". تأملْ هذا القول بعناية ولسوف تجد أنه حق. لستُ أعني بالحق هنا مَسارَ الأسباب، بل أعني به "العدل" - وكأنَّ قاضياً ما يُحَصِّصُ لكل شيءٍ استحقاقَه[2]. ضعْ هذا إذن نصبَ عينيك كلما شرعتَ في عملٍ، أياً كان، وأيُّما شيءٍ تؤديه فَأَدِّه أداءَ رجلٍ صالحٍ بالمعنى الدقيقِ للرجل الصالح. والزَمْ ذلك في كل فعل.

١١-١ لا تحكُمْ على الأُمُور كما يحكم عليها مَنْ آذاك، أو كما يريدُكَ أن تحكم؛ بل انظرْ إلى الأشياء كما هي عليه في الحقيقة.

---

(1) الفكرة المحورية لـ "العلاج المعرفي": الضرر أو الأذى هو مسألةُ إدراكٍ ليس إلا، أيْ مسألةُ حكمٍ عقلي؛ اطَّرِح الحكمَ تكونْ قد أزلتَ الأذى.. صَحِّح الأحكام الخاطئة تكونْ قد داويتَ الانفعالات المريضة.

(2) النصيب المقسوم لكل امرئ هو نصيبٌ عدل ينبغي أن يقبله برضا وسرور.

٤-١٢ كنْ دائماً على استعداد للعمل بهذين المبدأين: أولا: ألا تفعلَ إلا ما يملي عليك العقلُ الحاكم والمشرِّع أن تفعلَه لخير الإنسانية. ثانياً: أن تغير موقفَك إذا كان هناك في الحقيقة مَن يصحِّحُ لك رأياً ما ويرشدُك إلى ما هو أقوَمُ. على أن ينبعَ هذا التحولُ عن اقتناعٍ بالعدل أو بالخير العام، وأن تعدِّلَ مسارَك وَفقاً لذلك وليس لمجردِ اللذةِ أو الشعبية.

٤-١٣ هل تملك عقلاً؟

- "نعم".

- ولماذا لا تستعملُه إذن؟ فإذا كان هذا يؤدي وظيفتَه فماذا عساكَ تطلبُ أكثرَ من ذلك؟

٤-١٤ لقد وُجدتَ كجزءٍ من الكل. ولسوف تتلاشى في ذلك الذي أَتَى بك. أو بالاحرى سوف تُستَردُّ مرةً ثانية، بالتحولِ العنصري، إلى المبدأ المولِّد (للعالم).

٤-١٥ حَباتُ بخورٍ كثيرةٌ على نفس المَذْبح. إحداها تسقطُ أولاً، الأخرى لاحقاً.. لا فَرْق(1).

٤-١٦ خلالَ عشرةِ أيام سوف تبدو إلهاً لأولئك الذين تبدو لهم الآن بهيمةً أو قرداً، إذا ما عدتَ إلى مبادئك وإلى عبادة العقل.

(1) لا فارق في طول الحياة بحد ذاته، لا فرق بين أن تموت اليوم وأن تموت في أرذل العمر.

٤-١٧ لا تَتَصَـرَّفْ كما لو كنتَ سوف تُعَـمَّرُ آلافَ السنين. الموتُ يَتَرَصَدُك، فمادمتَ تعيش، ومادام بإمكانكَ.. كُنْ خيِّراً.

٤-١٨ ما أهنأَ بالَه ذلك الذي لا يتطـلعُ إلى ما يقولُه جيـرانُه وما يفعلون وما يـفكرون؛ بل ينصرفُ إلى أفعاله هو ليـجعلَها عادلةً موقَّرَةً مشرَبَةً بالخيـر. لا تلتفتْ إذن إلى الشخصياتِ السوداءِ عن يميـنك وشمالك، بل امضِ أمـامَكَ سعـياً في الطريقِ المستقيم لا تنحرف عنه.

٤-١٩ لا يدركُ المتلهفُ على المجدِ وبقـاءِ الذِّكْرِ أن كلَّ واحدٍ من مُخَلِّدي ذكرِه سوف يموتُ هو نفسُـه عاجلاً جداً، وكذلك سيكونُ حالُ الأخلافِ جميعاً إلى أن تنطفئَ ذكراه تماماً في انتقـالها عـبر أناسٍ يُعْـجَبـون ببلاهةٍ ويَفْنَون. وحـتى لو افترضـنا خلودَ مَن يذكرونك وخلودَ ذكراك فمـاذا يُجديكَ من ذلك؟ ولستُ أعني مجـردَ جدواه للموتى بل للأحـياء أيضـاً ـمـا جـدوى المديح (إلا أن يكـونَ ذا نفعٍ إجـرائيٍّ مُـعَيَّن)؟ لَكأني بكَ ترفضُ هِبَـةَ الطبـيعـةِ التي أودعـتْكَ إياها والتي لا تعتمدُ على أقـوالِ الآخرين، وتتشبثُ بشيءٍ آخر(1) ....

٤-٢٠ كلُّ ما هو جميلٌ على أي نحـوٍ من الأنحاء إنما هو جميلٌ "في ذاته"، يَدْخَرُ جـمالَه في لُبِّه وصميـمه وليس المديحُ جـزءاً منه. فـالمديحُ لا يجـعلُ الشيءَ أفـضلَ مما هو ولا

(1) بقية الفقرة مفقودة من النص.

أسوأ[1]. يسـري ذلك على ما دَرَجَ الناسُ على اعـتبـارِه جميلاً، كالأشياءِ المادية والأعـمالِ الفنية. الجميلُ حقاً هو في غِنَى عَما سواه.. شـأنُه في ذلك شأن القانونِ، وشأن الحقيـقة، أو الإحسان أو التواضع. فهل مـثلُ هذه الأشياء تجْمُلُ بالمدح أو تَذْوِي بالذم؟ هل ينتقصُ من قـيمةِ الزمردةِ ألا تُزْجِي لهـا المديح؟ أو ينتقصُ من الذهب أو الـعاج أو الأُرجوان أو القيثار أو الخنجر أو الزهرة أو الشجيرة؟

٤-٢١لَعَلَّكَ تسـأل: إذا كانت الأرواحُ خالدةً فكيف يمـكنُ للهواء أن يستـوعبَهـا جميـعاً منذ بداية الزمـان؟ حسنٌ.. فكيف تستوعبُ الأرضُ كلَّ تلك الأجسادِ التي تُدفَنُ بها منذ تلك البدايةِ السـحيقـة؟ فمثلمـا هو الحالُ هنا على الأرض، إذ تتحولُ الأجسامُ بعد مُـقامِها على الأرض، طالَ أو قصر، وتتحللُ فتتركُ مكاناً لغيرها؛ كذلك الشأن بالنسبةِ للأرواح المرتحلةِ إلى الهواء: تَبقَى رَدحاً مـن الزمن ثم تتغير وتنتشر وتتخـذ طبيعـةً ناريةً إذ يتلقاها المبدأُ المُوَلِّـدُ للعالم. بذلك تتركُ مكاناً للمقيمين اللاحقين. هذا هو الجوابُ عن مسألةِ خلودِ الأرواح.

ينبغي ألا نقتصـرَ على النظر إلى الأجساد التي تُدْفَن هكذا بل نتـأمل أيضاً كم من الحـيوانات تؤكَل كل يوم، نأكلـها

(1) قيمة الشيء كـامنةٌ فيه ولا تأتيه من خارج. فلتفعل الجـميلَ لأنه جميلٌ لا لأنه شعبي يَرُوجُ ويُرَوِّج لك.

نحن وتأكلها المخلوقاتُ الأخرى _مقادير ضخمة تُستهلَك وتُدفَن، بمعنى ما، في أجسادِ آكليها. ومع ذلك فهناك مكانٌ لها، لأنها تتحولُ إلى دمٍ وإلى عنصري الهواء والنار.

كيف نتحقق مِن صدقِ هذه المسألة؟ بالتمييز بين ما هو ماديٌّ وما هو صوري سببي[1].

٤-٢٢ لا تتخبطْ هنا وهناك. ولكن في كل حركةٍ من حركاتك كنْ عادلاً، وفي كل خَطْرةٍ من خَطَراتِك التزِم ملكةَ الرأيِ والفهم.

٤-٢٣ أيها العالم.. كل شيء يلائمني إذا لاءَمَكَ، وكل ما هو في أوانه بالنسبة إليك فهو كذلك عندي، لا متقدم لديَّ ولا متأخر. أيتها الطبيعة.. كل ما تجلبه مواسمُك فهو ثمرة لي: كل شيء منك يأتي وفيكِ يعيش وإليكِ يعود. يقول الشاعر[2] "عزيزتي مدينة كيكروبس[3] : "Cecrops ألا تقول أنت "عزيزتي مدينة زيوس"؟[4].

---

(1) ضربٌ من التحليل الذي يوصي به نفسَه مراراً في "التأملات": في كل شيء أو حدث أو فعل هناك محتوى خامل (مادة) ومبدأ سببي نَشِط.

(2) الشاعر المقصود هنا هو أرسطوفانيس.

(3) كيكروبس ملك أسطوري يعده الأثينيون المؤسس الأول لمدينتهم.

(4) "مدينة زيوس" عند ماركوس هي العالم. وفيها تعبير محكم عن الانتماء الكوزموبوليتاني عند ماركوس والرواقيين.

٤-٢٤ يقول ديمقريطس "إذا شئتَ أن تعيشَ سـعيداً فلا تعملْ إلا أقلَّ القليل". ولكن أليس من الأفضلِ أن تقولَ "لا تعملْ إلا ما هو ضروري"، إلا مـا يتطلبه عقلُ كائنٍ اجـتماعي بالطبيعة وكيفـما يتطلبه؟ فمِن شأن هذا أن يجلبَ السكينةَ الناجمةَ عن الفعلِ الصحيحِ وعن الفعلِ القليلِ أيضاً. الحقُّ أن أكثرَ ما نقولُ وما نفعلُ هو غيُر ضروري. فإذا اطَّرَحتَ الزائدَ فسوف يكونُ لديك وقتٌ أكثـر وعُسرٌ أقل. لذا ففي كل حـــالةٍ على المرءِ أن يســـألَ نفـسَــه "هل هذا شيءٌ ضروري؟" وعليـه ألا يطَّرِحَ غيـرَ الضروري من الأفـعال فـحـسب بل من الأفكار أيضـاً، حـتى لا تحـملَه الأفكارُ الزائدة على أعمالٍ لا لزومَ لها(1).

٤-٢٥ جَرِّبْ أيضاً كيف تُوافقُكَ حياةُ الإنسانِ الصالح، حياةُ ذلك القانعِ بنصيبِه المقسومِ من "الكل"، وبأفعالِه العادلةِ وميولِه الخَيِّرة.

٤-٢٦ أرأيتَ إلى ذلك؟ فـانظرْ إلى هذا أيضاً: لا ترهق نفـسَكَ، كنْ بسيطاً دائماً. هل أساء إليكَ أحد؟ إنما إلى نفسه أساء. هل أَلَمَّ بك شيءٌ؟ حسنٌ، كل ما ألمَّ بكَ كـان مُقَدَّراً لك من "الكل" منذ البداية ومنسوجاً لك. وباخـتصار، الحياةُ

(1) يقول العقاد في معنى قريب:

تَعَلَّمْ كيف تَسْتَغْنى ... إذا ما شئْتَ أنْ تَغْنَى

فَمَنْ يَجْهَلُ ما يُلْقَى ... فَقَدْ يَجْهَلُ ما يُجْنَى

قصيرة: اغتنم اللحظةَ الحاضرةَ بالعقل والعدل. كن صاحياً في استرخائك.

٤-٢٧ إما عالَمٌ منظمٌ وإما خليطٌ من العناصر المضطربة. غير أنه عالم. وإلا فكيف يمكن أن يبقى داخلك نظامٌ معين بينما الاضطرابُ يعم "الكل". وهذه أيضاً: أن جميع الأشياء، رغم انفصالها وتمايزها، يتخللُ بعضُها بعضاً ويستجيبُ بعضُها لبعض[1].

٤-٢٨ شخصيةٌ سوداء، مُخَنَّث، عنيد، وحشي، صبياني، غبي، محتال، فظ، مرتزق، مستبد[2].

٤-٢٩ إذا كان غريباً في العالم مَن لا يعرفُ مكوِّناته، فليس أقلَّ غربةً مَن لا يعرف ماجرياته. إنه هاربٌ إذا تملَّصَ من المبدأ الاجتماعي، أعمى إذا غَضَّ عينَ العقل، شحاذٌ إذا اعتمدَ على الآخرين ولم يدخرْ في نفسه كلَّ ما يحتاج في الحياة، وَرَمٌ في الكون إذا انسحبَ وفصلَ نفسَه عن مبدأ طبيعتنا المشتركة بتبرمه بنصيبه (إذ إن الطبيعةَ هي التي تجيءُ بنصيبكَ مثلما تجيءُ بك)، إنه منشقٌّ خارجٌ على المجتمع

(1) إشارة إلى نظرية «المداخلة» Total Compenetration الرواقية التي تقول بأن الأشياء تتمازج وتتداخل بعضها في بعض بحيث يحتوي كل جزء، بمعنى ما، على جميع الأجزاء الأخرى..

(2) الإشارة هنا غير واضحة، والمشار إليه غير محدَّد؛ مما يدل على أن ماركوس كان يكتب "لنفسه" حقاً!

إذا سَلَّ روحَه من روحِ الكائناتِ العاقلةِ جميعاً، والتي هي وحدة.

٤-٣٠ هذا فيلسوفٌ لا يملك لباسًا[1]، وآخرُ لا يملك كتاباً، وهذا نصفُ عريان يقول "ولكني ملتزمٌ بالعقل". أما أنا فأقول: إنني أفتقرُ إلى الغذاء التربوي والتعليمي، ولكني لا أَحيدُ عن العقل.

٤-٣١ أَحبَّ الفنَّ الذي تَعلَّمتَه، أياً كان، وارضَ به. واقضِ ما تَبَقَّى من حياتكَ كإنسان نَذَرَ نفسَه للآلهة بكلِّ قلبه واحتسَبَ عندها كلَّ ما لديه. ولا تجعلْ مِن نفسِكَ طاغيةً على أي إنسانٍ ولا عبداً له.

٤-٣٢ تأمَّلْ مثلاً عصرَ فيسباسيانوس[2]، فسوف ترى الأشياء نفسها: ناس تتزوج، وتنجب أطفالاً، ويدركُها المرض، وتموت، وتقاتل، وتعيِّد، وتتاجر، وتفلح الأرض، وتُجامِل، وتتدافع، وتشك وتتآمر، وتتمنى موتَ الآخرين، وتتذمر على نصيبها المقسوم، وتقع في الحب، وتكنز المال، وتتوق إلى منصب القنصل والملك؛ والآن انقضَت حياتُهم وزالت.

(1) ربما يقصد هنا الفلاسفة الكلبيين، وكانوا مغالين في التقشف والقسوة على النفس.

(2) امبراطور حكم من عام ٦٩ إلى ٧٩ م.

ثم عَـرِّجْ على زمن ترايانوس [1]، سـترى أيضـاً الأشيـاء نفسها، والحياة انقضت أيضاً.

وانظر كـــذلك في الأزمنةِ الأخـــرى، والأممِ كلِّهــا في الحقيقـة، وسترى حيوات كثيرةً مـن الكدح تنتهي بسقوطٍ سـريـعٍ وتحلل إلى العنـاصـر[2]. وأهم من كل شيء أن تستـعـرض في ذهنك أولئك الذيـن رأيتَـهم بنفـسِكَ في صراعاتٍ فـارغة، لا يسلكون وَفقاً لفطرتهم الطبيـعية ولا يتمسكون بها ولا يرضـون عنها. وعليك في هذا المقام أن تأخذَ كلَّ شـيءٍ بقيمـته وحجـمه؛ فـبذلك لن تبـتئسَ إذا عَبَرتَ على التوافهِ ولم تُعِرْها وقتاً أطولَ مما تستحق.

٤-٣٣ الألفاظُ التي كانت شائعةً قديماً هي الآن مهجورة. كذلك أيضاً أسـماءُ الذين كـانوا مشـاهيرَ ذاتَ يومٍ هي بمعـنى ما مهجورة - كاميللـوس، كايسو، ڤوليسـوس، دينتاتوس، وبعـدها بقليل سكيبـيو وكـاتو، ثم أوغسطس أيضـاً، ثم هادريان وأنطونينوس. كل الأشـياء تتـلاشى وسرعـان ما تتحـول إلى أسطورة سرعان أيضاً مـا يلفها النسـيان. هذا بالنسـبة للذين تألقـوا على نحوٍ مدهـش؛ أما البقـيةُ فـما

(1) امبراطور حكَمَ من عام ٩٨ إلى ١١٧ م.

(2) يقول المعري:

نَزُولُ كما زالَ أَجْدادُنا ... ويَبْقَى الوُجُودُ على ما تَرَى
نَهارٌ يُضِيءُ وليلٌ يَجِيءُ ... ونَجْمٌ يَغُورُ ونَجْمٌ يُرَى

يكادون يلفظون أنفاسَهم الأخيرةَ حتى يختفون عن العين والفكر. فماذا تكونُ الذكرى الخالدةُ إذن؟ لا شيء.

وإلى أين إذن ينبغي على المرء أن يسعى؟ إلى هنا فقط: فكرٍ صائب، وفعلٍ للخير العام، وقولٍ لا يعرف الكذب، وتقبُّلٍ لكل ما يجري كشيءٍ ضروري وعادي ونابعٍ من مبدأٍ ومصدرٍ من الصنف نفسه.

٤-٣٤ أَسْلِمْ نفسَكَ طواعيةً إلى كلوثو[1] Clotho، إحدى إلهات القَدَر، ودَعْها تَغْزِل خيطَ عمرك على أي شكل شاءَتْ.

٤-٣٥ الكل زائل، الذاكرُ والمذكورُ معاً.

٤-٣٦ تأملْ دائماً كلَّ ما يأتي به التغير، ورُضْ نفسَكَ على فكرة أن طبيعة "الكل" لا تُولَعُ بشيءٍ قَدرَ ولَعِها بتغيير كلِّ شكلٍ من الوجودِ إلى شكلٍ آخر، شبيهٍ ولكن جديد. كلُّ ما يوجَد هو بمعنى ما بذرةٌ لما يأتي بعده. فإذا كان مفهومُ "البذرة" عندك محصوراً فيما يوضَعُ في الأرض، أو في الرحم، فذاكَ لَعَمْرِي تفكيرٌ مُغرِقٌ في السوقية.

٤-٣٧ ستموتُ وشيكاً، ومازلتَ لا تتمتعُ بوضوحِ الفكرِ وصفاءِ النفس، ولم تتحرزْ بَعدُ من الخوفِ من الأذى الخارجي،

(1) كلوثو، أو "الغازلة"، هي إحدى ربات القدَر الثلاث. وقد دأب ماركوس على استخدام لفظة "القدر"، "العناية"، الله، "الطبيعة"، على التعاوض كمصدر لنصيب الإنسان في الحياة.

ومازلتَ غيرَ ودودٍ تجاهَ الجميع، وغيرَ موقنٍ بأن العدلَ هو ملاكُ الحكمة.

٤-٣٨ انظرْ إلى عقولهم المُوَجِّهة، حتى أولئك الذين يُعَدُّون حكماءَ؛ انظرْ أي الأشياء يجتنبونها ويَفْرَقون منها، وأي الأشياءِ يلتمسونها ويسعون إليها.

٤-٣٩ لا أذى لك يَقْبَعُ في عقلِ غيرك، ولا حتى في أي تبدلٍ أو تغير لِغطائكَ الجسدي. أين إذن يقبع الأذى؟ في ذلك الجزء منك الذي يضطلع بتكوينِ الأحكامِ عن الأذى. كُفَّ عن الحكمِ بأنَّ بِكَ أذى تكونْ قد سَلِمْتَ منه[1]. ولو أن أقربَ شيءٍ منه، وهو جسدُك، تَعَرَّضَ لسكينٍ أو كَيٍّ، أو تُرِكَ ليتقيَّحَ أو يموت ـ فإن المَلَكةَ التي تحكمُ هذه الأحكامَ ينبغي أن تظلَّ هادئة. أي ينبغي ألا تعتبره خيراً ولا شراً ذلك الذي يمكنُ أن يصيبَ الأشرارَ والأخيارَ على حَدٍّ سواء. ذلك لأن ما يمكن أن يصيبَ الإنسانَ بِغَضِّ النظرِ عن مدى إذعانِه للطبيعة ليس بحد ذاته متفقاً مع الطبيعة أو مضاداً لها[2].

---

(1) تنويعة أخرى على إحدى الثيمات الكبرى في "التأملات": أن أي أذى ظاهري هو مسألة حكم أو رأي (ولذا فإن أزلتَ الحكمَ تكون قد أزلتَ الأذى).

(2) يؤثَر عن الفيلسوف الرواقي بوسيدونيوس قوله حين اشتدت عليه آلام المرض: "على رِسلكَ أيها المرض! فمهما تكن وطأتُكَ على جسمي فلن تنال من نفسي شيئاً ولن أقر بأنك شر من الشرور".

٤-٤٠ انظر دائماً إلى العالم على أنه كائنٌ حَيٌّ واحدٌ، يتكون من مادة واحدة وروحٍ واحدة. انظرْ كيف يذوبُ الكلُّ في هذا الوعيِ الواحد، كيف تخضعُ كلُّ أفعاله لنزوعٍ واحد، كيف تتعاونُ الأشياءُ جميعاً في كلِّ ما يحدث، انظر أيضاً الغَزْلَ الدائم لخيط الشبكةِ ونسيجها.

٤-٤١ أنتَ روحٌ ضئيلةٌ تضطربُ هنا وهناك.. حاملةً جثة. (كما اعتادَ إبيكتيتوس أن يقول)

٤-٤٢ التغير: لا شيءَ في العملية شرٌّ في ذاتِه؛ ولا شيءَ في النتيجة خيرٌ في ذاته.

٤-٤٣ الزمنُ أشبهُ بنهرٍ من الأحداثِ الجارية وتيارٍ عنيف[1]. فما يكادُ شيءٌ يَعِنُّ حتى ينجرفَ بعيداً (إلى الماضي) ويحلَّ غيرُه محلَّه، فما يلبث أن ينجرفَ بدورِه.

٤-٤٤ كلُّ ما يحدثُ فهو معتادٌ ومألوفٌ كالزهرِ في الربيع والفاكهةِ في الصيف. كذلك أيضاً المرضُ والموت، الافتراءُ والتآمر ـ وكلُّ ما يَسُرُّ الحمقَى أو يؤلمهم.

٤-٤٥ في سلاسلِ الأشياءِ فإن اللاحقَ يكونُ دائماً مرتبطاً بما سبقه. لا مجردَ إحصاءٍ بسيطٍ لأشياءَ منفصلةٍ ومجردَ تعاقبٍ ضروري، بل ارتباط عقلي: ومثلما أن الأشياءَ

(1) ربما يكون التشبيه مستمداً من هيراقليطس القائل: "كل شيء في حالة تدفق"، "إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين".

الموجودة مترابطةٌ بينها بانسجـام، كذلك عملياتُ الصيرورة لا تَعرِضُ مجردَ تتابُعٍ، بل انسجاماً صميماً مدهشاً.

٤-٤٦ تَذَكَّرْ دائمـاً قولَ هيراقليطس "موتُ التـرابِ هو أن يصبحَ ماءً، ومـوتُ الماءِ ميـلادُ الهواء، وموتُ الهـواء هو النار، وعـود على بدء". تذكرْ أيضـاً تصورَه عن الإنسـان الذي نسي طريقَه إلى دارِه؛ وقولَه إن الناسَ في خصامٍ مع ألصَق رفيق" _العـقل" الذي يحكم العـالم، وإن الأشيـاءَ التي يصادفونهـا كلَّ يومٍ تبدو لهم غريبة. وتَذَكَّـرْ أننا ينبغي ألا نعملَ أو نتحدثَ كما لو كنا نياماً، وأن النومَ يجلبُ الوهمَ القوليَّ والفـعلي. وأننا ينبغي ألا نحذوَ حَـذْوَ الأطفالِ مع آبائهم: فنقبل ببساطةٍ كلَّ ما يُقال لنا.

٤-٤٧ كما لو أن إلهـاً أخبرَكَ أنكَ ستموتُ غـداً أو بعد غدٍ على الأكثـر فلم تُعَلِّق أهميـةً على فرقِ يومٍ واحـد (ما لم تكن مفرطاً في الهلع، فـما أَضْيَقَ الفرقَ) _كذلك ينبغي عليك ألا تتصـورَ فارقاً يُذْكَرُ بـين أن تموتَ بعد سنين طويلةٍ وأن تموتَ غداً.

٤-٤٨أُذكُر دائماً كم من الأطباء ماتوا بعد أن عَقَدوا الحاجبين فوق مـرضاهم، كـم من المنجمـين ماتوا بعـد أن تنبـآوا بموت غيرهم بخيلاءَ عظيمة، وكم من الفلاسفة بعد مداولاتٍ لا نهـايةَ لهـا عن الموت أو الخلود، وكم من الطغـاة بعـد أن تسلطوا على حياة الناس بغطرسةٍ وحشـيةٍ كما لو كانوا هم

أنفسُهم مخلدين في الأرض. واذكر أيضاً كم مدنٍ بأسرِها قد زالت: هيليكي[1]، بومبي، هيركيولانيوم[2]، وغيرها مما لا يُحصَى. وأضِف إلى الإحصاء كلَّ أولئك الذين عرفتَهم، واحداً تلو الآخر. يمشي أحدُهم في جنازةِ الآخر، ثم ما يلبثُ أن تلفَّه الأكفانُ بدَورِه ويُشَيِّعَه آخَرُ[3]، وكل ذلك في زمنٍ وجيز. وصفوةُ القول أن انظرْ دائماً كم هي قصيرةٌ رخيصةٌ حياةُ الإنسان. بالأمس كان بذرةً وغداً مومياءَ أو رماداً.

عليك إذن أن تقضي هذه الكسرةَ الضئيلةَ من الزمان في انسجامٍ مع الطبيعة، وغادرْها راضياً، مثلما تسقطُ زيتونةٌ حين تبلغُ النضجَ، مبارِكَةً الأرضَ التي حملَتْها، وشاكرةً للشجرة التي منحتْها النماء.

٤-٤٩كنْ مثلَ رأسِ الأرضِ في البحر تتكسرُ عليه الأمواجُ بلا انقطاعٍ وهو ثابتٌ وطيدٌ يخمد مِن حولِه جَيَشانُ الماء[4].

(1) مدينة يونانية في منطقة آخايا القديمة في جنوب اليونان خسف بها في أعماق البحر فجأة عام ٣٧٣ ق.م.

(2) بومبي وهيركيولانيوم مدينتان رومانيتان في كمبانيا، دفنهما ثورة بركان فيزوفيوس في ٢٤ أغسطس عام ٧٩م.

(3) يقول المتنبي:

يُدَفِّنُ بَعْضُنا بَعْضاً وتَمْشي أواخِرُنا على هامِ الأوالي

(4) ربما تأثر ماركوس في هذا التشبيه بوصف هوميروس في الإلياذة لمقاومة الآخيين لهجوم هكتور على سفنهم. وقد اقتبس فرجيليوس نفس الصورة في الإنيادة.

أفتقول "مـا أتعسَ حالي إذ أصابني هذا"؟ لا بل قُلْ "ما أسعـدَني إذ أصابنـي هذا الأمرُ ومازلـتُ خالياً مـن الحزنِ والأسى، لم يحطمني الحاضرُ ولم يُخِفْني المستقبل". فقد ينزلُ مـثلُ هذا المصـابِ بأيِّ إنسانٍ ولكـــن ليس كـلُّ إنسـانٍ بقـادرٍ على أن يحتـملَه مِـن غـيـرِ ألم. لماذا إذن تبـتئـسُ بالمصابِ أكـثـرَ مما تسـتبـشـرُ بقدرتِــك علـى احتماله؟![1].

وهل تُسَمِّيه مصاباً للإنسان، على كل حال، ذلك الذي لا يشذُّ عن طـبيعـةِ الإنسان؟ أو تسـميه شـذوذاً عن طبيـعةِ الإنسانِ ذلك الذي لا يتـعارضُ مع أهدافِ طبيعـتِه؟ حسنٌ إذن. لقد تعلمتَ ما هي هذه الأهداف. هل ثمة من شيءٍ في هذا المصابِ يمنعُكَ من أن تكونَ عادلاً وشهماً ومعتدلاً وحصيفاً وصادقاً وشـريفاً وحراً، أو غير ذلك من الصفات التي تحققُ في اجتماعِها طبيعةَ الإنسانِ الحقة؟ تَذَكَّرْ إذن في كل حَدَثٍ منغِّصٍ هذا المبدأ: "ليس هذا بالحظ السيء، بل احتمالُ هذا بنبالةٍ وكرمٍ هو حظٌ سعيد".

٤-٥٠ ثمة طريقةٌ سوقيةٌ على أنـها مُسعِفةٌ لك في أن تضعَ الموتَ في حجمِـه الصحيح: وهي أن تستعـرضَ في ذهنك قائمةً بأولئك الذين تشبـثوا بالحيـاة فترةً طويلة. مـاذا ربحوا من

(1) يقول المعري:

لا أَستَقيلُ زمانـــــي عَثْرَةً أَبَداً ... ما شاءَ فَلْيَأْتِ إنَّ الشهْدَ كالصابِ

ذلك أكثرَ مما ربحَ مَن مات مبكراً؟ مِن المؤكد أنهم يرقدون الآن جميعاً في قبورهم: كايديكيانوس، فابيوس، يوليانوس ليبيدوس[1]، وأمثالهم جميعاً من الذين ساروا في جنازاتٍ كثيرةٍ ثم جاءت جنازة كل منهم. ما أقصرَ المسافةَ بين الميلاد والموت. انظرْ أي عناءٍ نحتملُه في هذه المسافة، وأية صحبةٍ تكتنفنا فيها ومع أيٍّ صنفٍ من الناس، وفي أي جسدٍ واهنٍ نقطعُها بجهدٍ جهيد. ليست الحياةُ إذن بالشيءِ الثمين. انظر إلى هَولِ فجوةِ الماضي مِن ورائك وإلى اللانهاية الأخرى من أمامك. ما الفرق من هذا المنظور بين رضيعٍ عاشَ ثلاثةَ أيامٍ ونستور[2] عاشَ ثلاثةَ أجيال؟

٤-٥١ اسلُكْ دائماً الطريقَ القصير. وطريقُ الطبيعةِ قصير[3].

---

(1) أشخاص يُفترَض أنهم كانوا معمَّرين، ولكن لم يتسنَّ لأحد من الباحثين التعرف عليهم بشئ من اليقين.

(2) ملك بيلوس وحكيم الإغريق في حرب طروادة كما جاء في "الإلياذة"، وقد حكمَ ثلاثة أجيال من الناس (الأوديسية: ٣-٢٤٥).

(3) استبصار موفق من ماركوس، يستبق ما صار يعرف بـ "مبدأ الاقتصاد" law of parsimony أو "نصل أوكام" الذي يهيب بنا أن نقتصد في المبادئ المفسِّرة، وبين أي نظريتين أو رأيين، ومع افتراض تساوي بقية الأمور، أن نأخذ بأكثرهما "اقتصاداً". وهو مبدأ تبينت فائدتُه الكبرى وجدواه الحقيقية سواء في الممارسة الفلسفية أو العلمية. إنه مبدأ يشير علينا بأن نتوقع من الطبيعة أنها تستخدم أقصر (أبسط) الطرق الممكنة للوصول إلى أية غاية لها.

وابتغِ ما هو أقومُ وأسلَمُ في كل قولِك وعملك. فمثلُ هذا العزمِ كـفيلٌ بأن يحـررَ المرءَ من العناءِ والجَهـدِ والاضطرارِ إلى التحايلِ والرياء[1].



(1) ربما يقـصـد أنه يضع عن المرء عبءَ الأمـل الواسع والطمـوح المفْـرِط اللذين يُجهِدانه ويُلجِئانه إلى المصانعة والتحايل.

5

الكتاب الخامس

٥-١ في الصباح، عندمـا تجد نفسَكَ غيـرَ راغبٍ في القيام، قلْ لنفسِك: "إنني أصحو من نومي لكي أؤدي عملي كإنسان. أمازِلتُ كارهاً أن أذهبَ لكي أؤديَ ما خُلِقْتُ من أجله وما وجِدتُ في العالم لكي أؤديه؟ أم تراني خُلِقْتُ لكي ألفَّ نفسي بالأغطيةِ وأبقى دافئاً؟

- "ولكن هذا أهنأُ وألَذ"

- أتراك إذن خُلِقْتَ لكي تنعمَ باللذة من دون أيِّ شيءٍ من العملِ والكَد؟ ألا تنظرُ إلى الأشياء من حولكَ - النبت، والطير، والنمل، والعناكب، والنحل[1] - كيف تسعى سوياً، كلٌّ في عملِه الخاص، لكي تحفظَ نظامَ

(1) يكثر ماركوس في "التأملات" من عقد المقارنات مع عالم الحيوان والنبات، واستخلاص الدروس من نظامه الطبيعي والغريزي المُحْكَم.

العالم، بينمــا تُعْرِضُ أنتَ عن عمــلكَ ككائنٍ إنساني، ولا تَخِفُّ إلى أداء ما تقتضيه طبيعتُكَ ذاتُها؟

- "ولكن المرء بحاجةٍ إلى الراحة أيضاً"

- حقاً إنه لَـبِحاجةٍ إلى الراحــة، غير أن الطبيــعةَ وضعت حدوداً للراحة، مثلما وضعت حدوداً للطعام والشراب، بينما أنت تتجاوزُ هذه الحدودَ، تتجاوز حاجتَك؛ أما في الأعمــالِ المَنوطَة بك فأنــت تُقَصِّرُ عن الحــدِّ وتقفُ دون الحــدِّ الأدنى من قدراتك. إنك إذن كــارِهٌ لنفــسِك، فلو كنتَ تحبها لأحببتَ طبيعتَكَ وإملاءاتها.

- "ولكن أولئك المحــبِّين لصنائعِهم يرهقــون أنفسَــهم في أدائِها فلا يغتسلون ولا يَطعَمون"

- ولكن اعتبارَك لطبيعتك أدنى من اعتبارِ الحدادِ لحرفة الحِدادة، والراقصِ لحرفةِ الرقص، ومحبٍّ المالِ لماله، ومحبٍّ الظهورِ لمجده الضئيل، على أن هؤلاء حين يأخذُهم الحماسُ يتجافون عن الطعام والنوم حتى يتقنوا الأشياءَ التي يَصبون إليها. أترى أنت أن العملَ لِصالِحِ الجماعةِ هو أقلُّ أهميةً من هذا وأقلُّ استحقاقاً للجُهد؟!

٥-٢ ما أَيْسَرَ أن تطردَ من عقلِك كلَّ انطباعٍ منغِّصٍ أو عارِضٍ وتمحوه محواً؛ وتنعمَ للتو بلحظةٍ حاضرةٍ مفعمةٍ بالراحة والسكينة[1].

٥-٣ قُلْ وافعلْ كلَّ ما تقتضيه الطبيعةُ واعلمْ أنه ملائمٌ لك أيضاً، ولا يَصرِفْكَ عنه مَلامٌ تتوقعُه من الناسِ أو من كلامِهم[2]. فمادام الشيءُ خيراً فافعلْه أو قُلْه ولا تستنكفْ من ذلك. فأولئك الناسُ إنما تحدوهم عقولُهم وتسوقُهم أهواؤهم. فلا تأبَهْ لها وامضِ قُدُماً في طريقِك، متَّبِعاً طبيعتَكَ الخاصةَ والطبيعةَ العامة: فطريقُ هاتين الطبيعتين واحدٌ.

(1) بالطبع هو يسيرٌ على الرواقي المتمرِّس الذي تدرَّبَ على محو الانطباعات أو إزالة الأحكام، وتحول ذلك عنده إلى طبيعة ثانية.

(2) توكيدٌ متواتر من ماركوس على استقلال إرادته الخلقية والعملية، وعدم الاكتراث برأي الآخرين أو بالصِّيتِ والشهرة، وعلى ألا يدَعَ هناءَه معلَّقاً على عقول الآخرين.

٥-٤ سأبقَى سائراً في طريقِ الطبيعةِ حتى أسقطَ وأخلدَ إلى الراحة، فألفظ أنفاسي الأخيرةَ في هذا الهواءِ ذاته الذي تنفستُه عبر أيامِ عمري، وأسقط على ذات الأرضِ التي مَنَحَت أبي بذرتَه ومَنَحَت أمي دمَها ومنحت مرضعتي لبنَها، الأرضِ التي أطعمَتْني يوماً بعد يوم وسقتْني سنواتٍ طوالاً. الأرضِ التي احتملت وطأتي عليها واحتملت مني كلَّ ضروب الإساءة.

٥-٥ تقولُ إنك تفتقرُ إلى حضورِ البديهةِ الذي تنتزعُ به إعجابَ الناس. حسنٌ، ولكن هناك خصالاً كثيرةً لا يمكنُ أن تتذرعَ بأنها لا تدخلُ ضمنَ قدراتك الطبيعية. فلتُظَهِّرْ إذن تلك الفضائلَ التي هي في حوزتِكَ بالكامل: الإخلاص، الوقار، الكَد، إنكار الذات، الرضا، الإحسان، الصراحة، القناعة، الطيبة، الاستقلال، البساطة، التعقُّل، الشهامة. أرأيتَ كم من الفضائلِ بوُسْعك أن تأتيها ولا تتملص منها بحجةِ افتقادِ الموهبةِ أو الملَكة ثم ماتزال راضياً بأن تقصِّرَ فيها عن الحد؟ وهل حقيقةُ افتقادك الموهبةَ الفطريةَ تبيحُ لك أن تتذمرَ وتُقَتِّر وتتزلفَ وتنحي باللوم على جسدكَ وتتملقَ الناسَ وتتباهى وتُوقِعَ عقلَكَ في هذا الاضطراب؟ كلا، بحقِّ السماء، لعله كان بوُسْعكَ أن تتخلصَ من كل هذا منذ زمنٍ طويل فلا تعابَ، إن أُعِبتَ، إلا بالعيِّ والفَهاهة. وحتى هذان بمقدورك أن تعالجهما ما لم تستنِمْ إلى العيِّ وتستمرئ الفهاهة.

٥-٦ مِن الناس مَن إذا أسدَى جميلاً إلى شـخص سارَعَ بتسجيله في حسابِه كَدَينٍ مسـتحق. ومنهم مَن لا يسارعُ بذلك غير أنه يُضمِر فـي نفسه أن هذا الشخصَ مَدِينٌ لـه ويَعِي جيداً بما فعـله. وهناك صنفٌ ثالثٌ هو بمعنى ما لا يعـي ما أتاه ولا يحشدُ له ذهنَه؛ وإنما هو كالكَرْمة التي أهدت عناقيدَها ولا ترتقبُ أيَّ مقابل[1]. الفرَس وقد أتم السباق، والكلب وقـد طارَدَ (اللصوص)، والنحلـة وقد أفـرغت عسلَهـا، والإنسانُ الذي أسدَى مـعروفاً- لا يَلْحَظُ أيٌّ مِن هؤلاءِ ما صنَعَ ولا يلتمسُ عليـه شهوداً، بل يمضي إلى فـعلٍ جديد كما تمضي الكرمةُ لتقـدمَ عناقيدَ جديدةً في الموسمِ الجديد. فلتكنْ واحداً من هؤلاء الذين يجتـرحون الخيراتِ دون أن يلاحظوها.

- "نعم ولكن هذا بالضبط مـا يجب أن يكونَ المرءُ واعياً به؛ لأن من شأن الإنسان_الحيوان الاجـتماعي أن يكونَ على درايةٍ بفعلِه الاجتماعي، وأن يهـيبَ برفاقِه حقاً أن يكونوا واعين به أيضاً"
- حقاً، غـير أنكَ أسأتَ فهمَ ما أعنيـه الآن، ولذا فسوف تقعُ ضمن إحدى الفئاتِ الأولى التي ذكرتُها؛ فهم أيضاً قد أضَلَّهم نوعٌ ما من المَنطقِ المعقول. ولكن إن شئتَ أن تتبع ما أعنيه فلا تخشَ من أن يفضِي بك إلى أي تقصيرٍ في الفعل الاجتماعي.

(1) الرحمة غاية في ذاتها، والفعل الرحيم ثوابُ ذاتِه.

٥-٧ يقول دعاء الأثينيين:

"أمطِرْ.. أمطِرْ أيها العزيز زيوس

أَمطِرْ على حقولِ القمح

وعلى سهول أثينا"

هكذا يجبُ أن يكونَ دعـاؤنا، بسيطاً وصريحـاً، وإلا فلا كان الدعاء[1].

٥-٨ مثلما نقولُ جميعاً إن الطبيبَ[2] قد "وَصَفَ" لهذا ركوبَ الخيل، ولهذا حماماتٍ باردةً، ولهذا المشيَ حافيَ القدمين_ فإن لنا أن نقولَ بنفسِ المعنى إن طبيعةَ الكلِّ قد "وَصَفَتْ" لهذا المرءِ المرضَ أو العجـزَ أو الفقدانَ أو أيَّ شيءٍ آخر من هذه البلايا. في الحـالة الأولى تعني كلمةُ "وَصَفَ" شيـئاً من هذا القبـيل: أن الطبيبَ قد أوصَى بهذا الإجـراءِ لهذا الشخصِ لكي يجلبَ له الصـحةَ. وفي الحالة الثـانية تعني

(1) يقال إن من أحداث العناية إبان حمـلات ماركوس ضد القادي على الدانوب، والمصورة على عـمود نصره في روما، استـجابة يوبيتر لدعـائه الأثني المذكور وإرساله عاصفـة رعدية وبرقاً مرَوِّعاً ومطراً هتوناً على أعـدائه اكتسح قواتهم ودمرها. وقـد عزا البـعض، بتاريخ لاحق، هذا النـصر إلى صلاة "الفـيلق الراعد" the Thundering Legion الذي كان يضـم كثيـراً من المسيـحيين، والذي سمي بهذا الاسم لهذا السبب. غير أن اسم "الفيلق الراعد" يعود إلى تاريخ أقدم، ومن ثم فإن هذا الشطر من الرواية بعيد عن الصدق.

(2) حرفياً: اسكليبيوس، إله الطب.

أن ما يقعُ لكل شخصٍ هو مدبَّرٌ بطريقةٍ ما لكي يُفْضِي إلى مصيره. ونحن نتحدث عن ملاءمة هذه الأحداث مثلما يتحدثُ البناءون عن ملاءمة قوالبِ الحجرِ في الجدران أو الأهرامات عندما يتراصُّ بعضُها فوق بعضٍ في وضعٍ معين.

ذلك أنه في كُلِّيةِ الأشياءِ ثمة توافقٌ واحد، ومثلما تتحد الأجسامُ المادية جميعاً لتجعلَ العالمَ جسماً واحداً، كلاً منسجماً، كذلك تتحد الأسبابُ جميعاً لكي تجعلَ القدَر سبباً منسجماً واحداً. ذلك شيءٌ يفهمُه حتى أقلُّ الناسِ علماً. فهم يقولون "القَدَرُ أحدثَ له هذا". فإن كان القدرُ "أَحْدَثَ" فقد "وَصَفَ" أيضاً. ولنقبلْ هذه الوصفات مثلما نقبلُ وصفاتِ الطبيب _فكثيراً ما تكونُ قاسيةً ولكننا نقبلُها التماساً للشفاء.

فلتأخذْ تمامَ الأشياءِ وكمالَها في تقدير الطبيعة مأخذَك لصحتك: واقبَلْ إذن كلَّ ما يحدثُ لك حتى لو بدا قاسياً بعض الشيء، مادامت غايتُه تؤدي إلى صحةِ العالم وازدهارِه وهنائه(1). فما كان لزيوس أن يُحدثَ هذا لذاك لو لم يكن فيه صالحُ الكل. وما كان لأيِّ مبدأٍ طبيعي أن يُحدثَ شيئاً غيرَ ملائم لما يحكمه.

ثمةَ إذن سببانِ يحملانك على الرضا بما يجري لك: الأول أن ما حَدَثَ لك كان موصوفاً لك، وهو متعلقٌ بك، خيط

(1) حرفياً: صحة زيوس وازدهاره وهنائه.

من القدَر مغزول لكَ منذ الأزل بأقدم الأسباب. والثاني أن ما يصيبُ كلَّ شخصٍ هو جزءٌ ضالعٌ في صلاحِ الكل واكتماله بل اتساقه مع نفسه. ذلك أن "الكل" يتشوه إذا أنت قطعتَ أدنَى كِسرة من سياقه واتصاله: يصدق هذا على أجزائه المكوِّنة كما يصدُقُ على أسبابه. وإنك لَتقطَعُ شيئاً _بقدر ما يمكنك ذلك_كلما تبرمتَ بنصيبك. إنك تُدَمِّر، بمعنى ما، وتُخَرِّب!

٥-٩ لا تَنْفُرْ وتَقنَطْ وتسخَط إذا لم تنجح في عملِ كلِّ شيءٍ كما تقتضي المبادئُ الصحيحة. ولكن كلما فشلتَ فَعُدْ مرةً ثانية، واقْنَعْ إذا كان الشطرُ الأكبرُ من عملكَ متَّسقاً مع طبيعة الإنسان. وأَحِبَّ هذا الذي تعودُ إليه. لا تَعُدْ إلى الفلسفة كما يعودُ الطفلُ إلى المعلم، بل كما يعودُ الأرمدُ إلى إسفنجته ومرهمه، أو يعودُ آخرُ إلى كمَادَته وغَسُوله. بذلك سوف تبرهنُ على أن إطاعةَ العقلِ ليست عبئاً كبيراً، وإنما هي مصدرُ راحة[1]. تَذَكَّرْ أيضاً أن الفلسفةَ لا تريدُ إلا ما تريدُه طبيعتُك، في حين تطلبُ أنت شيئاً يجافي هذه الطبيعة. فأي شيءٍ أَدْعَى إلى القبولِ من حاجاتِ طبيعتك نفسها؟ هذه هي ذاتُ الطريقة التي تخدعُنا بها اللذة: ولكن انظرْ ألستَ تَرَى شيئاً أكثرَ قبولاً في الشهامة

(1) الفلسفة عند ماركوس هي طب الروح؛ وعلى العقل أن يتداوى بها ويلتمس لديها الراحةَ والسكينة.

والكرمِ والبساطة والاتزان والتقـوى؟ وأيٌّ شيءٍ أكثرُ قبولاً من الحكمـة ذاتها إذا كـان ما يهـمك هو التدفق المطمـئن والدائم لملكتنا الخاصة بالفهم والمعرفة؟.

٥-١٠ لكأنما أُلقِيَ على الأشـياءِ حجـابٌ كثيفٌ حـتى لقد بَدَت لعددٍ غيـرِ قليلٍ من كبارِ الفلاسـفة غيرَ قـابلة للفهم على الإطلاق. وحتى الرواقيون أنفسُهم بَدَتْ لهم الحقائقُ عَصيَّةً على الفهم، وبـدا لهم كلُّ تصديقٍ عقليٍّ لإدراكـاتنا شيـئاً عُرضةً للخطأ[1]. فليس هناك مَن هو معصوم. التفت إذن إلى الأشيـاء ذاتها ـكم هي زائلة وتافهـة، حتى لَيـملكُها المأبونُ والبغِيُّ واللص، ثم التفت إلى أخـلاق مَن يعيشون معك. إنه لمن الصعبِ احتمالُ حتى أفضلِهم[2]، دَعْك مِن أن المرءَ لَيشُقُّ عليه حتى احتمالُ نفسِه.

في كل هذا الـضـلالِ والتـخـبط، في كل هذا التـدفقِ

---

(1) يتحـدث ماركوس عن الرواقيين وكـأنه ليس واحداً منهم! لقد كـان ماركوس رواقياً من غـير شك، ولكنه لم يكن يحب التحَزُّب والتمـذهب والطائفية في الفكر. وبوصفه امبراطوراً كان يرعى المدارس الأربع الكبرى جميعاً (الأكاديمية والمشائية والأبيقورية والرواقية) ويمولها على قدم المساواة.

(2) تُذَكِّرُنا بقول المتنبي:

كَلامُ أكثرِ مَنْ تَلْقَى ومَنْظَرُهُ   مما يَشُقُّ على الآذانِ والحَدَقِ

والفقرة تعكس توتراً صميمـاً في نفس ماركوس طوال "التأملات" بين واجب الرفق بالآخـرين واحتـمالهم وإرشـادهم من جهـة، وضجـره من معاصـريه واحتقارهم من جهة أخرى.

للوجـود . . الزمن . . الحـركة . . الأشـيـاء المتـحركـة . . يُعجِـزني أنْ أجدَ أيَّ شيءٍ جدير بـالتثمين أو جـدير حتى بالسـعي الجـاد. بل، على العكـس، ينبـغي على المرءِ أن يعلِّلَ نفسَـه بارتقابِ الخـلاصِ الطبيعي، وألا يضـجرَ من انتظارِه، وإنما يلتمسُ السلوى في هاتين الفكرتين فحسب: الأولى: أنه لن يصـيـبَني إلا مـا هو متـناغمٌ مع طبـيعـة "الكل"، والثـانية: أن بِوُسْـعِي ألا أقتـرفَ أيَّ شيءٍ فيـه عصـيانٌ لإلهي وللألوهة التي بداخلـي . . . لا يمكنُ لأحدٍ أن يرغمَني على هذا الإثم.

٥-١١ في أيِّ شيءٍ أستعمِل نفـسي الآن؟ سَلْ نفسَكَ هذا السؤالَ في كل مناسبة. تَفَـحَّصْ نفسَك. ماذا يدور الآن في ذلك الجزء من نفسي الذي يَسَمُّونه العقل الموجِّه؟ أي صنف من النفـوس لديَّ الآن؟ نفس طفلٍ، أم صـبي، أم امـرأةٍ، أم طاغية، أم حيوانٍ مستأنَسٍ أم حيوانٍ وحشي؟

٥-١٢ هاك طريقة لفهمِ نوعيةِ الأشياءِ التي تعتبرها الأغلبيةُ خيراً. فأنتَ إذا تَصَـوَّرتَ في ذهنِكَ الخيراتِ الحـقيقـيةَ ـمن مثل الحكمة والتعقل والاعتـدال والعدل والشجاعة ـفلن يَسَعَكَ عندئذ قبولُ القولِ الشائعِ "ثراءٌ طائلٌ لا يتركُ محلاً لقضاء الحاجة" ـإذ لا ينطبقُ هذا المثلُ في هذا المقام. غـير أنك حين تتصورُ في عقلِك ما تَعُدُّهُ الأغلبيةُ ضمن الخيرات فإنه مايزال بِوُسعِـكَ أن تسمعَ هذا القولَ من الشعـر الكوميدي

وتقبلَه من فورك كتعليقٍ صائبٍ[1]. حتى الأغلبية بوسعها أن تدركَ الفرقَ، وإلا لما كنا نأخذُ هذا القولَ، على ما يثيره فينا من استياء وامتعـاض، كتعليقٍ دالٍّ وظريفٍ يصفُ حالَ الثروةِ وامتيـازاتِ الفخامة والشهـرة. امضِ إذن واسألْ هل ينبغي أن نُثَمِّنَها ونَعُـدَّها خيراتٍ تلك الأشياءَ الـتي إذا ما تصورناها في أذهاننا جـاز لنا بحقٍ أن نَصِفَ صاحـبَها بأنه "بَلَـغَ من الوفرةِ مبلغاً لم يتركْ له محلاً يقضي فيه حاجتَه"؟!

٥-١٣ مكوَّنٌ أنا من صورةٍ ومادة. ولن تفني أيٌّ منهما وتصير إلى عدم؛ كـما أن أياً منهـما لم تأتِ من عـدم. إذن كلُّ جزءٍ مني سوف يقيَّضُ له مكانُه الجـديدُ في جزءٍ ما من العالم؛ وهذا الجزءُ سوف يـتغير بدورهِ إلى جزءٍ آخـر من العالم، وهكذا إلى غيـر نهاية. وثمة تسلسلٌ مماثلٌ من التـغير أتى

(1) الشـاعـر المقصـود هنا هو مـناندروس، رائد مـا كان يُعـرَف بـ "الكومـيـديا الجديدة"، والذي عـاش في القرن الرابع قـبل الميلاد وأدرك العـقد الأول من القرن الثالث قـبل الميلاد. وفي مسرحيـتـه "الشبح" The Ghost خلَصَ إلى هذه النتـيجة الجـافيـة التي يحملهـا هذا المثل الشعـبي المذكور. راجع أحـمد عتمان، الأدب الإغريقي، ص ٤٢١-٤٣٠ .

والاختلاف الجذري بين تصور العامة للخيـرات وتصور الفيلسوف لها يعد ثيمة محـورية في "التأمـلات"؛ فما يعـده عامـة الناس خيراً، كـالثروة والصـحة والشـهرة والمنازل والرِّياش وغـير ذلك من ضـروب المظهـر والزينة، يصنفهـا الفيلسوف الرواقي ضمن فئة "الأشياء الأسواء، أو غير الفارقة" indifferen-tia التي ليست بذاتها خيراً ولا شراً.

بي إلى الوجود، وبوالدَيَّ مِن قبل، وهكذا رُجُعاً إلى ما لا نهاية في الاتجاهِ المقابل. هذا حكمٌ لا ينقُضُه شيءٌ حتى لو كان العالم مقدراً له أن يمرَّ بدوراتٍ من العَود الأبدي.

٥-١٤ العقلُ وفنُّ إعمالِ العقل هما ملَكَتان تكفيان ذاتَهما بذاتِهما وبعملياتهما الخاصة. فهما تبدآن من المقدمة المعينة وتتخذان طريقهما إلى الغاية المقدرة لهما. لهذا السبب تسمَّي أعمالُ العقل "أعمالاً صائبة أو صحيحة" catorthoseis وهي لفظة تدل على أنهما تمضيان في الطريق الصحيح[1].

٥-١٥ لا شيء من هذه الأشياء ينبغي أن يُسمَّى "إنسانياً" تلك التي لا تنتمي إلى الإنسانِ بما هو إنسان. إنها لا تلزمه كإنسان، ولا تهيب بها طبيعةُ الإنسان. إنها ليست كمالات لهذه الطبيعة. ومن ثم فهي لا تشكلُ غايةَ الإنسانِ أيضاً، ولا حتى أية وسيلة لهذه الغاية الإنسانية التي هي الخير. وفضلاً عن ذلك، إذا كانت أيٌّ من هذه الأشياء تنتمي إلى الإنسان لَما حَقَّ لأيِّ امرئ أن يزدريها أو يَصْدفَ عنها، ولما كنا نُطْرِي أيَّ امرئٍ يُبدِي استغناءَه عنها لو صَحَّ أنها خيراتٌ حقاً، ولما أمكنَ لمن يزهدُ في أيٍّ منها أن يكونَ امرءاً صالحاً. ولكن الحقيقة أنه كلما حَرَمَ المرءُ نفسَه من هذه الأشياء وأشباهِها، أو حُرِمَ من أيٍّ منها، كان أصبرَ عنها وأكثرَ احتمالاً لفقدانها، وكان بنفس الدرجة.. أكثرَ إنسانية.

(1) إعمال العقل محكُّه الترابط coherence والاتساق.

٥-١٦ كيفمـا تكونْ أفكارُكَ المعتادة تكونْ طبيعـةُ عقلكَ: فالنفسُ تصطبغُ بالأفكار[1]. اصبغْ نفسَك إذن بسلـسلةٍ متصلة من الأفكارِ مثل هـذه: حيثـما أمكن الإنسانَ أن يعـيشَ أمكنَه أيضاً أن يـعيشَ حيـاةً صالحـة. ولكنَّ عليه أن يعـيشَ في قصر ـإذن بوُسعه أن يعيشَ في القصر حياةً صالحة.

مرةً ثـانية: كلُّ مـخلوقٍ إنما خُلِقَ من أجلِ مخلـوقٍ آخر. ومـسارُه مـوجَّـهٌ إلى ذلك الذي خُلِقَ من أجله. وغـايتُـه تكمُنُ في ذلك الذي يتجهُ إليه مسارُه. وحيثما كانت غايتُه فَثَمَّ أيضاً خيرُه وصـلاحُه. ينتجُ من ذلك أن خيرَ المخلوقِ العاقلِ هو الجماعة. ولقد طالما انعقدَ الدليلُ على أننا خُلقْنا للجمـاعة. أليس من الواضحِ أن المخلوقاتِ الدنيـا جُعلَت من أجل المخلوقـاتِ العليـا، والعليـا من أجل بـعضـهـا البعض؟ ولكن الأشياء الحية أعلى من غير الحية، والأشياء العاقلة أعلى من مجرد الحية[2].

(1) الأفكار تصبغ الروح.. صورة بديعة لماركوس تلخص فلسفات أخلاقية ونماذج علاجـية بأسرها. فإذا كـانت طبيعـة الإنسان الأولى ممنوحة له مـسبقاً، فـقد تُركَت له طبيعته الثـانية لكي يصنعها بنفسه، باعتيـاد الأفكار القويمة الصائبة؛ ومن هنا تأتي أهمية الفلسفة بوصفها طب العقول.

(2) "التـراتب الطبيـعي" للكائنات أو سلَّم الطبـيعـة" scala naturae مصـادرة أساسيـة في فكر ماركوس الأخلاقي: فـالكائنات الحية أعلى من غيـر الحية، والكائنات الحية العاقلة أعلى من الكائنات الحية غير العاقلة، وكل فئة في هذا التراتب تعد غاية بالنسبة لما تحتهـا، ووسيلة أو أداة بالنسبة لما فوقها. وهــي =

٥-١٧ طَلَبُ المُحالِ جنونٌ. ومحالٌ على الشرير أن يعملَ على غيرِ شاكلَته.

٥-١٨ لن يصيبَ الكائنَ أيُّ شيءٍ لم تؤهلْه الطبيعةُ لتَحَمُّله. هاك شخصٌ آخَرُ أصابه ما أصابكَ. ولأنه لا يدركُ ما وقعَ له أو لأنه يتجمَّلُ ويتظاهرُ بالشجاعة فهو يبقى هادئاً. أليس من المؤسفِ إذن أن يكونَ الجهلُ والادِّعاءُ أقوى من الحكمة؟!

= مصادرة قابعة، على نحوٍ صريح أو مضمر، في فكر معظم الناس منذ القدم. غير أننا لا نعدم مَن رفضَ هذه المصادرةَ في الأزمنة القديمة ولم يُسَلِّمْ بها. فالمعري، على سبيل المثال، أنكر على الإنسان أن يستعمل غيرَه من الكائنات كطعام أو أن يقتله دون ذنبٍ اجتناه أو يسلبه ما ادخره لنفسه؛ وقال في ذلك:

تَسْريحُ كَفِّكَ برغوثاً ظَفرْتَ بـه | أَبَرُّ منْ درهَمٍ تُعْطيه مُحْتاجـا
لا فَرْقَ بَيْنَ الأَسَكِّ الجَوْنِ أُطْلقُهُ | وَجَوْنِ كنْدَةَ أَمْسَى يَعْقدُ التَّاجـا
كلاهما يَتَوَقَّى، والحياةُ لـه | حَبيبَةٌ، وَيَرُومُ العَيْشَ مُهْتاجـا

ويقول أيضاً:

تَقِ اللهَ حتى في جَنَى النحلِ شرْتَهُ | فما جَمَعَتْ إلا لأَنْفُسها النَّحْلُ

وفي العصور الحديثة كثر مَنْ يتحدى هذه المسلَّمةَ حتى صرنا على إلفٍ بآراء النباتيين ممن يُجَرِّمون قتل الحيوانات لأكل لحومها واستغلال جلودها.. إلخ. وصرنا على إلفٍ بمصطلحاتٍ جديدة من مثل speciesism أي التعصب للنوع (الإنساني)، و bio-chauvinism أي التحَزُّب للقسم الحي من الكائنات على حساب الكائنات الجامدة (كالحواسيب المعقدة التي ينبغي أن تُعامَلَ بإجلال شأن الكائنات الحية)، ذلك التحزب الذي سَوَّلَ للإنسان أن يخرب الطبيعةَ ويستنزفها ويُخِلَّ بتوازنها.

٥-١٩ لا يمكن للأشياء ذاتها أن تَمَسَّ النفسَ أقلَّ مساس. ليس لَدَى الأشياءِ مدخلٌ إلى النفس وليس بمُكْنَتِها أن تديرَ النفسَ أو تحركَها. إنما النفسُ تديرُ ذاتَها وتحركُ ذاتَها، وتقيمُ لنفسِها ما تراه ملائماً من الأحكام على ما يَعرِض لها من أشياء(1).

٥-٢٠ من جهة، أَعُدُّ الإنسانَ هو أقربَ شيءٍ لي مادام عَلَيَّ أن أفعلَ الخيرَ للبشر وأن أحتملَهم. ولكن إذا جعل البعضُ من أنفسهم عقباتٍ أمام أفعالي الصالحة يصبحُ الإنسانُ بالنسبة لي شيئاً من ضمن "الأشياء الأسواء"(2) (غير

(1) النفس مُحَصَّنَةٌ من الأحداث أو الظروف الخارجية، لا ينالها إلا الأحكام التي يُضْفيها العقلُ، باختياره، على هذه الأحداث والظروف. ليس بمُكْنَة الأشياء أن تطالَ العقل؛ فهي خارجية وخاملة، وإنما يأتينا القلقُ، إذ يأتي، من أحكامنا الداخلية.

(2) الأشياء الأسواء أو السواسية أو اللافارقة indifferentia مفهومٌ محوري في فلسفة ماركوس الأخلاقية والعملية، وفي الفلسفة الرواقية بعامة. وهو يقدم لها في مَساقِ تأملاته تعريفات ضمنية عديدة: فهي "الأمور المحايدة أخلاقياً"، و"ليس خيراً ولا شراً ذلك الذي يجري بالتساوي على الأخيار والأشرار"، "الأشياء التي لا تنتمي إلى الإنسان بما هو إنسان"، "كل ما لا ينتمي إلى نشاط العقل في اللحظة الحاضرة"، "الأشياء التي تعاملها طبيعةُ العالم بعدم اكتراث"، أي التي تحدث، على نحو محايد، بواسطة العلة والمعلول، لكل ما يأتي إلى الوجود. من أمثلة "الأشياء الأسواء": الموت والحياة، الشهرة والخمول، الألم واللذة، الغنَى والفقر، المديح، والسلطة. وقد ميَّزَ الرواقيون فئةً من الأشياء الأسواء بوصفها "مفضلة"=

الفـارقة) indifferentia، شـأنه شأن الشـمسِ أو الريح أو الحيوان البري. قد تعيقني هذه الأشياءُ عن بعض نشاطي، نعم ولكنها لا تشكل عـوائقَ أمام وجداناتي ونوازعي، من حيث إن بها يقبعُ الالتزامُ المشروطُ وقوةُ التكيف. إن العقلَ لَيتكـيفُ ويدورُ حول أيِّ عائقٍ لـلفعل لكي يخـدمَ هدفَه: فيحـول ما هو عائقٌ عن عملٍ معَـيَّنٍ إلى مُعِينٍ على ذلك العمل، ويحـول العقـبةَ في طريقٍ ما إلى تقـدمٍ على تلك الطريق.

٥-٢١ وَقِّر القـوةَ الجوهريةَ في العـالم: إنها مـا يُصَرِّفُ الأشـياءَ جميـعاً ويوجهُ الأشيـاءَ جميعاً؛ على أن توقِّـرَ بالمثل القوةَ الجوهريةَ في نفـسك: فهذه مثيلةُ لتلـك. وهذه فيكَ أيضاً هي ما يصرف كل ما عداها، وحياتُكَ موجَّهةٌ بها[1].

٥-٢٢ ما لا يضير المدينةَ لا يضير مـواطنيها أيضاً. ومتى وقع في ظنِّكَ أن قد مَسَّكَ ضرٌّ فطَبِّقْ هـذا المعيار: إذا كانت المدينةُ

= preferable indifferents وهي الأشياء التي نفـضلها "للوهلة الأولى" prima facie حين "تستوي بقية الظروف" ceteris paribus والتي يعتبرها أغلب الناس خيراتٍ حقيقية، وهم في ذلك مخطئون.

(1) من متـرادفاتها عـند ماركوس: "الروح العـاقلة"، "العقل الموجِّـه"، "القوة الحاكمة"، "الألوهة بداخلنا"، "المبدأ المرشِد بداخل الإنسان والذي يشارك به الآلهة"، "ذلك الجـزء من الإنسان الذي منحه زيوس لكل فرد لكي يـحرسه ويهديه". ينبغي أن يكون هذا الجزء الإلهي من الإنسان مستقلاً عن ماجريات الجسد ومحصناً من تقلباته.

بخيـر فأنا إذن بخـير. أمـا إذا لحق أذى حقاً بالمـدينةِ فإن عليك ألا تغـضبَ بل أن تُبيِّنَ لمرتكبِه مـا عجـزَ عن رؤيتِه بنفسِه.

٥-٢٣ انظرْ مَليّـاً كـيف يُزاحُ كلُّ مـا هو قائمٌ وكـلُّ ما هو قـادمٌ ويصيـرُ ماضيـاً ويزولُ زوالاً. الوجودُ مثـلُ نهرٍ في تدفقٍ دائم، وأفعالُه تَعاقُبٌ ثابتٌ للتغـير! وأسبابُه لا تُحصَى في تنوعها. لا شيءَ يبقى ثابتاً حتى ما هو حاضرٌ عَتيد. تَأَمَّلْ أيضاً الهُوَّةَ الفاغرةَ للماضي والمستقبل التي تبتلعُ كلَّ شيء. أليس بأحمقَ مَن يعـيشُ وسطَ هذا كلِّه ثم تحَدِّثُه نفـسُه أن يَلِجَّ فـي الأمل أو يهلكَ في الـكفـاح أو يسـخـطَ على نصيبِه؟! وكأنَّ أيَّ شيءٍ من هذا دائمٌ له أو مُقدَّرٌ أن يُؤرِّقَه طويلاً.

٥-٢٤ انظرْ في الوجودِ كلِّه _الذي أنتَ أصغـرُ أجزائه؛ وانظرْ في الزمان كلِّه، الذي قُسِمَتْ لكَ منه لحظةٌ وجـيزةٌ وهاربة؛ وانظر في القَـدَرِ وما هو مـعقـودٌ بالقدَر، وكم أنتَ جـزءٌ ضئيلٌ منه.

٥-٢٥ هل أساء إليَّ شـخصٌ آخر؟ دَعْهُ وشـأنَه. إنه سيـدُ نزعاتِه وسيدُ أفعاله. أما أنا فأملكُ ما تقـتضيني الطبيعةُ الكليةُ أن أملك، وسوف أفعلُ ما تقتضيني طبيعتي أن أفعل.

٥-٢٦ ينبغي أن يبقى الجزءُ الموجِّهُ والحاكمُ مِن نفسِكَ محَصَّناً مِن أي مجرى يجري في الجسد.

٥-٢٧ "عِشْ مع الآلهة"، وإنه لَيعيشُ مع الآلهة ذلك الذي يرون أن روحَه قانعةٌ بنصيبِها، تؤدي ما تمليه الألوهةُ.. ذلك الشطرُ من نفسه الذي وَهَبَه زيوس لكل شخصٍ لكي يحرسَه ويرشدَه. هذه الألوهةُ في كلٍّ منا هي فهمُه وعقلُه.

٥-٢٨ هل أنت محنقٌ على الرجل المُنْتن أو الأبخر؟ ماذا تريده أن يفعل؟ هكذا حالُ فمِه وهكذا حالُ آباطِه. ومن المحتم أن تنبعثَ هذه الروائحُ من هذه الأشياء.

- "ولكنه أُعطِيَ عقلاً بِوُسعِه إذا شاء أن يكتشفَ مكمنَ الأذى منه"

- أفادَكَ اللهُ، إذن أنتَ أيضاً لستَ أقلَّ منه عقلاً. فليكن عقلُكَ محفزاً لعقله وأَظْهِرْه على خطئه، ابذُلْ له النُّصْحَ. فإذا ما استمعَ إلى نصحك فسوف تُبْرِؤه من دائِه، ولا داعيَ إلى الغضب. لا تكنْ منافقاً (تتجنب المسألة) ولا بَغِياً (تحتملها)!

٥-٢٩ بمقدوركَ أن تعيشَ هنا في هذا العالمِ تماماً مثلما تعتزمُ أن تعيشَ إذا ما غادرتَه. ولكن إذا لم يكن ذلك متاحاً لك فإن عليك أن ترحلَ عن الحياة ذاتها ـ على ألا ترحلَ كما

لو كـان ذلك إحـدى البـلايا "الحـريقُ يدخن فـأُغـادرُ المنزلَ"(1). لماذا تَعُدُّ ذلك أمراً جَلَلاً؟

ولكن مادمـت غيرَ مـضطرٍّ لمثلِ ذلك فلسوفَ أبـقى رجلاً حراً لا يملكُ أحدٌ أن يمنعنى من أن أفعلَ ما أَوَدُّ فعلَه: وما أود فـعله هو أن أتبعَ مـا تمـليـه طبـيـعـةُ الكائنِ العـاقل والاجتماعي.

٥-٣٠ فكْرُ "الكل" هو فكرٌ اجـتمـاعي. ومن المتيقَّـنِ أنه جَعَلَ الأشياءَ الدنيا من أجلِ الأشياءِ العليا، وسَلَكَ الأشياءَ العليا في تناغمٍ بعـضها مع بـعض. ألا ترى كيف سَخَّـرَ بعضَ المخلوقـات، ونَسَّقَ بين الـبعـض، ووضَعَ كـلاً في مكانهِ اللائق، وضَمَّ الكائناتِ العليا معاً في وَحدة العقل؟

٥-٣١ كيف كـان مسلكُكَ حـتى الآن تجاهَ الآلهـة، وتجاهَ والديك وإخوتِك وزوجِك وأبنائك ومعلمـيك ومربيك وأصدقائك وأقاربك وخدَمِك؟ هل كـان مبدؤكَ مع كل هؤلاء هو "لا تؤذِ إنساناً بـالقولِ ولا بالفعل"؟ ذَكِّـرْ نفسَك كم قـاسَيتَ وكم تحمَّلْت، وأن روايةَ حياتك قد تَمَّت الآن وخدْمَتَك قد انتـهت، وكم شـهدتَ من جَـمـالٍ، كم ازدريتَ من لذةٍ وألم، وكم ازدريتَ من مـجدٍ، وكم كنتَ طيـباً مع غـيرِ الطيبين.

(1) الاقتباس من إيكتيتوس.

٥-٣٢ لماذا تَعْمدُ النفوسُ الجاهلةُ والحمقاءُ إلى مضايقةِ مَن لديه معرفةٌ وحكمة؟ حسنٌ، أيةُ نفسٍ إذن تلك التي لديها معرفةٌ وحكمة؟ إنها تلك النفسُ التي تعرف الأصلَ والغاية، وتعرف "العقل" الذي يتخلَّلُ الوجودَ كلَّه ويديرُ العالمَ عبر الزمانِ كلِّه في دوراتٍ ثابتة.

٥-٣٣سرعان ما ستصيرُ رَماداً أو عظاماً، مجردَ اسمٍ أو حتى لا اسم، والاسمُ ماذا يكونُ غيرَ صوتٍ وصدى؟ وكلُّ ما نُعليه ونُغليه في الحياةِ هو شيءٌ فارغٌ وعفنٌ وتافه: جِراءٌ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، وأطفالٌ تتشاجر.. تضحكُ.. وما تلبثُ أن تبكي. أما الإخلاصُ والشرفُ والعدلُ والصدقُ فتفرُّ "إلى أوليمبوس من كل أرجاءِ الأرض المترامية"(1).

إذن ماذا تَبَقَّى لنا هنا لِنَبقَى؟ إذا كانت موضوعاتُ الحسِّ متبدِّلةً دوماً ولا تبقى على حال، وأعضاءُ الإدراكِ كليلةً مضلِّلة، والنفسُ المسكينةُ ذاتها مجردَ بخرةٍ من الدم، والصِّيتُ في هذا العالم شيئاً فارغاً. لماذا إذن لا تَرتقبُ نهايتَك ساكناً مطمئناً فإما فناءٌ وإما تحوُّل. وإلى أن يحين ذلك فماذا يلزمنا؟ أن نمجِّدَ الآلهةَ ونحمدَها(2)، وأن نصنعَ الخير

(1) عن الشاعر التعليمي هيسيودوس (حوالي ٧٠٠ ق.م.) - "الأعمال والأيام". انظر أحمد عتمان، الأدب الإغريقي، ص ١٠٨-١٢٨.

(2) يقول إبكتيتوس: "لو كنتُ عندليباً لقمتُ بمهنة العندليب؛ لكنني كائنٌ عاقلٌ، فينبغي أن أقوم مسبحاً لله حامداً له أفضاله. تلك مهنتي، وأنا مؤديها، ولا أتنحى عنها ما حييت".

للبشر، وأن نتـحمَّلَ ونتزهَّد(1)، وأن نتذكرَ أنَّ كلَّ ما يقعُ في حـدودِ جسمِـنا المسكينِ وأنفاسِنا القـليلةِ ليس ملكاً لنا ولا في طائلةِ قدرتِنا.

٥-٣٤ بِوُسعِكَ أن تقضي حياتَك في فـيضٍ متدفقٍ من السعادة إذا أمكنَك أن تمضي في الطريقِ القويم، وأن تتبعَ طريقَ العقلِ في أحكامِك وأفـعالِك. ثمة شـيئان تشـتركُ فـيها جـميعُ الأنفسِ العاقلة - بشراً وآلـهة: أنها مـحصنةٌ من الـعوائقِ الخـارجيـة، وأن الخيَـر الذي تطلبُـه يقـبَعُ في النزوع إلى العدالة وممارستِها، وأنها لا ترغبُ فيما عدا ذلك.

٥-٣٥ مـادام هذا ليـس إثمـاً من جـانبي ولا هو نـتـاج لإثمي، ومادامت الجماعة بخيـر، فلماذا أُعَنِّي نفسي به؟ وأي ضير منه على الجماعة؟

٥-٣٦ لا تَدَعِ انطباعَ الحزنِ لدى الآخرين يأخذك بعيداً دون تمييز. أَعِنْهم نعم، كـأفضل مـا يكون العونُ وبقـدر ما يقـتضي الموقفُ، حـتى لو كـان حزنهم هو لفـقـدان شيءٍ "غيـر فارق" .indifferent ولكن لا تتوهمْ أن ما فقدوه يمثل ضرراً حقيقياً_تلك عادةٌ سيئةٌ في التـفكير. بل عليك أن تقتديَ بذلك الرجلِ العجوز فـي المسرحية إذ طَلَبَ استـردادَ لعبةِ

(1) مبدأ إبكتيتوس، الصبر على الأشـياء والصبر عنها، ويعني الأشياء التي تخرج عن مقدورنا.

مُتَبَنّاه في الـنهاية، دون أن ينسى قَطُّ أنها مجـردُ لعبة[1].
فلتفعلْ أنت أيضاً في حـالتِك هذه مثلَ فعله. عندما كنتَ
تصرخُ على المنبر أكنتَ قد نسيتَ كم تساوي هذه الأشياء؟

- حسن، ولكنها مهمةٌ عند القطيع"

- وهل هذا يبررُ أن تشاركَ القطيعَ حماقتَه؟

٥-٣٧ - "كنتُ ذاتَ يومٍ رجـلاً محظوظاً، لا يتـخلى عني الحظُّ
في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة؛ واليومَ تخلى عني لا أعلمُ كيف"

- ولكن كلمة محظوظ تعني ذلك الرجلَ الذي حدَّدَ لنفسه
حظاً سعيداً؛ والحظ السعيد هو نزوعُ النفسِ إلى الخير،
هو الوجداناتُ الخَيِّرَةُ والأفعالُ الخَيِّرة.

---

(1) إشارة مـبهمة من مـاركوس؛ فلا هذه المسرحـية ولا هذه الحكاية معـروفة لنا الآن. وربما نخلص مـن الشـذرة إلى أن من الواجب أن نعـين الآخـرين في حصـولهم على ما فـقدوه من أشيـاء غير جـوهرية، على أن نحتـفظ بموقفنا الخاص فلا تعدينا انفعالاتهم وأحكامهم تجاه الأشياء الأسواء (غير الفارقة).

6

الكتاب السادس

٦-١ مادةُ "الكل" مُذْعِنةٌ مطواع. والـعقلُ الذي يُوَجِّه هذه المادةَ ليس لديه ما يدعوه إلى فعل الشر. فليس به شرٌ ولا يُلْحِقُ شراً بأي شيء ولا يُضارُّ به أيُّ شيء. غـير أن كلَّ الأشياء تبدأ وتنتهي وَفقاً لهذا العقل.

٦-٢ مادمتَ تؤدي واجـبَك فلا تعـبأْ بما إذا كنتَ بارداً أو دافـئاً، نعسانَ أو يـقظاً، يمدحك الناسُ أو يذمونك، وبما إذا كنتَ تُحـتـضَـر أو تفـعلُ شـيئـاً آخـر! فـحـتى هذا. . فـعْلُ الاحتضار. . هو أحدُ أفعالِ الحياة. . وبحسبِكَ هنا أيضاً أن تتقِنَ ما تفعله جُهْدَ ما تستطيع.

٦-٣ انظر إلى الداخل: لا تدعْ نوعيةَ أيِّ شيءٍ ولا قيـمتَه تفلتان منك.

٦-٤ يوشك كلُّ ما هو موجودٌ أن يتغيـر. فإما أن يتحولَ بخاراً، إذا كانت المادةُ حقاً واحدة، وإما يتبدد ذراتٍ.

٦-٥ العـقلُ المدبِّر يعرفُ مـا يريد، ومـا يعمل، وعلى أي مـادةٍ يعمل.

٦-٦ أن تأبى أن تكونَ مـثلَ مَـن أسـاءَ إليك.. ذلك هو خـيـرُ انتقام.

٦-٧ لتكنْ بهجتُكَ وراحـتُكَ في شيءٍ واحد: أن تمضي مِن عملٍ اجـتمـاعي إلى عملٍ اجـتمـاعي آخر، واللهُ في خـاطرِك وضميرك.

٦-٨ العـقلُ الموجِّـه هو ذلك الذي يوقظُ نفـسَه ويُكَيِّـفُ نفسَـه، ويُضفِي على نفـسِه الطبيـعةَ التي يريدها، ويجـعل كلَّ ما يحدث له يبدو على النحو الذي يريده.

٦-٩ كلُّ شيءٍ يتمُّ وَفقـاً لطبيعة "الكل"، فـمن المؤكد أنه لا يتم وفقاً لأي طبـيعةٍ أخرى سـواء كانت طبيعـةً تَفهم هذه من

الخارج، أو كانت طبيعة تُفهم داخل هذه الطبيعة، أو طبيعة خارجة عن هذه ومستقلة عنها.

٦-١٠ الكونُ لا يخرجُ عن حالين اثنين: فإما أنه فوضى واضطرابٌ وتشتتٌ (إلى ذرات)، وإما أنه وحدةٌ ونظامٌ وعناية. فإذا صحَّ الافتراضُ الأولُ فلماذا أرغبُ في المكوثِ في عالمٍ مركبٍ عشوائياً ويعاني من مثلِ هذا الاختلاط؟ ولماذا أُعَنِّي نفسي بشيءٍ آخر غير تحولِ الترابِ إلى تراب؟ وفيم يخالجُ نفسي اضطرابٌ؟ فالتناثر سوف يصيبني إذن مهما فعَلْت. وإذا صَحَّ الافتراضُ الثاني أقدمُ إجلالي، واقفاً ثابتاً لا أتزعزع، متوكلاً على مَن بيدِهِ تصريفُ كلِّ الأمور.

٦-١١ إذا قَذَفَتْ بك الظروفُ في نوعٍ من الكَرْبِ فعُدْ إلى نفسِكَ سريعاً، ولا تبقَ خارجَ الإيقاعِ أطولَ مما ينبغي، فسوف يزدادُ تمكنُك مِن التناغمِ بدوامِ العودةِ إليه.

٦-١٢ إذا كان لك زوجةُ أبٍ وأمٌّ في الوقتِ نفسِه، فسوف ترعَى زوجةَ أبيكَ ولكن التجاءَك الدائمَ سيكون إلى أمك. فليكن البلاطُ والفلسفةُ بالنسبةِ لك كزوجة الأب والأم؛ لتكن الفلسفة لك ملاذاً دائماً ومُستَراحاً ومَوْئلاً، حتى تجعلَ القصرَ يبدو محتمَلاً لك، وحتى تبدو أنتَ محتملاً في القصر.

٦-١٣ ما أطيَبَ، عندما يكونُ أمامك لحمٌ مشوي أو ما شابه من الأطايب، أن تستحضِرَ في ذهنِكَ أن هذا جثةُ سمكة، وهذا جثةُ طائرٍ أو خنزير، ثم أن هذا النبيذَ الفاليرني[1] مجردُ عصيرِ عنب، وأن رداءَك الأرجواني ليس أكثرَ من فِراءِ خروفٍ منقوع في دمِ المحار! وفي الجماعِ أنه ليس أكثر من احتكاكِ غشاءٍ ودفقة مخاط. ما أنجحَ هذه الإدراكات في الوصول إلى قلبِ الشيءِ الحقيقي والنفاذِ فيه ورؤيته كما هو. كذلك فليكنْ دأبُكَ طوالَ حياتك: حيثما تَبَدَّت الأشياءُ خَلابةَ المظهرِ فجَرِّدْها وتَفَرَّسْ في طبيعتها الزائفة واخلعْ عنها كل دعاوى الزهو والخيلاء[2]. الخيلاءُ هي أعظمُ مفسدٍ للعقل: وحيثما تكنْ واثقاً كلَّ الثقة في أهمية عملك تكنْ في الوقت نفسه مخدوعاً بها كلَّ الخداع. فلتنظرْ إذن ماذا قال أقراطيس (كراتيس) عن زينوقراطيس (كيسنوكراتيس) نفسه[3].

---

(1) نبيذٌ فاخر كان يُنتَج في شمال كمبانيا جنوب غرب إيطاليا.

(2) التحليل الرَّدِّي (الاختزالي) reductive analysis، أو التجريد والتعرية وصولاً إلى جوهر الأشياء ولُبابِها، المنهج الذي أوصى به ماركوس نفسَه في مواضع عديدة من "التأملات".

(3) أقراطيس Crtes فيلسوف كلبي وشاعر عاش في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م؛ وغير معلوم لنا ماذا قال له زينوقراطيس xenocrates؛ ولكننا نستشف من النص أنه وبخه على زهوه وادعائه، رغم أن زينوقراطيس كان معروفاً بتواضعه حتى قيل عنه إنه "أقل البشر رياءً".

٦-١٤ معظمُ الأشيـاءِ التي تُعجِبُ العوامَّ تنتمي إلى أشـدِّ الفئاتِ عموميةً، تلك التي تنضوي معاً بالـ "التماسك" cohesion أو بالنماء الطبـيعي: مثل الحـجارة والخشب وشـجر التين والكروم والزيتون. أمـا الأشياءُ التي تُعجِبُ مَن هم أكـثرُ عقلانيـةً بقليلٍ فتنتمي إلى فئةِ الأشـياءِ التي يجمعُهـا مبدأُ الحياة: كالقطعان والأسـراب. أما التي تعجب مَن هم بَعْدُ أكثرُ رُقِيـاً فتنحصرُ في المخلوقاتِ العـاقلة، ولكن بقدرِ ما يسعفها العقلُ في حرفةٍ يدويةٍ أو أيةِ مهارةٍ أخرى، أو شأن المولعين بمجردِ امتـلاكِ جمعٍ من العبيـد. أما الإنسان الذي يقدرُ الروحَ حقَّ قـدرِها من حيث هي عاقلةٌ وسيـاسيةٌ في آن فـلا يعنيـه إلا أن تظلَّ روحُه فـي حالةِ نشـاطٍ عـقلي واجـتمـاعي دائم، وأن يتـعاونَ مع أضـرابِه من أجلِ هذه الغاية.

٦-١٥ بعضُ الأشـياء تَحُثُّ الخطوَ إلى الوجـود، وبعضُهـا يحثُّ الخطوَ إلى الخـروج منه، وبعض مـا يولد يكون هالكاً من الأصل. التجـددُ والتغيـر يجددُ العالمَ على الدوام، كـما يجددُ المسيرُ الدائبُ للزمن أمَدَ العصور إلى الأبد. في هذا التيارِ المتـدفق، حيث لا ثباتَ لِقَدَم، مـاذا يمكن للمرء أن يُجِلَّ من كل ما يتدافع أمامَه؟ لكأنه ما يكاد يُولَعُ بعصفورٍ يطير أمامَـه حتى يكونَ قد اختفى عن بصره. شـبيهٌ بذلك حياتُنا نفسُها ـعابرة كزفيرٍ من الدم أو كشهيقٍ من الهواء.

لا فرق بين شهقة تأخذها وتعيدها إلى الهواء، مثلما تفعل كلَّ لحظة، وبين أن تردَّ كلَّ قدرتك التنفسية، التي اكتسبتَها عند ولادتك أمسِ أو أمس الأول، إلى العالم الذي سحبتَها منه أولَ مرة.

٦-١٦ لا فضلَ في النَّتْح، كما هو الحال في النبات، ولا في التنفس كما في الأنعام والوحوش، ولا في تلَقِّي الانطباعات الحسية بمظهر الأشياء، ولا في التحرك بالرغبات كما تتحرك الدُّمَى بالخيوط. ولا في التجَمُّع القطيعي، ولا في تناول الغذاء (فلا فرق في شيءٍ بين فعلِ الغذاء وفعلِ إخراجِ فضلات الغذاء). أي شيء إذن ينبغي أن نفضِّلَه ونُعلِي قَدرَه؟ أن نُستقبَل بالتصفيق؟ كلا، ولا أن نُستقبَل بهتافِ الألسنة، فهتافُ الجماهيرِ هو مجردُ تصفيقٍ بالألسنة. إذن فقد اطَّرَحْتَ زيفَ المجدِ أيضاً. فماذا يبقى هناك ذا قيمة حقيقية؟ يبقى هذا من وجهة نظري: أن تفعل، أو تُحجِمَ عن الفعل، وفقاً لفطرتك الحقة، الفطرة التي إلى غايتها تُفضِي كلُّ الأعمال والفنون. فكلُّ فنٍ يَتَغَيَّا أن يكيِّفَ الشيءَ المصنوعَ للعمل الذي من أجلِه صُنِع. الكَرَّامُ الذي يَعتني بالكرم، وسائسُ الخيل ومربي الكلاب.. كلُّهم يرمون إلى هذه الغاية. فماذا تكون الغايةُ التي ترمي إليها تربيةُ النشء وتعليمهم؟

هاهنا إذن تكمنُ القيمةُ الحقيقية: وإذا أنت قبضتَ على

هذه القيمةِ فلن تصبو إلى اكتسابِ أيِّ شيءٍ آخر، ولن تعودَ تُعلِي من شأنِ كثيرٍ من الأشياء الأخرى إلى جانبها. وإلا فلن تكونَ حراً أو مكتفياً بذاتك أو خالياً من الانفعال، وستُضطر إلى الحسد والغيرة والتوجس ممن لديهم القدرةُ على أن يَسلبوا منك هذه الأشياء، والتآمر على من يملكون ما تراه ثميناً. وباختصار، فكل من يشعر بالحاجة إلى أي شيء من هذه الأشياء يكون بالضرورة منغَّصَ العَيش، بل سيدفعه ذلك في أحيانٍ كثيرة إلى أن يتذمرَ على الآلهة. أما توقيرُكَ لعقلك وإكبارُكَ له فسوف يجعلك راضياً منسجماً مع رفاقك متوافقاً مع الآلهة _أي حامداً لهم كلَّ ما يمنحون وكل ما قَضَوا به[1].

٦-١٧ أعلى وأسفل، هنا وهناك، تمضي حركةُ العناصر. أما حركةُ الفضيلةِ فلا تتخبط هكذا أبداً؛ فهي شيءٌ أكثرُ قدسية، وعلى طريقٍ ليس مِن السهلِ تَبَيُّنُه تمضي قُدُماً في غِبطة.

(1) فقرة مُحْكَمة تقدم جواباً شاملاً للسؤال الذي طرحته الفقرةُ السابقة: ماذا يمكن للمرء أن يُجِلَّ من كل ما يتدافع أمامه؟ ويحشد فيها ماركوس كثيراً من الثيمات والصور المتواترة في "التأملات": التراتب الطبيعي، خيوط دمى الرغبة، زيف المجد، التشبيه بالحرف والصنائع، الواجب تجاه البشر وتجاه الآلهة، الرضا بنصيب المرء من "الكل"، التصور الخاطئ عن "الخيرات" لدى عامة الناس إذ يُضفُون قيمةً على "الأشياء الأسواء" indifferentia ويظنون أنها الخير.

٦-١٨ عـجبـاً لبني الإنسـان. . إنهم لن يمجـدوا مَن يعـيشُ بين ظَهْرانَيهم في زمانٍ واحد. ولكنهم يَصْبون إلى أن تُمَجِّدهم الأجيـالُ القـادمة التي لا يرونهـا ولن يروها أبداً. ولكن، هل يسوؤك أن الأجـيالَ السابقة لم تسـمعْ بك ولم تمجدْكَ قَط؟ فهذا وذاك سيان.

٦-١٩ لا تتصورْ أن ما هو صعبٌ عليك تحقـيقُه هو مستحيلٌ على أي إنسان. بل إذا كان شيءٌ ممكناً للإنسان وملائماً لطبيعته فاعتبِرْه أيضاً ممكناً لك وداخلاً في نطاقِ قدرتِك ومَنالك.

٦-٢٠ في حلبةِ اللعب قـد يَخدشُكَ خصـمٌ بأظافره، أو ينطحُك برأسِه. غـير أننا لا نَصِـمُه مِن أجلِ ذلـك ولا نتأذَّى ولا نتوجسُ منه بعد ذلك كرفيقٍ خـائن. صحيحٌ أننا قد نأخذُ حذرَنا منـه، لا كعدُوٍّ أو مُـرِيب، بل بمودةٍ وهدوءٍ نتنحَّى عن طريقـه فـحسب. كـذلك ينبـغي أن يكون الحـالُ في جـوانبِ الحـياةِ الأخـرى: هناك أناسٌ هم "خـصـومٌ في اللعب" وعليـنا أن نُغـضِي عـمـا يفـعلونه. وبِوُسـعِنا أن نتجنبَهم، كما قلتُ، من غير ارتيابٍ أو عداوة.

٦-٢١ إذا ما استطاعَ إنسانٌ أن يثبتَ لي أني على خطأ ويبين لي خطئي في أي فكرةٍ أو فـعل، فـسـوف أُغَيِّـرُ نفـسي بكلِّ سرور. إنْ أريدُ إلا الحق، وهو مطلبٌ لم يَضُـرَّ أيَّ إنسانٍ قَط. إنما الضررُ هو أن يُصِـرَّ المرءُ على جهلِه ويستـمرَ في خداعِ ذاتِه.

٦-٢٢ إنني أؤدي واجبي، ولا تعنيني الأشياءُ الأخرى، فهي إما أشياءُ غيرُ حية، وإما غير عاقلة، وإما تاهت ولا تعرفُ الطريق.

٦-٢٣ تعاملْ مع الحيواناتِ العَجماء، وجميعِ الأشياء بعامة، بكرمٍ وتسامح، مادُمْتَ تملك عقلاً وهي محرومةٌ منه. أما البشر، من حيث إن لديهم عقلاً، فتعاملْ معهم بروحٍ اجتماعية. وادعُ الآلهةَ في كلِّ أمر. ولا تكرثْ نفسَك بطولِ الزمن الذي سوف تحياه في هذا العمل. فمجردُ ساعاتٍ ثلاثٍ تقضيها هكذا تكفي.

٦-٢٤ الموتُ سَوَّى بين الإسكندر المقدوني وسائسِ بغالِه. فإما أنهما استُرِدَّا إلى نفس المبدأ المولِّد للعالم، وإما تشتتا معاً بين ذرات الكون.

٦-٢٥ تأملْ كم من الأحداث، الجسدية والعقلية، يجري في داخلِ كلٍّ منا في نفس الآنةِ الزمنيةِ الضئيلة. عندئذ لن يأخذَك العَجَب إذا كانت أحداثٌ أكثر، أو بالأحرى كلُّ ما يأتي إلى الوجود، تعيشُ معاً في الواحد والكل الذي نسميه العالم.

٦-٢٦ إذا سألَكَ سائلٌ كيف يُكتَب اسم "أنطونينوس" فسوف تُبَيِّنُ له ذلك بتشديدك على مقاطعِ الكلمة. فماذا لو ماراكَ الناسُ في ذلك؟ أستغضَبُ أنت أيضاً، أم تمضي بهدوءٍ

فتبين لهم تعاقبَ الأحرف الواحد تلوَ الآخر؟ كذلك الحالُ في حياتِكَ هنا، تَذَكَّـرْ أن كلَّ مهمةٍ هي المجـموع المكتمل لأفـعـالٍ معـينة. عليـك أن تُراعِي ذلك وألا تضطربَ أو تجيبَ على غضبِ الآخرين بغضبٍ مثلِه، بل تمضي في كلِّ مهمةٍ أمامك بمنهجيةٍ حتى تُتِمَّها.

٦-٢٧ ما أقسى أن تمنعَ الناسَ من السعي إلى ما يبدو لهم مُسايراً لمصلحـتهم ونفعِـهم. غيـر أنك تمنعهم، بمعنـى ما، حين يُغضِبُكَ أنهم على خطأ. فمِن المتـيقن أنهم مدفوعون إلى صالحهم ونفعهم.

- "ولكنهم مخطئون في ذلك".
- إذن علِّمْهم، وأرشِدْهم، دون أن تغضبَ عليهم[1].

٦-٢٨ الموتُ انعتـاقٌ من الاستجـابةِ للحواس، ومن خـيوطِ دُمَى الرغبة، ومن العقل التحليلي، ومن خِدمةِ اللحم[2].

٦-٢٩ مِن العارِ أن تَخْذُلَكَ الروحُ في هذه الحـياةِ قبل أن يخذلك جسمُك.

٦-٣٠ احـرِص ألا تتـحولَ إلـى قيـصـر[3]، وألا تصطبغَ بهـذه الصبغة، فقـد تقعُ في ذلك إذا لم تَتَوَخَّ الحذر. فكنْ دائماً

---

(1) توكيد على مبدأ ماركوس: "إما أن تُعَلِّمَ وإما أن تسامِح".

(2) يقول المعري:

ما أَوْسَعَ الموتَ يستريحُ به الجسمُ المُعَنَّى ويَخْفتُ اللَّجَبُ

(3) حَرفياً: "تَتَقَيْصَر" Caesarified

بسيطاً، طيباً، جاداً، غيرَ مُراء، محباً للعدل، خاشعاً لله، ليناً، رفيقاً، ذا همة في كل ما تُنْدَب له. كنْ موقِّراً للآلهة وراعياً للناس. فالحياةُ قصيرة والتقوى والعمل الصالح هما الثمرةُ الوحيدة لهذه الحياةِ الأرضية.

كن تلميذاً لأنطونينوس[1] في كل شيء: في مَضاءِ عَزْمِه في كلِّ ما يأمرُ به العقل، وفي رصانتِه الدائمة، وتقواه، وصفاءِ مُحيَّاه، وعذوبته، وتواضعه، واجتهاده في فهمِ الأمورِ حتى لا يدعَ أمراً يمر دون أن يُمَحِّصَه بدقة ويفهمَه بوضوح. واذكرْ كيف كان يحتمل مَن يلومُه ظلماً دون أن يردَّ على الملامِ بمثلِه، ولا يندفع في أي شيء، ولا يصغي إلى الافتراءات ولا ينافق؛ وكيف كان يَقْنَع بالقليل في سكناه وفراشِه ولباسِه وطعامِه وخَدَمِه، واذكر حُبَّه للعملِ وصبرَه وجَلَدَه.

لقد كان رجلاً يُكِبُّ على الأمر سحابةَ يومه فلا يتركُه حتى يحلَّ المساء، ولا يفكر حتى في قضاءِ حاجتِه إلا في ساعتِه المعتادة. كذلك كان مقتصداً في طعامه. وكان مخلصاً وعادلاً في صداقاتِه، متسامحاً مع المعارضةِ السافرةِ لآرائه، مرحباً بالمشورة التي ترشدُه إلى ما هو أقوم، خاشعاً لله من غير شعوذةٍ أو خرافة.

(1) هو الامبراطور أنطونينوس بيوس، زوج عمة ماركوس وأبوه بالتبني.

فلتكنْ لك فيه أسوةٌ حسنة، حتى تلقَى اللهَ وأنت على ضميرٍ نقيٍّ كهذا النقاء.

٦-٣١ أفق من نومك، وعُدْ إلى رشدك، لتدركَ أن كلَّ الذي عكَّرَ صَفوكَ كان أضغاثَ أحلام؛ والآن وقد استعَدتَ وَعْيَكَ مرةً ثانية انظرْ إلى هذه الأشياءِ مثلما كنتَ تنظر إلى تلك الأحلام(1).

٦-٣٢ لقد جُبِلْتُ من جسدٍ وروح. فبالنسبة لهذا الجسدِ الهزيل كلُّ الأشياء سواء (غير فارقة) indifferent، فهو لا يستطيع أن يميزَ أيَّ فارق. أما بالنسبةِ للعقل فاللافارق هو ما ليس داخلاً ضمن نشاطه الخاص: وكل ما هو من نشاطه هو تحت سيطرتِه. ولكن مِن بين هذه الأشياءِ فإن العقلَ لا يعنيه إلا الحاضر: فأنشطتُه في المستقبلِ وفي الماضي هي أيضاً لافارقة في أيةِ لحظةٍ حاضرة.

٦-٣٣ مادامت القدمُ تعملُ عملَ القدمِ واليدُ تعملُ عملَ اليدِ فإن عملَهما، أياً كان، غيرُ مضادٍّ للطبيعة. كذلك الإنسانُ مادام يعمل عملَ الإنسانِ فإن عملَه لا يمكن أن يكونَ ضد الطبيعة. ومادام عملُه ليس ضدَّ الطبيعةِ فهو غير مشينٍ له أيضاً.

٦-٣٤ أما اللذةُ فإن القراصنةَ والمأبونين وقتَلةَ آبائهم والطغاة لَيتمتعون بها غايةَ المتعة. لو كانت السعادةُ هي اللذة لكان

(1) تكنيك علاجي معرفي سنَعْرِض له في دراستنا الملحَقة.

اللصــوصُ والمأبونون وقــتلةُ آبائهم والطغــاة هــم أســعــد الناس[1].

٦-٣٥ ألا ترَى كيف يطاوع الحرفيون عــامةَ الناس إلى حد معين؛ على أنهم يتـمسكون بمبـدأ الحرفـةِ ولا يطيقــون تركَه[2]. أليس غريباً إذن أن يولي النحاتُ والطبيبُ احتراماً لمبدئهما الحِرفي الموجِّه أكثرَ مما يولـيه الإنسانُ لمبدِئه الموجِّه _العقل_ الذي يشارك فيه الآلهة؟!

٦-٣٦ آسيا وأوروبا مجردُ ركنين صغــيرين من العالم. كلُّ محيط هو نقطةٌ في العالم. جبل أثوس[3] Athos حفنةُ ترابٍ في العالم. الزمنُ الحاضر كلُّه هو ثقبُ دبوسٍ في الأبدية. كلُّ الأشياءِ ضئيلةٌ وسريعــةُ التغيرِ وزائلة. كلُ الأشياء تأتي من هناك.. من ذلك العقلِ الكلي الحــاكم، إما مباشــرةً وإما كنتيجة. لذا حتى فكَّا الأسد المفتوحان، وحتى السمُّ، وكلُّ مـؤذ من الأشيــاء، كالشــوك، كالطين، هي نواتجُ بعــديةٌ للنبيلِ والجميل[4].

(1) الارتفــاع فــوق اللذة، والألم، من وظائف الفلسـفــة _الفلسـفـة، التي يرى ماركــوس أنها الشيء الوحــيد الذي يمكنه أن "يَخْفِـرَنا" في مســيرنا في هذه الحياة.

(2) التشبيــه بالحرف والصنائع كثيرٌ في "التأملات"، ويعكس شـغف ماركوس بها واحترامه للمهن العملية والمهارات اليدوية.

(3) جبل في شمال اليـونان، يبلغ ارتفاع قمته حوالي ألفي مـتر وهو الآن مقرديني مخصص للأديرة من أنحاء العالم.

(4) النواتج العرضية لعمليات الطبيعة لها أيضاً جاذبيتها وسحرها.

فلا تحسبنها غريبةً عمَّا تقدسه، بل تأملْ، وأنْصِفْ، ينبوعَ الأشياءِ جميعاً[1].

٦-٣٧ مَن رأى الحاضرَ فقد رأى الأشياءَ جميعاً _كل ما كان مِن الأزل، وكل ما سيكون إلى الأبد: كلُّ الأشياءِ عشيرٌ واحدٌ وصورةٌ واحدة.

٦-٣٨ تأملْ مَلِيّاً ترابُطَ الأشياءِ جميعاً في العالمِ وقرابتَها. جميعُ الأشياء، بطريقةٍ ما، متواشجةٌ، ولديها مِن ثم مشاعرُ وُدٍّ بعضها تجاه بعض: فالشيءُ يتلو الشيءَ في نظامٍ منضبط، مِن خلال توترِ الحركةِ والروحِ الشاملة التي تلهمُها ووحدةُ الوجود كله.

٦-٣٩ تَلاءَمْ مع الأشياء التي قُسِمَتْ لك، وأَحِبَّ هؤلاءِ الناسَ الذين أَلقَى بكَ القدَرُ بينهم. على أن يكونَ حبُّك صادقاً مخلصاً.

٦-٤٠ أداة، عُدَّة، وعاء.. كلُّ هذا جيدٌ مادام يؤدي الوظيفةَ التي مِن أجلِها صُنِع. على أن الصانعَ في مثلِ هذه الحالاتِ

(1) اذكرْ أن العالمَ عند الرواقيين ليس إلا كائناً واحداً حياً متنفساً، وكل الأشياء، على تمايزها، يتخلل بعضها بعضاً ويستجيب بعضها لبعض؛ كلها متواشجة متناسجة وكلها واحد. وما يحصل في جزء من الكون يؤثر في جميع أجزائه، وما يحدث في الكل يؤثر في كل جزء. فالكون بأسره عبارة عن بدن واحد حي، قد سرَى في جميع أجزائه نفَسٌ يمسك عليه وحدتَه. ذلك هو مذهب "وحدة الوجود" أو "البانتيزم" الذي صُبِغَت به الطبيعيات الرواقية، والذي يتردد صداه في الفقرتين التاليتين.

خــارجٌ عن الشيءِ المصنوع. أمــا في حــالةِ الأشـيــاءِ التي تُمْسكُها معاً طبيعتُهــا العضويةُ فإن القوةَ التي صَنَعَتْها باطنةٌ فيــها ومُحايِثَــةٌ لها(1). ولذا فإن عليك أن تُوَقِّــرَها أكثر، وترى أنك إذا امتَثَلْتَ لإرادتها في وجودِك وفعلك سيكونُ كلُّ شيءٍ فــيك مــوافقــاً للعــقل. كذلــك الأمرُ أيضــاً في

(1) أخذ الرواقـيون في الطبيـعيات بمبـدأين: المبدأ الفـاعل والمبدأ المنفعل. فـالمبدأ المنفعل هو المادة إذا أُخِذَت على أنها ماهية خـاملة خالية من كل صفة. والمبدأ الفـاعل والإلهي هو العقل الذي يـوجد في المادة ويُحْـدِث الأشيـاءَ جمـيعـاً بإعطائها صورَها. ولا يكون الشيء عندهم حقيقياً إلا إذا كان له "قوة فاعلة" أو "قوة منفـعلة"، وقدرة على التحريك أو قـابلية للتحـرك. وتلك الثنائية، ثنائية الفاعل والمنفعل، هي يقـيناً مستعارة من فلسفة أرسطو، ولكنهـا مفسرة عند الرواقيين على وجه مخالف لما نجدها عليه عند أرسطو: فالفاعل والمنفعل عند أرسطو هما موجـودان متمايزان بالفردية. والفعل ينتـقل من موجود إلى آخر، مثـلاً من الطبيب إلى الدواء ومن الدواء إلى البدن، هو فـعل من أفعال النقلة. ولكنا نـرى عكس ذلك في الرواقـية: فـالفـاعل والمنفـعل مبـدآن لا ينفـصلان في تكوين كل مـوجود. وبهـذا كانت تـلك الثنائية عند الرواقـيين مطابقة للثنائيـة الأرسطية بين الصورة والهيـولى، ولكن مع هذا الفارق: وهو أن الصورة عنـد أرسطو ليست تشكل المادة بل لا بد لذلك من مـبدأ مـحرك خاص. فكأن أرسطو يقول في الحقيقة بثـلاثة مبادئ لا بثنائية. وأما الرواقيون فعندهم أن الفاعل، الذي هو صـورة، هو في الوقت نفسه مبدأ مـصور وقوة فاعلـة مؤثرة تمسك الأجـزاء. وظاهر أن الرواقيين يريدون بنظريتـهم تلك أن يستـعيضـوا بالفاعلية الملمـوسة، فاعليـة الوجود الواقعي، عن تلك الفـاعلية المثالية، فاعليـة الصورة الأرسطية. (انظــر: عثمان أمين، الفلسـفة الرواقية ص ١٥١-١٥٢)

"الكل" : فكلُّ الأشـيـاءِ التي تنضـوي فـيه تمـثـلُ لعـقلِ "الكل" .

٦-٤١ إذا كنتَ تَعُـدُّها خيـراً أو شراً تلك الأشـياءَ الخارجـةَ عن سيطرتِك فسوف يترتبُ على ذلك بالضرورة أن تتذمرَ على الآلهة وتبغضَ البشرَ كلما أصابك هذا الشرُّ أو كلما فقدتَ ذلك الخيرَ (باعتبار سبب المُصاب أو الفقدان). إننا لَنرتكبُ ظلماً عظيماً باكتراثنا بهذه الأشـياءِ واعتبارها "فارقة" . أما إذا قصرنا صـفةَ الخير والشر على مـا يقعُ في نطاقِ قدرتِنا فلن يعودَ ثمة مبررٌ لاتهـام إلهٍ أو لاتخاذِ موقفٍ عدائي من إنسان.

٦-٤٢ كلنا نعملُ مـعاً للغاية نفـسها، البعضُ عن قـصدٍ ودراية، والبعضُ عن غير دراية _تماماً كمـا قال هيراقليطس، فـيما أعتقد، إنه حتى النائمون هم عمالٌ مشاركون في صنعِ كلِّ ما يحدثُ في العالم. لكلٍّ واحدٍ عملُه المقيَّضُ له، وهناك وظيفةٌ حتى للمناوئ الذي يريد أن يُفـسِدَ الإنتاج، فالعالم بحـاجةٍ إليـه أيضـاً. يبـقى إذن أن تقرر فـي أيةِ فئـةٍ من العـاملين تريدُ أن تضعَ نفـسَك. فـمن المؤكـد أن حـاكمَ "الكل" سوف يجد لك اسـتخداماً نافـعاً وسوف يسلكُك في القـوةِ العاملة لأداءِ دورٍ مـا في هذا العـملِ المشتـرك. ولكن احرصْ ألا تكونَ البيـتَ الرديءَ والمبتذَل والمُسِفَّ في

المسرحية، على حد تعبير خريسيبوس(1).

٦-٤٣ هل تضطلع الشمسُ بعـملِ المطر؟ أو اسكليبوس(2) بعملِ إلهة الحصاد؟ ومـاذا عن كل نجمٍ من النجوم؟ أليست هذه مختلفةً متمايزةً ولكنْ تعملُ سوياً لنفسِ الغاية؟

٦-٤٤ إذا كانت الآلهةُ قد فكَّرَت في شأني وفي شأنِ الأمورِ التي يجبُ أن تحدثَ لي فإن قضاءَها الخير. فليس من اليسير أن نتصورَ، مجردَ تصـور، إلهاً بلا فكر. ثم ماذا يدعو الآلهةَ إلى أن تريدَ بي الأذى؟ أيةُ جدوى تعودُ من ذلك عليها أو على الخير العام الذي هو الغـايةُ الرئيسةُ للعناية؟ وحتى إذا لم أكنْ قد خطرْتُ بفكرِها كفردٍ فمن المؤكد أنها قد فكرَتْ في خيرِ "الكل" على أقل تقدير. ومادام الذي يصيبني إنما هو نتاجٌ لهذا الخير العام فإن عليَّ أن أقبلَه وأرحبَ به.

أما إذا كـانت الآلهةُ لا تفكرُ فـي أيِّ شيءٍ ولا يعنيهـا أمرُ أحد ـوهو اعـتقادٌ باطـلٌ وضلال ـلكان لنا أن نكفَّ عن تقديمِ الضحايا، ورفعِ الدعاء والصلوات، والقَسَمِ بالآلهة،

(1) خريـسيـبوس Chrysippus (280-207 B.C) هو رائد الرواقـية في القـرن الثالث ق.م؛ وأغزر الرواقيين إنتاجاً وأبلغـهم حجة. وقد قال إن الشر، رغم أنه مستـهجَنٌ بحد ذاته، له إسهـامه في النسيج الكلي للعالم، تمامـاً مثلما أن النكات الرخـيصـة لها سـحرها في السـيـاق الكلي للمسـرحيـة. وليس من المستغرَب من ماركوس أن يريد لإسهامه أن يكوِن من الطبقة الأرفع.

(2) إله الطب.

وكلِّ الشعائرِ التي تقومُ على افتراض أن الآلهة حاضرة معنا ومشاركة في حياتنا. فإذا لم تكن تعنيها شؤونُنا فإن لي أن أُعنَى بشأني: وشأنـي ما هو خير. وما هو خـيرٌ لكل فرد هو ما يلائمُ حالتَـه وطبيعتَه. وطبـيعتي هي طبيعـةٌ عقليةٌ واجتماعيةٌ معاً.

فبصفتي أنطونينوس فإن مـدينتي هي روما، وبصفتي إنساناً فمدينتي هى الكون[1]. لذا فإن ما هو خيرٌ لهاتين المدينتين هو وحدَه الخيرُ بالنسبة لي.

٦-٤٥ كل ما يحدث للفرد هو لمنفعة "الكل". إلى هنا كل شيء واضح. ولكن إذا أنعمتَ النظرَ فسوف ترى أيضاً، كقاعدة عامـة، أن ما ينفعُ شخـصاً ينفعُ الآخـرين أيضاً _على أن "المنفعـة" هنا يجب أن تؤخَذَ بمعناهـا الدارجِ إذ تُقالُ عن أشياءَ لافارقة _لا هي خيرٌ ولا هي شر.

٦-٤٦ مثلمـا يحدث لك في المدرج amphitheater وما شابه ذلك من الأمكنة، حيث ثبـاتُ المنظرِ ورتابةُ المشهدِ يبعـثان على الضجَر، كذلك الحالُ في خبرتِك بالحياة ككل: كلُّ شيء، هنا وهناك، هو نـفسُ الشيء، وبنفسِ الأسـبـاب. فـإلى متى؟!

(1) طبقات الانتـماء الرواقي: الانتماء أشبـه بدوائر متحدة المركـز، ودائرة الانتماء الكوني (الكوزموبوليتاني) هي أشملها جميعاً.

٦-٤٧ تأمَّلْ ملياً في كلِّ ضــروبِ البشر، ومخــتلِفِ المهن، وشتى أممِ الأرضِ التي بادت: ثم اهبِطْ إلى فيليستــيون وفويبوس وأوريجانــيون[1]. وعَرِّجْ الآن علــى الفئات الأخــرى من الناس. نحن أيضــاً مقــدَّرٌ علينا أن نغيِّــرَ مُقــامَنا إلى ذلك العــالمِ الآخر، حــيث هناك الكثيــرُ الكثيرُ من الخطبــاءِ المفوَّهين والفــلاسفــةِ الأعلام _هيراقليــطس، فيثــاغوراس (ميثاجــوراس)، سقراط _وأبطالٌ من الأزمنةِ القديمةِ وقادةٌ من بعــــدِهم وملوكٌ. أضِــفْ أيضــاً يــودوكـــــوس[2]، وهيبارخوس[3]، وأرشيميدس[4]، وأضِف رجالاً آخرين خــارقي الذكــاء، ورجــالاً ذوي رؤىً عظيــمــةٍ، ورجــالاً مكرسين لعــملِهم. وأضِف أوغــاداً ومتــعــصبين، وحــتى هجَّائين لهذه الحياة الفانية العابرة مثل مينيبوس[5] وأضرابِه. وتأملْ كــيف طواهم الموتُ منذ زمانٍ وغَــيَّبَــهم التراب. فــهل خَسِروا بذلك مــن شيء؟ بل هل خَسِرَ شيئــاً أولئك الخاملون

(1) ثلاث شخــصيات غــير معروفــة، توحي أسماؤهم بأنهم كــانوا عبيــداً للأسرة الإمبراطورية.

(2) رياضي وفلكي بارز عاش في النصف الأول من القرن الرابع ق.م

(3) رياضي عــاش في النصف الأول من القرن الثــاني ق.م؛ وبرع في علم الفلك البابلي.

(4) أرشيميدس (٢٨٧-٢١١ ق.م) أعظم رياضيي العالم القديم.

(5) مينيبوس من جادارا في سوريا، كاتب كلبي عاش في النصف الأول من القرن الثاني ق.م؛ وهو مبتكر فن الساثورا وهو هجاء يخلط بين الشعر والنثر.

الذين ضاعت أسماؤهم ذاتُها؟ لا قيمةَ في هذه الحياة إلا لشيءٍ واحد: أن تقضي عمرَكَ في صدقٍ وعـدل، متسامحاً حتى مع أولئك الذين لا يعرفون الصدقَ ولا العدل.

٦-٤٨ كلما أردتَ أن تبهجَ نفـسَك فاستحضـرْ في ذهنك فضائلَ الذين يعـيشون مـعك: نشاطَ هذا، وتـواضعَ ذاك، وكرمَ ثالث، ومَنْقَبـةً أخرى لرابع.. ليس أبهج للنفس من طابعِ الفضيلة يتجـلى في خِصالِ رفاقنا _وحبذا لو تكاثرَ عليك منها المزيد. فلتكن حاضرةً لديك دائماً.

٦-٤٩ تُراكَ تتبرمُ بوزنِ جسمك _بأنْ تَزِنَ كذا من الأرطالِ ولا تزن ثلاثمائة رطل مثلاً؟! لماذا إذن تتبرم بأمَدِ حياةٍ من عددِ كذا من السنين وليس أكثر؟ فـمثلما تَقْنَع بمقدارِ المادة المقـسومة لك ينبغي أن تَقنَعَ بحصتِك الزمنيةِ من العمر(1).

٦-٥٠ حاولْ أن تُقْنعَهم، ولكن عـليك أن تعملَ ضدَّ إرادتهم.إذا ما كان مبدأُ العقلِ والعدلِ يقضي بذلك. فإذا اعترضَ أحدٌ طريقَكَ بالقـوةِ فتذَرَّعْ بالهـدوءِ وحَوِّل العـائقَ إلى تَمَرُّسٍ بصنف آخر من الفـضيلة(2). وتذكرْ أن محـاولتَك كانت بتحـفُّظٍ، أنك لم تُرِدْ أن تعملَ المستحـيل. ماذا تريدُ إذن؟ جُهداً ما مقَيَّداً بشرط. ولقد حققتَ هذا.

(1) العمر نفسه من الأشياء غير الفارقة indifferentia عند ماركوس. انظر الفقرة ٣-٧

(2) السعي المتحفظ المشروط، وتحويل العوائق إلى استخدامٍ بنّاء- انظر الفقرة ٤-١

٦-٥١ كيف تفهمُ خيرَكَ الخاص؟ عاشقُ الشهرةِ يجعلُ خيرَه في استجاباتِ غيرِه. وعاشقُ اللذةِ يجعلُ خيرَه في خبرتِه السلبية. أما الحكيمُ فيرى خيرَه هو أفعاله ذاتها.

٦-٥٢ ما يزال في إمكاننا أن نجهلَ شيئاً ونظلَّ مع ذلك في صفاء عقلي. ذلك أنه ليس لدى الأشياء نفسِها خاصةٌ طبيعيةٌ تجعلها قادرةً على تشكيلِ أحكامنا(1).

٦-٥٣ تَعَوَّدْ أن تصغي بانتباه إلى ما يقولُه آخر، وانفُذْ، قدرَ المستطاع، في عقلِ المتحدِّث(2).

٦-٥٤ ما لا يفيدُ السربَ لا يفيدُ النحلة(3).

٦-٥٥ إذا ما سَبَّ البحارةُ قبطانَهم، وسبَّ المرضى طبيبَهم، فإلى مَن عساهم يُصغون؟ أو كيف يتسنى للقبطانِ أن يضمنَ

(1) الأشياء ذاتها لا يمكنها أن تمس العقل - انظر فقرة ٤-٣

(2) رغم هذه التوصية الذاتية فقد كان ماركوس يجد صعوبة في التوافق مع أفكار الآخرين، وكثيراً ما كان يستخدم صيغة الغائب "هم" للانتقاص والازدراء، ويَعتبِر الانشغال بأفكار الآخرين وأعمالهم تشتيتاً للنفس ومضيعة للوقت.

(3) إبيجرام موفق يتجلى فيه شغفُ ماركوس بالتشبيهات المستمدة من عالم الحشرات والحيوانات، ويعبر عن حقيقة المصلحة المتبادلة بين الفرد والمجتمع. وقد طبَّقَها أيضاً على المجتمع بالمعنى الكوني الشامل: "كل ما يحدث للفرد هو لمصلحة الكل" (٦-٤٥)، "لا شيء مفيداً للكل يمكن أن يضر الجزءَ" (١٠-٦)، "ما لا يضير المدينةَ لا يضير مواطنيها أيضاً" (٥-٢٢)، "لا شيء يضر مواطن الطبيعة إلا ما يضر المدينة" (١٠-٣٣).

سلامةَ الرحلةِ لركابِه، أو يتسنى للطبيبِ أن يضمنَ الصحةَ لعملائه؟

٦-٥٦ كم رفاقٍ أتَيتُ معهم إلى العالم هم الآن غُيَّب.

٦-٥٧ مظاهر:

العسلُ مُرٌّ لدى المصابين باليرقان

والماءُ رعبٌ لدى مَن عضتّهم كلابٌ مسعورة

الكرةُ بهجةٌ لدى صغارِ الأطفال

لماذا أنا غاضبٌ إذن؟ أم ترى أن الحكمَ الزائفَ أقلُّ تأثيراً من الصفراءِ للمصابِ باليرقان، أو السمِّ في المصابِ برُهابِ الماء.

٦-٥٨ لن يمنعَك أحدٌ من أن تعيشَ وفقاً لمبدأ طبيعتِك الخاصة: ولن يحدثَ لك شيءٌ مخالفٌ لمبدأِ طبيعةِ العالم.

٦-٥٩ أيُّ صنفٍ من البشرِ أولئك الذين يسترضيهم الناس؟ ومِن أجلِ أية أهداف؟ وبأي صنفٍ من الأفعال؟ ما أسرعَ ما يهيل الزمنُ الترابَ على كلِ شيء. وما أكثرَ ما أُهيلَ عليه الترابُ بالفعل.

7

الكتاب السابع

٧-١ ما الشر؟ إنه مـا رأيتَ مراراً وتكراراً. فلتكنْ هذه تذكِرةً لك كلما صادفَكَ أيُّ شيءٍ من هـذا: "لقد رأيتُ هذا مِن قبلُ مراراً". وأينما تُوَلِّ فسوف تجـدُ الأشياءَ ذاتَها التي يعجُّ بها تاريخُ العصور، القديمةِ منها والوسيطةِ والحديثة، وتعجُّ بها المدنُ والديارُ في يومِنا هذا. لا جـديد.. كلُّ شيءٍ مألوفٌ ومعروف.. وزائل.

٧-٢ كيف يمكن أن تموتَ مـبادؤك ما لم تَمُت التصوراتُ الـعقليةُ المناظرةُ لهـا(1)؟ ولكن بِيـدِكَ أن تـروِّحَ هذه التـصـورات

(1) المبادئ العقـلية أو المعتقدات المحـورية (يسميهـا ماركوس dogmas يوم كانت هذه اللفظة تعني الاعتقـاد ولا تعني التزمت والجَزم مثلما صـارت إليه بعد أن اعتراها التـغير السيمانتي) ذاتُ أهمـية كبرى لدى ماركـوس، وينبغي أن تبقى حيـةً دائماً وجاهزة في جـميع الأوقات، مـثلما أن الأدوات والمبـاضع جاهزة دائماً لدى الأطباء لعلاج أي حالة طوارئ. انظر فقرة ٣-١٣

باستمـرارٍ وتُحْيِي ضرامَها. "بـوسعي أن أتخذَ هذا الرأيَ الذي ينبغـي اتخاذُه في هذا الشيء. ومادام ذلـك بوسعي فلماذا أبتئس؟ كلُّ ما يقـعُ خارجَ عقلي لا شأنَ له به على الإطلاق" . تعَلَّمْ هذا تقِفْ ثابتـاً. بوسعك أن تعـيشَ مرةً أخرى. انظرْ إلى الأشـياءِ مرةً ثانيـةً كما اعـتدتَ أن تنظرَ إليها. فهكذا تستردُّ حياتَك وتستأنفُها.

٧-٣ الأبهةُ الفـارغةُ للمـواكبِ والاحتـفالات، عـروضُ المسرح، القطعانُ والأسـراب، عروضُ المبارزة (المقارعـة بالسيف)، عَظْمةٌ مُلقاة للجِراء[1] ، فُتاتٌ مُلقَى لسـمك البركة، نملٌ يكدحُ وينوءُ بأحماله، عَـدْوُ فئرانٍ مذعورة، دُمًى تُرَقِّـصُها خيوطُهـا. هكذا أشياءُ العالم. عليك أن تظلَّ سـمحاً بين

(1) قارن ذلك بقول المعري:

كلابٌ تَغاوَتْ أو تَعاوَتْ لِجيفَةٍ وأَحْسَبُني أَصْبَحْتُ أَلأَمَها كَلْبا

هذا كلِّه، وألا تسخـرَ منه؛ على أن تضعَ في اعتـبارِكَ أن قَدْرَ المرءِ إنما يُقاسُ بقيمةِ الأشياءِ التي يُقَدِّرها.

٧-٤ في مجال القـولِ عليك أن تصغي إلى ما يُقـال، وفي مجالِ الفـعلِ عليك أن تلاحظَ مـا يُفـعَل. في الثـاني أن تدركَ مباشرةً الغايةَ التي يرمي إليـها الفعلُ، وفي الأول أن تشهدَ بدقةٍ المدلولَ الذي يشيرُ إليه القول.

٧-٥ هل فهمي قادرٌ على هذه المهمـةِ أو لا؟ إذا كان قادراً فسوف أستخـدمُه كأداةٍ للعمل وهَبَتْني إياها طبـيعةُ "الكل". وإذا لم يكن فإما سوف أتنحَّى عنها وأتركُها لمن هو أقدرُ عليها مني، وإما، إذا لزمَ الأمـر، سوف أحاولُ أن أنفِّذَها جـهدَ ما أستطيع بالاسـتعانةِ بمن يمكنُه بالتعـاون مع عقلي الموجِّه أن يحققَ مـا هو ملائمٌ للمجتـمع في هذه اللحظةِ المحددة ومفـيدٌ للصالح العـام. وأيا كان ما أفـعل، بنفسي أو مع غيري، فـينبغي أن ينصبَّ على شيءٍ واحد: ما هو مـفيدٌ وملائمٌ للمجتمع.

٧-٦ ما أكثر الذين حلَّقوا إلـى أعالي المجد يوماً ما وهم الآن في غَمرةِ الخمول. ومـا أكثرَ الذين تَغَنَّوا بمجدِ هؤلاء واندثروا منذ زمنٍ طويل.

٧-٧ لا تستَحِ مِن طلبِ العون[1]. إن مهمتَك أن تؤدي الواجبَ

(1) لا تَخْجَلْ من طلب العون - انظر أيضاً ٧-٥ ، ٧-١٢

المَنوط بك، شأنك شـأن جنديٍّ في مَفْرَزةِ ارتقـاءِ حصن. فماذا إذن لو كنتَ أعرجَ ولا تسـتطيعُ تسلقَ الجدارِ بنفسِك بينما يمكنُكَ ذلك بمساعدةِ آخر؟

٧-٨ لا تحملْ هَمَّ الأمـورِ القادمـة، فلسوف تأتي إليـها، إذا لزمَ الأمر، مسلَّحاً بنفس العقل الذي تستخدمُه الآن في الأمورِ الحالية.

٧-٩ جميعُ الأشياءِ متواشجةٌ متشابكة، يربطُها معاً رباطٌ مقدس. لا شيءَ غريبٌ عن الأشيـاء الأخرى؛ فجميعُـها قد رُتِّبت معاً لكي تتعاونَ على تحقيقِ "النظام" الواحد للعالم. ذلك أن "العالم" المؤلفَ من جـميعِ الأشيـاءِ واحدٌ[1]، والإلهَ المُنْبَثَّ في كل الأشـيـاءِ واحد، والمادة واحـدة، والقـانون واحد، والعقل الشائع في جميع الموجودات العاقلة واحد، والحقيقة واحدة، لأن الحقـيقةَ هي كمالُ الموجوداتِ العاقلة المشاركة في عقلٍ واحد.

٧-١٠ كلُّ شيءٍ مـاديٍّ سرعان مـا يتبـددُ في مادةِ العـالم. وكلُّ شيءٍ سـببي (صوري) سـرعان مـا يُرَد إلى عقلِ العـالم، وذكرى كلِّ شيءٍ سرعان ما تُطمَرُ في الأبدية.

(1) ثمـة نوع من التـلاعب بالألفاظ للتـعـبيـر عن حـقيـقـة جادة، إذ إن كلمـة "كوزموس" اليونانية تـعني "عالم" وتعني أيضاً "نظام". انظر أيضاً ٧-١٣ كمثال للعب اللفظي الجاد.

٧-١١ بالنسبةِ لكل كائنٍ عاقلٍ فالعملُ وفقاً للطبيعةِ هو أيضاً العملُ وفقاً للعقل.

٧-١٢ قُمْ بنفسك.. أو بغيرِك(1).

٧-١٣ الكائناتُ العاقلةُ كأعضاءِ الجسدِ الواحدِ خُلقَت للتعاون. ستتبين هذا بوضوحٍ شديدٍ كلما قلتَ لنفسكَ إنني "عضو" melosفي منظومةِ الكائناتِ العاقلة. أما إذا قلتَ إنني "جزء" .. meros بتغييرِ الحرف الواحد l إلى r، فأنت بعدُ لا تحبُّ رفاقَكَ البشرَ من قلبك، وفعلُكَ الخيرَ لا يبهجُكَ كغايةٍ في ذاته.. مازلتَ تفعل البر بوصفِهِ أدباً وواجباً وليس بوصفِه براً بنفسك.

٧-١٤ دعْ ما يصيبُكَ من الخارجِ يصيب، ودع الأجزاءَ التي يمكنُ أن تتأثرَ به تشكو ما شاءت، فلستُ مضاراً إلا إذا عقدتُ الرأيَ بأنه ضرر؛ وبوسعي ألا أرى هذا الرأي(2).

٧-١٥ مهما يَقُلْ أيُّ شخصٍ أو يفعلْ فإن عليَّ أن أكونَ رجلاً صالحاً، شأنه شأن زمردٍ أو ذهبٍ أو أرجوان ما فتئ يقولُ

(1) عكس ما قيل في ٣-٥ (واجبك أن تقوم بذاتك ولا تقوم بغيرك)، وتعكس مزاجاً مختلفاً في وقت مختلف، وربما تعكس تطوراً في التفكير: من استقلال ذاتي صارم إلى السماح بعون الآخرين أو جواز الاستعانة بالآخرين.

(2) تنويع جديد على الثيمة المحورية "ثنائية العقل/الجسم"، واستقلال العقل عن البدن وحصانته من اضطرابات الجسد وتقلباته؛ وأن الأذى أو الشر هو مسألة رأي أو حكم. انظر أيضاً ٧-١٦ لمزيد من التفصيل والإبانة.

"مهمـا يقلْ أيُّ شخصٍ أو يفعلْ فإن عـليَّ أن أكونَ زمرداً وأن أحتفظَ بلوني".

٧-١٦ العـقلُ الموجِّهُ لا يـكرثُ نفسَـه: فـلا هو يروِّعُهـا ولا هو يسوقُها إلى الـرغبة. فليروِّعْها ما شـاءَ أو يؤلمها فإنه بذاته وبحكمِـه الخاص لن يَـعْمِـدَ إلى الالتـفاتِ إلى مـثلِ هذه الحـالات. فليحـرص الجسـدُ على تجنبِ الألم مـا وَسِعَـهُ ذلك؛ ولتقل النفسُ الحاسَّـةُ إني أخافُ أو أتألم. أما ذلك العقلُ الذي يضعُ التقييمَ العام لكل هذه الأشياءِ فلن يعاني على الإطلاق ـلن يندفعَ بنفسـه إلى أيٍّ من هذه الأحكام. فالعقلُ الموجِّه بحدِّ ذاته ليس به حـاجةٌ ما لم يخلُق الحاجةَ بنفسه: ومن ثم فهو لا يُضَرُّ ولا يُعاق ما لم يضُرَّ نفسَه أو يُعِقْ نفسَه.

٧-١٧ السعـادةُ إلهٌ طيب أو شيءٌ طيب. لماذا إذن، أيها الخـيالُ، تفعلُ ما تفعلُه؟ اذهبْ، نـاشدتُكَ الآلهة، اذهبْ مِن حيثُ أتيتَ، فلسـتُ بحـاجـةٍ إليك. لقـد أتيـتَ على عـادتكَ القديمة.. ولستُ غاضباً منك. فقط دَعْني واذهب[1].

٧-١٨ هل يخشى أحـدٌ من التغـير؟ حسـنٌ، فأيُّ شيءٍ يمكن أن يحـدثَ مِن دون تغـيـر؟ أو أيُّ شيءٍ أعـزُّ على طبـيـعـة "الكل" وأقربُ إليها من التغـير؟ هل بِوُسعِك أنتَ نفسكَ

(1) إشارة شخصية مستغلقة من ماركوس.

أن تغتسلَ إذا لم ينل التغيرُ خشبَ الموقد؟ هل بوُسعكَ أن تأكلَ دون أن يتغيرَ ما تأكلُه؟ هل يمكنُ أن يتحققَ أيٌّ شيءٍ نافعٍ في الحياةِ بدون تغير؟ ألستَ ترَى، إذن، أن التغيرَ بالنسبةِ لك هو الشيءُ نفسُه، وأنه ضروريٌّ بنفسِ الدرجةِ لطبيعةِ "الكل"؟(1)

٧-١٩ في مادةِ العالم، كما في تيارٍ جارف، تذهبُ جميعُ أجسادنا، فهي بطبيعتها متحدةٌ بالكل ومتعاونةٌ معه، مثلما تتعاونَ أعضاءُ الجسدِ الواحدِ بعضُها مع بعض. كم خريسيبوس، وكم سقراط، وكم إبكتيتوس ابتلَعَتْه الأبدية؟(2) وليَبْدَهْكَ هذا التصورُ بخصوصِ كلِّ إنسانٍ وكلِّ شيء.

٧-٢٠ لا أخشى إلا من شيءٍ واحد: أن أفعلَ شيئاً ما _لا تسمحُ به فطرةُ الإنسان، أو بطريقةٍ لا تسمحُ بها الفطرة، أو أفعل ما لا تسمح به الآن.

٧-٢١ سرعان ما ستكونُ قد نسيتَ كلَّ شيء، ويكونُ قد نسيكَ كلُّ شيء.

٧-٢٢ من الطبيعةِ الإنسانيةِ أن تحبَّ حتى مَن يَزِلُّون ويسقطون. يتبين ذلك إذا ما أخذتَ باعتبارك، حين يخطئون، أن

(1) التغير من صميم طبيعة "الكل". انظر أيضاً ٢-٣ (التغير يحفظ نظام العالم).

(2) قارن بقول النابغة الجعدي:

سَأَلَتْنِي عَنْ أُناسٍ هَلَكُوا شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلْ

البشرَ إخوة، وأنهم يخطئون عن جهلٍ وليس عن عمد، وأن الموت لا يلبث أن يطويك ويطويهم. والأهم، أن المخطِئَ لم يَضُرَّك ـ ولم يجعلْ عقلَك الموجِّهَ في وضعٍ أسوأ مما كان عليه من قبل[1].

٧-٢٣ تستخدم الطبيعةُ مادةَ العالمِ مثلما يُستخدَم الشمع: فتارة تخلق منه كهيئة حصان، ثم تصهره وتستخدم مادته لخلق شجرة، ثم إنسان، ثم شيء آخر. كل شيء من هذه الأشياء لا يدوم إلا قليلاً. ليس صعباً على الوعاء أن ينحطم، مثلما لم يكن صعباً عليه أن يَستوِي من قبلُ وعاءً.

٧-٢٤ التجَهُّمُ شيء مضاد للطبيعة. وإذا أصبح عادة متكررة فإن صباحةَ الوجه وتعبيره يموتان رويداً رويداً. وربما ينطفئان في النهاية انطفاءاً لا ضَرَمَ بعده. حاولْ أن تخلص من هذه الحقيقة ذاتها إلى أن التجهم شيء مضاد للطبيعة. ففي مجال السلوك الأخلاقي فإننا لو فقدنا إدراكنا لفعل الشر فلن يبقى لنا أي سبب للعيش بعد ذلك.

٧-٢٥ كل ما تراه سوف يتغير في لحظة، تُغَيِّره الطبيعة التي تحكم "الكل": ستخلق أشياء أخرى من هذه المادة، ثم أشياء

(1) انظر في ذلك الفقرة ٢-١ (قرابة البشر جميعاً؛ الشر جهلٌ ولا يأتيه صانعُه عن عمدٍ ولا يمكن أن يطال عقلي الموجِّهَ أو يعديه).

أخرى من هذه، وهكذا بحيث يبقى العالم صبياً على الدوام[1].

٧-٢٦ إذا ألحقَ بك شخصٌ أذى ما، فانظر للتو أي حكم عن الخير أو الشر أدى به إلى إيذائك. عندئذ سوف ترثي له ولن يأخذك شعورٌ بالعَجَب أو بالغضب. ذلك أنك إما تشاركه رأيه في الخير أو ترى رأياً قريباً منه، فتكون قميناً إذّاك أن تعذره، وإما أنك لا ترى في مثل هذه الأشياء خيراً ولا شراً، هنالك سيكون بميسورك أن تصبر على جهل الجاهل[2].

٧-٢٧ لا تحلم بامتلاك ما لا تمتلكه، بل تأمل النعمَ الكبرى فيما تملكه. وذَكِّرْ نفسَكَ كم ستُفتقَد هذه الأشياء لو لم تكن لديك[3]. ولكن احرص ألا تدع التنعم بها يجعل منك

(1) "بحيث يبقى العالمُ صبياً على الدوام" _تعبير موفق تجد صدى له في ٦-١٥، ١٢-٢٣، وفي قول المتنبي:

تَغَيَّرَ حالِي والليالي بِحالِها وشِبْتُ وما شابَ الزمانُ الغُرانِقُ

و"الغُرانِق" الشاب الناعم والجميل.

(2) في سياق الاستجابة للأذى تضم هذه الفقرةُ عدةَ مبادئ رواقية: فعلُ الشر لا يأتي إلا عن جهل، الفرق بين تصور العامة للخيرات وتصور الفيلسوف لها، فئة "الأشياء الأسواء" indifferents، واجب التسامح وواجب تعليم الجاهل (احتملهم أو علِّمهم).

(3) ذكر الشهرستاني في "الملل والنحل" حكماً كثيرة تؤثر عن زينون الرواقي منها أنه رأى فتى على شاطئ البحر محزوناً يتلهف على الدنيا، فقال له: "يا فتى، ما يلهفك على الدنيا؟ لو كنتَ في غاية الغنى وأنت راكب في لجة البحر =

مدمناً لها معتمداً عليها، كيلا تبتئس إذا ما فقدتها يوماً ما[1].

٧-٢٨ اتَّجِهْ إلى ذاتِك[2]. إن من طبيعة العقل الموجِّه أن يكون قانعاً بنفسه حين يعمل ما هو صالح، وينعم في ذلك بالسكينة.

٧-٢٩ امحُ أثرَ الخيال. أَوقِفْ حركة خيوط الدُّمَى التي تتجاذبك. انصرِفْ إلى اللحظة الحاضرة. تفهَّم جيداً ما يحدث لك أو لغيرك. حَلِّل الحدث وقسِّمْه إلى شطر صوري (سببي) وشطرٍ مادي. فكِّر في ساعتك الأخيرة. وأعرِض عن الشر الذي فَعَلَه آخر واتركه حيث فعله[3].

٧-٣٠ ركِّز انتباهَك على ما يُقال. ودَعْ فهمَك ينفُذ إلى ما يحدث وإلى ما يُحْدِثه.

= قد انكسرت السفينة وأشرفتَ على الغرق، كانت غاية مطلوبك النجاة ويفوت كل ما في يدك؟" قال: نعم؛ قال "لو كنتَ ملكاً على الدنيا، وأحاط بك من يريد قتلك، كان مرادك النجاة من يده؟" قال: نعم؛ قال "فأنت الغني وأنت الملك الآن".

(1) يوصي ماركوس في غير موضع بأن يُقبِل المرءُ على الأشياء "بتحفظ" حتى يجعل صدمة الفشل أو الفقدان أخفَّ وطأة.

(2) قلعة الذات - انظر ٤-٣

(3) تلخيص محكم لقائمة من مبادئ ماركوس الأساسية: النظرة الموضوعية، تحليل الأشياء إلى مادة وصورة، استحضار الموت، الإعراض عن الشر وتركه حيث هو.

٧-٣١ تَجَمَّل بالبساطة والتواضع وعدم الاكتراث بما ليس خيراً ولا شراً[1]. أَحِبَّ البشرَ، أَطِع الله. يقول ديمقريطس "كل ماعدا ذلك خاضع لقانون العُرف، وحدها العناصر هي مطلقة وحقيقية". ولكن بحسبك أنت أن تذكر أن الكل خاضع للقانون. فالقواعد تُرَدُّ إلى عدد قليل جداً.

٧-٣٢ عن الموت: سواء كان الأمر تشتتاً أو تحللاً إلى ذرات أو عدماً فإنه إما فناءٌ وإما تغير.

٧-٣٣ عن الألم: الألم إن زاد عن الحد وضع نهايةً لحياتنا، أما إذا كان مزمناً فمن الممكن احتماله. والعقل بترفعه بنفسه يحتفظ بسكينته. العقل الموجِّه لا يعوقه الألمُ، وللأجزاء المتأثرة بالألم أن ترى فيه ما تراه[2].

٧-٣٤ عن الشهرة: انظر إلى عقولهم، أولئك الذين يبتغون الشهرة، إلى طبيعة تفكيرهم، وأي صنف من الأشياء يريدون وأي صنف يتجنبون. وانظر كيف تُغَشِّي الأحداث اللاحقة على السابقة، كما تتراكم أكوام الرمال فينهال لاحقُها على سابقِها ويواريه[3].

---

(1) لا تكترث بما لا يكرث be indifferent to indifferents

(2) استقلال العقل عن الجسد وأحواله، وقدرته على الاحتفاظ بسكينته وصفائه في أحلك الأحوال الجسدية. انظر ٧-١٤، ٧-١٦

(3) الشهرة، في الحياة وفيما بعدها، هي وهم ودخان وعبث _انظر ٢-١٧، ٤-٣

٧-٣٥ " ـإذن، لدى إنسان أوتِيَ عـقلاً سامياً ورؤية للزمان كله ـ ترى هل ستبدو هذه الحياة الإنسانية على أي درجة من الأهمية؟ "(1).

- مُحال

- " إذن هل يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرى في الموتِ ما يدعو إلى الفزع؟ "

- بالطبع لا.

٧-٣٦ " قدَر الملوك أن تفعل الخيرَ وتُذَم عليه "(2).

٧-٣٧ من المُخجِل أن يطيع الوجهُ أوامرَ العقل ويشكل تعبيراته وفق إملاءاته، بينما يعجز العقل عن أن يفرض شكله ونظامه على نفسه.

٧-٣٨ " لا ينبغي أن تسخط على الأشياء والوقائع المحضة، لأنها لا عقل لها حتى تكترث بسخطك "(3).

٧-٣٩ " هلا أرضيتَ الآلهةَ الخالدةَ وأرضيتَنا؟ "(4).

---

(1) عن أفلاطون - الجمهورية ٤٨٦a

(2) عن أنتيثسينيس Antisthenes: مؤسس المذهب الكلبي Cynicism، عاش من أواسط القرن الخامس ق.م إلى أواسط القرن الرابع ق.م

(3) عن يوريبيدس ـبيليروفون.

(4) مجهولة المصدر. ربما تكون من إحدى الملاحم.

٧-٤٠ "السنابل الناضجة ينبغي أن تُحصَد. وكذلك حياة كل منا: واحدة تقوم، وأخرى تسقط"(1).

٧-٤١ "إذا لم تَعبأ الآلهةُ بي ولا بأبنائي، فثمة ما يبرر ذلك"(2).

٧-٤٢ "لأن الخير والحق يقفان إلى جانبي"(3).

٧-٤٣ لا تشارك الآخرين في النحيب، ولا في الانتشاء الصاخب.

٧-٤٤ ولكن بوسعي أن أقدم لهذا الرجل جواباً شافياً فأقول له: "لقد جانبك الصوابُ يا صديقي إذا حسبتَ أنه يجب على أي إنسان على أي قدر من الصلاح أن يحسب حساباً لمخاطر الحياة أو الموت. إنما عليه في أي فعل من أفعاله ألا ينظر إلا إلى شيء واحد: هل ما يفعله صواب أو خطأ؟ فعل إنسان صالح أو إنسان شرير؟

٧-٤٥ "فالحقَّ أقول لكم، إخوتي الأثينيين، أينما كان الموقع الذي اتخذه امرؤٌ، سواء رآه الأفضل له أو حَدَّدَه له قائدُه، هنالك يتوجب عليه، فيما أرى، أن يثبت ويصمد للمخاطر، لا يقيم وزناً للموت ولا لغيره بالقياس إلى عار التخلي عن موقعه"(4).

(1) عن يوريبيدس - هيسيبيلي.

(2) عن يوريبيدس - أنتيوبي.

(3) عن شذور يوريبدس.

(4) عن أفلاطون - الدفاع - ٢٨d .

٧-٤٦ "ولكن، يا صديقي العزيز، ألا يمكن أن تكون النبالة والفضيلة شيئاً آخر غير السلامة والنجاة؟ وأن الرجل الحقيقي ينبغي ألا يكترث بمدة الحياة، أو بمجرد العيش من أجل العيش؟ إنما عليه أن يترك ذلك لله وأن يعتبر بقول النساء إنه لا مهرب لأحدٍ من أَجَلِه. إنما يجب أن ينصرف فكرُه إلى هذا السؤال الثاني: كيف يعيش على أفضل نحوٍ ذلك الزمنَ المقدَّر عليه أن يعيشه"[1].

٧-٤٧ تأمَّلْ مسارات النجوم كما لو أنك تسير معها حيث تسير، وتأمل دوماً تحولات العناصر بعضها إلى بعض. جديرة هذه التأملات أن تغسل عنك أدرانَ الحياة الأرضية[2].

٧-٤٨ ثم عندما تتحدث عن بني الإنسان فلتنظرْ إلى الأشياء الأرضية كأنك تنظر إليها من نقطة عالية _ الجموع، الجيوش، المزارع، أحداث الزواج والطلاق والميلاد والموت، صخب المَحاكِم، الصحارى، شتى الأمم الأخرى، الاحتفالات، الجنازات، الأسواق _خليط كل الأشياء والاتحاد المنظم للأضداد[3].

(1) عن أفلاطون - جورجياس - ٥١٢ d-e .

(2) تأمُّل الأجرام السماوية كترياقٍ ضد الانغماس في الحياة الأرضية وأدرانها.

(3) النظرة من فوق تكشف ضآلةَ الحياة الأرضية وهمومها جميعاً - ثيمة رواقية محورية. انظر أيضاً ٩-٣٠ ، ١٢-٢٤

٧-٤٩ انظر وراءك إلى الماضي ـ إلى كل تلك التحـولات الشديدة للأسر الحاكـمة؛ وبوسعك عندئذ أن تتنبـأ أيضاً بما سوف يكون: فمن المؤكـد أنه سيكون مشابهـا لذلك تماماً وأنه لا يمكن أن يحيـد عن إيقاع الحـاضر. ومِن ثم فإنه سـيان أن تتأمل الحيـاة البشرية أربعين سنة وأن تتأملهـا لعشرة آلاف من السنين: فأي جديد عساك تراه؟

٧-٥٠

"ما يأتي إلى الأرض فإلى الأرض يعود
أما ما يَنْشَأُ من بذرة سماوية
فيعود إلى حيث جاء ـ إلى السماء"(1)

وإلا فـهـو هذا: انحـلال رابطة الـذرات، وتشـتت مماثل للعناصر غير الحاسَّة.

٧-٥١

"بطعامٍ أو شرابٍ، أو بسِحْرٍ ماكر
يريد أن يشق طريقاً للهروب من الموت"(2)
"الريح التي أرسلها الله
علينا أن نتحملها.. وأن نكدح
دون أن نشكو"(3)

(1) عن شذور يوريبيدس.

(2) عن شذور يوريبيدس.

(3) مجهولة الصدر.

٧-٥٢ أكثر قـدرةً على الإطاحة بخصمه أرضـاً، ولكن ليس أكثر قـدرة على الـود أو التـواضع، أو دربة على مـــواجـهـة الأحداث، أو العفو عن زلات جيرانه[1].

٧-٥٣ حيثما أمكننا أن ننفذ مهمة ما وفقاً للعقل، الذي يشارك فيه الآلهة والبشر، فليس ثمة شيء نخشاه. فمادام بإمكاننا أن نجني فـائدة من عـملٍ يمضي في الطريق القـويم والمسـاير لفطرتـنا البـشـرية فـليس علينا أن نتـــوجس من أي أذى يترصدنا.

٧-٥٤ أينما كنت ووقتـما كنت فإن بوسعك أن تمجـد الله راضياً بحالك، وأن تعامل مَن معك من الناس بالعدل، وأن تُنْعِمَ النظرَ في كل انطباعٍ راهنٍ فـي عقلك بحيث لا تدع شيـئاً يفلتُ من مَنال فهمِك.

٧-٥٥ لا تتلفت حولك لكي تنقب في عـقول الآخرين. بل انظر أمامك إلى هذا، ما تقودك إليه الطبيـعة: إلى طبيعة العالم في ما يحدث لك، وإلى طبـيعتك فيـما يجب أن تفعله. كل مخلوق ينبـغي أن يفعل ما تمليه عليـه فطرتُه الخاصة. ولقد جُبِلَتْ بـقية المخلوقات على خدمـة الكائنات العاقلة

(1) إشارة إلى قصة عن مصارعٍ اسبرطي هُزِمَ في منازلة فقيلَ له إن خصمك أثبتَ أنه الأفضل، فقال: "كلا، إنه الأفضل في أن يصرع خصمَه فحسب". قارن بالحديث الشـريف: "ليس الشديدُ بالصُّرَعة، وإنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضب".

(مثلما أنه في كل شيء آخر يوجد الأدنى من أجل الأعلى)، أما الكائنات العاقلة فقد جُبِلَت على أن يخدم بعضُها بعضاً.

المبدأ الرئيس، إذن، في جِبِلَّة الإنسان هو المبدأ الاجتماعي. والمبدأ الثاني هو ألا يستسلم لإلحاحات الجسد. فمن الخصائص التي ينفرد بها العقل أنه يعزل نفسه ولا يتأثر بنشاط الحواس أو نشاط الرغبات. فهذان النشاطان حيوانيان، بينما غاية النشاط العقلي أن يتسيَّد عليهما ولا يُسْلِم قيادَه لهما، لأن طبيعته ذاتها هي أن يضع كل هذه الأشياء تحت إمرته. والعنصر الثالث في الجِبِلَّة العقلية هو الحكم المتأني الحصيف. فليبق عقلُكَ الموجِّه، إذن، أميناً لهذه المبادئ، وليتخذ الطريق المستقيم، حتى يبلغ ما هو أهلٌ له.

٧-٥٦ تخيَّلْ أنك الآن ميت، وأن حياتك انتهت في هذه اللحظة. ثم عِشْ ما تَبَقَّى لك من العمر في وفاق مع الطبيعة.

٧-٥٧ لا تحبَّ إلا ما أَلَمَّ بك ونُسِجَ لك من خيط مصيرك. فأيُّ شيءٍ أنسبُ لك من هذا؟

٧-٥٨ في كل حادث يطرأ عليك ضع نصب عينك أولئك الذين مروا من قبل بنفس الخبرة واستجابوا لها بالحنق أو بعدم التصديق أو بالشكوى. فأين هم الآن؟ في لامكان. هل

تريد، إذن، أن تفعل مثلَهم؟ لماذا لا تدع هذه الأمزجةَ الغريبة عن الطبيعة لمن أثارها ولمن أُثير بها، وتنصرف بكل همتك إلى كيف تستخدم هذه الأحداثَ التي ألمت بك؟ فعندئذ ستستخدمها استخداماً حسناً، وستكون مادةً خاماً في يديك. فقط انتبِهْ وحاذِرْ وحاول، جهد ما تستطيع، أن تكون إنساناً صالحاً في كل فعل تفعله(1).

٧-٥٩ نقِّبْ في ذاتك. هاهنا بالداخل ينبوعُ خيرٍ جاهزٌ لأن يتدفقَ في أي لحظة إذا ما بقيتَ تُنَقِّب.

٧-٦٠ الجسد أيضاً يجب أن يبقى متماسكاً، وألا يتقلب في الحركة أو في الوضع. ومثلما يمارس العقل تأثيراً على الوجه فيضفي عليه سيماءَ الذكاء والجاذبية، فإن شيئاً كهذا ينبغي أن يُطْلَب أيضاً للجسد ككل، على أن يُلْحَظ كل هذا من دون تَعَمُّلٍ أو تَكَلُّف.

٧-٦١ فن الحياة أشبه بفن المصارعة منه بفن الرقص؛ فهو أيضاً يتطلب أن يكون المرءُ مستعداً لمواجهة ما يحدث بَغْتَةً وعلى غير انتظار.

٧-٦٢ عليك دائماً أن تَلحَظ مَن هؤلاء الذين تريد أن تحظى بإطرائهم، وما هي العقول التي توجههم. فإذا ما نظرتَ

(1) انظر ٤-١ حول مفهوم المسار "المتحفظ" أو "المشروط" للفعل، والذي يحول العوائق إلى مناسبة لممارسة الفضيلة. وانظر أيضاً ٧-٦٨، ٨-٣٥ في تحويل المصاعب إلى مادة خام للفضيلة الاجتماعية.

إلى مصـادر حكمهم ورغبـاتهم فلن تلوم مَن ينالك منهم دون قصد ولن تشعر بحاجة إلى استحسانهم.

٧-٦٣ يقول أفـلاطون: "ليست هنـاك نفس تريد عمـداً أن تُحرَم من الحـقيـقـة"؛ والشيء نفـسه ينسـحب على العـدالة، والاعـتدال، والإحـسان، وكل هـذه الفضـائل. من المهم للغاية أن تضع هـذا دائماً باعتـبارك، فبـذلك سوف تكون أرفق بالجميع.

٧-٦٤ كلمـا عانيتَ ألماً فـاذكر أن الألم لا يشـينك ولا يَمَس فكرك الموجِّه بأذى، لا من حيث طبـيعته العقلية ولا الاجتـماعية. وفي أغلب حـالات الألم سوف يسـعفك قـول إبكتيـتوس "ليس الألم بالشيء غـيـر المحـتمـل ولا هو بالشيء الدائم مادمتَ تذكر حدوده ولا تضخمه في خيالك". وتذكر أيضاً أن كثيراً من الأشـياء التي نجدها غير مريحة هي في حـقيقة الأمر تشارك الألم في طبـيعته: الخمول الزائد مـثلاً، والحر الشديد، وفقدان الشهية. لذا كلما وجدتَ نفسَك تشكو من أي من هذه الأشياء قل لنفسك "إنك تستسلم للألم".

٧-٦٥ إياك أن تعامل مُبْغِضِي البشر مثلما يعاملون البشر.

٧-٦٦ كيف لنا أن نعـرف أن شخصـية[1] Telauges لم تجعل منه

(1) هو موضوع إحـدى المحاورات المفقودة كتـبها Aeschines أحد أتباع سقراط الذين حضروا محاكمة أستاذهم وموته. والإشارة مبهمة إلى حد كبير.

إنساناً أفضل من سقراط؟ ليس يكفي أن سقراط مات مِيتةً أمجد، أو أنه كان يجادل السوفسطائيين جدلاً أكثر براعة؟ أو أنه كان أكثر جَلَداً إذ قضى ليلة كاملة في الصقيع، أو أنه كان أشجع إذ قرر رفض الأمر باعتقال ليون من سلاميس، أو أنه كان يمشي مختالاً في الشوارع[1] (وإن كان للمرء أن يشك تماماً في صحة ذلك). كلا.. إن ما يلزمنا بحثه هو طبيعة نفس سقراط. علينا أن نسأل هل كان بوسعه أن يقنع بأن يكون عادلاً تجاه الناس وتقياً تجاه الآلهة، فلا هو يشجب نقائص الناس جملةً ولا هو يتملق جهل أي شخص، ولا يستنكر أي نصيب مقسوم له من "الكل" أو يراه حملاً ينوء به، ولا يسمح لعقله أن يميل مع الأهواء البائسة للجسد.

٧-٦٧ ما كان للطريقة التي مزجتك بها الطبيعة بالكل المركب أن تحول بينك وبين أن ترسم حداً يحدك ويحفظ ما هو لك تحت سيطرتك. تذكر هذا دائماً. وتَذَكَّر أيضاً أن الحياة السعيدة تعتمد على أقل القليل. ولا تظن أنك لمجرد يأسك من أن تصبح فيلسوفاً أو عالماً ينبغي أن تيأس من أن تكون ذا روح حرة، وتواضع، وضمير حر، وطاعة لله. إن بإمكانك تماماً أن تكون "إنساناً إلهياً" دون أن يلحظ ذلك أحد!

(1) إشارة إلى مشية سقراط الغريبة، التي تفكه بها أرسطوفانيس في مسرحيته الكوميدية "السحب".

٧-٦٨ اذرع حياتَكَ دون أي ضغط قهري، وفي أتم سكينة عقلية، حتى لو هتف العالم كله ضدك، وحتى لو مزقت الوحوش أعضاء هذه الكتلة الجسدية البائسة الملتحمة حولك. فأي شيء في كل هذا يحول بين عقلك وبين أن يُبقِي نفسَه في سكينة، وأن يحتفظ بالحكم السليم على الظرف والاستعداد لأن يستعمل أي حدثٍ يُقَدَّم له؛ بحيث يقول "الحكم" Judgement للـ "الظرف" Circumstance : " هكذا أنتَ في الحقيقة وإنْ ظهرتَ في رأي الناس على أنك من صنف آخر"؛ ويقول "الاستعمال" Use للـ "الحدث" Event : "أنتَ ما كنتُ أبتغيه.. فأنا مَن يأخذ دائماً ما يَعرِض له ليجعل منه مادة خاماً لممارسة الفضيلة العقلية والاجتماعية_ وباختصار، لممارسة الفن الذي ينتمي إلى الإنسان أو الاله". ذلك أن كل شيء يحدث يتعلق إما بالاله أو بالإنسان، وليس هو بالشيء الجديد ولا العصي على التناول؛ إنما هو معتاد ومادة طيعة للعمل[1].

٧-٦٩ كمال الخلق في هذا: أن تعيش كل يوم كما لو كان آخر أيامك، بغير سعارٍ، وبغير بلادة، وبغير رياء[2].

٧-٧٠ الآلهة، الذين لا يموتون، لا يضيقون بواجبهم طوال الزمان

(1) نوع غريب من الحوار استعاره ماركوس من كليانثين الذي كتب حواراً شعرياً بين "العقل" Reason و"الانفعال" Passion.

(2) أن تعيش كل يوم كأنه آخر أيامك - انظر أيضاً ٢-٥

في أن يتحملوا البشر كما هم وعلى ما هم عليه من الشر. وفوق ذلـك فإنهم يرعـونهم بكل الطرق. أما أنت، أيـها المقدَّر عليه أن يزول سريعاً، تـراك تضيق بتحمل الأشرار؟ وتضيق بهم وأنت واحد منهم؟!

٧-٧١ عيبٌ على الإنـسان ألا يفر من رذائله، وهو ممكـن، بينما يحاول الفرار من رذائل الآخرين، وهو غير ممكن.

٧-٧٢ أيُّما شيءٍ تجـده المَلَكةُ العاقلة والاجتمـاعية غيـر عاقل ولا اجتماعي، فإنها تعده، بحق، دونها في الدرجة.

٧-٧٣ مادمتَ فعلتَ خـيراً وتَلَقَّاه آخرُ، فـمالك لا تَزال تترقب، كالأبله، شيـئاً ثالثاً إلى جانب هذين: أن تنال صِيـتاً بفعل الخير، أو تتلقى مقابِلاً؟

٧-٧٤ لا أحد يسأم من تَلَقِّي مـا هو نافع. والعمل وفقاً للطبـيعة هو منفـعـتك الخاصـة. لا تسـأم إذن من المنافع المُحَـصَّلة بواسطة المنافع المبذولة.

٧-٧٥ طبيعة "الكل" هَيَّأَت نفسَـها لتخلقَ عالماً. فالآن إما أن كل شيء أتى إلى الوجود قـد صَدَر من ذلك كنتيجة مـنطقية، وإما أنه حـتى الغايات الرئيسـة التي هَيَّأَ لها العـقلُ الموجِّه للعالم حركـتَه الخاصة هي غايات لاعقـلانية. إذا تَذَكَّرتَ هذا فـسوف يُعِـينُكَ على أن تكون أكـثرَ سكينةً في أمـورٍ كثيرة.

8

الكتاب الثامن

٨-١ هذه الخاطرة أيضاً قد تُذْهِب عنك الزهوَ والادعاء، إذ لم يَعُدْ بِوُسعِكَ الآن أن تقضي حياتَكَ كلها، أو فترةَ الرشدِ من حياتك على الأقل، كفيلسوف. فقد بات واضحاً للكثيرين، وأنت منهم، أنك أبعدُ ما تكون عن الفلسفة. لقد تبددَ أملُكَ إذن وتَقَطَّعَت بك السُّبُلُ وصار من الصعب عليك الآن أن تنتزع لقب فيلسوف، كما أن خطك في الحياة يمضي عكس ذلك[1]. فإذا كنتَ ماتزال على تَبَصُّرٍ

(1) تعكس هذه الفقرة ذلك التناقض الوجداني الذي كان يلازم ماركوس طول حياته: بين المسعى الأكاديمي النظري والحياة العملية. فالفلسفة الرواقية المكتملة تضم "الأخلاق" و"المنطق" و"الطبيعيات"؛ وفي حين كان ماركوس شغوفاً بـ "الأخلاق" فقد كان ضجراً بـ "المنطق" و"الطبيعيات". بل إنه في فقرة ١-١٧ يحمد الآلهة على أنه: "حين شغفَ بالفلسفة لم يقع في يد أي سفسطائي ولم يُضِعْ وقتَه في تحليل الأدب أو المنطق أو يشغل نفسه ببحث الظواهر الكونية". وفي الفقرة ٢-٢ يقول "ألقِ بكتبك، وأقلِع عن تعطشك=

بحقـيقة الأمـور فأَقْلِعْ عن الرغبـة في الصِّيت، واقنَع بأن تعيش ما تبَـقَّى من حياتك، أيا كان ما تبَقَّى منهـا، مثلما تريد لك طبـيـعـتُك. عليك إذن أن تلحظ مـا تريده هذه الطبيعةُ وألا تدعَ شيئاً يصرفُك عنه. لقد طَوَّفْتَ ما طوفتَ ومضـيتَ في دروبٍ كثيـرة ولم تعثرْ على السـعادةِ في أي دربٍ منها: لم تعثرْ عليها في المنطق، ولا في الثروة، ولا في المجد، ولا في المتعة، ولا في أي شيء. أين إذن يمكن أن تجدها؟ في أن تفعلَ ما تقتضـيه طبيعةُ الإنسان. وكيف

= إليها.. لا تشتت نفسك، فات أوان ذلك..". وفي الفقرة ٧-٦٧ يقول: "لا تظن أنه لمجرد يأسك من أن تصبح فيلسوفاً أو عالماً أن تيأس من أن تكون ذا روح حرة وتواضع وضـمير حر وطاعة لله". لـقد فهم ماركوس الفـلسفة ومارسها بوصـفها دليلاً مرشداً "يخـفرنا في هذه الحياة"، وبوصفـها علاجاً "نعود إليه مـثلما يعود الأرمدُ إلى إسـفنجته ومرهمه"، وراحـة وملاذاً حتى "تجعل حياته في القصر تبدو محتملة وحتى يبدو هو محتملاً في القصر".

تفـعل ذلك؟ بـأن تكونَ لديك مـبـادئُ تحكـمُ رغـبـاتِك وأفعالَك. ما هي هذه المبادئ؟ تلـك المتصلة بالخير والشر: اليقين بأنه لا شيء يُعَدُّ خيراً لـلإنسان ما لم يجعله عادلاً، ومعتدلاً، وشهماً، وحراً. ولا شيء يعد شراً ما لم يجعلْه عكسَ ذلك.

٨-٢ في كل فعلٍ تَهُمُّ به اسـألْ نفسَك: "هل يلائمني ذلك؟ هل سأندمُ عليه؟ لسوف أمـوتُ بعد برهة وينقضي كلُّ شيء. ماذا أطلبُ أكـثرَ إذا كان هذا العـملُ الذي أؤديه هو عمل كائنٍ عاقلٍ واجتماعي، يشارك اللهَ قانوناً واحداً.

٨-٣ الإسكندر، يوليوس قيـصر، بومبي ـفيم يختلفُ هؤلاء عن ديوجينيس[1] وهيـراقليطس وسقـراط؟ لقد بَصُـرَ هؤلاء الأخـيرون بالواقع وصـورته ومـادته، ولم يكن لهم سيـدٌ سـوى عقلِهـم الموجِّه. أمـا الثـلاثة الأُوَل فكانوا عـبيـداً لطموحاتهم جميعا[2].

٨-٤ حـتى لو انفجـرْتَ من الغيظ فـسـوف يمضون على سُنَّتِـهم ويَعملون على شاكلتِهم.

---

(1) ديوجينيس من سينوبي (على الساحل الجنوبي للبحر الأسود) من رواد الفلسفة الكلبية Cynicism في القرن الرابع ق.م، اشتهر بالتقشف الشديد.

(2) مقارنة بين الفلاسفة، الذين يفسرون العالم، والقادة العسكريين، الذين يريدون أن يفرضوا إرادتهم على العالم.

٨-٥ قبل كلِّ شيءٍ لا تبتئس. فكلُّ شيءٍ يمضي وَفْقَ طبيعةِ العالم. وبعد برهةٍ ستكون لاشيء وفي لامكان، مثلما هو الآن هادريانوس وأوغسطس. ثم انصرفْ إلى عملك الذي تؤديه وانظر إليه ماذا يكون. وتذكَّرْ أن واجبَك أن تكون رجلاً صالحاً وتَذَكَّر ما يقتضيه ذلك. ثم امضِ في عملكَ لا تَلوي على شيء. وتحدثْ بما تراه الأصوب. على أن تفعلَ ذلك دائماً برفقٍ وتواضع وبغيرِ رياء.

٨-٦ تنشغلُ طبيعةُ العالمِ بهذا العمل: أن تحوِّلَ الواقعَ إلى آخر، أن تغيرَ الأشياءَ، أن تأخذَها من هنا وتضعَها هناك. كلُّ الأشياءِ تَغَيَّرُ[1]. على أن هناك اطِّراداً في توزيعها. كلُّ شيءٍ مألوفٌ: وليس ثَمَّ ما يدعونا إلى الخوفِ من أي شيءٍ جديد[2].

٨-٧ كلُّ كائنٍ حيٍّ قانعٌ بنفسه إذا هو اتَّبَعَ الطريقَ الصحيحَ لطبيعته. والطريقُ الصحيحُ للطبيعةِ العاقلةِ هو ألا تسايرَ أيَّ شيءٍ زائفٍ أو مبهَمٍ فيما ينطبعُ على عقلِها؛ وأن توجهَ نزعاتها إلى الفعلِ الاجتماعي وحدَه. وألا ترغبَ أو تتجنبَ إلا في حدودِ قدرتها، وأن ترضى بكلِّ ما قَسَمَتْه لها طبيعةُ العالم. ذلك أنها جزءٌ من طبيعةِ العالم، مثلما

(1) العالَمُ تَغيُّر - انظر ٤-٣

(2) كل شيء مألوف _الأشياء جميعاً هي ما هي منذ الأزل _انظر في الاطراد والرتابة واللاجديد الفقرة ٢-١٤

أن طبيعةَ الورقةِ جزءٌ من طبيعةِ النبات: عدا أن طبيعةَ الورقةِ تفتقرُ إلى الإدراكِ أو العقل، وأنها عُرضَةٌ للإعاقة. أما طبيعةُ الإنسانِ فهي جزءٌ من طبيعةِ غيرِ معاقة، طبيعةٍ عاقلةٍ وعادلة ـفهي تقدِّرُ لكلِّ كائنٍ قدرَه العادلَ من الزمنِ والمادةِ والصورة والنشاط والخبرة. ولكن هيهات أن تجدَ تناظرَ واحدٍ لواحد بين كلِّ شيءٍ وضريبِه من الأشياء، بل ستجدُ بالأحرى تكافؤاً كلياً بين هذا الشيءِ وذاك في جملتِهما وعمومِهما.

٨-٨ ليس لديك مُتَّسعٌ للدرسِ والتحصيل. ولكنْ لديك متسعٌ لأن تَكُفَّ الغطرسة، ولديك متسع لأن تعلوَ فوق اللذة والألم، ولديك متسع لأن ترتفعَ فوق حبِّ الشهرةِ والمجد، وألا تحنقَ على البليدِ والجاحد، بل - حقاً - أن ترعاهما[1].

٨-٩ لا تَعُدْ تُسْمِعُ أحداً تذمراً من حياةِ البلاط، ولا حتى نفسَك[2].

٨-١٠ الندمُ هو نوعٌ من توبيخِ الذات على إهمالها شيئاً ما نافعاً. غير أن ما هو خيرٌ ينبغي أن يكونَ شيئاً نافعاً يحرِصُ عليه

(1) تعكس هذه الفقرة يأس ماركوس من أن يصبح فيلسوفاً نظرياً، واتجاهه إلى الحكمة العملية.

(2) "حتى في البلاط يمكنك أن تحيا حياةً صالحة" - انظر ٥-١٦

الشخصُ الخيِّرُ جِد الخير. ولكننا لا نرى إنساناً خيِّراً جِدَّ الخير يندمُ على فواتِ لذةٍ حسية. اللذةُ إذن ليست خيراً ولا نفعا[1] .

٨-١١ هذا الشيء: ما هو في ذاته، في جِبِلَّته؟ ما جوهرُه ومادتُه؟ ما وظيفتُه في العالم؟ وكم منَ الزمنِ يُعَمِّر؟[2]

٨-١٢ إذا وجدْتَ نفسَكَ تقومُ من النوم كرْهاً فتذكرْ أنَّ مِن جِبِلَّتِكَ وطبيعتك البشرية أن تؤدي أفعالاً اجتماعية، في حين أن النومَ شيءٌ مشتركٌ أيضاً مع الحيوانات غيرِ العاقلة. ولكنَّ ما يتفقُ مع طبيعةِ كلِّ فردٍ هو أيضاً شيءٌ ألصَقُ بهذه الطبيعةِ وأنسبُ لها وأكثرُ قبولاً وسَواغاً في حقيقةِ الأمر[3] .

٨-١٣ اختبرْ دوماً انطباعاتِك الذهنيةَ ـ كلَّ انطباعٍ على حدَة إذا أمكن ـ طَبِّقْ عليها مبادئَ الفيزياءِ والأخلاق والجدل[4].

٨-١٤ كلما قابلتَ شخصاً اسألْ نفسَكَ أولاً هذا السؤالَ المباشر: "ما هي الأحكامُ التي يأخذُ بها هذا الشخصُ حولَ الخيرِ

(1) حجة منطقية على أن اللذة ليست في ذاتها خيراً ولا نفعاً. اللذة عند الرواقيين، شأنها شأن الألم، هي من الأشياء "الأسواء" أو "اللافارقة" indifferentia .

(2) التحليل الردي عن ماركوس ـ انظر ٣-٦، ٤-١٢، ٨-١٣، ١٠-٩

(3) قارن ٥-١، وانظر أيضاً ٢-١

(4) أي ابحث السبب، حَدِّد الانفعال، طَبِّقْ التحليل المنطقي.

والشر في الحياة؟" ذلك أنه إذا كان يعـتقدُ هذا الاعتقادَ أو ذاك عن اللذة والألم ومكوناتهما، وعن الشهرة والخمول، وعن الحياة والموت، إذن فلن يكونَ مستغرَباً لديَّ أو عجيباً إذا ما تصرفَ بهذه الطريقة أو تلك، وسوف أتذكرُ أنه ليس لديه خيارٌ إلا أن يسلكَ كما سَلَك(1).

٨-١٥ أعجيبٌ أن تُنبتَ شجـرةُ التين تيناً؟ فأيُّ عَجَبٍ في أن ينتجَ العالمُ هذه الأشياءَ أو تلك مما هو مُنتـجُه؟ أيَعْجَبُ الطبيبُ لحمى مريضٍ، أو يَعجَبُ القبطانُ لريحٍ معاكسة؟

٨-١٦ تذكرْ أن تغييرَكَ لرأيك أو قبـولَكَ لتصويبٍ يأتي من غيرِكَ هو شيءٌ يتـسق مع حريتك قـدرَ اتساق عنادك وإصـرارك على خطئك. فالفعلُ فعلُك، تَحثُّه رغبتُكَ أنت وحكمُك، وفهمُك في حقيقة الأمر.

٨-١٧ إذا كنتَ مخـيَّراً في هذا الشيء فلمـاذا فعلتَه؟ أمـا إذا كان غيرُك هو المخيَّـر فيه فمَن تراك تلوم _الذرات (المصادفة) أم الآلهـة؟ كلاهمـا حمـاقة. فـلا مَحَلَّ للوم. بل قَـوِّمْ هذا الفـاعلَ إن استطعتَ، فـإذا لم تسـتطع فقَـوِّم الشيءَ على الأقل. فإذا لم تستطعْ فأي هدفٍ يحققه اللومُ _إذْ كلُّ فعلٍ ينبغي أن يتمَّ لهدف.

(1) الفضـيلة علم والرذيلة جهل، وأحكام القـيمة التـي يأخذ بها الشـخص تحدد مسلكه الأخـلاقي في الحياة؛ ومن يأخذ "الأشـياء الأسواء" indifferentia مأخذَ الخير والشر فلابد له من أن يسلك تجاهها مثلما يسلك.

٨-١٨ كلُّ ما ماتَ لا يسقطُ خارجَ العـالم، بل يبقى هنا ويتغير. وهنا أيضاً يتحللُ إلى مكوناتِه الصحـيحة التي هي عناصرُ العالم وعناصرُك. هذه أيضاً تتغير ولا تتذمر.

٨-١٩ كلُّ شيءٍ إنما أتى إلى الوجـودِ لهـدف. الحـصـانُ مثـلاً، الكَرمة. أَتَعْجَبُ لهذا؟ فحـتى الشمسُ ستقول "أتيتُ إلى الوجود لهـدف"، وكذلك بقـيةُ الآلهـة. فلأيٍّ هدفٍ إذن أتيتَ أنت؟ مِن أجلِ لذتك؟ انظرْ هل يقبلُ العقلُ هذا؟[1]

٨-٢٠ تُقَيِّضُ الطبـيعـةُ لكلِّ شيءٍ نهايتَه مـثلما تقـيضُ له بدايتَه ودوامَه. الأمرُ هنا أشبـهُ برجلٍ يقذفُ كرةً إلى أعلى. فأيُّ فضلٍ للكرةِ إذ تُقذَفُ إلى أعلى، وأي ضَيـرٍ عليها إذ تهبطُ إلى أسفل أو حتى إذ ترتطمُ بالأرض؟ أيُّ خيـرٍ للفقاعةِ إذ تنتفخُ، وأي شرٍّ إذ تنفجر؟ الشمعةُ أيضاً شأنها شأن الكرةِ وشأن الفقاعة.

٨-٢١ قَلِّب الجـسدَ ظـهراً لبطن؛ وانظرْ أي صـنفٍ من الأشيـاء هو، أي صنفٍ مـن الأشـيـاء إذ يكبـر، وأي صنفٍ إذ يمرض، وإذ يموت.

قـصيـرةٌ هي حيـاةُ المادحين والممدوحين مـعاً، الذاكـرين والمذكـورين. كلُّ هذا في مـجردِ ركـنٍ من قارةٍ واحـدة. وحتى هنا ليس الجـميعُ في تناغمٍ بعـضهم مع بعض، ولا

(1) رفض للنظرة الأبيقورية إلى اللذة على أنها الخير الأسمى.

حتى الفرد في تناغم مع نفسِه. والأرضُ بِرُمَّتِها مجردُ نقطةٍ في الفضاء.

٨-٢٢ انصرفْ إلى المسألةِ التي أمامك، سواء أكانت رأياً أم عملاً أم كلمة. إنك تستحق ما أنت فيه، لأنك اخترتَ أن تكونَ صالحاً غداً لا أن تكونَ صالحاً اليوم.

٨-٢٣ هل أنا فاعلٌ شيئاً؟ أفعلُه وعيني على خيرِ البشرية. هل أَلَمَّ بي شيء؟ أتلقاَّه فأَنْسبه إلى الآلهة وإلى المصدر الكلي الذي تصدرُ منه الأشياءُ جميعاً مرتبطةً متواشجة.

٨-٢٤ ماء الغُسل: زيت، عرق، قَذَر، أَسَن ـ كل ما هو مُغْثٍ. كذلك حالُ كلِّ جزءٍ من الحياة، وحالُ كلِّ شيءٍ فيها[1].

٨-٢٥ دفنَتْ لوكيلا فيروس، ثم ما لَبِثَتْ لوكيلا أن ماتت ودُفِنَت. وسيكوندا دفنَت ماكسيموس، ثم ماتت هي بدَورِها. كذلك إبيتينخانوس وديوتهوس، وأنطونينوس وفاوستينا. القصةُ هي القصةُ دائماً وأبداً. مَشَى كيلير في جنازة هادريانوس، ثم مضَى فيما بعدُ إلى قبره. أين هم الآن، أين تلك العقولُ الذكية، سواء المتنبؤون أو المتزمتون. لا شك أن خاراكس وديميتريوس ويودايمون وأمثالهم كانوا عقولاً ذكية. ولكن الكل زائل، والكل ميتٌ منذ زمان. البعض اختفى الآن حتى من الأسطورة.

(1) احتقار لكل الأشياء الوقتية.

إذَن تَذَكَّرْ هذا: أن هذا المركَّب الهزيل، الذي هو أنت، لا بد أنه سوف يتبدد، أو أن روحَك الضـئيلةَ سوف تَبِيد، أو ستهاجرُ وتتخذُ مُقاماً آخر.

٨-٢٦ بهجـةُ الإنسانِ أن يؤدي العملَ اللائقَ بالإنسـان. والعملُ اللائقُ بالإنسان هو الإحسـانُ إلى جنسهِ الإنساني، وازدراءُ نَزَغات الحواس، وتكوينُ حُكمٍ سليمٍ من الظواهرِ المقبولة، والتفكُّرُ في طبيعةِ العالمِ وكلِّ ما يجري فيه.

٨-٢٧ لديك ثلاثُ عـلاقات: الأولى بالجـسد الذي يحـيطُ بك، والثـانيةُ بالسـببِ الإلهي الذي يَصـدُرُ عنه كلٌّ ما يجـري للبشر، والثالثةُ برفاقك ومعاصريك من الناس.

٨-٢٨ إما أن الألمَ شرٌّ لـلجسد ـ إذن فلتَدَعْ الجـسدَ يقول فيـه ما يراه، وإما للروح. ولكن بِوُسْعِ الروحِ أن تحـتـفظَ بصفائها وسكينتِـهـا وألا تقـيِّـمَ الألمَ على أنه شـر. لأن كلَّ رأيٍ وحركـة ورغبة ونفور هو في الداخل، حـيث لا شرَّ يمكن أن يبلغَ إليه.

٨-٢٩ امحُ خيالاتك، بأن تقولَ لنفسك دوماً: "بمقدوري الآن أن أحـفظَ روحي بعـيـدة عـن أيِّ رذيلة أو انفـعـال، أو أيِّ اضطرابٍ على الإطلاق، فأرى الأشياءَ كما هي في طبيعتِها وأستخدم كـلاً منها بحسب قيمتـه. تَذَكَّرْ هذه القدرةَ التي منحتكَ إياها الطبيعة.

٨-٣٠ عندما تتحدث في مجلس الشيوخ، أو إلى أيٍّ شخص كان، كنْ جاداً مستقيماً غيرَ متحذلق. استخدمْ لغةً واضحة تَنضَحُ بالصدق.

٨-٣١ بلاط أوغسطس قيصر: الزوجة، الابنة، الأحفاد، أبناء الزوجة، الأخت، أجريبا، الأقارب، الأهل، الأصدقاء، أريوس، مايكيناس، الأطباء، العرّافون_البلاطُ كلُّه ميت. والتفِت الآن إلى الباقين، غيرَ ناظرٍ إلى موتِ إنسانٍ واحد، بل إلى موتِ أسرةٍ حاكمةٍ بأسرها، مثل آل بومبي. والتفِت إلى النقش الذي تراه على أحجار القبور: "آخرُ سلالته". تأملْ كم اهتمَّ السابقون بأن يتركوا وراءهم وريثاً على العرش، وكيف أن واحداً لا بد من أن يكونَ آخرَ العائلةِ الحاكمة. هنا أيضاً انظر إلى موتِ عائلةٍ بأسرِها.

٨-٣٢ من واجبِكَ أن تنظمَ حياتَك تنظيماً جيداً في كلِّ فعلٍ مفرد. وأن تَقْنَعَ إذا كان كلُّ فعلٍ يحققُ هدفَه على أفضل نحوٍ ممكن، وليس بمُكْنةِ أحدٍ أن يحُولَ بينك وبين تحقيقِ هذا الهدف.

- "ولكنَّ عائقاً خارجياً ما سوف يقفُ في طريقي".
- لا شيءَ سيقفُ في طريقِ الفعلِ العادلِ الرصين الحصيف.
- "ولكن ربما أُعيقَ أي مصدرٍ آخر للنشاط".

- حسن، تَقَبَّل العائقَ كما هو، وحَوِّل جهدَك بحكمة ليواجهَ الظرفَ القائم، وسرعان ما سوف يحلُّ فعلٌ جديدٌ محلَّ السابقِ متلائماً مع هذا الوضعِ الذي نتحدث عنه[1].

٨-٣٣ بلا زَهْوٍ تَقَبَّلْ الرخاءَ إذا أتَى، وكنْ مستعداً لفقدانه إذا ذَهَب.

٨-٣٤ إذا كنتَ قد رأيتَ يوماً ما يداً مقطوعةً أو قدماً، أو رأساً مفصولاً واقعاً في مكانٍ ما بعيداً عن بقية الجسم. فهذا مَثَلُ ما يفعله بنفسه، ما وَسِعَه ذلك، مَن لا يرضَى بقسمته ويعزلُ نفسَه عن الآخرين أو يقومُ بأي فعلٍ غيرِ اجتماعي. هَبْكَ قد فَصَلْتَ نفسَك عن وحدة الطبيعة _فلقد وُلِدْتَ جزءاً منها ولكنك الآن فَصَلْتَ نفسَك عنها _فثمة رغم ذلك مفارقة، وهي أن الخيارَ مازال مفتوحاً لك بأن تعودَ إلى تلك الوحدةِ مرةً أخرى. لم يمنح اللهُ هذه الميزةَ لأي جزء آخر: وهو أن يلتئمَ بالكل مرةً ثانية بعد أن انفصلَ عنه. انظر إلى مدى النعمة التي اختَصَّ بها الإنسانَ: لقد جعلَه غيرَ منفصلٍ عن الكل، وجعله قادراً إذا انفصلَ أن يعودَ ويتحدَ ويسترد مكانَه كجزءٍ من الكل[2].

(1) التعامل الحكيم مع العقبات: أن تَقْبَلها وتمتصها وتناورها وتحولها إلى مصلحتك.

(2) فكرة الانفصال عن المجتمع الإنساني أو الطبيعة الكونية _انظر أيضاً ١١-٨ حيث يجيز ماركوس إعادة الاتصال مع تحفظات.

٨-٣٥ مثلما أن طبيعة "الكل" هي مصدرُ جميعِ المَلَكات الأخرى في كل مخلوقٍ عاقل فقـد وهبتنا هذه القدرةَ أيضاً: بنفس الطريقة التي تحوِّل بها الطبيعةُ أي شيء مُعيق أو مضاد إلى غرضـها الخـاص واضعةً إيـاه في المخطَّط المقدور للأشـياء وجـاعلةً إياه جزءاً منهـا _كذلك بوسعِ الكـائنِ العاقل أن يحوِّل كلَّ عائقٍ إلى مادة لاستعماله الخاص، وأن يستخدمَه لمصلحةِ غرضِه الأصلي أياً كان هذا الغرض.

٨-٣٦ لا تُزعِجْ نفسَك بالتأمل في المشـهد الكلي لحياتك. لا تدَعْ فكرَك يضم في آنٍ معاً كلَّ ما أزعجَك فـيما مضى وكل ما يمكن أن يزعجك فيما بعد. بل اسألْ نفسَكَ في كل ظرف حاضـر: "أيُّ شيءٍ في هذا يفوقُ احـتمـالي وينَوءُ بي؟" ولسوف تخجلُ مِن مثلِ هذا الإقرار. ثم ذَكِّرْ نفسَك أنه لا المستقبلُ ولا الماضي هو ما يثقلُ عليك، بل الحاضرُ وحدَه. وكم يهونُ عِبءُ الحاضرِ إذا أمكنَكَ فـقط أن تحددَه وتضعَه في حجـمه، وأن توبخَ عـقلَك إذا كان يكِلُّ عن الصـمود لشيءٍ مخَفَّفٍ كلَّ هذا التخفيف.

٨-٣٧ ألاتزال بانثيا أو بيرجاموس تقعد عند قبر فِيروس؟ أو تجلس خابرياس أو ديوتيـموس عند قبر هادريان؟ واأسـفاه. وإذا كن جـالسـات هناك فـهل يَدرِي الموتى بذلك؟ وإذا كـانوا يدرون فـهل يَسُرُّهم ذلك؟ وهل سـرورُهم يُخَلِّدُ البـاكين على موتهم؟ أليس مصيـرُ هؤلاءِ أيضاً أن يكبروا ويصيروا

شيوخاً وشيخات ثم يموتون؟ وماذا عسى موتاهم السابقون أن يفعلوا عندئذ؟ الأمرُ كلُّه عفنٌ وفساد في كيسٍ من العظام.

٨-٣٨ إذا كنتَ ذا بصرٍ حادٍّ فاستعملْه؛ ولكنْ، كما يقول الشاعر[1]، أضِفْ إليه البصيرة والحكمة.

٨-٣٩ لستُ أرى في جِبِلَّة الكائنِ العاقلِ فضيلةً مضادةً للعدل، ولكني أرى فضيلةً مضادةً للذة ـ وهي فضيلة الاعتدال.

٨-٤٠ إذا نَحَّيْتَ حُكمَك على أي شيء يبدو مؤلماً فأنتَ نفسُكَ ستكون محصناً تماماً من الألم.

- "نفسك؟ أية نفس؟"
- العقل
- "ولكني لستُ مجردَ عقل".
- حسن، إذن دعْ عقلَك بمعزلٍ عن الألم، وإذا كان جزءٌ آخرُ منك يتضررُ فدعْه يكوِّن حكمَه لنفسه[2].

٨-٤١ إعاقةُ الإدراكات الحسية شيءٌ مؤذٍ للطبيعة الحيوانية. وإعاقةُ الرغباتِ شيءٌ مؤذٍ بالمثل للطبيعة الحيوانية. (شيء آخر سيكون كذلك مُعيقاً ومؤذياً لطبيعةِ النبات). يترتبُ على ذلك أن إعاقةَ العقلِ شيءٌ مؤذٍ للطبيعةِ العاقلة.

---

(1) الشاعر المشار إليه هنا غير معروف لنا.

(2) ثيمة متكررة في "التأملات" - الضرر أو الأذى هو مسألة رأي أو حكم (كل شيء هو كما يريده الفكرُ أن يكون)

الآن طَبِّقْ كلَّ هذا على نفسك: هل يؤثرُ فيك الألمُ أو اللذةُ الحسية؟ ذلك شأنُ الحواس. هل اعترضَكَ عائقٌ في سَعْيِكَ إلى شيءٍ ما؟ إذا كان سعيُكَ حقاً غيرَ مشروط سيكون هذا العائقُ بالتأكيدِ مؤذياً لك ككائنٍ عاقل. أما إذا قَبِلْتَ المسارَ المعتادَ للأشياء فليس ثمة من أذىً بَعدُ ولا عائق. أترى.. لا أحدَ سواك سوف يعوقُ الوظائفَ القويمةَ للعقل. فلا الناسُ ولا الحديدُ ولا الطغيانُ ولا السبُّ يمكن أن يَمَسَّ العقل[1]. فمنذ أصبحَ العقلُ دائرةً مكتملةً فإنه ما يزال في وحدتِه دائرةً مكتملة[2].

٨-٤٢ ليس لديَّ ما يدعوني إلى إيلامِ نفسي، فأنا لم أتَعَمَّدْ حتى إيلامَ شخصٍ آخر.

٨-٤٣ تختلف المباهجُ من شخصٍ إلى آخر. أما أنا فبهجتي في أن أحتفظَ بعقلي الموجِّه نقياً فلا أزدري أيَّ إنسانٍ أو أيَّ شيءٍ يحدثُ لإنسان، بل أنظر إلى كل شيء نظرةَ احتفاءٍ وأستخدم كلَّ شيءٍ بحسبِ قيمتِه.

٨-٤٤ اغتَنِم اللحظةَ الحاضرة. فإن الذين ينصرفون عنها ابتغاءَ المجدِ بعد الموتِ لا يقَدِّرون أن الأجيالَ التاليةَ سيكونُ بها

(1) حصانة العقل من كل أذى يلحق بالجسم - انظر أيضاً ٤-٣٩

(2) "دائرة مكتملة تتقلب في نعيم وحدتها" - هكذا يقول أمبدوقليس (فيلسوف وشاعر من أكراجاس في صقلية، من الفلاسفة قبل السقراطيين عاش في القرن الخامس ق.م).

أناسٌ يشبهون تماماً أولئك الذين يبغضونهم الآن. وهؤلاء أيضاً سوف يموتون. وماذا يُجْـديكَ على كل حال إذا كان هؤلاء القادمون في مُقبِلِ الأيام يَلهَجون بهذا أو ذاك ويرون فيك هذا الرأيَ أو ذاك؟

٨-٤٥ خذني وارمِ بي في أي مكانٍ شِئتَ، فأينما كنتُ فسوف أحفظُ الجانبَ الإلهي مني سعيداً ـ أي قانعاً، مادام وجداني وفعلي يتبعان فطرتَه الخاصة.

هل هذا التغيرُ في المكانِ سببٌ كافٍ لأن تَشقَى نفسٌ ويَسوءَ مِزاجُها فتكتئبَ أو تتوق أو تنكمش أو تخجَل؟ وهل ستجدُ في المكان الجديد أيَّ سببٍ يدعو إلى ذلك؟

٨-٤٦ لا شيءَ يحدثُ للإنسانِ خارجَ نطاقِ الخبرةِ الطبيعية للإنسان. كذلك الأمرُ في الثور فلا شيءَ في خبراتِه غريبٌ على طبيعةِ الثور، والكرمة لا شيء لديها غريبٌ على طبيعةِ الكَرم، والحَجَر لا شيء لديه خارج خصائصِ الحجر. فإذا كان كلُّ شيءٍ يخبر ما هو معتادٌ وطبيعي بالنسبة له ففيمَ تشكو؟ مادامت طبيعةُ العالمِ لم تجلبْ لك شيئاً فوق احتمالك.

٨-٤٧ إذا كان بك كربٌ مِن شيءٍ خارجي فإن ما يكربك ليس الشيء نفسه بل رأيك عن الشيء ـ وبوسعك أن تمحو هذا الرأي الآن. فإذا كان ما يكربك هو شيء في موقفِك أنتَ

فمَن ذا الذي يمنعُكَ من أن تصححِّحَ رأيَك؟ وحتى لو كنتَ محزوناً لأنك لا تحققُ شيئاً معيناً ترى أنه ذو فائدة، فلماذا لا تواصلُ السعيَ بدلاً من الشكوى؟

- "ولكنَّ أمامي عقبةً كَئوداً لا أستطيعُ التغلبَ عليها".

- إذن ليس لك أن تبتئسَ مادام الأمرُ خارجاً عن إرادتك.

- ولكنَّ الحياةَ لا تستحقُّ أن تُعاش إذا ما فَشلتُ في ذلك".

- حسن، فلترحلْ إذن عن هذه الحياةِ راضياً مثلما يرحلُ عنها مَن يحققُ كلَّ أهدافه، وفي وئامٍ أيضاً مع تلك الأشياءِ التي وَقَفَتْ في طريقك[1].

٨-٤٨ تذَكَّرْ أن عقلكَ الموجِّه لا يُقهَر إذا ما اعتصمَ بنفسه مكتفياً بذاته غيرَ فاعلٍ شيئاً لا يريدُ أن يفعلَه، حتى لو كان موقفُه مجردَ عناد؛ فما بالك إذا كان الحكمُ الذي يُكَوِّنه مؤيَّداً بالعقل والرَوِيَّة. لذا فإن العقلَ الخالي من الانفعالات هو قلعة: ليس ثمة ملاذٌ للناس أقوى منه، ومَن يأوي إليه فهو في حصنٍ حصين. فما أجهلَه مَن لا يرى هذه القلعةَ، وما أتعسَه مَن لا يَلوذُ بهذا الحصن[2].

(1) كان الانتحار مقبولاً عند الرواقيين بل مرغوبًا فيه ومحبّذًا إذا سُدَّت أمام الإنسان كل الأبواب. وقد كان سينيكا يوصي بالانتحار إذا كان آخر معقل لحرية الفرد وآخر ملاذ لكرامته.

(2) قلعة الذات - انظر ٤-٣

٨-٤٩ لا تُزايدْ علـى روايةِ الانطبـاعِ الأول بشيءٍ مـن عندك. افترضْ أنه قد جاءك أنَّ شخصاً ما يَعيبُكَ؛ هذا ما رُوي، أما أنك قـد أُضِرتَ فهذا مـا لم يُرْوَ. أو هَبْني أرى طفلي مريضاً؛ هذا ما أراه، أما أنه في خطر فشيءٌ لا أراه. هكذا التزِمْ دائماً بالانطباعِ الأول ولا تُضِفْ عليه شيئاً مِن أفكارِك أنت. وهكذا كل مـا فـي الأمـر؛ وإلا فـإن بوسـعك أن تضيفَ ما لا نـهاية له إضافةَ مَن يعرفُ كـلَّ ما يجري في العالم[1].

٨-٥٠ القِـثّاءةُ مُـرة؟ أَلْقِ بها. أغـصانٌ شـائكةٌ في الطريق؟ تَنَحَّ عنهـا. هذا كلُّ مـا يلزمك، ولا داعي لأن تسـأل "ولماذا جُعِلَت مثلُ هذه الأشياءِ في العالم؟" فهذا سؤالٌ مُضحِكٌ عند دارسِ الطبـيـعة، مـثلمـا يَضـحَكُ عليك النجـارُ أو الإسكاف إذا رآك تستاءُ لمنظرِ قُشارةٍ أو قصاصات، متخلفةٍ عن عـملهـمـا، على أرضِ الورشـة. على أن لدى هذين مكاناً ما لإلقاء مـخلفاتهما، أما طبيـعةُ "الكل" فلا شيءَ لديهـا خـارجَ ذاتهـا. والعجـيبُ في فنِّـها أنهـا حَـدَّدَتْ حـدودَها، وكلُّ مـا يفـسـد داخلهـا أو يشـيخُ أو ينتـهي استـعمالُه فـإنها تعيـدُ دورتَه داخلَها وتخلقُ أشيـاءَ جديدةً

(1) وصـية صـارمة، قلمـا يقـدر عليهـا أحـد، بالموضوعـيـة الخالصـة في تَلَقِّي الانطباعات وعدم المزايدة علـيها أو الإضافة إليها أو التـمادي بها إلى ما ليس فيها.

أخرى من هذه المادة نفسها، بحيث لا تحتاجُ إلى مادة من الخارجِ ولا إلى مكانٍ تُلقِي فيه نفاياتها. إنها تامةٌ إذن ومكتفيةٌ بمكانها، ومادتها، وفنها(1).

٨-٥١ لا تكن متثاقلاً في فعلك، ولا مُشَوَّشاً في محادثتك، ولا غامضاً في تفكيرك. ولا تتركْ عقلَك نهباً للانقباض ولا للتيه. واجعلْ في وقتِك ساعةً للفراغ والترويح.

- "إنهم يَقتلونني، يمزقونني، يلعنونني".

- وكيف يمكن لكل ذلك أن يَحُولَ بين عقلك وبين الصفاء والحكمة والرصانة والعدل؟ هَبْ واحداً أتى إلى نبعٍ من الماء النمير وأخذَ يلعنُه، فهل سيمنعُ النبعَ مِن أن يظلَّ يتدفقُ بالماءِ الزلال؟ وهبه ألقى فيه بشيءٍ من الطين والرَّوْث.. فلن يلبثَ النبعُ أن يفتتَه ويزيحه ويعودَ إلى نقائه. كيف إذن تُؤَمِّنُ لنفسكَ نبعاً دائماً لا مجردَ صهريج؟ بأن تُوطِّنَ نفسَك طولَ الوقتِ على الحرية، وتظلَّ قانعاً، بسيطاً، متواضعاً.

٨-٥٢ مَن لا يعرف ما هو العالمُ لا يعرف أين هو. ومن لا يعرف لأي غاية وُجِدَ العالم لا يعرف مَن هو ولا ما هو

(1) في هذه الفقرة جواب قوي عن التساؤلات الخاصة بأدران العالم وجوانب النقص والقصور فيه. عن التناول الاقتصادي لمادة العالم المتناهية انظر ٧-٢٣، وعن جاذبية النواتج العرضية لعمليات الطبيعة انظر ٣-٢، ٦-٣٦

العـالم. ومَن يجـهل أي شيء من هذه لا يمكنه حـتى أن يقـولَ لماذا وُجِـدَ هو ذاتُه. مـا رأيُك إذن في ذلك الرجلِ الذي يتجنبُ أو يطلبُ المديحَ من أناسٍ لا يعرفون أين هم ومَن هم؟!

٨-٥٣ هل ترغبُ في أن يمدحَكَ إنسـانٌ يلعنُ نفسَـه ثلاثَ مراتٍ كلَّ ساعة؟ هل تودُّ أن تُرضِي إنسـاناً لا يستطيعُ أن يرضَى عن نفسِـه؟ وهل يمكنُ أن يرضَى عن نفسِـه مَن يندمُ على كلِّ شيءٍ يفعلُه؟

٨-٥٤ لا تَعُدْ تتنفسُ فقط من الهـواءِ المحيط، بل خُذْ فكرَكَ أيضاً من العـقلِ الذي يضمُّ الأشيـاءَ جـميـعاً. فـالقوةُ العـاقلةُ منتشـرةٌ، كالهواء، في كل مكان ومُـتَخَلِّلةٌ في كل شيء، طوع مَن يشاءُ أن يتـشربها، تمامـاً كالهـواء لمن يستطيعُ أن يتنفسه.

٨-٥٥ عمـومُ الشرِّ لا يضـرُّ العالمَ بشيءٍ على الإطـلاق. والشرُّ المفردُ لا يضـرُّ مُتَلَقِّيه بشـيءٍ؛ إنما يضرُّ مرتكبَه فـحسب. وبوسعِ هذا أن يتخلى عنه، بمجرد أن يقررَ ذلك[1].

٨-٥٦ بالنسـبـة لإرادتي الحـرة فـإن إرادةَ جـاري غـيـرُ فـارقـة indifferent، شأنها في ذلك شـأن نفَسه وجسـده. صحيحٌ أننا خُلِقنا من أجل بـعضنا البـعض، ولكنَّ لعـقلِ كلٍّ منا

(1) الآثم لا يضر إلا نفسه - انظر ٢-١، ٢-٦

سيادتَه الخاصــةَ. وإلا لكان خُبثُ جاري هو ألمي أنا؛ واللهُ لم يُرِدْ هذا ولم يَدَعْ شقائي في يدِ شخصٍ آخر.

٨-٥٧ تبزغ الشمسُ لكي تُريقَ نفسَها. ينتشرُ ضياؤها حقاً في كلِّ اتجاه ولكنَّ تيــارَه لا يَنفَد. فهذا التدفقُ امــتدادٌ خطي: لذا تُسَــمَّى خطوطُه أشعــة، لأنها تشعُّ في خطوطٍ ممــتدة[1]. يمكنك أن تعرفَ ما هو الشــعاعُ إذا لاحظتَ ضوءَ الشمس يَنفُذُ إلى حجرةٍ مظلمةٍ من خلال فتحة ضيقة. إنه يمتدُّ في خطٍّ مستقيمٍ وحين يلتقي بجسمٍ صلبٍ أصَمَّ ينقسمُ وينقطعُ ولكنه لا ينزلقُ ولا يسقطُ بل يبقى هناك.

شيءٌ شبيهٌ بذلك ينطبقُ على تدفقِ عــقلِ العالمِ وانتشاره: ليس تياراً يَــنْفَدُ بل إشعــاع دائم. ولن يكون ثمة قــهرٌ أو عنفٌ في اصطدامه بالعقبات التي يلتقي بها: لن يسقطَ بل سيــستقر هــناك ويضيء كلَّ شيءٍ يتلقاه. وكل ما هو غــيرُ عاكسٍ سوف يحرِمُ نفسَه من هذا الضياء.

٨-٥٨ مَن يخشى الموتَ إنما يخشى فقــدانَ الحسِّ أو يخشى حِساً من صنفٍ آخر. فــإذا كنتَ سوف تفــقدُ الحسَّ فلن تشــعرَ أيضاً بأيِ أذى. أمــا إذا كنتَ ستكتسبُ شــعوراً مخــتلفاً، فسوف تكونُ كائناً آخر ولن تتوقفَ الحياة.

(1) يقول مــارتين هاموند أســتاذ الكلاســيكيات ومــترجم النص إلى الإنجلــيزية إن الصلة الإتيمولوجية بين كلمة aktines (أشعة) وكلمة ekteinein (يمتد) هي صلة غير صحيحة.

٨-٥٩ خُلِقَ البشر من أجل بعضهم البعض، إذن عَلِّمْهم أو تَحَمَّلْهم[1] .

٨-٦٠ يتحرك السهمُ بطريقة، ويتحرك العقلُ بطريقةٍ أخرى. ومع ذلك فإن العقل، حتى عندما يمارسُ الحيطةَ أو يدورُ حولَ بحثٍ معين، إنما يتحركُ بنفسِ الاستقامة، ويمضي قُدُماً إلى هدفه.

٨-٦١ انفُذْ إلى العقلِ الموجِّه لكلِّ إنسان، ودَعْ كلَّ أنسانٍ ينفذُ إلى عقلِك الموجِّه[2].

(1) علِّمْهم أو تحمَّلهم، إما أن ترشِد وإما أن تسامح ـانظر في ذلك ٢-١، ٢-١٣، ٥-٣٣

(2) "المُواجَدَة" empathy أي القدرة على النفاذ إلى عقول الآخرين ووجداناتهم، واتخاذ أُطُرِهم المرجعية، هي مِلاك التفهم الإنساني المتبادل ولُب لُباب الذكاء الانفعالي. انظر "العلاج الرواقي" في دراستنا الملحقة.

9

الكتاب التاسع

٩-١ الظلمُ إثم. فإذا كانت طبيعةُ العالم قد فَطَرَت الكائنات العاقلةَ من أجلِ بعضهم البعض وعلى أن يُعينَ بعضُهم بعضاً وفقَ ما يستحق، لا أن يؤذيه بأيٍّ شكلٍ من الأشكال، فإن مَن يتعدى على إرادتها فهو مذنب على نحو واضح تجاه أكبر الآلهة. ذلك أن طبيعة العالم هي طبيعة الواقع النهائي الذي ينتمي إليه كل وجود راهن.

الكذب أيضاً إثم تجاه نفس الإلهة. إن اسمها "الحق" (Aletheia=Veritas)، وهي السبب الأصلي لكل ما هو حق. إن مَن يكذب عن عمدٍ فهو آثم بقدر ما يسببه كذبُه من ظلم؛ ومن يكذب بلا عمد آثم بقدر ما هو خارج عن التناغم مع طبيعة "الكل" وبقدر ما يربك النظامَ بمناوأته لطبيعة العالم. وهو مناوئ حين يسمح لنفسه أن تمضي ضد

الحقيـقة. فلقد وهبته الطبـيعةُ قدرةً أهملَهـا فلم يعد قادراً على التمييز بين الحق والباطل.

كما أن السعي إلى اللذة علـى أنها خير وتجنب الألم على أنه شر يمثل إثماً. فـمَن يفعل ذلك قمينٌ أن يتبرَّم بطبـيعة العالم للتوزيع غير العادل بين الأشرار والأخيار مادام شرار الناس كثيـراً ما يتقلبون في اللذات والممـتلكات التي توفر اللذة بينما نصيب الأخـيار في الأغلب هو الألم والأحوال التي تورِث الألم.

كذلك من شـأن مَن يخشى الألم أن يخشى أحـياناً بعض الأشياء التي ستقع في العالم، وهذا إثم مباشر. ومن شأن من يقتـفي اللذة ألا يقلع عن الظلم ـوهو إثم مـبين. أما الذين يريدون أن يتبعوا الطبيعـة ويشاركوا في عقل الطبيعة

فيجب أن يكونوا هم أنفسهم غير مكترثين بتلك الأزواج من الأضداد التي لا تكترث لها طبيعة العالم ـ فما كانت الطبيعة لتخلق هذه الأضداد لو لم تكن غير مكترثة بأي منها. لذا فإن كل من يكترث بالألم واللذة، الحياة والموت، الشهرة والخمول ـ تلك الأشياء التي تعاملها الطبيعة بعدم اكتراث ـ إنما يرتكب إثماً على نحوٍ قاطع.

وحين أقول "طبيعة العالم تعامل هذه الأشياء بعدم اكتراث" فإنما أعني أن هذه الأشياء تحدث بدون تحيز بواسطة السبب والنتيجة لكل ما يأتي إلى الوجود وتدين بوجودها لتحقق دَفْعة أصلية من "العناية". تحت هذه الدفعة شرعت العناية من مقدمةٍ أولى لتؤسس النظام الحالي للعالم: لقد ارتأت مبادئ معينة لما سيكون وحددت قوى مولِّدة لكي تخلق المواد والتحولات والتجدد المتعاقب.

٩-٢ أسعد الحظِّ كلِّه أن تغادرِ الناس ولم تعرف قط طعمَ الكذب ولا الرياء ولا الأبهة ولا الغرور. ويلي هذه الرحلة في السعد أن تغثى، على الأقل، من هذه الأشياء قبل أن تلفظ آخر أنفاسك. أم تراك تفضِّل أن تبقى مقيماً مع الخبث، ولم تقنعكَ الخبرة أن تنأى عن هذا الوباء؟ ذلك أن فساد العقل وباءٌ أشد وأنكى من ذلك التلوث الذي يصيب الجو المحيط الذي نتنفسه. فهذا ينال الكائنات

الحيوانيـة ويصيبهـا في طبيعتـها الحيوانية، أمـا ذلك فينال الكائنات الإنسانية ويصيبها في إنسانيتها.

٩-٣ لا تحـتـقـر الموتَ، بل رحب به لأنه جـزءٌ أيضـاً مما تريده الطبيـعة. فمـثلما نشبُّ ونشـيخ، ومثلما نـكبر وننضج، وتنمـو أسناننا ولحانا وشـعـرنا الرمادي، ومـثلما نتـزوج وننجب، كذلك نموت ونتحلل. فمَن أَلِفَ التفكيرَ والتعقلَ لا يجزع من الموت ولا يبتـئس له ولا ينفر منه، بل ينتظره كما ينتظر فعلاً من أفـعال الطبيعة[1]. وكما أنك الآن قد تكون منتظراً طفـلاً حملته امـرأتُك أن يولد من رحمـها، كذلك ينبـغي لك أن تتشوف إلى اللحظة التي تنسلُّ فـيها روحك من هذا الغلاف[2].

أمـا إذا كنت تريد مـعيـاراً آخـر، سوقـيـاً على أنه يَمَس القلب، فسـوف يهـون عندك لقـاء الموت إذا نظرت إلى الأمور التي سوف يعفيك منهـا والشخصيات التي لن تعود تنغص روحك. صـحيح أنك ينـبغي ألا تسيء إليـهم بل ترعاهم وتتحملهم بلطف ورحمة _ولكن تذكَّر أن رحيلك لن يكون رحيـلاً عن أشبـاهك في المبدأ (فـهذا هو الشيء الوحيـد، إن وُجِد، الذي يمكـن أن يشدنا إلى الحـياة _أن

(1) الموت بوصفه فعلاً طبيعياً - انظر ٦-٢ "فحتى هذا.. فعل الاحتضار.. هو أحد أفعال الحياة، وبحسبِكَ هنا أيضاً أن تجيد ما تفعله جهدَ ما تستطيع".

(2) قارن بقول طاغور: "أيها الموت.. يا موتي.. آخرَ إنجازات حياتي".

يُتاح لنا أن نعيش مع أشباهنا في المبدأ). ولكنْ ها أنتَ ترى كم هو مُضْجِرٌ أن تعيش في غير تناغم مع رفاقك، بحيث يحق لك أن تقول: "أقبِلْ وعَجِّلْ أيها الموت، وإلا نسيتُ نفسي أنا أيضاً".

٩-٤ المذنب يذنب في حق نفسه، والظالم يظلم نفسه لأنه يجعلها آثمة[1].

٩-٥ قد يُرتكَب الظلمُ بالإحجام عن الفعل، مثلما يُرتكَب بإتيانه.

٩-٦ بحسبِكَ ثلاث: أن يكون حكمُكَ الراهنُ قائماً على الفهم، وفعلك على الخير الاجتماعي، وميلُكَ على الرضا بكل ما يحدث.

٩-٧ امْحُ الخيال، اكبح الرغبة، أَخْمِد الشهوة، حتى يظل عقلُك الموجِّهُ سيِّدَ نفسِه.

٩-٨ تشترك المخلوقات غير العاقلة في حياة واحدة، وتشترك المخلوقات العاقلة في روحٍ عاقلة واحدة، تماماً مثلما أن هناك أرضاً واحدة لكل الأشياء الأرضية، ونوراً واحداً نرى به، وهواءً واحداً نتنفسه جميعاً نحن ذوي البصر والحياة.

٩-٩ كلُّ شيءٍ منجذبٌ إلى صِنوه. كل شيء ترابي يميل إلى التراب. وكل مائي يتفق معاً، وكذلك الهواء. لذا يستلزم

(1) انظر أيضاً ٢-١، ٢-٦

فَصْلُهـا عوائق فيـزيائية. ويرتفع اللهب إلـى أعلى بسبب عنصر النار، غـير أنه ميال بشـدة إلى أن يشعل أي نار في الأسفل بحيث إن أي مادة بلغت مبلغـاً من الجفاف تشتعل بسهولة، بسبب نقص المكونات التي تعوق الاحتراق.

وعليه فإن كل الأشـياء التي تجمعهـا طبيعة عاقلة مشـتركة تميل بنفس الدرجة، بل بدرجة أكبر، إلى الانجذاب بعضها إلى بعض. وبقدر ارتفاع منزلتها على بقية الموجودات فإنها أكثر استعداداً للائتلاف والامتزاج بجنسها.

فبـداية من المخلوقات غيـر العاقلة بوسـعنا أن نرى خلايا النحل وقطعـان الماشية، وطـيوراً ترعَى صغـارها، وبمعنى ما: ضروباً من الحب. فثمة أرواح حـيوانية تعمل عملَها. وبارتفـاع المرتبة تزداد الرابطة الجـمعـية قوة لا نجـدها في النباتات أو الأحجار أو الأشـجار. حتى إذا بلغنا الكائنات العـاقلة وجدنا المجـتمـعـات السيـاسيـة، والصداقـات، والعائلات، والاجـتماعات؛ وفي الحروب نجـد المعاهدات والهـدنات. وبمزيد من الارتقـاء فـي المنزلة ثمـة نوع من الاتحاد حـتى على بُعْد، كـما هو الحال بـين النجوم. إذن يمكن للمراتب العليا من الوجود أن تضـفي شعوراً بالزمالة حتى إذا كان الأعضاء منفصلين بعضهم عن بعض.

انظر إذن إلى ما يحدث الآن. وحدها المخلوقات العاقلة قد نسيت ذلك المـيل المتبادل إلى الاتحـاد، وحدَها مَن افـتعل

الفرقةَ والتباعد. غير أنهم مهما جهدوا لتجنب الوحدة فإنهم مأخوذون بها ـ فتلك هي قوة الطبيعة[1]. دقِّق النظر ولسوف ترى ما أعنيه. إنه لأيسر لك أن ترى التراب يشيح عن التراب من أن ترى الإنسان مُنْبَتّاً عن الإنسان.

٩-١٠ الإنسان، والله، والعالم ـ كلٌّ يثمر أو يؤتي أُكُلاً في أوانها؛ ولا يهم إذا كان الاستخدام الشائع يقصر معنى الإثمار على الكروم وأشباهه. فالعقل أيضاً له ثمره، العمومي والخاص: ثمة أشياء أخرى تنمو منه وتشارك في طبيعته.

٩-١١ إذا استطعتَ بيِّنْ لهم الطريقَ الأقوم، وإذا لم تستطع فتذكَّرْ أنه لذلك السبب قد أوتيتَ ملكةَ السماحة[2]. والآلهة أيضاً متسامحون مع هؤلاء الناس، وربما شملوهم بإحسانهم فأعانوهم على تحقيق بعض أهدافهم- الصحة، الثروة، المجد. وبوسعك أيضاً أن تفعل ذلك. وإلا فقلْ لي ماذا يعيقك؟

(1) مهما تمرد المرء على القدر فلا جدوى من تمرده، فجهوده للفرار إنما تسوقه إلى حيث أرادت الأقدار. يقول سينيكا: "القدَر يوجِّه الراضين، ويجُرُّ الساخطين" (الرسائل: ١٠٧)، وقد ترجم، بتصرف، قصيدة لكليانثيس في هذا المعنى أشرنا إليها في موضعها.

(2) علِّمهم أو تَحمَّلْهم، إما أن تُرشِد وإما أن تُسامِح.

٩-١٢ العمل: لا تمارس العـمل كبائسٍ مـعذَّب، أو ملتمـساً أي شـفقـةٍ أو إعجـاب. ليكن هدفك الوحيـد هو: أن تدفع نفسك أو توقفها حسبما يقتضي الفعل الاجتماعي.

٩-١٣ اليوم هربت من كل المنغصات، أو بالأحرى نَحَّيْتُها جانباً. لم تكن هذه شـيئـاً خارجيـاً، بل كانت بداخلـي.. إنها أحكامي ليس إلا[1].

٩-١٤ جمـيع الأشيـاء كمـا هي: مألوفـة في الخبرة، عـابرة في الزمن، دنيئة في المادة. كل شيء الآن هو كما كان في أيام من دَفَنّاهم[2].

٩-١٥ الأشياء واقـفة خارجنا، قائمـة بذاتها، لا تعرف شـيئاً عن نفسها ولا تدلي بشيء. ما الذي يُدلِي إذن؟ عقلنا الموجِّه.

٩-١٦ الخير أو الشـر بالنسبة للكائن الاجتمـاعي العاقل لا يكمن في الانفعـال بل في الفعل، مـثلما أن فـضيلتـه أو رذيلته ليست فيما يحسه بل فيما يفعله.

٩-١٧ حَجَر مُلقَى في الهواء: لـيس شراً له أن يَهوِي إلى أسفل، ولا هو خيرٌ أن يصعد إلى أعلى.

---

(1) الانفعالات أحكام، ليست الأشيـاء هي ما ينغِّص المرء بل فكرته عن الأشياء؛ كل شيء هو كما يريده الفكرُ أن يكون - انظر أيضاً ٢-١٥

(2) كل الأشياء هي هي منذ الأزل، لا جديد - انظر أيضاً ٢-١٤، ٥-١٠

٩-١٨ انفُذْ إلى عقولهم الموجِّهة ولسوف ترى أي صنف من النقاد تخشَى وأي صنف من النقاد هم لأنفسهم[1].

٩-١٩ جميع الأشياء في عملية تغير. أنت نفسك في تبدل مستمر وتفسخ تدريجي. كذلك هو العالم بأسره.

٩-٢٠ عليك أن تترك خطأ غيرِكَ حيث ارتُكِب[2].

٩-٢١ انتهاء عمل، توقف نشاط أو حكم.. هذا نوعٌ من الموت، ولكن لا ضير فيه. تحوَّل الآن إلى أطوار حياتك: الطفولة مثلاً، المراهقة، الشباب، الشيخوخة. هنا أيضاً كل تغير هو موت (المرحلة): هل ثمة من شيء مخيف؟ وتحوَّل الآن إلى حياتك مع جدك، ثم مع أمك، ثم مع أبيك. وحيثما وجدتَ أمثلةً أخرى عديدة للتحلل أو التغير أو الانتهاء فاسأل نفسك: "هل كان ثمة أي شيء يدعو إلى الخوف؟" بالمثل، فلا شيء مخيف في انتهاء، وتوقف، وتغير حياتك بأسرها[3].

٩-٢٢ هلم إلى عقلك الموجِّه، وإلى عقل "الكل"، وإلى عقل هذا الشخص بعينه: إلى عقلك لتقوِّمه، وإلى عقل الكل

(1) النفاذ إلى عقول الآخرين - انظر ٦-٥٣ وفي الاستخدام الازدرائي لصيغة الغائب "هم" انظر ٣-٤

(2) انظر أيضاً ٧-٢٩

(3) حجة ضد الخوف من الموت _انظر أيضاً ٢-١٤، ٩-٣، ١٢-٢٣

لتتذكر الأصل الذي أنت جزء منه، وإلى عقل هذا الشخص عساك تعرف هل تصرَّفَ عن جهل أو عن علم، وعساك تتبين أيضاً أن عقله قريبٌ لعقلك.

٩-٢٣ مثلما أنك أنت نفسك جزء مكمِّل بمنظومة اجتماعية، كذلك كل فعل من أفعالك يجب أن يكمِّل حياةَ مبدأ اجتماعي. فإذا لم يكن لأي فعل من أفعالك صلة، مباشرة أو غير مباشرة، بغاية اجتماعية، فإنه يمزق حياتك إرباً إرباً ويحطم وحدتها. إنه نوع من التمرد، كشأن مَن يحب أن ينشق عن الجماعة ويشذ عن التناغم العام(1).

٩-٢٤ تَشاغُبُ أطفالٍ ولُعَبِهم(2)، "أرواحٌ ضئيلة تحمل جثثاً"(3)؛ هكذا شأن كل شيء ـإن العالم السفلي في "الأوديسية" لَيبدو للعين أكثر واقعية!(4)

٩-٢٥ إذا شئت أن تتأمل شيئاً ما فاتجه مباشرة إلى صورته وقيمها بمعزل عن العنصر المادي. ثم حدد الزمن ـأقصى زمن قَدَّرت الطبيعة لشيء على هذه الصورة أن يدوم(5).

(1) الواجب الاجتماعي للكائن الإنساني ـانظر أيضاً ٦-٧

(2) انظر ٥-٣٣ "أطفال تتشاجر، تضحك وما تلبث أن تبكي".

(3) تعبير إبكتيتوس: "أرواحٌ ضئيلة تحمل جثثاً"

(4) العالم السفلي في الأوديسية (الكتاب الثاني) الذي رحل إليه أوديسيوس (الكتاب الحادي عشر) ليتلقى الإرشاد من العراف الأعمى تيريسياس، هو مكان تعيش فيه الموتى وجوداً شبحياً فارغاً.

(5) في هذا النوع من التحليل انظر ٤-٢١

٩-٢٦ لقد احـتملت من الكوارث ما لا يُحـصَى عدداً، لأنك لم تدع عـقلك الموجـه يفـعل مـا خُلِقَ لـكي يفـعله. ولكن بحسبك ذاك.

٩-٢٧ إذا لامك شخصٌ آخر أو كرهك، أو تحدث الناس عنك بما يسوء، فاقـترب من نفوسهم المسكينة وانفذ إليـها لترى أي صنف من البـشـر هم. ولسوف تكتـشف أنه ليس ثم مـا يدعـو إلى الابتئـاس لرأيهم فيك. ولكن عليك أيـضاً أن ترفق بهم، فـهم رفاقك بالطبـيعة. والآلـهة أيضاً تعـينهم بشـتى الطرق، بالأحـلام، بالرؤى، للحـصـول على مـا يروقهم[1].

٩-٢٨ يكرر العالـم نفس الحركات الدورية، أعلـى وأسفل، من عصر إلى عصر. فإما أن عقل العالم يتحرك خصيصاً لكل حـالة على حـدة، وفي هذه الحـالة عليـك أن ترضى بالنتيجة. وإما أنه تحرك حـركة أصلية واحدة يتسلسل عنها كل شيء كنتيجة، وماذا يضـيركَ في ذلك؟ وباختصار: إذا كان ثمـة إله فبهـا ونعمت، وإذا كانت المصـادفة هي التي تُسَيِّر العـالم لغـير غـاية، فـإن عليك أن تخلق غـايتك لنفسك.

(1) كان ماركـوس، شأن الرواقيين جمـيعاً، يعتـقد بتواصل الآلهة مع الـبشر من خلال الأحلام وكهنة الوحي.

توشك الأرض أن تطمرنا جميعاً. ثم ما تلبث الأرض أيضاً أن تتغير. ثم تتوالى التغيرات إلى غير نهاية. فإذا ما تأمل المرءُ التبدلات والتحولات التي يتلو بعضها بعضاً كالأمواج، وحين يتأمل سرعة تدفقها، فلسوف تهون في عينه كل الأشياء الفانية الهالكة..

٩-٢٩ السبب الكوني أشبه بسيل جارف يكتسح كل شيء في طريقه. إذن، ماذا يعني ذلك عندك أيها الإنسان؟ اعمل ما تقتضيه الطبيعة في هذه اللحظة. شَمِّر للأمر مادام في قدرتك ولا تنظر حولك لترى هل كان أحد يلحظك. لا تؤَمِّل في جمهورية أفلاطون الطوباوية، بل اقنَع بأصغر خطوة إلى الأمام، ولا تستهِن بهذا الإنجاز. ما أتفه أولئك البؤساء الذين ينخرطون في الأمور السياسية ويظنون أن أعمالهم لها صفة فلسفية. إنهم جميعاً يَهْرِفون. ومَن ذا يستطيع أن يغير آراءهم؟ وبدون تغير الرأي ماذا هناك غير العبودية _أناس يئنون وهم يتظاهرون بالطاعة؟[1] امض

(1) في سياق الأبدية لا عيان إلا للحظة الحاضرة، ولا مرشد إلا العقل. والرغبة في الظهور والشهرة والمديح لا قيمة لها ولا صلة. لا وجه إذن للطموح المفرِط ولا للنظريات المجردة غير العملية مثل جمهورية أفلاطون وغيرها من الطوباويات. لا تغيير للمجتمع إلا بتغيير العقول، ولا خير في الغزو والسلطة المفروضة بالقوة من دون هداية العقل؛ فمثل هذه السلطة الغاشمة لا تُنتج إلا أمةً من العبيد يتظاهرون بالطاعة. اقنع بخطوة حكيمة واحدة في الوقت الواحد، خطوة بسيطة ومتواضعة، ولا تستهِن بهذا الإنجاز. يتبين من ذلك أن ماركوس، في فلسفته السياسية، كان أميل إلى "الهندسة الاجتماعية الجزئية =

إذن، وحدثني الآن عن الإسكـندر وفيليب[1] وديميتريوس الفاليري. فقد كنتُ خليقاً أن أتبعهم لو أنهم رأوا ما تريده طبيعة الـعالم وتتلمذوا عليها. أما إذا كـانوا ببساطة يمثلون أدوار أبطال الدراما، فـأنا بحلٍّ من أن أقلدهم. بسيطة هي ومـتواضـعة مـهمـة الفلسـفة. فـلا تَمِل بي إلى الخيـلاء والغرور.

٩-٣٠ خذ نظـرةً من فوق _انظر إلى ألوف القطعـان والأسراب، وألوف الشعائر والاحتفالات الإنسانية، وما لا يُحصَى من ضروب الترحـال في العاصفة والهـدأة، وألوان الاختلاف بين من يولدون ومن يعيشون معاً ومن يموتون. واذكر أيضاً الحيوات التي عاشـها أناسٌ قبلك بزمنٍ طويل، وتلك التي ستُـعـاش من بعـدك، وتلك التي تعـاش الآن بين الأمم البـربرية؛ وكم من الناس لم يسـمع حتى باسـمك، وكم منهم سـوف ينسى اسمَك فـي القريب العـاجل، وكم من الناس قـد يمدحك الآن ثم لا يلبـث أن يلومك، وأن لا قيـمة البتة لأي ذكـرى (بعد الوفاة) أو شـهرة أو أي شيء آخر على الإطلاق[2].

= المتدرجة" piecemeal social engineering منه إلى الشموليات المثالية أو المذهب اليوتوبي utopianism .

(1) فيليب (٣٨٢-٣٣٦ق.م) ملك مقدونيا ووالد الإسكندر.

(2) "النظرة من فوق" تكشف هوان الحياة الأرضـية وهمومها _انظر أيضاً ٧-٤٦، ٩-٣٠، ١٢-٢٤

٩-٣١ لا تعكِّر صفوَك بأي شيء يأتي من الأسباب الخارجية، وتقبله بهدوء. أما الذي تأتيه أنت بسببٍ من إرادتك الداخلية فليكن كله عدلاً وقَصداً. وبعبارة أخرى، ليكن سعيُكَ وفعلك مفضِياً إلى المسلك الاجتماعي الذي هو تعبير عن طبيعتك الخاصة.

٩-٣٢ بوسعك أن تُنَحِّي الكثيرَ من المنغصات غير الضرورية التي تكمن بأكملها في حكمك أنت. عندئذ ستوفر لنفسك مكاناً رحباً بأن تفهم الكون كله وتستوعبه في عقلك، وبأن تتفكر في أبدية الزمان، وتتأمل في التغير السريع الذي يعتري كل شيء في كل جانب ـ ما أضيقَ البَونَ بين الميلاد والفناء، وما أوسع الفجوة الزمنية التي سبقت مولدَك والفجوة اللانهائية المماثلة التي تعقب فناءَك.

٩-٣٣ كل ما تراه سوف يزول سريعاً؛ وأولئك الذين يشهدون زواله سوف يزولون هم أنفسهم. متْ في أرذل العمر أو مت قبل أوان موتك... كلاهما سيان.

٩-٣٤ ما الذي يوجِّه عقول هؤلاء الناس؟ ماذا يشغل بالهم؟ ماذا يحكم خياراتهم وتفضيلاتهم؟ دَرِّب نفسك على أن تنظر إلى نفوسهم عاريةً مجردة. فإذا كانوا يظنون أنهم يضرون بملامهم أو ينفعون بمديحهم، فهم جِد واهمين.

٩-٣٥ الفقدان ليس أكثر من تغيُّر. طبيعة العالم تفرح بالتغير،

وكل ما يجري مـن الطبيعة إنما يجـري من أجل الخير[1].
مـثل هذا حـدَثَ منذ الأزل، ومـثله سـوف يحـدث إلى الأبد. لماذا تقول إذن إن كل شيء كان وسيظل دائماً شراً، وما كان لكل تلك الآلهة قـدرة على إصلاحه، وأن العالم مقدَّر عليه أن يكون في شقاء أبدي؟!![2]

٩-٣٦ تعـفُّن المادة الأصليـة لكل شيء. الماء، التـراب، العظام، القَـذَر. مرة أخـرى: الرخـام مجـرد راسب في الأرض، الذهب والفـضة مـجـرد رواسب، ردائك شعـر حيـوان، أرجوانـك دم محارة، وهلـم جرا[3]. والروح الحيـة هي أيضاً من نفس الصنف، تتغير من هذا إلى ذاك.

٩-٣٧ كفـاك من هذه الطريقة البائسـة في الحياة، من هذا التـذمر والتـصنع. ماذا يُشْـقِيك؟ مـا الجديد في هذا؟ مـاذا يقض مـضجـعَك؟ صـورة الشيء؟ إذن واجِـههـا. أم تراهـا المادة؟ إذن واجِهها. ولا شيء هناك عدا هذين. توجه إلى الآلهـة إذن، وإن تكن قـد تأخـرت: وكن أكـثـر بسـاطة وخيراً. سيان أن نبحث هذه الأشيـاء مائة عام، أو نبحثها ثلاثة أعوام.

(1) التغير يحفظ العالم - انظر ٢-٣

(2) انظر رد ماركوس على ذلك في ٩-٤٠، ١٢-٥

(3) التحليل الردِّي، أو التـجريد والتعرية وصولاً إلى جـوهر الشيء ولبابه - انظر أيضاً ٦-١٣

٩-٣٨ إذا كان هذا قد أخطأ، فالضـرر يقع عليه. ولكن يجوز أنه لم يخطئ.

٩- ٣٩ إما أن جـميع الأشياء تَفـيض من مصدر عـاقل وتَعرِض كأنهـا في جسـد واحد، فـلا ينبغي للجـزء أن يتـئس لما يحدث لمنفعة الكلً؛ وإما أن الكل ذرات وأن الأمر لا يعدو أن يكون خلطاً ثـم تبـديداً. مـا الذي يُشـقِـيك إذن؟ قل لعقـلك الموجِّه: "أأنت ميـت، متحلل، هل تحـولتَ إلى حـيـوان، هل تتـظاهر وترائي، هل تنضـوي مـع القطيع وتشاركه طعامه؟"(1)

٩-٤٠ إمـا أن الآلهة قـادرة أو غيـر قـادرة. فإذا لم تكن قـادرة فلمـاذا أدعوها؟ وإذا كانت قـادرة فلماذا لا أدعـوها لكي تهـبني نعمـة ألا أخاف من أي شيء مما أخـاف منه، وألا أرغب في الأشياء التي أرغبها، وألا أتألم من أي شيء ـلا أن تجعل أي شيء من هذه الأشيـاء يحدث أو لا يحدث. فمن المؤكد أنها إذا كانت تعين البشر فإن بوسعها أن تعينهم على هذه الغايات.

ولكن لعلك قـائل "لقد جـعلت الآلهـة هذه الأشيـاء في قدرتي". حـسن، أليس أليَق بك إذن أن تستعـمل ما في قدرتك كرجلٍ حر من أن ترغب على نحو عبودي دنيء ما ليس في قدرتك؟ ومن قال لك إن الآلهة لا تُعِيننا حتى في الأشياء التي في قـدرتنا؟ ابدأ الآن على كل حال وادعُ هذه

(1) في استقلال الإرادة الخلقية والعملية وعدم الاكتراث بالقطيع - انظر ٥-٣

الدعـوات وسـوف ترى. من النـاس من يدعـو: "كـيف السـبيل إلى أن أضـاجع هذه المرأة؟" فادعُ أنت: "كـيف السبيـل إلى أن أفقد الـرغبة في أن أضـاجعهـا؟". وآخَر يدعو: "كيف أنقذ طفلي الصـغير؟" وأنت: "كيف أتعلم ألا أخاف من فـقده؟"، وهكذا. حسن، جـرِّب أن تحوِّل دعواتك على هذا النحو وانظر ماذا يكون.

٩-٤١ يقول أبيقور: "أثناء مرضي لم يكن حديثي يدور حول آلام جسمي، ولم أكن أخـوض مع عُوّادي في هذا المزاج؛ بل أمضي في شرح المبادئ الرئيسية للفلسفة الطبيعية مع إشارة خاصة إلى هذه النقطة عينهـا: كيف يشارك العقل في مثل هذه الاضطرابات الجـسدية بـينما يظل مـحـتفظاً بهـدوئه وساعـياً إلى خيـره". ويستطرد أبيقـور قائلاً: "ولا كنتُ أترك لأطبائي فرصة لكي تعلوهم سـيماء الوجاهة والجلال لأي إنجاز عظيم؛ غير أن حياتي مَـضَت سليمة ومعافاة". هذا مثـال لك إذن في المرض، إذا كنتَ مريـضاً، وفي أي ظرف آخر. تتفق جميع المدارس على أنك ينبغي ألا تهجر الفلسفـة تحت أي ظرف من الظروف، وألا تشارك الجـهال والعوام لَغوَهم الفـارغ. بل انصرف إلى عملك الذي أنت فيه، وإلى السُّبُل التي تتخذها في إنجازه[1].

(1) أبيقور Epicurus وُلدَ في ساموس عـام ٣٤١ ق.م ومات في أثينا عام ٢٧٠ ق.م؛ مؤسس المدرسة الأبيقورية. وفي هذه الفقرة يتجلى كـرم ماركوس =

٩-٤٢ كلمـا أساء إلـيك شخص وقح فـإن عليك أن تبـادر إلى سؤال نفسك: "إذن أكـان من الممكن ألا يكون في العالم وقـحون؟" غـير ممـكن؛ فلا تطلب غـيـر الممكن. فهـذا الشـخص مـجـرد واحـد من الوقـحـين الذين لا بد من وجودهم في العالم. والأمر نفـسه ينسحب على الأوغاد، والخونة، وكل صنف من الآثـمين. وإدراك أن هذه الطائفة من الناس لا بد من وجودها حـري أن يجعلك أكثر رفـقاً بكل فرد منهم.

ومن المفيـد عملياً أيضـاً أن تعي هذا كلما صادفْـتَه: وهو تلك الفضيلة الـتي وهبتنا إياها الطبيعة لكـي نقابل بها كل فعلٍ خبيث. وهبتنا الرفق ليكون ترياقـاً للقسوة، وخصالاً أخرى نواجه بهـا إساءات أخرى. وبصفة عـامة، بوسعك دائماً أن تعيد تعليم مَن ضـل طريقَه؛ وكل من يفعل الشر فقد أخطأ هدفَه الحقيقي وضل طريقه.

وأي أذى، بعدُ، قد لَحِقَ بك؟ فلسوف تجد أن لا أحد ممن أثار غـضبك قـد فعل أي شيء يمكن أن ينال عـقلك بأي سـوء: إنما العـقل، والعقل وحـده، هو مـحل الأذى أو

= ونبله وصـفاء نفسـه، إذ يقتـبس من مؤسس المدرسـة الأبيقورية الـتي تعد خصماً ومنافساً للرواقية (تقول بالذرات مقابل العناية، وباللذة مقابل الخلو من الانفعال.. إلخ)

الضــرر الذي يمكن أن ينالك - فليس للأذى والضــرر أي وجود آخر.

أين هو الأذى، بعدُ، وما هو الغريب في أن يسلك الجاهل مسلَكَ الجُهَّال؟ تأملْ ذلك وانظرْ: ألا ترى أنك أحق باللوم لأنك لم تتوقع من هذا الرجل أن يفـعل هذا الخطأ؟ فلقد كان لديك من العـقل ما تبصر به أن هذا الخطأ حـقيق أن يأتي من هذا الرجل، ولكنك نسيتَ وجـعلتَ تَعجَب من أنه أخطأ.

وفوق كل ذلك، إذا اتهمتَ أحداً بالخيانة والجحود فالتفت إلى نفـسك؛ فـمن الواضح أن الخطأ خطؤك إذا كنتَ قـد وضعتَ الثقةَ في رجل بهذا الخلق، أو إذا كنت قد أسبغتَ معـروفاً دون أن تجعل هذا المعروف غـاية في ذاته، وتجعل فـعلك هو ثواب ذاته الذي لا يفتـقر إلى أي ثواب آخـر. فأي شيء آخر تريده أيها الإنسان من فعل المعروف؟ أليس بكافٍ أنك قد فعلتَ شيئاً متناغماً مع طبيعتك ذاتها _أتريد الآن أن تضع ثمناً لـه؟! وكأن الـعين تطلب مـقـابلاً على الرؤية، أو القدم على المـشي!! فمثلمـا خُلِقَ هذان لغرضٍ معين ويحققان طبـيعتهما القويمة بأن يعمـلا وفقاً لفطرتهما الخاصة، كـذلك الإنسان خُلِقَ لكي يفعل الخير، وحيـثما

فعل خــيراً أو أسهم في الخيــر العام فقد فـعل ما خُلِقَ من أجله ونال ما هو له(1).

(1) في رد الفعل تجاه أخطاء الآخرين _مقام يتيح لماركوس أن يضم عددا من مبادئه الرواقية وثيماته المحورية: حتمية فعل الشر، الشر جهل ولا يأتيه من يأتيه عن عمـد، واجب تعليم الجـاهل، العقل بمنأى عن أي أذى، الرحـمة غـاية في ذاتها، الرحمة ثواب ذاتها، وظيفة الإنسان أن يفعل الخير.

10

الكتاب العاشر

١٠-١ أيتـهـا النفس، أمـا آنَ لكِ أن تكوني صـالحـةً، بسـيطةً، واحدة، متجـردة، أوضحَ وأجلى من الجسد الذي يُغَلِّفُكِ؟ أما آنَ لكِ أن تذوقي حلاوةَ النزوعِ إلى الحبِّ والعطف؟ أما آنَ لكِ أن تُصبِحي كـاملةً خَلِيَّةً من الحاجةِ لا تفـتقدين أيَّ شيءٍ ولا ترغبين في أيِّ شيءٍ، حيٍّ أو غيرِ حي، تلتمسين فـيه اللذةَ، ولا ترغـبين في مهـلةٍ لمزيدٍ من المتعـة، أو لينِ المكانِ والمناخ، أو الصـحبةِ الهـانئة؟ أمـا آنَ لَكِ أن تَقنَعِي بحالكِ الراهنِ وتجِـدي متعةً فيـما هو الآن بين يديك؟ ألن تَقـتنعي بأن لديك كلَّ شيء، وأن كـلَّ ما يأتي فـهـو من الآلهة، وكله خيرٌ لكِ وسيكونُ خيراً لك أي شيءٍ يُرضيهم وأي شيءٍ سوف يمنحونه لحفظ الوجودِ الحيِّ الكامل، الخيِّر والعادل والجـميل، الذي يُوَلِّدُ ويحـفظُ معاً كلَّ الأشـياء، ويحتوي ويضمُّ كلَّ الأشياءِ بينمـا تندثرُ لتُنتِجَ أشياءَ أخرى

مماثلة؟ أما آنَ لكِ أن تصبحي جديرةً بالمُقامِ مع الآلهةِ والبشرِ من دون أي انتقادٍ لهم أو إدانةٍ منهم؟

١٠-٢ لاحِظْ ما تتطلبُه طبيعتُكَ المادية ككائنٍ خاضعٍ لشرطِ الحياةِ المحضة. ثم افعلْه واقبلْه مادامت طبيعتُكَ ككائنٍ حيٍّ لن تُضارَّ به في شيء. ثم لاحظْ ما تتطلَّبُه طبيعتُك ككائنٍ حي، واقبلْ كلَّ ذلك لنفسكَ مادامت طبيعتُك ككائنٍ عاقلٍ لن تُضارَّ به في شيء. على أن "الكائن العاقل" يتضمنُ مباشرةً "الكائنَ الاجتماعي". اتبعْ هذه القواعدَ ولا تكرثْ نفسَك بأيِّ شيءٍ آخر.

١٠-٣ أيُّما شيءٍ يحدثُ فهو إما يحدثُ بطريقةٍ من شأنِ طبيعتك أن تتحملَها، وإما بطريقةٍ لم تُفطَر بالطبيعةِ على تحمُّلها. فإذا كان الحدثُ من الصنفِ الأول فلا تبتئسْ منه، بل

تحمَّلْه كمـا أهَّلَتْكَ الطبيعةُ لذلك. أمـا إذا كان من الصنفِ الثاني فلا تبـتئسْ أيضاً، فلسوف يأتي علـيك قبل أن يتركَ لك مجالاً للابتئاس. تذكرْ رغم ذلك أنك خُلِقْتَ بالطبيعةِ لكي تتحمـلَ كلَّ ما تراه ملكةُ الرأيِ عندك محتـملاً إذا ما وعيتَه كشيءٍ مِن مصلحتِك، أو من واجبِك، أن تأتيه[1].

١٠-٤ إذا كان على خطأ فعَلِّمْـه برفقٍ وبَيِّنْ له خطأَه. فإذا كنتَ لا تسـتطيعُ ذلك فلتـوجِّه اللومَ لنـفسِك، أو لا تَلُمْ حـتى نفسَك.

١٠-٥ أيُّما شيءٍ يحدثُ لك فقـد كان يُعَدُّ لك منذ الأزل، وكان مُقتضَى الأسبابِ يَغْزِلُ لك منذ الأزل خيطَ وجودِك وخيطَ هذا الحدثِ المحدَّد.

١٠-٦ سواء أكان الأمرُ ذرات عشوائية أم نظاماً طبيعياً، فينبغي أن تكونَ المقـدمـةُ الأولى أنني جـزءٌ مـن "الكل" المحكومِ بالطبيعة، والثانيـةُ أنَّ لي صِلةً وثيقةً بالأجزاءِ الأخرى التي هي من نوعـي. من هاتين المقـدمـتين أَخْلُـصُ إلى أنني بصفتي جزءاً لن أستاءَ لأيِّ شيء يُقَيِّضُه لي "الكل". فلا شيءَ مـفـيـداً للكل يمكنُ أن يضـرَّ بالجـزء، ولا "الكل"

(1) انظر ٥-١٨ (لن يصيب الكائنَ أيُّ شيء لـم تؤهله الطبيعةُ لتـحمُّله)، ٧-٣٣ (الألم المبرِّح يقـتلنا، أما الألم المزمن فـهو محـتمل)، ٨-٤٦ (لم تجلب لك طبيعة العالم شيئاً فوق احتمالك).

يتضمن شيئاً لا يفيده. لجميعِ الطبائعِ العضوية هذه الصفةُ المشتركة، غير أن طبيعةَ العالم تتسمُ بصفةٍ إضافيةٍ هي أنه لا يمكنُ لأيِّ سببٍ خارجيٍّ أن يقهرَها على أن تخلقَ أيَّ شيءٍ ضارٍّ بها.

إذن بتذكُّر أنني جزءٌ من "كل" سأكونُ راضياً بكلِّ ما يحدثُ لي. وبقدرِ ما لي من صلةِ قَرابةٍ بالأجزاءِ الأخرى فلن أفعلَ أيَّ شيءٍ غيرِ اجتماعي، بل سأضعُ نصبَ عيني خيرَ عشيرتي وأوجِّهُ كلَّ سَعْيِي للصالحِ العام وأصرفُه عما دون ذلك. إذا ما تمَّ ذلك فإن الحياةَ سوف تسيرُ سيراً حسناً، مثلما ترى أن حياةَ مواطنٍ ما تسير سيراً حسناً عندما يواصلُ سعياً فيه مصلحةٌ لرفاقِه من المواطنين ويرضى بكلِّ لما تخصصُه له مدينتُه.

١٠-٧ أجزاء "الكل" - كل ما يكوِّن الطاقمَ الطبيعي للعالم- يتعين بالضرورة أن تهلك. و"تهلك" يجب أن تؤخذَ هنا بمعنى "تتغير". والآن إذا كانت الطبيعةُ قد جعلت هذا "الهلاكَ" للأجزاء مُتلفاً لها وضرورياً أيضاً فلن يَتَسَنَّى البقاءُ للكل مادامت أجزاؤه دائماً على شَفا التغيرِ ومؤهَّلةً خصيصاً للهلاك. فهل تَعَمَّدَت الطبيعةُ أن تُتْلفَ أجزاءَها وتجعلَها عرضةً للأذى وصائرةً إليه بالضرورة؟ أو حدثَت مثل هذه النتائجُ دون علمها؟ الحقُّ أنَّ كلا الافتراضين بعيدٌ عن التصديق.

ولكن إذا رفضَ أحدٌ مفهومَ الطبيعة وفسَّرَ هذه الأشياءَ على أنها "هكذا هي لا أكثر ولا أقل"، فليس له أن يَعجَبَ أو يستاءَ من القولِ بأن أجزاءَ الكلِّ عُرضةٌ بطبيعتها للتغيرِ كما لو كان هذا التغيرُ شيئاً مضاداً للطبيعة ـ خاصةً أن تحلُّلَ كلِّ شيءٍ هو إلى العناصرِ التي يتكونُ منها. فالتحللُ هو إما تشتتُ العناصرِ المكوِّنة أو تحوُّلُ الصلبِ إلى ترابٍ والروحِ إلى هواء، بحيث ينضوي هذان في عقلِ "الكل"، سواء أكان الكلُّ يتحول دورياً إلى نارٍ أم يجددُ نفسَه من خلال التحولاتِ الأبدية.

ولا يتصورَنَّ أحدٌ أن هذا الصلبَ وهذه الروحَ هما نفس الشيء الذي كاناه في الأصل عند الولادة. فكلُّ هذا لم يجتمع إلا أمسِ أو أمس الأول من تدفُّقِ الغذاء المستهلَك والهواءِ الذي شُهِق. فالذي يتغيرُ هو التدفقُ المجتمِعُ وليس الشيء الذي ولَدَتْه أُمُّك. افترض الآن أن هذا التدفقَ متضمَّنٌ في صميمِ نفسِك الفردية، فما أرى أن ذلك يؤثرُ في الحجة[1].

(1) فقرة عسيرة ومبهمة إلى حد كبير. يريد بها ماركوس أن يخفف من رهبة الموت. فالتحلل عند الموت هو جزء من عملية تغير وتجدد أزلية تحتمها الطبيعة. والطبيعة ليست مهملة أو غير مكترثة، ومن ثم فلا يمكن أن يلحق أي ضرر بالجزء المفرد من الطبيعة في هذه العملية. وختام الفقرة أكثرها إبهاماً- وربما يقصد منها أن عملية التغير في اتجاه التحلل تجري منذ الولادة.

١٠-٨ إذا ما اكتسبْتَ النعوت: "صالح"، "متواضع"، "صادق"، "عقلاني"، "متزن"، "شهم" _فاحرصْ على ألا تتنازلَ عنها، وإذا خسرتَها فعَجِّلْ بالعودة إليها. تذكَّرْ أيضاً أن لفظة "عقلاني" قد قُصِدَ منها أن تدلَّ على الانتباه المميِّز لكل التفاصيل والفكر النشيط، وأن "الاتزان" هو القبولُ الطوعي لما قسمَتْه لك طبيعةُ العالم، وأن "الشهامةَ" هي عُلُوُّ التفكيرِ فوق مؤثراتِ الجسد السارةِ أو المؤلمة، وفوق المجدِ الفارغِ أو الموتِ أو أيِّ شيءٍ آخر غيرِ فارقٍ indifferent . فإذا بقيتَ مخلصاً لهذه النعوت، لا عن مجرد رغبةٍ في أن يناديك بها الآخرون، فسوف تكونُ إنساناً جديداً وتدخلُ حياةً جديدة.

أما أن تظلَّ نفسَ الإنسانِ الذي كنتَه حتى الآن، أن تتمزقَ وتتشوَّهَ في هذه الحياةِ التي تحياها، فهو مجردُ حرصٍ بليد على الحياة، أشْبَه بحال المجالدين gladiators الذين أكَلَت الوحوشُ نصفَ أبدانِهم وهرسَتْهم وسَربَلَتْهم بالدم، ولايزالون يتوسلون للإبقاءِ على حياتهم إلى اليوم التالي رغم أنهم في اليوم التالي سيتعرضون في نفس الحالة إلى نفس المخالبِ والأنياب.

تَشَبَّثْ إذن بهذه النعوت. وإذا أمكنَكَ البقاءُ فيها فابقَ كما لو أنك نُقِلْتَ إلى فردوسٍ ما - "جزر السعداء"[1]. أما

(1) جزر أسطورية عند نهايات الأرض ترسل الآلهةُ إليها المحظيين من الموتى.

إذا أحسستَ أنك تسـقطُ وتفقدُ اتزانَك فالجـأ بنفسٍ راضيةٍ إلى ركنٍ مـا حيث تسـتعـيـدُ توازنَك. وإلا فاجـعلْ لك مَخْرَجـاً عاجلاً من الحيـاة، لا بانفعالٍ بل ببسـاطةٍ وحريةٍ وتواضع، جـاعلاً هذا الرحـيلَ إنجـازاً واحداً مُـشَرِّفـاً في حياتك على أقل تقدير[1].

وسوف يُـعينُك كـثيـراً على تَذَكُّر هذه النعـوت أن تتذكـرَ الآلهةَ، وتتذكرَ أنها لا تريدُ منا التملقَ الذليلَ بل تريدُ لكلِّ الكائناتِ العـاقلة أن تصـبحَ على صورتهـا الخاصـة: تريد لشـجرةِ التين أن تـؤدي عملَ شـجـرةِ تين، وتريد للكلبِ عـملَ كلب، وللنحلة عـملَ نحلة ـوتريد من الإنسانِ أن يؤدي العملَ الصحيحَ لإنسان .

١٠-٩ الفارْس (الهزل) farce، والحرب، والسعـار، والبلادة، والعبودية![2] ستمسح يوماً بعد يوم مبادئك المقدسة، كلما تصورتهـا وسلمتَ بها دون أن تخضعَـها لاختبار الفـلسفة الطبـيعـيـة. ولكن واجبَك أن تجـمعَ بين النظر والعـمل، فتكونَ لديك القدرةُ على التعـامل مع الظروف بما تقتضيه، وأن تمارسَ التأملَ النظري، فـتحتفظَ بالثـقةِ التي تأتي من

(1) في الانتـحار كمـعقل أخـير للحـرية وملاذٍ للكـرامة - انظر ٣-١، ٨-٤٧، ١٠-٣٢.

(2) لا سبيل إلى معرفـة ماذا يقصد ماركوس بهذه الكلمات التعـجبية الخمس، في هذه الفقرة المبهمة التي تدل على أنه كان يكتب لنفسه حقاً.

الإحــاطةِ بكلٍّ شــيءٍ خــاص، دون أن تظهــرَها ودون أن تخفيها.

فمتى سوف تتمتع بالبساطة؟ ومتى ستتمتع بالرصانة؟ ومتى ستتمــتع بمعرفةِ كلِّ شيءٍ مفرد: ما هي طبيــعتُه الجوهرية، ومكانُه في العــالم، والعمــرُ الطبيــعي لوجوده، ومــا هي مكوناتُه، ولمن يمــكن أن ينتــمي، ومَن القــادرُ على منحِــه وعلى منعِه؟

١٠-١٠ العنكبــوتُ فخورةٌ حين تــصطادُ ذبابة. والإنسانُ فــخورٌ بصيده ـأرنب مسكين، سمكة صغيرة في شبكة، خنازير، دببة، أســرَى من الصرامطة[1]. والجمــيعُ مِن حيث الدافعُ لصوص.

١٠-١١ اتَّخذْ طريقةً منهــجيةً لترَى كيف تتــحولُ الأشياءُ جمــيعاً الواحدُ منها إلى الآخر. أوْلِ انتبــاهاً دائماً لهذا الجانبِ من الطبيعةِ ودَرِّبْ نفسَك عليه. فلا شيءَ أقدرُ منه على السمو بالعقــل. يسمو مَن يتــدرب عليه كــأنما نَضا عنه جســدَه، فيــتبين أنه، بأســرعَ مما يتصورُ أحــد، لا بد تاركٌ كلَّ هذا وراءَه وراحلٌ من عالم البــشر. ويكرس نفسَه تمامــاً للعدل في أفعــاله، ويذعن لطبيــعةِ العالم فــي كل شيءٍ يحدث. ولا يفكر أدنى تفكيرٍ فيمــا عسى أن يقولَه الآخرون عنه أو يفترضــوه فيه أو يدبروه ضده. بل يكتفي بهــذين الشيئين:

(1) قبيلة جرمانية حاربها ماركوس فيما حارب في حملاته العسكرية.

أن يَتحرَّى العدلَ في كل ما يفعلُه الآن، وأن يتقبلَ بسرورٍ رزقَه الآني. لقد صَرَفَ عنه كلَّ المشاغلِ والأطماع، ولم يعدْ يرغبُ إلا في أن يسيرَ على الطريقِ المستقيمِ وَفْقاً للقانون، وفي سيرِه المستقيمِ يتبعُ طريقَ الرب.

١٠-١٢ فيم التوجسُ والشكُّ إذا كان بِوُسْعِكَ أن تبحثَ وتدركَ ما ينبغي فعلُه، وبوسعك أن تَرى طريقَك وتمضي فيه راضياً ولا تتلفَّت وراءك. إذا كنتَ لا تتبيُن الطريقَ فتوقفْ وخُذْ مشورةَ أفضلِ ناصحيك. فإذا حالتْ حوائلُ أخرى دون النصيحةِ فامضِ وفقَ قدراتِك الحاليةِ ولكن بتروٍّ واجب، ملتزماً دائماً بما يبدو لك عدلاً. فالعدلُ هو أفضلُ ما تتغياه، والعدلُ هو الشيءُ الذي يحق أن يقالَ إننا نفتقدُه، وإذا أخفقْنا أن يكونَ إخفاقُنا هو في السعيِ إليه.

مَن يتبع العقلَ في كل شيءٍ فإنه يجمعُ في نفسِه بين السَّكينةِ والإقدام، وبين الحماسةِ والاتزان.

١٠-١٣ سائل نفسَك فورَ يقظتك من النوم: "هل ثمةَ من فارقٍ بالنسبة لك إذا ما انتقد الآخرون ما هو في الحقيقة عدلٌ وصدق؟" كلا.. لا فارق. ولعلك لم تنسَ قَطُّ ماذا يكونُ هؤلاء الذين يصهلون في مدحِ الآخرين ولومِهم، وما شأنهم في الحلِّ والترحال، وماذا يفعلون وماذا يتجنبون أو يطلبون، وكيف يَغُشُّون وكيف يسرقون، لا بالأيدي

والأقدام بل بأَعَزِّ جزءٍ من أنفسِهم _الجزء الذي به، إذا شاء المرءُ، تتـأتى الأمـانةُ والتواضع والـصدق والقـانون وروحُ السعادة.

١٠-١٤ الطبيعةُ تعطِي كلَّ شيءٍ وتستردُّ كلَّ شيءٍ مرةً ثانية. يقول لها مَن تَعَلَّمَ وتواضَعَ: "هَـبِي ما شئتِ واستـردي لك ما شـئتِ". يقولهـا لا بروحِ التحـدي، بل ببسـاطةٍ كأحـدِ رعاياها المخلصين.

١٠-١٥ قصيرٌ هو ما تبقَّى لكَ من العمر. عِشْهُ كما لو كنتَ فوقَ جبل؛ هنا أو هناك لا فـرق، مادمتَ حيـثما عِشتَ تتـخذُ العالمَ كوطنٍ لك. فليَشْهَدْكَ الناسُ، وليعرفوا رجلاً يعيشُ وفقاً للطبيعة. فإذا لم يطيقوه فليقتلوه، فلَهذا أفضلُ من أن يعيشَ حياةً كحياتِهم.

١٠-١٦ بحـسـبِك مِن كلامٍ عـمـا ينبـغي أن يكونَ عليـه الرجلُ الصالحُ _كُنْ رجلاً صالحاً.

١٠-١٧ تأملْ دوماً الزمانَ كلَّه والوجـودَ كلَّه، تجدْ كلَّ شيءٍ مفردٍ بمقياسِ الوجود مجردَ بذرةِ تينة، دورة مِخرَز.

١٠-١٨ انظرْ إلى أيِّ شيءٍ موجودٍ ولاحظْ أنه منذ الآن في عمليةِ فَناء وتغير؛ يتجددُ، بمعنى ما، مِن خلالِ الفسادِ أو التبدد. وبعبارة أخرى: انظرْ إلى أيِّ ضربٍ من "الموتِ" يولَدُ كلُّ شيء.

١٠-١٩ أيُّ صنفٍ من الناسِ هم حين يأكلون ويرقدون ويضاجِعون ويَقْضون حاجتَهم.. إلخ؟ ثم أيُّ صنفٍ من الناسِ هم حين يتولون السلطةَ على الناس؟ متجبرين، متحجري القلب. ورغم ذلك كيف كانوا منذ قليل عبيداً لكلِّ تلك الحاجاتِ وكلِّ تلك الأشياء، وأيَّ منقلَبٍ، بعد قليل، سينقلبون.

١٠-٢٠ ما تقدمُه طبيعةُ العالمِ لكلِّ شيءٍ فهو لخيرِه. وإنه لخيرِه في لحظةِ تقديمِه.

١٠-٢١ "الأرضُ تحبُّ المطر، والسماءُ الجليلةُ تحبُّ أن تمطر"(1). العالمُ كلُّه يحبُّ أن يخلقَ المستقبلَ. أقول للعالم إذن: "إنني أبادلُك الحبَّ". أليس هذا ما قِيلَ أيضاً من أن "هذا يحبُّ أن يَحْدُث"؟(2)

١٠-٢٢ إما تعيشُ هنا، وقد أَلِفْتَ العيشَ؛ وإما تتقاعدُ، وهذا قرارُك، وإما تموتُ، فقد انتهتْ خِدمتُك. وليس مِن خيارٍ آخر. ابتهِجْ إذن.. ابتهِج.

---

(1) الاقتباس من مسرحية يوريبيدبس المفقودة «خريسيبوس» (شذرة ٨٩٨).

(2) هنا يستخدم ماركوس تلاعباً لفظياً ليبين حقيقةً عميقة عنده: فالكلمة اليونانية philei (يحب) يمكن أن تعني أيضاً "يميل إلى"، "دأَبَ على"– فماركوس يأخذ النمط المألوف المطرد للأشياء كدليل على، وتعبير عن، حب الطبيعة لأن تخلق عالماً منظماً.

١٠-٢٣ ليكنْ واضحاً لك دائماً أن العشبَ ليس أكثرَ خضرةً في أيٍّ مكان آخر(1)، وأن كلَّ شيءٍ هنا مثلُ كلِّ شيءٍ على قمة جبلٍ أو على شاطئِ بحر أو حيثما شئت(2). فلن تجدَ قُدامَك إلا قولَ أفلاطون "السكنى بين جدران مدينةٍ كالسكنى في شِق جبل"(3).

١٠-٢٤ ماذا يكونُ عقلي الموجِّهُ الآن بالنسبة لي؟ ماذا أجعلُ منه وفيمَ أستعملُه؟ هل نضبَ فيه الفهم؟ هل انبتَّ عن حياة المجتمع؟ هل انصهرَ في الجسدِ الهزيلِ والتحَمَ به فجَعَلَ يتأرجحُ على تياراته؟

١٠-٢٥ العبدُ الذي يهربُ من سيده هو آبق. والقانونُ هو سيدنا: مَن يخالف القانون، إذن، فهو آبق. كذلك مَن يأسَى أو يغضب أو يخاف إنما يرفضُ نظاماً ما، في الماضي أو

(1) أي أن هذه البقعة من الأرض مثل أي بقعة أخرى.

(2) قارن بفقرة ٤-٣ (إنهم يبحثون عن منتجعات لهم ...... فمازال بإمكانك كلما شئت ملاذاً أن تطلبه في نفسك التي بين جنبيك. فليس في العالم موضع أكثر هدوءاً ولا أبعد عن الاضطراب مما يجد المرء حين يخلو إلى نفسه). في كلتا الفقرتين يذكِّر ماركوس نفسَه بأن تغير المكان ليس تغيراً للعقل: وأن الانتجاع الحق هو في العقل.

(3) "كالراعي يتدرَّع بنُقرةٍ في الجبل ويحلب قطعانه إذا تَثغو" - الاقتباس عن أفلاطون- ثياتيتوس؛ والصلة غير واضحة لأول وهلة. وقد ورد قول أفلاطون في سياق المقارنة بين الفيلسوف والسياسي الحاكم الذي يمكنه أن يحلب شعبَه منفصلاً ومُعَمًّى عنه ونفعياً مثل راعي القطعان في مزرعة جبلية.

الحاضـر أو المستقبل، فـرَضَه مدبِّرُ الأشـياءِ جميـعاً ـوهو القانون، الذي يقسمُ لكلِّ إنسانٍ نصيبَه. من يخاف إذن أو يحزن أو يغضب إنما هو آبق.

١٠-٢٦ يودِع الرجلُ بذرتـه في الرحم ويرحل. بعـدهـا يتـولى الأمرَ سببٌ آخر ويؤدي عملَه وينتِجُ طفلاً. أيةُ نتيجةٍ هائلة من أيةِ بداية! ثم يزدردُ الطفلُ الغذاءَ في زوره، وهنا يتولى الأمرَ تعاقبٌ سـببي آخرُ فيـخلقُ إحساساً وحركـة، وحياةً بأسرِها وقوةً وشتى الأشياءِ الأخرى الرائعة.

تأمَّلْ إذن مـا يجـري في مـثلِ هذا الأمـرِ الخـفي. وانظر "القوة" وهي تفعلُ فعلَها، تمـاماً مثلما نرى "القوة" وهي تحـملُ الأشيـاءَ إلى أسـفل وإلى أعلى، انظر "القـوةَ" لا بالعين، وإن لم تكنْ أقلَّ وضوحاً.

١٠-٢٧ تأملْ دوماً كيف أن ما يحـدثُ الآن قد حدثَ من قبل، وسوف يحـدثُ في المسـتقبلِ بنفسِ الطريقـة. شاهدْ بعينِ عقلِكَ مسرحـياتٍ كاملةً، بنفس المَشاهد ـكل ما تعرفُه من خـبـرتِك أو من التـاريخِ الأقـدم ـكل بلاط هادريان على سـبـيل المثال، بـلاط أنطونينوس بأكـمله، بلاط فـيليب، الإسكندر، كـرويسوس[1]. كلُّ أولئك كـان مسـرحيـاتٍ كالتي تراها الآن، ولا اختلافَ إلا في فرقةِ الممثلين.

(1) ملك ليديا في القرن السادس ق.م. قـيل إنه كان أغنى رجل في العالم. هزمه قورش ملك الفرس عام ٥٤٦ ق.م

١٠-٢٨ ما أشبهَ الإنسانَ المتبرمَ بكلِّ شيءٍ والساخطَ على كلِّ شيءٍ بخنزيرِ الأضحيةِ يرفسُ ويصرخ. كهذا الخنزيرِ أيضاً ذلك الإنسانُ الذي يندبُ، صامتاً، في مخدعه كلَّ القيودِ التي تربطنُا بها. وحدَه الإنسانُ العاقلُ مَن أُلهِمَ أن يختارَ الاستسلامَ طوعاً لما يحدث. على أن الاستسلام المحضَ ضرورةٌ مفروضةٌ علينا جميعاً[1].

١٠-٢٩ في كل شيء تقوم به تعوَّد أن تسأل نفسَك: "ترى هل الموتُ أمرٌ يدعو إلى الخوفِ لأنه سيحرمني من هذا؟"[2]

١٠-٣٠ كلما أخطأ شخصٌ في حَقِّكَ التفتْ فوراً إلى نفسك وانظرْ كيف تخطئُ أنت أيضاً بنفسِ الطريقة: قد يكونُ ذلك بإسباغِ قيمة على المالِ أو اللذة أو الصيت، أو ما شابه[3]. بالتفاتكَ إلى نفسكَ سيخمدُ غضبُك في الحال، وبخاصة إذا أضَفْتَ إلى ذلك أن الإنسانَ مدفوعٌ إلى ما يفعلُه، فماذا عساه أن يفعلَ غيرَ هذا؟ أو، إذا كان بوُسْعِكَ، فأزِحْ عنه هذا الدافعَ.

١٠-٣١ عندما ترى ساتيريون أو يوتيخيس أو هيمن، فتصوَّرْهم في حلقة سقراط: عندما ترى يوتيخيون أو سيلفانوس فتصور إيوفراتيس Euphiate، وعندما ترى تروبايوفوروس

(1) القدر يوجِّه العقلاءَ ويجرجر الحمقى.

(2) انظر ١٢-٣١

(3) أي بإسباغ قيمة على "الأشياء الأسواء" أو "غير الفارقة" indifferents

تصور ألكيفـرون، وعندما ترى سيفيروس تصـور كريتو أو كـسينوفـون ـلكلٍّ واحد إذن ضـريبٌ في الماضي. عندئذ تأملْ هذا أيضـاً: أين أولئـك الناسُ الآن؟ في لامكان، أو لا أحدَ يعرفُ أين. هكذا ستنظرُ دائمـاً إلى الحياةِ الإنسانية كمجردِ دخانٍ ولا شيء، وبخـاصةٍ إذا تذكرتَ أيضاً أن ما تبـدَّلَ ذاتَ يومٍ لن يعـودَ إلى أبدِ الدهـر. لماذا إذن هذا الكرب؟ لماذا لا تَقْنَعُ بـأن تقضـيَ أمدَكَ الزمنـي القصيـرَ بسلاسةٍ ونظام؟

ومِن أيِّ موقفٍ مادي أو أيِّ فرصةٍ للفعلِ تريدُ أن تتهرب؟ وهل كلُّ ذلك غيرُ تدريبٍ لذلـك العقلِ الذي تفَحَّصَ كلَّ شيءٍ في الحياة بنظرةٍ دقـيقةٍ وعلمية؟ ابقَ إذن حـتى تتمثَّلَ كلَّ هذا أيضاً، كالمـعدةِ القوية تتمثَّلُ كلَّ طـعام، أو كالنارِ الذكيةِ تحيلُ كلَّ ما يُلقَى فيها إلى لهبٍ وضياء.

١٠-٣١ لا تجـعلْ نفسَك عُـرضةً لأن يقـالَ عنكَ بحقٍّ إنك غيـرُ مخلصٍ أو غـيرُ صـالح، بحيث لا ينالُك بهـذا إلا كاذبٌ أفـاك. إن هذا الأمـرَ راجعٌ إليك بالكامل، فـمَن ذا الذي يحولُ بينَك وبين أن تكونَ صالحـاً أو مخلصاً؟ عليك فقط أن تقررَ ألا تظلَّ على قيدِ الحياة ما لم تمتلكْ هذه الخصالَ. فالعقلُ أيضاً لا يحبِّذُ أن يعيشَ مَن لا يمتلكُها(1).

(1) في الانتحار انظر ٣-١، ٨-٤٧، ١٠-٨

١٠-٣٣ في أي ظرفٍ مادي معطَى - ما الذي بوسعكَ أن تفعلَه أو تقولَه بأقـصى انسجامٍ مع العـقلِ والرشد؟ فأياً مـا كان ذلك فإن بإمكانكَ أن تفعلَه أو تقولَه. ولا تنتحلْ عذراً بأيِّ "عوائقَ في طريقك". فمـا أراكَ تَكُفُّ عن عويلكَ ما لم يذُقْ عقلُك نفسَ اللذةِ التـي يجدها المنغمسـون في الترفِ حين يستـجيبُ لأيِّ ظرفٍ عارضٍ استـجابةً إنسانيـةً قويمةً منسجمةً مع الفطرة. إذ ينبـغي على المرءِ أن يَعُدَّهُ متعةً أيَّ فعلٍ يمكنُه أن يؤديه وفقاً لطبيعتِه. وإن بوسعِه ذلك في كل مكان.

والآن، إذا كـانت العـجلةُ لم تُمنَح القـدرةَ على مـواصلةِ حركـتِهـا حيـثمـا أرادت، ولا الماءُ ولا النارُ ولا أيُّ شيءٍ محكومٍ بالطبيعـةِ أو غيرِ عاقلٍ فما أكثرَ العـقباتِ والعوائقَ التي تعترضُها _فإن العقلَ لديه القدرةُ، بطبـيعتِه وبإرادتِه، على أن يمضي خلالَ كلِّ عقبة[1].

ضَعْ نصبَ عـينيك هذه الإمكـانيةَ الـتي تُمكِّنُ العـقلَ من أن يمضي خـلالَ كلِّ الأشيـاء، كالنار إلى أعلى، كـالحجـر إلى أسفل، كالعجلة تنزلقُ على المنحدَر، ولا تبحثْ عن أيِّ شيءٍ آخر. فأيُّ عوائقَ أخرى إما أن يقتصرَ تأثيرُها على الجسدِ الذي هو شيءٌ ميت، وإما ألا تأثيـرَ لها على الإطلاقِ إلا من خلالِ الحكمِ (الرأي) ومن خلالِ استسلامِ العقلِ نفسه.

(1) العقل يتكيف مع العقبات ويداورها ويحيلها إلى حوافز - انظر ٥-٢٠

وإلا فإن كلَّ مَن يصادفُ عقبةً سيصبحُ هو نفسُه سيئاً في الحال. والآن، في جميع الكائنات العضوية الأخرى فإن أيَّ أذى يلحقُ بأيٍّ منها يجعلها أسوأ في ذاتها. أما في حالةِ البشرِ فإن الشخصَ في الحقيقةِ يصبحُ أفضلَ وأجدرَ بالثناءِ إذا استخدَمَ الظروفَ التي تصادفُه استخداماً صحيحاً. وتذكَّرْ بعامةٍ أن لا شيءَ يضرُّ مواطنَ الطبيعةِ إلا ما يضرُّ الدولة، ولا شيءَ يضرُّ الدولةَ إلا ما يضرُّ القانون. ولا شيءَ مما نسميه المحن يضرُّ بالقانون. إذن ما هو غيرُ ضارٍّ بالقانون فهو لا يضُرُّ الدولةَ ولا المواطن[1].

١٠-٣٤مَن تَشَرَّبَ المبادئَ الصحيحةَ تكفيه تذكرةٌ شديدةُ الاختصارِ والشيوعِ لكي يتخلصَ مِن كلِّ ألمٍ وخوف. مثال ذلك:

"أوراق[2]

البعضُ تبعثرُه الريحُ على الأرض..

هكذا هي أجيالُ البشر"[3]

أطفالُكَ أيضاً مجردُ "أوراق". "أوراقٌ" أيضاً تلك الأصواتُ التي تهتفُ بمدحِ الملك، وتلك اللعناتُ من مناوئيك، وهذا الملامُ الصامتُ أو السخريةُ المكتومة..

(1) المواطنة في "مدينة العالم"، الانتماء الكوني، يمنح المرءَ حصانةً من الأذى.

(2) أي أوراق شجر.

(3) الاقتباس من الإلياذة الكتاب السادس بيت ١٤٦ .

مجردُ "أوراق" مماثلة أيضاً أولئك الذيــن سيتلقون وينقلون مجدَكَ المستقبلــيَّ للأزمنةِ التالية. فكلُّ هذه الأشياءِ "تنتج في فصلِ الربيع"، كــما يقول الشــاعر[1]، ولكن لا تلبثُ الريحُ أن تذروها، ثم تُنتِجُ الغابةُ أوراقاً أخرى مكانها. كلُّ الأشياءِ قصيرةُ العــمر، فما لَكَ تلتمسُ وتتجنبُ كلَّ شيءٍ كما لو كانت الأشياءُ باقــيةً إلى الأبد. بعد برهةٍ ستغمضُ أنت أيضاً عينيك، وسرعان ما سيأتي آخرون ينعون الرجلَ الذي يدفنُك.

١٠-٣٥ العينُ السليمــةُ ينبغي أن ترى كلَّ مــا هو قابلٌ للرؤيةِ ولا تقــولَ "أريدُ الأشيــاءَ الخــضراءَ فــقط" ـفــهذا حــالُ عينٍ مــريضــة. والســمعُ السليمُ والشمُّ السلــيمُ يجبُ أن يكونَ مــؤهلاً لإدراكِ كلِّ مــا يمكنُ أن يُســمَع أو يُشَم. والمعــدةُ السليــمةُ ينبــغي أن تتقــبلَ كلَّ الطعامِ بنفس الطريقــةِ التي تتقبل بها الطاحــونةُ كلَّ ما صُنِعَت لِطَحنه. وكذلك العقلُ السليمُ ينبغي أن يكونَ مــستعداً لكلِ الاحتــمالات. العقلُ الذي يقــولُ "أطفالي يجبُ أن يعــيشوا"، أو "ينــبغي أن يمتدحَ الناسُ كلَّ ما أفعل"، هو عينٌ تريدُ الألوانَ الخضراءَ أو أسنانٌ تطلبُ الطريَّ من الطعام.

١٠-٣٦ ليس ثمة مَن بلغَ من السعــدِ بحيث لا يقفُ حولَ فِراشِ مــوتِه مَن هو سعــيــدٌ بما سيــحيقُ بــه. هَبْه كــان صالحــاً

---

(1) هوميروس.

وحكيماً، ألن يكونَ هناك واحدٌ لحظةَ وفاته يقولُ لنفسه "أخيراً يمكننا أن نتنفسَ الصُّعَداءَ، ألا بُعداً لهذا "الناظر"؛ صحيحٌ أنه لم يكنْ فَظاً تجاهَ أيٍّ منا، ولكني كان بوسعي أن أحسَّ بنقده الصامتِ لنا جميعاً". هذا ما يقالُ عن رجلٍ صالح؛ أما في حالتِنا نحن فكم من أشياءَ أخرى تجعل الكثيرين يرغبون في التخلصِ منا. تَذَكَّرْ ذلك إذن عندما يحين موتُك ولَسوف تكونُ في رحيلك أكثرَ ارتياحاً إذا قلتَ لنفسك: "إنني راحلٌ عن مثلِ هذه الحياةِ التي يتمنى فيها حتى رفاقي الذين جاهدتُ كثيراً من أجلِهم وصليتُ لهم ورعَيتُهم ـ يتمنون أن أرحلَ عنها عسى أن يجدوا في موتي بعضَ الفرجِ والفائدة. ففيم التشبثُ بهذه الأرضِ والرغبةُ في البقاءِ بهذه الحياة".

على ألا يدفعَك هذا إلى الشعورِ بأية جفوةٍ تجاهَهم وأنتَ راحلٌ من هذه الحياة. بل كن وفياً لمبدئك وخلقك: ودوداً، رفيقاً، محسناً؛ ومن جهةٍ أخرى لا يكنْ تركُك إياهم كأنه انخلاعٌ من الحياة، بل انسلالٌ يسيرٌ للروح من غلافِ الجسدِ كما يَخبرُه مَن يموتون في هدوء. فقد ربطَتْك الطبيعةُ بهم وجعلتهم رفاقَك ويحلو لها الآن أن تحلَّ هذا الرباط. فليكن انصرافُك كانصرافِ المرءِ عن أهلٍ وعشير، ولكنْ مِن غيرِ مقاومةٍ أو إرغام. فهذه أيضاً واحدةٌ من طرقِ اتباعِ الطبيعة.

١٠-٣٦ تعوَّدْ، جُهـدَ ما تستطيع، أن تسألَ نفسَك كلما فعلَ أيٌّ شخصٍ فعلاً: "ماذا يرمي هذا الشخصُ بهذا الفعل؟ ما هي نقطتُه المرجعيةُ هنا؟". ولكن ابدأ بنفسِك ووَجِّه السؤالَ إلى نفسِك قبل أيِّ شخصٍ آخر.

١٠-٣٧ تَذَكَّرْ أن ما يحرِّكُنا ويشدُّ خيوطَنا هو ذلك الجزءُ الخفيُّ في داخلِنا: إنه القوةُ على الفعل، إنه مبدأُ الحياة، إنه، إذا جاز القول، الإنسانُ نفسُه. لذا تلتفتُ وأنتَ تتأملُه إلى الوعاءِ الذي يحتويه والأعضاءِ المشيَّدة حولَه. فهذه أداةٌ، كالفأس، لا تختلفُ إلا في أنها متصلةٌ بالجسد. ولا جدوى في هذه الأعضاء من دون القوةِ الفاعلةِ التي تحركُها وتوقفُها أكثر من جَدوَى المكوكِ من دون النسّاج، أو القلمِ من دون الكاتب، أو السوطِ من دون الحوذي"[1].

(1) هنا يستخدم ماركوس صورة عرائس الماريونيت أو الدمى استخداماً جديداً غير الاستخدام الساخر المعهود عنده (دمى تحركها خيوط الرغبة حيث شاءت).

11

الكتاب الحادي عشر

١١-١ هذه خصائصُ الروحِ العاقلة: إنها ترى ذاتها، وتشكِّلُ ذاتَها، وتجعلُ نفسَها أيَّ شيءٍ تريد، وتجمعُ لنفسِها الثمارَ التي تحملُها (بينما لغيرِها تحملُ النباتاتُ ثمارَها، والحيواناتُ نتاجَها). وهي تحققُ غايتَها حيثما وُضِعَ حدُّ الحياة. فإذا كان من شأن الانقطاعِ في باليه أو مسرحية أن يُجهضَ العملَ كلَّه، فإن الروحَ العاقلةَ، في أيِّ مشهدٍ حيثما قوطِعَتْ، تكون قد أكملَتْ عملَها بتمامِه، بحيث يحقُّ لها أن تقولَ "هذا ما عندي"[1].

والروحُ العاقلة، فضلاً عن ذلك، تجتازُ العالمَ كلَّه والخلاءَ المحيطَ به، وتستكشفُ شكلَه، وتمدُّ نفسَها في لانهاية

(1) انظر أيضاً ٣-٨، ١٢-٣٦

الزمان[1] ، وتحيطُ بالتجددِ الدوري لــ "الكل" وتفهمُه. وتفهمُ أن مَن سيـأتي بعدنا لن يشاهدَ شيئاً جـديداً، مثلما أن مَن سـبقَنـا لم يشهـدْ أكـثرَ مما نشـهـدُه. هكذا اطرادُ الأشياء؛ فمن بلغَ الأربعين ولديه أدنى درجةٍ من الفهمِ فإنه بمعنى ما قد شهدَ كلَّ ما كان وكلَّ ما سيكونُ[2].

من خصـائصِ الروحِ العاقلة أيضاً حُبُّ الجـار، والصدق، والتواضع، وأن ترفعَ نفسَها فوقَ كلِّ شيء، وهذه الأخيرةُ

(1) في النظرة الشاملة للوجـود انظر ٩-٣٢ : "عندئذ ستوفر لنفـسك مكاناً رحباً بأن تفهم الكون كله وتستوعبه في عقلك، وبأن تتفكر في أبدية الزمان."

(2) انظر أيضـاً ٢-١٤ : "الأشيـاء جمـيعـاً هي مـا هي منذ الأزل، تبدأ وتعـود دواليك، وسيان أن يرى المرءُ نفس المشهد لمـائة عام أو مائتين أو مالانهاية من الأعوام". وانظر ٧-٤٩ : "ومن ثم فإنه سيان أن تتأمل الحياة البشرية أربعين سنة وأن تتأملها عشرة آلاف من السنين: فأي جديد عساك تراه؟!"

من خصائصِ القانونِ أيضاً. لا فـرقَ إذن بين مبدأِ الفلسفةِ الحقيقي ومبدأِ العدالة.

١١-٢ سترخص عندك قيمةُ الأغنيـة أو الرقصة المسلية، أو مباراة المصارعة، إذا ما فككتَ الخطَّ اللحـني للأغنيةِ إلى نغمات مـفردةٍ وسـألتَ نفسَك في كل واحـدة: "هل هذا شيءٌ يتملكني؟"، ولسوف تتراجعُ عن الاعترافِ بذلك. كذلك الأمرُ إذا أخـذتَ الرقـصةَ بتـحليلٍ مماثلٍ لكلِّ حركـةٍ وكلِّ رقصة، وكـذلك الأمرُ في المصارعة. تذكَّـر إذن، باستثناء الفضيلةِ والأفـعالِ الفاضلة، أن تتجهَ مبـاشرةً إلى الأجزاءِ المكوِّنة لأيِّ شيء، وفـي تشـريحكَ له ستـتـخلصُ من سِحرِه. وعليك أن تطبقَ المنهجَ نفسَه على الحياةِ كلِّها[1].

١١-٣ ما أنبلَ النفسَ التي تكونُ مـستعدةً، إذا اقـتضَى الأمرُ، أن تفـارقَ البدنَ لسـاعتـها لكي تَفـنَى أو تتناثرَ أو تبقى بعـد البدن[2]. ولكن ليكنْ ذلك الاستـعدادُ نابعاً مِن رأيِ المرءِ ذاتِه واقتناعِـه الخاص، لا مِن مجـرد الرغبةِ في المعـارضةِ

(1) تحليل ردِّي مغالط وغـير مقنع: فالكل أكـبر من مجموع أجـزائه وليس مجرد مجـموع جـبري لها. وحين تجـتمع بعض المكونـات لتكوِّن منظومة أو نسـقاً "تبـزغ" لهذا النسق الأعـقد صـفات "جـديدة" ليست في المكونات، تنـشأ "جِدة" novelty حقيـقية. للكل إذن صـفاته الجديدة وقوانينه الخـاصة التي يجب أن نتوجه إليها مباشرة وتقابلها على أرضها وندرسها بحقها الشخصي.

(2) يومئ السياقُ هنا إلى أن ماركوس يقصد الموت الاختياري بالدرجة الأساس.

ومخالفةِ المألوف، كما هو شأنُ المسيحيين[1]. ليكن استعداداً متعقِّلاً جاداً صادقاً طبيعياً خالياً من التصنعِ والمَسْرَحة[2].

١١-٤ هل صنعتُ شيئاً ما مِن أجل الصالح العام؟ إذن فقد تَلَقَّيْتُ أجري. لتكنْ هذه دائماً قَناعتُكَ ولا تكفَّ أبداً عن صنعِ الخير.

١١-٥ ما هي حِرفتُك؟ أن أكونَ إنساناً صالحاً. ولكنَّ هذا لا يتأتى إلا خلالِ المفاهيمِ الفلسفية _المفاهيمِ الخاصةِ بطبيعة العالم، والمفاهيمِ الخاصة بالطبيعة الحقة للإنسان.

١١-٦ في البداية عُرِضَت التراجيدياتُ على المسرح لكي تُذَكِّرَ الناسَ بالأمور التي يمكن أن تحدثَ لهم، وبأن هذه الأحداثَ تُحَتِّمُها الطبيعةُ، وأن ما يؤثر فيك في المسرح ينبغي ألا يكرثَك على المسرحِ الأكبرِ للحياة. بوسعِكَ أن تَرَى كيف يتعينُ على الأشياءِ أن تتبدلَ وأنه حتى مَن

(1) كان المسيحيون في عصر ماركوس يُضطهَدون ويُستتابون بأن يعلنوا الارتداد عن عقيدتهم ويبرهنوا على ذلك بتقديم أضحية إلى الامبراطور. ولكنهم كانوا في الأعم يرفضون ذلك ويختارون الاستشهاد؛ وهو ضرب من العناد والتحدي والمظهرية من وجهة نظر غير المسيحيين.

(2) المهم هنا أن يكون القرار بإنهاء حياته قائماً على شيء أقوى وأرسخ من مجرد الحماس للشهادة أو الرغبة في اتخاذ وضع مسرحي. انظر ١٠-٨ : "وإلا فاجعل لك مخرجاً عاجلاً من الحياة، لا بانفعالٍ بل ببساطة وحرية وتواضع، جاعلاً هذا الرحيل إنجازاً واحداً مشرفاً في حياتك على أقل تقدير".

يصيحون[1] "أي كيثايرون! " ينبغي عليهم أن يتحملوها.

ثمة أيضاً بعضُ الأقوالِ المفيدةِ عند التراجيديين؛ وبخاصة:

"إذا لم تعد الآلهة تكترث بي وبطفلَيَّ

فهذا أيضاً له ما يبرره"[2]

ثم: "الأشيـاء المجردة، الوقائع العجـماء، ينبغي ألا تثـيرَ غضبَك"[3]

ثم: "السنابلُ الناضجة تُحصَد، وكذلك حياةُ الكائنات"[4]

وبعد التـراجيديا أُدخِلَتْ الكوميـديا القديمة[5]. وكان ثمة قيـمةٌ تعليـميةٌ في صـراحتِهـا غيـر المحددة، وهذا الكلام المكشوف كان بنفسه تحـذيراً مفيداً من الغرور - ديوجينيس أيضاً تَبَنَّى هذه السـمةَ لهدفٍ مماثل[6]. وبعد هذا انظرْ في

(1) هو الجبل الذي ألقى عليه أوديب طفلاً وليدًا بهـدف التخلص منه. والاقتباس من سوفوكليس _أوديب ملكًا - ١٣٩١ .

(2) من المسرحية نفسها أبيات ٧-٤١

(3) نفسه أبيات ٧-٣٨

(4) نفسه أبيات ٧-٤٠

(5) الكومـيديا القـديمة يمثلها أرسطوفـانيس (مات عـام ٣٨٦ ق.م)، والكوميـديا الجديدة يمثلهـا ماناندروس (مات عام ٢٩٢ ق.م) انظر أحـمد عتـمان، الأدب الإغريقي، ص ٣٨٩-٤٣٠ .

(6) عُرِفَ ديوجينيس، الفيلسوف الكلبي، أيضاً بسخريته القاسية. ومن الواضح أن ماركوس يؤيد الصراحة المطلقة وكثيراً ما اتخذها هو نفسه.

طبيعةِ الكوميديا الوسيطة، والغرض من التبني اللاحق للكوميديا الجديدة، التي انحدرتْ بالتدريجِ إلى مجردِ فنٍّ التقليد. صحيحٌ أن هؤلاءِ الكتابَ أيضاً قالوا بعضَ الأشياءِ الجيدة، ولكن انظرْ إلى أيةِ غايةٍ انتهت الحركةُ بأكملِها لهذا الصنفِ من الشعرِ والدراما؟

١١-٧ مِن الجليِّ البيِّنِ أنه ليس ثمة حالةٌ حياتيةٌ أنسبُ لممارسةِ الفلسفةِ من هذه الحالةِ التي تمر بها الآن[1].

١١-٨ الفرعُ الذي يَنبَتُّ عن الفرعِ المجاورِ ينبتُّ بالضرورةِ عن الشجرةِ كلِّها. كذلك الإنسانُ الذي ينفصلُ عن إنسان آخر، يكونُ قد سقطَ من المجتمعِ كلِّه. وإذا كان فرعٌ الشجرةِ ينقطعُ بفعلِ غيرِه فإن الإنسانَ يفصلُ نفسَه بنفسه عن جارِه، بسبب كراهيته هو ورفضه، غيرَ مدركٍ أنه بذلك إنما فصَلَ نفسَه عن المجتمعِ الأوسعِ لرفاقه المواطنين. غير أن هناك هبةً منحَنا إياها زيوس الذي جَمَّعَ المجتمعات: وهي أن بوسعِنا أن نلتئمَ مرةً أخرى بجارِنا ونستعيدَ مكانَنا في الكيانِ الكلي. غير أنه إذا تكررَ ذلك مِراراً فإنَّ مثلَ هذا الانفصالِ يجعلُ من الصعبِ على مَن

(1) لاحِظ أن ماركوس في مواضع أخرى من "التأملات" يعتبر نفسه فيلسوفاً فاشلاً. في ٨-١ على سبيل المثال يقول ماركوس: "لقد تبدد أملُكَ وصار من الصعب عليك أن تنتزع لقب فيلسوف، كما أن خطك في الحياة يمضي عكس ذلك".

عَزَلَ نفسَه أن يندمجَ مرةً ثانيةً ويستعيدَ وضعَه السابق. جملةُ القولِ أن الفرعَ الذي ينمو مع الشجرة منذ البداية ويشاركُها حياتها ليس كالفرعِ الذي انفصلَ ثم أُعيدَ وصلُه؛ إنما ينطبقُ عليه قولُ البستانيين: "إنه يشاركُ بقيةَ الأفرعِ في الجذعِ ولكنْ لا يشاركُها في العقل"[1].

١١-٩ كما أن أولئك الذين يقفون في طريقِكَ ليصُدُّوكَ عن المضِيِّ في الطريقِ المستقيم لن يستطيعوا أن يَصْرِفوك عن الفعلِ القويم _كذلك ينبغي عليك أن توازنَ بين الجانبين، فتكونَ ثابتَ الرأيِ والفعلِ من جهةٍ ورفيقاً من جهةٍ أخرى بمن يضعُ العثراتِ في طريقِك أو يَنقِمُ عليك تقدمَك. فأن تسخطَ عليهم هو أيضاً ضعفٌ منك، مثله مثل أن تنحرفَ عن مسارِك أو ترتدعَ عنه. فكلاهما بمثابة إهمالِ الواجب: أن ترعوي عنه أو أن تصطدم بعشيرتِك ورفاقِك في الطبيعة.

١١-١٠ "ليست هناك طبيعةٌ أدنى من الفن"[2]؛ فالفنونُ ما هي إلا محاكاةٌ لطبيعةِ الأشياء. فإذا صَحَّ ذلك فإن تلك الطبيعةَ التي هي الأكملُ والأشملُ بين كلِّ الطبائع لا يمكنُ أن تكونَ أقلَّ شأناً من أي ابتكارٍ فني. فإذا كانت الفنونُ

(1) انظر ٨-٣٤ حيث يجيز ماركوس إعادة الالتئام بالمجتمع من غير هذه التحفظات.

(2) اقتباس من مصدر شعري غير معروف.

جميعاً تُنتِج الأدنى من أجلِ الأعلى، فإن هذا أيضاً هو سبيلُ الطبيعةِ الكونية. والحقُّ أنه هاهنا يكمنُ مصدرُ العدالة الذي تستمدُّ منه بقيةُ الفضائلِ وجودَها، إذ لن يكونَ للعدالةِ أثرٌ إذا نحن ركزْنا اهتمامَنا على الأشياءِ اللافارقة indifferentia أو إذا كنا سذجاً لا نَثبُتُ على مبدأ(1).

١١-١١ لا تفرض الأشياءُ الخارجيةُ، التي تطلبها أو تتجنبها، نفسَها عليك فرضاً؛ إنما أنت، بمعنى ما، مَن يخرجُ إليها. فليهدأْ حكمُك عليها وسوف تهدأ هي بِدورِها، ولن تَراك تسعى إليها بعدُ ولا تتجنبها(2).

١١-١٢ الروحُ كرويةُ الشكلِ تظلُّ محتفظةً بهيئتها ما لم تنتأْ تجاهَ شيءٍ أو تنكمشْ مِن شيء، وما لم تشبَّ أو تخمدْ، بل تَبقَ محتفظةً بنورٍ دائم ترى به حقيقةَ الأشياءِ جميعاً وترَى به "الحقيقةَ في ذاتها".

١١-١٣ فلانٌ يحتقرني؟ هذا شأنُه. أما أنا فسأظلُّ حريصاً على ألا يبدرَ مني أيُّ لفظ أو فعلٍ يستوجبُ الازدراء. سيكرهُني فلانٌ؟ هذا شأنُه. أما أنا فسأظلُّ رفيقاً حسنَ النيةِ تجاهَ الجميع، ومستعداً لأن أُظهرَ فلاناً هذا على خطئِه _لا بتأنيبٍ ولا بتصنُّعِ التسامح، بل بنبالةٍ وإخلاصٍ

(1) استنتاج مستغلق لا يستقيم لنا إلا بتأويلات ظنية.

(2) انظر في ذلك ٥-١٩، وقارن بفقرة ١١-١٦

حقـيقيين، مـثل فوكيون الـعظيم (ما لم يكن متـهكماً في قوله)[1]. هكذا ينبغي أن يكونَ ضميرُنا الباطنُ، الذي تراه أعينُ الآلهـة: ينبـغي أن ترانا الآلهـةُ غيـرَ سـاخطين ولا شـاكين. وماذا يضـيـرك إذا كنتَ الآن تفعلُ مـا تُسـيغُـه طبيـعتُك وما يفي بالغرضِ الحـاضرِ لطبيعـةِ العالم _ إنساناً أُسندَ إليه تحقيقُ الخيرِ العام على هذا النحوِ أو ذاك؟

١١-١٤ يحتقـرُ بعضُهم بعضاً، وينافـقُه رغمَ ذلك. يريدون العلوَّ والترقي، وينبطحون رغمَ ذلك!

١١-١٥ ما أشدَّ كذبَه وتصنعَه ذلك الذي يقـول "لقد عقدتُ النيةَ على أن أكونَ مخلصاً لك". مـاذا تفعلُ أيها الرجلُ، وما الداعي لهذه المقدمات؟ الأفـعالُ سوف تكشفُ كلَّ شيء. الإخلاصُ ينبغي أن يكونَ مكتوباً على جبينك، متجلياً في نغمـةِ صوتِك وبريقِ عينيك، تمامـاً كما يَقرأُ المحـبوبُ كلَّ شيءٍ في أعينِ محبيه. للصـلاحِ والإخلاصِ شميمٌ نافذٌ لا يُخْطِئُه العـابرُ. أما تَكَلُّفُ الإخـلاصِ فأشبَـهُ بالخنجر. لا شيءَ أكثـرُ شَيناً من صـداقةِ الذئاب. فـبُعْداً لـها. الرجلُ

(1) فوكـيون (٤٠٢-٣١٨ ق.م) سيـاسي وقائد أثيني لُقِّبَ بـ "الصـالح". وقد حُكِم عليه بالموت بتناول السم عام ٣١٨. قـيل إنه سُئِلَ قبل تناوله السم هل لديه أي رسالة يريد أن يبعث بها إلى ابنه، فما كان جوابه إلا أن قال إنه ينبغي ألا يحمل في نفسـه ضغناً ضد الأثينيين، وذلك "لكرم ضيافـتهم الذي أشربه الآن!"

الصالحُ والطيبُ والخيِّرُ تنضحُ نظرتُه بهذه الصفاتِ كلِّها ولا تخطئه العين.

١١-١٦ عِش الحياةَ على أفضلِ نحوٍ ممكن؛ بوسعِ الروحِ أن تفعلَ ذلك إذا كانت غيرَ مكترثة بالأشياء غيرِ الفارقة indifferent. وستكون غيرَ مكترثةٍ بهذه الأشياءِ إذا نظرَتْ إليها ككُلٍّ وإلى كلٍّ منها على حدة، وتذكَّرَت أنْ لا شيء من هذه الأشياء يُصدرُ حكماً عن نفسه أو يفرضُ نفسَه علينا. فالأشياءُ ذاتها خاملة. وإنما نحن الذين نُنتِج الأحكامَ عنها ونطبعُها في عقولنا. وإن بوسعنا ألا نطبعَها على الإطلاق، وأن نمحوَ في الحالِ أيَّ حكمٍ تَصادَفَ انطباعُه. تَذَكَّرْ أيضاً أن انتباهَنا إلى هذه الأشياءِ لا يمكن أن يدومَ إلا لحظةً قصيرة ثم تنتهي الحياة. وما الصعبُ في ذلك على أية حال؟ فإذا كانت هذه الأشياءُ متفقةً مع الطبيعة فتقبلْها وستجدُها سهلةً يسيرة؛ وإذا كانت ضدَّ الطبيعةِ فابحثْ عما هو متفقٌ مع طبيعتِك واسْعَ في طلبه حتى لو لم يأتِ معه بِمَجْد، فمِن حقِّ كلِّ إنسانٍ أن يلتمسَ ما هو خيرٌ له.

١١-١٧ في كل شيءٍ يَعرِض للخبرة انظُرْ في مصدره الذي منه أتى، وفي مكوِّناته، وإلى أي شيءٍ يتحول، وأيَّ صنفٍ من الأشياءِ سيكونُ بعد أن يتحولَ، وأن التغيرَ لن يضيرَه شيئاً.

١١-١٨ إذا ما أساء إليك أيُّ شخصٍ فانظرْ **أولاً**: ماذا تكون، في نظري، علاقـتي بهم، وحقيقـة أننا خُلقنا من أجل بعضنا البعـض؛ ومن جهة أخـرى أنني خُلِقتُ لأكونَ قـائدَهم، مثـلما يقـودُ الكبشُ سربَه والثـورُ قطيعَـه؟ ولكن ابدأْ من المبادئ الأولى. إذا كـانت الأشياءُ جـميـعاً ليست مـجردَ ذراتٍ عـشـواء، إذن فـالطبـيـعـةُ تحكمُ الكل، والأدنى، بالتالي، خُلِقَ من أجل الأعلى، والأعلى من أجل بعضهم بعضاً.

ثانيـاً: أي صنف من الـناس هم على مـوائدهم، وفي فـراشـهم، .. إلخ. والأهم، أي صـنف من السلوك تُمليه آراؤهم عليهم. وبـأي اعتزاز ورضا ذاتي يفعلون ما يفعلون.

ثالثاً: إذا كان ما يفعلونه صواباً، فـبها ونعمت، وإذا كان خطأً فـمن الواضح أنهم يفعلونه عن جـهلٍ ومن غيـر قصـد. فمـثلما تكرَه النفسُ أن تُـحرَم من الحقيقة، كذلك تكرهُ أن تُحرَمَ من القدرةِ على أن تعاملَ كلَّ شـخصٍ كما يـستحق. وبالتـالي فإن الناس يسوؤهم أن يوصفـوا بالظلمِ أو الجحود أو الطمع؛ وباختـصار: أن يوصَـفوا بأنهم يُسيـئون لجيرانهم.

رابعاً: أنتَ نفسُك ترتكبُ أخطاءً كثيرةً، وإن كنتَ تُحْجِمُ عن ارتكابِ مثلِ أخطائِهم بدافعِ الخوف أو اعتبار السمعة أو غير ذلك من الدوافع الدنيئة.

خامساً: لستَ حتى واثقاً من أنهم يخطئون. فكثيرٌ من الأشياء يجري فعلُها كجزءٍ من خطةٍ أكبر، وعلى المرءِ بصفةٍ عامةٍ أن يعرفَ الكثيرَ قبل أن يمكنَه أن يقطعَ بحكمٍ على أفعالِ شخصٍ آخر.

سادساً: عندما يأخذُكَ الحنقُ أو الضجرُ فتَذَكَّرْ أن حياةَ المرءِ مجردُ لحظةٍ وسرعانَ ما سنكونُ جميعاً في قبورِنا.

سابعاً: ليست أفعالهم هي ما يسوؤنا، لأن لها أساسَها في عقلِهم الموجِّه، بل حكمُنا نحن على هذه الأفعال. فامحُ هذه الأحكامَ، واعقدِ العزمَ على أن تتخلى عن تقييمِكَ لجُرمٍ مفترَض، وسيذهب غضبُكَ في الحال. وكيف تمحو الأحكام؟ بأن تذكرَ أن جُرمَ غيرِكَ لا يلحقُ بك عاراً. فالعارُ هو الضررُ الوحيد وإلا لكنتَ أنتَ أيضاً مذنباً بإلحاقِ الكثيرِ من الضررِ وصرتَ لصاً وغداً.

ثامناً: أكبرُ الألمِ إنما يأتي من الغضبِ والحنقِ الناتجين، لا من الأسبابِ الأصليةِ لغضبِنا وحنقنا.

تاسعاً: للرفقِ تأثيرٌ فعالٌ لا يُقـهَر، بشرطِ أن يكونَ أصيلاً لا تَصَنُّعَ فيه ولا نفاق. فـماذا عسى أن يفعلَ لك أعنفُ الناس إذا مـا بَقِيتَ رفـيقـاً به، وبذلتَ له النصحَ مـا اسـتطعتَ وبيَّنْتَ له خـطأه في نفسِ الوقتِ الذي يحـاول فيـه إيذاءَك؟ "لا يا بني إنما خُلِقنا لغاياتٍ أخـرى غيرِ هذا. لا سـبيلَ إلى أن تصيبَني بأذى، فـما تؤذي إلا نفسَك يا ولدي". وترَفَّقْ إليـه في الحديثِ وبيـدكَ المبدأُ العـام الذي يقـضي بذلك، فـالنـحلُ لا تَفـعل ذلك ولا أي مخلوقـات جَبَلَتْها الطبـيعةُ على الاجتـماع. ولا يشوبَنَّ نصحَك أيُّ شيءٍ من السخرية أو التوبيخ. وليكنْ نُصحاً مترفقاً غيرَ جارح، ولا تحدثْه كأنك تُلقِي مـحـاضـرةً تريدُ أن تنتـزعَ بهـا إعـجـابَ الآخرين، بل تحـدثْ إليه وكـأنه وحدَه من غـيرِ شهود.

تذكـرْ هذه المبادئَ التـسعـةَ كأنهـا هدايا من ربات الفنون. ولتكنْ إنساناً مـا حَيِيتَ. وتجنـب التملقَ بقدرِ مـا تتجنبُ الغضبَ في التـعاملِ معهم، فكلاهمـا ضارٌّ ولا يؤدي إلى

الصالح العام. وتذكَّرْ في نوبـاتِ غضبِكَ أن الغضبَ ليس من الرجولةِ فـي شيء، وأن الرحمةَ واللينَ أكـثرُ إنسـانيةً وبالتالـي أكثرُ رجـولة. فالرحـماءُ هم ذوو القـوةِ والبأسِ والشجاعةِ وليس القساة ولا الساخطون. فكلما تحكَّمْتَ في انفعالاتكَ كنتَ أقربَ إلى القوة[1]. فالغضبُ دليلُ ضعفٍ شـأنه شأن الجَـزَع. فـالغاضبُ والجَـزِعُ كـلاهما أصـيبَ وكلاهما استَسلَمَ.

ودونَكَ هديةً عاشـرةً من قائد رباتِ الفنون (أبولو) _أن من الجنونِ أن تتوقعَ مِن الأشرارِ ألا يقعوا في الخطأ: أن تطلبَ ذلك هو أن تطلبَ المسـتـحـيل. ولكن أن تسـمحَ لهم أن يفعلوا مثلَ ذلك بالغير ولا يفعلوه بك هو خطلٌ واستبداد.

١١-١٩ ثمةَ أربعـةُ أدواء أساسيـة تصيبُ العقـلَ الموجِّهَ كنْ على حذرٍ دائمٍ منهـا كلما صادفتَهـا، وقلْ في كلِّ حالة: "هذه الفكرةُ لا لزومَ لها"، "هذه قد تُضعِفُ وشائجَ المجتمع"، "هذا الذي تهمُّ بقولِه لا يعـبرُ عن قناعتِكَ الحقيـقية" (أن تقولَ مـا لا تقتنعُ بـه هو قمةُ التـناقض). أما الرابع فـهو عندمـا تُبَكِّتُ نفسَكَ عـلى أيِّ شيء؛ فهـذا دليلٌ على أن الجزءَ الأكثرَ ألوهةً فيك قـد خَضَعَ واستسلمَ للجزءِ الأدنى والفاني - أي الجسد - ولذاتِه العنيفة.

(1) "وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".

١١-٢٠ كلُّ ما هو من عنصـري الهواء والنار فيك يميلُ بطبيـعتهِ إلى أعلى. ورغم ذلك فـهـو يطـيعُ مَـيلَ "الكل" ويظل راضخـاً هنا في الكتلةِ المركَّبـة (الجسـد). وكل ما هو من التراب والماء فيك، رغم ميله إلى الهبوط إلى أسفل، يُرفَع إلى أعلى ويَبـقَى في وضعٍ غيـرِ طبيـعي بالنسبـة له. إذن حـتى العناصـرُ تَعنُو لـ "الكل"، وتُرغَمُ على البـقـاءِ في موضعِـها المخصصِ لها، حتى يأتي نـذيرُ الفناءِ مرةً أخرى من المصدرِ نفسهِ.

أليس من العـجيبِ إذن ألا يتمـرد، ويتبـرم بمكانهِ الممنوحِ له، إلا الجزءُ العاقلُ منك؟ ورغم ذلك فليس مفروضاً عليه شيءٌ غـيرُ مـا يتفقُ مع طبـيعـتهِ. ولكنه مـايزال يأبى أن يُذعِن، ومايزال يرتدُّ في الاتجاهِ المعـاكس. فكلُّ اتجاه نحوَ الظلمِ والإفـراطِ والغـضبِ والأسى مـا هو إلا ردَّةٌ عن الطبيـعة. وفـضلاً عن ذلك، فـمتى أحسَّ العـقلُ الموجِّهُ بالاستيـاء من أي حدثٍ فهذا أيضاً تـخَلٍّ عن واجبهِ المنوطِ به. فهو لـم يُفطَرْ على العدلِ إلى البشرِ فـحسب بل فُطِرَ أيضـاً على تمجيـدِ الربِّ وخدمـته _فهـذا أيضاً شكلٌ من أشكالِ التناغمِ مـع الفطرةِ ولعله أهمُّ وأوجبُ من أفـعـالِ العدل.

١١-٢١ "مَن لا يثبت على غايةٍ واحدة في الحياة لا يمكن أن يبقى هو نفسُه واحـداً طوالَ حياته"(1). لا يكتملُ هذا المبدأُ ما لم تُضِفْ إليه أيضاً ماذا ينبغي أن تكونَ هذه الغاية. فمثلما تتعددُ الآراءُ حولَ ما يعتبرُه الأغلبيةُ خيراً بطريقةٍ أو بأخرى ولا ينتزعُ الإجماعَ إلا فئةٌ واحـدةٌ من الأشياءِ وهي الأشياءُ التي تصُبُّ في الصالح العام ـكذلك ينبغي أن يكونَ هدفُنا الذي نكَرِّسُ له أنفسَنا هو هدفٌ اجـتـماعي، أي صـالحُ إخوانِنا المواطنين. فـمَن يوجِّه كل جهـودِه إلى هذا الهدفِ سـيكون مـتسـقـاً في كل أفـعـالِه، ويكون، مِن ثم، هو الشخص نفسه طوالَ حياته.

١١-٢٢ قارنْ فأرَ الجبلِ بفأرِ المنزل: انظرْ كم هو مُرَوَّعٌ مُستنفَرٌ فأرُ المنزل.

١١-٢٣ اعـتادَ سـقراط أن يطلقَ على الاعـتقـاداتِ الشائعـةِ اسمَ "بعبع" - أشياء تخيفُ بها الأطفال(2).

---

(1) مصدر هذا المبدأ غـير معلوم. ولعله من صوغ ماركوس نفـسه، فالاتساق في الحياة وفي الأفعال هو مبدأ سقراطي (أفلاطون - الدفاع ٣٣ a) ورواقي (انظر شيشرون - في الواجبات ١-١١١). في أهميـة الهدف والغاية انظر ٢-٥ . وانظر أيضاً ١-٨ حيث يذكر مـاركوس أنه تعلم من أبولونيوس أن يظل دائماً الرجل نفسه.

(2) عن إبيكتيتـوس، استناداً إلى أفلاطون (محاورة أقـريطون ٢٤٦، و/أو فيدون evv).

١١-٢٤ دأَبَ الاسبرطيـون في احتفالاتهم على أن يضعوا مـقاعدَ للغرباءِ في الظل، وأن يجلسوا هم أنفسُهم حيثما شاءوا.

١١-٢٥ اعتذرَ سقراط لبيـرديكّاس المقدوني عن عدمِ تلبيةِ الدعوةِ لزيارتِه قائلاً: "حتى لا أموتَ أسوأَ ميتةٍ: أن أتقَبَّلَ معروفاً لن أكونَ قادراً على ردِّه"(1).

١١-٢٦ ثمة قـاعدةٌ في الكتاباتِ الأبيقـوريةِ تشيرُ بأن تتـمثَّلَ في ذهنِك على الدوام واحـداً من أولئك الذين كانوا يـتبـعون طريقَ الفضيلةِ في الأزمنةِ السابقة.

١١-٢٧ يقول الفيثاغوريون: "تأملوا السماءَ في الفجر" كي نُذَكِّرَ أنفسَنـا بثباتِ تلك الأجـرامِ السمـاوية، التي تؤدي الشيءَ نفسَـه على الدوام وبالطريقةِ نفسِـها، ونُذَكِّرَ أنفسَنا أيضاً بنقائِها وتجردِها: فليس على نجمٍ حجاب.

١١-٢٨ تَذَكَّرْ سقراطَ بملابسه الداخلية عندمـا أخذت كسانثيبي(2) سترتَه ومضت؛ واذكرْ ماذا قال لأصدقائِه الذين أجفلوا منه خجلاً عندما رأوه بهذه الحال.

١١-٢٩ لا في الكتـابةِ ولا في القـراءةِ يمـكنُكَ أن تُعَلِّمَ قـبل أن تتعلم، كذلك الأمرُ، وأكثر، في الحياة.

---

(1) ربما تكون ذاكرة، إذ إن أركيلاوس ملك مقدونيا (مات في عام ٣٩٩ ق.م) هو الذي دعا سقراط كما روى أرسطو وسينيكا.

(2) زوجة سقراط.

١١-٣٠ "أنتَ عبد.. فلا صوتَ لك"[1].

١١-٣١ "وكان قلبي يضحك في داخلي"[2].

١١-٣٢ "سوف يلعنون الفضيلةَ، ويُغلظون القول"[3].

١١-٣٣ ليس غير مجنون مَن يطلب تيناً في الشتاء: ومجنون بالمثل مَن يأملُ في طفلٍ بعد فوات الأوان[4].

١١-٣٤ اعتادَ إبكتيتوس أن يقول: عندما تقَبِّل طفلَك ينبغي أن تقولَ لنفسِك "ربما تموتُ غداً"

- "ولكن هذا شؤم".

(1) اقتباس عن شاعر مجهول.

(2) الأوديسية ٩-٤١٣، وتشير إلى أن أوديسيوس كان يتلذذ بانتصاره على الكيكلويس بوليفيموس.

(3) عن هزيود - الأعمال والأيام ١٨٦

(4) احتمل ماركوس وفاة سبعة من أبنائه الأربعة عشر في سن الرضاع أو الطفولة المبكرة. وتحض الرواقية على التجمل في مواجهة موت الابن وعدم الجزع لرحيله. وقد سجل ماركوس إعجابه بأبولونيوس أمام الخطوب "لا يبدله الألم المفاجئ أو فقدان ابن أو المرض الطويل" (١-٨). وفي ٩-٤٠ يقول: "يدعو غيرك: كيف أنقذ ولدي الصغير؟ أما أنت فادعُ: كيف أتعلم ألا أخاف من فقده؟". وفي ١٠-٣٤ يقول: "أبناؤك أيضاً مجرد أوراق".. أي مجرد أشياء تافهة وزائلة حين تضعها في الإطار الأعرض للأشياء، شأنها في ذلك شأن المديح والملام والشهرة. وفي ١٠-٣٥ يقول: "العقل الذي يقول "أطفالي يجب أن يعيشوا".. هو عين (مريضة) تطلب الألوان الخضراء أو أسنان (مريضة) تطلب الطري من الطعام".

- يرد إبكتيتوس: "كلا، ليس شؤماً ما يشيرُ إلى عمليةٍ طبيعية، وإلا لكان شؤماً أن تتحدثَ عن حصادِ القمح".

١١-٣٥ عنبٌ فِجٌّ، عنقودٌ ناضج، زبيب ـكلُّه تغيُّر، لا إلى عدم، بل إلى شيءٍ غيرِ موجود بعدُ[1].

١١-٣٦ ليس بمُكنةِ لصٍّ أن يسرقَ إرادتَك[2].

١١-٣٧ يقول إبكتيتوس أيضاً: علينا أن نكتشفَ منطقاً للقبول، وفي مجال رغباتنا أن نحرصَ على أن تكونَ كلُّ حركةٍ مشروطةً، ذاتَ هدفٍ اجتماعي، ومتناسبةً مع قيمةِ هدفِها. أما عن الرغبةِ الحسيةِ فيجب أن نظلَّ بمنأى كاملٍ عنها؛ وأما النفورُ فعلينا ألا نبديه بإزاءِ أيِّ شيءٍ خارجٍ عن قدرتنا.

١١-٣٨ مرة ثانية: "الخلافُ هنا ليس هيناً.. إنها مسألةُ الجنون أو العقل"[3].

١١-٣٩ اعتاد سقراط أن يسأل: "ماذا تريدون؟ نفوس الكائنات العاقلة أم غير العاقلة؟"

"العاقلة".

(1) عن إبيكتيتوس.

(2) عن إبيكتيتوس.

(3) عن إبيكتيتوس.

- أي صنفٍ من الكائنات العاقلة؟ الصالحة أم غير الصالحة؟
- "الصالحة".
- لماذا إذن لا تسعون إليها؟
- "لأنها لدينا".
- لماذا إذن تقتتلون وتصطرعون؟[1]

(1) لم يرد هذا الحديث عن سقراط في أي مصدر آخر.

12

الكتاب الثاني عشر[1]

١٢-١ كل ما تتمنى يوماً بلوغَه بطريقٍ ملتوي بوسعكَ الآن أن تنالَه إذا كنتَ منصِفاً لنفسك، أي إذا تركتَ الماضي وراءَ ظهرِك وأوكلتَ المستقبلَ للعناية، ووقفتَ الحاضرَ على التقوى والعدل[2]. على التقوى فترضَى بنصيبكَ المقسوم، فقد جعلَتْه لكَ الطبيعةُ وجعلَتْكَ له. وعلى العدل فتكون صادقاً صريحاً في قولك وفعلك، تقول الحق وتلتزم بالقانون والقسط في كل ما تفعل. ولا يصدك عن طريقك خبثُ الخبثاء ولا تَقَوُّلُ المتقولين[3]، ولا إحساساتُ اللحمِ

(1) ثمة ما يرجح الاعتقاد بأن هذا الكتاب هو حقاً آخر فصل في "التأملات"، وبأنه كتبه قبيل وفاته: ففيه يقدم خلاصات لأفكاره المحورية وخبراته، يكتبها بطريقة رجل أكثر سلاماً مع نفسه وأقل حنقاً عما يحيط به. وتدور أغلب أفكاره حول الموت والإله. أما الشذرة الأخيرة فأشبه بإذنٍ واعٍ بالرحيل.

(2) قارن بالفقرة ٤-٢٦ : "اغتنم اللحظة الحاضرة بالعقل والعدل".

(3) في استقلال الإرادة الأخلاقية انظر ٢-٦، ٤-١٢، ٥-٣

البائسِ الذي تنامَى عليك؛ وعلى الجـانبِ المتضرِّرِ أن ينظرَ في شأنِه[1].

حـتى إذا مـا اقتـربَ رحـيلُك وقـد تركْتَ كلَّ شيء وراءَ ظهـرِك، لا يعنيك إلا عـقلُكَ المـوجِّـهُ والألوهـةُ التي بداخلِك، ولا تخـشى مِن أن يحلَّ أجلُك بل مِن أن تكُفَّ عن الحياةِ وفقاً للطبيعة، ستكون إذاك إنساناً جديراً بالعالم الذي أتى بك، ولن تعودَ غـريباً في وطنِك[2]، ولن تعودَ مأخوذاً بالأمـورِ اليوميةِ كمـا لو كانت غيرَ متـوقَّعة، ولن تعودَ معلَّقاً أملَكَ على هذا أو ذاك.

(1) انظر ٧-١٤ "دع الأجـزاء التي يمكن أن تـتأثـر به تشكو مـا شـاءت، فلستُ مضاراً إلا إذا عقدت الرأيَ بأنه ضرر، وبوسعي ألا أرى هذا الرأي".

(2) انظر أيضاً ٤-٢٩، ٨-٥٢، ١٢-١٣

١٢-٢ الله يرى عـقولَنا جـميـعاً مـجردةً من غطائهـا المادي ومن قشـورِها وخَبَـثِها، لا صلةَ له إلا بفكرنـا الذي صَدَرَ منه وتدفقَ إلى هذه الأبدان. إذا عَوَّدتَ نفسَك أيضاً أن تصنعَ نفسَ الصنعِ فسـوف تضعُ عنكَ كثيـراً من إصرِك. إن مَن يصرف نظـرَه عن الجسدِ البـائسِ الذي يغلفُه قلـما يكرثُ نفسَه بالنظرِ إلى الملبسِ أو المسكنِ أو الصيت، أو أيِّ شيءٍ من هذه الزخارفِ والمشاهدِ المسرحية.

١٢-٣ ثلاثةٌ هي مكوِّناتُك: جسـدٌ، ونَفَسٌ (حياة)، وعـقل. أما الأوَّلان فـهـما خـاصَّـتُكَ بقـدرِ مـا هو من واجـبك أن ترعاهما. وأما الـثالثُ فهو خاصتُكَ بتمـامِ المعنى. فإذا ما نفضتَ عن نفسك، أي عن عقلك، كلَّ ما يقوله الآخرون ويفعلونه، وكلَّ ما قلتَه أنتَ وفـعلتَه، كلَّ ما يُنَغِّصُكَ عن المستقبل، كلَّ ما يجلبُه عليك جسدُك الذي يغلِّفُكَ ونَفَسُكَ الذي يصاحبُـك على غيرِ اختيـارٍ منك، وكل ما يُدَوِّم في الدوامـةِ الخارجـيةِ التي تحـيطُ بنا[1]، بحيث يمـكنُ لقوةِ عقلك، وقد تجاوزت الآن كلَّ الروابطِ العرَضية، أن توجدَ بذاتها، خالصـةً حرةً تفعلُ ما هو عـدل، وتريد ما يحدثُ لهـا وتقول مـا هو صـدق. أقولُ إذا نفـضتَ عن عـقلك الموجِّهِ ما يَرين عليه من انـطباعاتِ الحسِّ ومن همومِ الآتي

(1) إشـارة إلى نظرية أمبـدوقليس القائـلة بأن الأرض محـفوظة في وسط العـالم بواسطة الحركة الدائرية السريعة (الدوامة) للأجرام السماوية.

والماضي، جاعلاً نفسَك مثلَ كرة أمبدوقليس: "تامة الاستدارة مبتهجة في نعيم وحدتها". لا تبتغي إلا أن تعيشَ ما هو حياتُك الحقة -أي الحاضرَ- سيكون بوسعك أن تقضي ما تبقَّى لك من العمرِ في هدوءٍ وسكينةٍ وسلامٍ مع روحِكَ الحارس.

١٢-٤ كم تعجبتُ من أن كلَّ إنسانٍ يحبُّ نفسَه أكثرَ من أي شخصٍ آخر، بينما يضعُ رأيَه في نفسه موضعاً أدنى من رأيِ الآخرين فيه. فماذا لو ظهرَ له إلهٌ أو معلمٌ حكيم وسألَه ألا يضمرَ في نفسه أيَّ فكرةٍ أو نيةٍ لا يودُّ أن تذاعَ على الملأ في الحال؟ ما أحسبُه يحتملُ هذا الأمرَ يوماً واحداً. حقاً، إذن، إننا نبالي بما سيراه فينا الآخرون أكثرَ مما نراه في أنفسنا.

١٢-٥ كيف يتأتَّى أن الآلهةَ بعد أن هَيَّأتْ كلَّ شيءٍ بكلِّ هذه الجودةِ وكلِّ هذا الحبِّ للبشر، يفوتها هذا الشيءُ الوحيد: وهو أن بعضَ الناس، وخيرةَ الناسِ جميعاً، أولئك الذين اتصلوا بالألوهةِ أوثقَ اتصال، وبلغوا منها أقربَ مكانٍ خلالَ أعمالِ التقوى والشعائر، أنهم فورَ موتهم يلاقون فَناءً أبدياً ولا يعودُ لهم أيُّ وجود؟!

ولكن إذا كان هذا هو الحال فثقْ أنه لو كان ينبغي أن يكونَ غيرَ هذا لكانت الآلهةُ فعلَتْه. لأنه إذا صَحَّ لكان ممكناً أيضاً، وإذا كان متفقاً مع الطبيعةِ لكانت الطبيعةُ فعلَتْه.

إذن فحقيقةُ أنه ليس شيئـاً آخر (إن كانت هذه هي الحقيقة فعـلاً) يجب أن تطمئنَكَ أنه مـا كان ينبغي أن يكونَ غـير هذا(1). لعلك تلحظُ بنفسِك أنك بهذا التساؤلِ الجريءِ إنما تتنازعُ مع الآلهـة، وما كنا لندخلَ في مـثلِ هذا النزاعِ مع الآلهـة لولا أنها غـايةٌ في الخيـرِ والعدل. وإذا كـان ذلك كذلك فـما كان لها أن تدعَ أيَّ جـانبٍ من تدبيرِها المحكمِ للعالم يفلتُ منها عن تفريطٍ في العدلِ أو العقل(2).

١٢-٦ دَرِّبْ نفسَك حـتى على ما يَئِـستَ من التمكنِ منه. فـاليدُ اليسـرى، لنقصِ الممارسة، خَـرقاءُ في أغلبِ المهام؛ غـيرَ أنها أشدُّ إمساكاً باللجام من اليدِ اليمنى _فلقد تدرَّبَتْ على ذلك.

---

(1) حجـة تثبت أن عناية الآلهة ضمـان بأن كل شيء كائن إنما هو كمـا ينبغي أن يكون. انظر أيضاً ١٠-٧، ٢-٣، ٢-١١

(2) كل شيء يؤول إلى خير الكل، وكل حدث إنمـا يصب في خير العالم، الذي هو خير العوالم الممكنة _تفاؤل رواقي تردد صداه في "ثيوديسيه" ليبنتز، ولم يسلم من نقد لاذع وجـهه فولتـير في قصـيدته عن زلزال لشـبونة وفي رواية "كنديد". وقديماً وجَّهَ لوكريتيوس نقده لهذه العقيدة في قصيدته الكبرى "في طبيـعة الأشياء" حيث أنـكر فكرة "العناية" وبَيَّنَ تقصير الـطبيعة تجاه الـبشر وعـدم اكتـراثهـا بآلامـهم: "تقف مُـتَلَبِّـسَةً بهـذا الجُـرم المبين" tanta stat praedita culpa (في طبـيعـة الأشيـاء - ٢-١٨١) كـانت هذه هي العبـارة المفضلة لدى فولتير من الشعر اللاتيني. وعن لوكريتيوس راجع أحمد عتمان، الأدب الإغريقي اللاتيني ودوره الحضاري حـتى نهاية العصر الذهبي (ط٢ دار المعارف ١٩٩٥) ص ١٦٠-١٧٧ .

١٢-٧ تفكَّرْ كيف يكونُ حالُ المرءِ، جسداً وروحاً، بعد أن يدركَه الموتُ، وتأمَّلْ في قِصَر الحياة، وفي الهوةِ السحيقةِ للزمان الماضي والمستقبل، وفي هوانِ كلِّ شيءٍ مادي.

١٢-٨ تأمَّل المبادئَ الصوريةَ (الصور) للأشياءِ مجردةً من غطائِها؛ تأمل الغاياتِ الخفيةَ للأفعال؛ تأمل: ما هو الألم؟ وما هي اللذة؟ وما هو الموت؟ وما هو المجد؟ ومَن منا ليس هو نفسُه السببَ في كَربِه الشخصي، وليس قلقُه مِن صنعِ يديه؟ تأمل: ليس ثمة امرؤٌ يُعاقُ بِغَيرِه، وإنما كلُّ شيءٍ هو كما يجعلُه التفكيرُ كذلك[1].

١٢-٩ في تطبيقِكَ لمبادئِك كن كالملاكم لا المجالد: فالمجالدُ gladi-ator مرتهَنٌ لسيفِه الذي يستخدمُه، يرفعه أو يُسقط عنه ويُقتَل؛ أما الملاكم فلديه دائماً يدُه، وليس عليه إلا أن يستخدمَها[2].

١٢-١٠ انظر ماذا تكونُ الأشياءُ في ذاتها، مقسِّماً إياها إلى مادةٍ وصورةٍ وغرض (غاية).

١٢-١١ أعلى مراتبِ الحريةِ والقوة هي ألا يفعلَ الإنسانُ إلا ما يُرضِي اللهَ، وأن يتقبلَ كلَّ ما يَقسمُه اللهُ له.

---

(1) انظر أيضاً ٢-١٥

(2) التدريب الذاتي المستمر أمر لا بد منه لتحويل الحكم الصحيح إلى عادة وطبيعة وسليقة، إلى شيء لا ينفصل عن المرء لأنه صار جزءاً منه، بل "عضواً" من أعضائه، كاليد للملاكم.

١٢-١٢ لا تَلُم الآلهـةَ: فهي لا ترتـكبُ خطأً، لا عن عمـدٍ ولا عن غيرِ عمد.

ولا تَلُم البشرَ: فهم لا يرتكبون الخطأ إلا عن غير عمد.

لا أحدَ، إذن، ينبغي أن يُلام[1].

١٢-١٣ كم هو عابثٌ وغريبٌ تماماً عن العالم ذلك الذي يستغرِبُ أيَّ شيءٍ يجري في الحياة[2].

١٢-١٤ إما أن الأمرَ قدَرٌ محتَّم ونظامٌ لا يَسمحُ بأيِّ حُيود. وإما عنايةٌ رحيمة .

وإما فوضى لا غايةَ لها ولا موجِّه.

فإذا كان الأمرُ ضرورةً لا تُقهَر فلماذا تقاوِم؟

وإذا كان عنايةً تستجيب للدعـاء فاجعلْ نفسَك أهلاً للعونِ الإلهي.

وإذا كان فـوضى غيرَ مـحكومةٍ فافـرحْ بأنَّ لديك في مثلِ هذه العاصفـة عقلاً موجِّهاً خاصـاً بك. وحتى إذا جرَفَكَ الطوفانُ فليأخذْ جسـدَك البائسَ ونَفَسَكَ الضئيلَ وكلَّ شيءٍ آخر؛ أما العقل فلن يأخذَه.

---

(1) انظر أيضاً ٢-١، ٨-١٧

(2) في بطلان العَجَب انظر ٤-٦، ٥-١٧، ٨-١٤، ٨-١٥؛ ٩-٤٢، ١١-١٨، ١٢-١٦

١٢-١٥ يظلُّ المصباحُ يضيءُ ولا يفقدُ بهاءَه حتى ينطفئ. فهل تخذلُك الحقيقةُ والعدلُ والاعتدالُ قبل نهايتِك؟

١٢-١٦ إذا عَرَضَ لي انطباعٌ بأن شخصاً ما قد ارتكبَ خطأ، فكيف أعرفُ أن هذا كان خطأ؟ وإذا كان هذا خطأً حقاً فكيف أعرفُ أنه لم يكنْ يُبكِّتُ نفسَه، وهو بذلك كمن يمزقُ وجهَه نفسَه؟

أن تريدَ مِن الشريرِ ألا يفعلَ الشرَّ مثلُ أن تريدَ مِن شجرةِ التينِ ألا تحملَ أنفحَةً في تينِها، ومن الرضيعِ ألا يبكي ومن الحصانِ ألا يصهل، أو أي شيء آخر من الحقائق الضرورية للطبيعة. فماذا يتعين أن يفعلَ إنسانٌ لديه هذا الطبعُ؟ فإذا كنتَ حريصاً حقاً فاشفِه من حالته![1]

١٢-١٧ إذا لم يكن صواباً لا تفعلْه؛ وإذا لم يكن صدقاً لا تَقُلْه.

---

(1) في ٥-١٧ يقول ماركوس: "طلبُ المُحالِ جنون. ومُحالٌ على الشرير أن يعمل على غير شاكلتِه". وفي ٤-٦ يقول: "من الطبيعي، والضروري، أن تأتي مثلُ هذه الأفعال من مثل هؤلاء الناس. وإلا فهل تُؤَمِّل في التين ألا يعود يُنتِج أنفحتَه؟". وفي المعنى نفسه يقول شكسبير:

ولكنْ عبثاً ألومُكَ على مسلكك
فمهما جاهَدَ هرقلُ الجبار واجتَهَد
فلا بد للقطة من أن تموء
وللكلب من أن ينبح

"هملت: الفصل الخامس، المنظر الأول"

١٢-١٨ بإزاءِ كلٍّ شيءٍ انظرْ دائماً ماذا يكون هذا الشيءُ الذي أَحْدَثَ في عقلِكَ انطباعاً، وحلِّلْه بتقسيمه إلى الصورة، والمادةِ، والغايةِ، والأمَدِ الزمنيِّ الذي لا بد أن ينتهي خلاله.

١٢-١٩ أَدرِكْ أخيراً أن بداخلِك شيئاً ما أقوى وأكثرَ بهاءً من الأشياءِ التي تولِّدُ شتى الانفعالاتِ التي تحركُكَ بخيوطها كالدمية. ماذا لديك الآن في عقلِك في هذه اللحظة بالضبط؟ هل هو خوفٌ؟ شك؟ رغبة؟ شيءٌ آخَرُ مِن هذا الصنف؟

١٢-٢٠ أولا: لا تفعلْ شيئاً من غيرِ هدفٍ أو من غيرِ غاية. ثانياً: لا تقصدْ إلى أيةِ غايةٍ سوى الخيرِ العام.

١٢-٢١ تَذَكَّرْ أنك بعد برهة ستكونُ لاشيء وفي لامكان، وكذلك كلُّ ما تراه الآن وكلُّ مَن هو الآن حي. إنها طبيعة الأشياءِ جميعاً أن تتغير، وأن تهلك، وأن تتحول، لكي يتاحَ لغيرِها أن يأتيَ إلى الوجودِ على التتابع.

١٢-٢٢ تذكَّرْ أن ملَكةَ الرأيِ هي كلُّ شيء، وأن رأيَك بيدك. امحُ رأيَكَ إذا شئتَ، وستجدُ السكينة. ستكونُ كالبحّار الذي يدورُ حولَ رأسِ الأرضِ، فيجد ماءً هادئاً، وخليجاً ساجياً بلا أمواج[1].

(1) انظر أيضاً ٢-١٥، ٤-٧، ٥-١٩، ١٢-٨، ١٢-١٢، ١٢-٢٦

١٢-٢٣ ما من نشاطٍ يضيرُه أن يتوقفَ مادام قد توقفَ في الوقتِ المناسب، ولا فاعلَه يضيرُه شيئاً أن هذا النشاطَ المعينَ قد توقف. وعلى ذلك فإذا بلغَتْ جملةُ أفعالِه، التي تشكلُ حياتَه، نهايتَها في الوقت المناسب فلا ضَيرَ عليها من مجردِ التوقف، ولا ضيرَ على مَن ختَمَ هذه السلسلةَ من الأفعال في الوقت المناسب. أما الوقتُ والأجلُ فتحددهما الطبيعةُ ـ طبيعةُ الإنسانِ أحياناً كما في الشيخوخة، وطبيعةُ العالمِ في كل الأحيان، والتي من خلالِ التغييرِ الدائمِ لأجزائِها المكوِّنةِ تُبقِي العالمَ كلَّه صبياً وعَفِياً.

وكلٌّ ما ينفعُ العالمَ فهو حسنٌ وفي إبَّانه. لذا فلا بأسَ على الإطلاقِ بأن تنتهي حياةُ كلٍّ منا، فلا النهايةُ عيبٌ ولا اختيارٌ ولا هي ضد الصالح العام. بل هي خيرٌ، إذ تقعُ في التوقيتِ الملائمِ لـ "الكل"، وتصبُّ في صالحه، وتنسجمُ معه. فكذلك أيضاً يمشي المرءُ بعونِ الربِّ إذا مضَى باختيارِه ووجهتِه على طريقِ الرب.

١٢-٢٤ لتكنْ هذه المبادئُ الثلاثةُ نصبَ عينيك:

أولاً: في أفعالك لا تفعلْ شيئاً بلا هدف، أو بهدفٍ غيرِ ما تقتضيه العدالةُ. وفيما يُلِمُّ بك من الخارج فاذكرْ أنه إما يحدثُ بالمصادفة وإما بالعناية، وعليك ألا تلومَ المصادفةَ ولا تتهم العناية.

ثانياً: تأملْ ما يكونُه كلُّ كـائنٍ منذ هو بذرةٌ إلى أن يتلقَّى الروح، ومنذ تلقيه الروحَ إلى أن يُسلِمَـها مرة ثانية؛ وما هي العناصرُ التي كوَّنَته والتي سوف ينحلُّ إليها في النهاية.

ثالثاً: إذا ما رُفِعْتَ فجأة إلى ارتفاعٍ هائلٍ وأمكنَك أن تنظرَ تحتَك إلى مشاغلِ البشر بـشتى أصنافِها، لأن مجالَ نظرِك سـوف يضمُّ أيضـاً حشـداً هائلاً من الأرواح التي تأهلُ الفـضاءَ والسـماء، ولأنك مـهمـا أعدتَ الكَرَّةَ فسـوف ترى الأشياءَ نفسَـها _الرتابة والزوال. هل هذه الأشياءُ تستدعي الزهوَ والخيلاء؟![1]

١٢-٢٥ اطَّرِحِ الحكمَ تجدِ الخـلاص. ومن ذا الذي يمنعُك من هذا الاطِّراح؟![2]

١٢-٢٦ حين تتكدرُ في أي ظرف فقـد نسيتَ عدةَ أشيـاء: نسيتَ أن كلَّ ما يجري فـبإرادةِ طبيعـةِ الكل، وأن الإثمَ لا يضيرُ إلا مرتكبَه؛ ونسيتَ أن كل شيءٍ يحـدثُ فقد كان يحدثُ هكذا فيما مضى، وسيظل يحدثُ هكذا في المستقبل، وما ينفكُّ يحـدثُ الآن في كلِّ مـكان. وأن الكائنَ الإنسـانيَّ

(1) انظر ٧-٤٨، ٩-٣٠

(2) انظر ٤-٧ : "أزِل الحكـم تكن قـد أزلـتَ الفكرة."؛ وانظر أيضـاً ٢-٩، ٢-١٥، ٤-٧، ٥-١٩

وثيقُ القرابةِ بالجنسِ البشري كلِّه، لا قرابة دمٍ أو بذرة ـ بل مجتمع عقلي. ونسيتَ أيضاً أن عقلَ كلٍّ إنسانٍ إلهٌ ودفقةٌ من الألوهيــة. وأنْ لا شيءَ ملكٌ لنـا، بل حتى طفلُنا وجسدُنا وروحُنا نفسُه إنما جاءَ من ذلك المصدر. وأنَّ كلَّ شيءٍ هو كما أرادَه التفكيرُ أن يكون، وأن كلاً منا لا يعيشُ إلا اللحظةَ الحاضرة، ولا يفقدُ إلا إياها(1).

١٢-٢٧ استحضِرْ في ذاكرتِك دائماً أولئك الذين كانوا يُفْرِطون في الغضب والشكاة، أولئك الذين بلغوا ذُرَى المجد أو النكبة أو العداوة أو أيِّ صنفٍ آخر من الحظ. ثم تَوَقَّفْ وفَكِّرْ: أين كل أولئك الآن؟ دخان ورماد، حكاية رُوِيَت بل حكاية نُسِيَت. واستحضر أيضاً في ذهنِك طائفةً بأسرِها من الأمثلة: فابيوس كاتولينوس في داره الريفية، لوسيوس لوبوس في بساتينه بالمدينة، ستيرتينيوس في بايي، تيبيريوس في كابري، فيليوس روفوس - وبصفة عامة كل سعي محموم تصحبُه الخيلاء. تأمل كم هو عبثٌ كلُّ هذا الجهدِ المضنِي، وكم هو أجدرُ بالحكيم أن يستخدمَ ما يَعرِض له لكي يجعلَ نفسَه عادلاً، معتدلاً، مطيعاً للآلهة، وأن يفعلَ هذا ببساطةٍ تامة: فالزهوُ بالخلوِّ من الزهو هو أثقلُ ضروبِ الزهو وأصعبُها على الاحتمال.

(1) إذا كان الكتاب الثاني عشر هو خلاصة "التأملات"، فإن هذه الفقرة (١٢-٢٦) هي خلاصة الكتاب الثاني عشر.

١٢-٢٨ إلى من يسألون: أين رأيتَ الآلهة، أو كيف عرفتَ أنهم موجودون فعبدتهم؟ أجيب: أولاً هم قد يُرَون حتى بالعين، ثانياً: إنني لم أرَ روحي أيضاً ومع ذلك أُوَقِّرها. كذلك شأني مع الآلهة: فمن معاينتي الدائمةِ لآثارِهم المرةَ تلوَ الأخرى أتيقنُ من وجودِهم، وأُوَقِّرُهم.

١٢-٢٩ الخلاصُ في الحياة يكمنُ في أن تَرَى كلَّ شيءٍ في ذاته وفي جملتِه، مدرِكاً مادتَه وصورتَه، وفي أن تكرسَ كلَّ نفسِك لفعلِ الصوابِ وقولِ الحق. فماذا يبقى غير متعتك بأن تحيا سلسلةً متصلةً من الأفعال الصالحة لا تفصلُ بينها أدنَى فجوة.

١٢-٣٠ ثمةَ ضوءٌ واحدٌ للشمس وإن تَشتَّتَ على الجدران والجبال وما لا يُحصَى من الأشياء. ثمة مادةٌ عامةٌ واحدة وإنْ تكسَّرَتْ إلى ما لا يُحصَى من الأجسامِ لكلٍّ منها صورتُه وخصائصُه. ثمة روحٌ حيوانيةٌ واحدة وإن توزعَتْ بين ما لا يحصى من الأنواع والأفراد، وروحٌ عاقلةٌ واحدة وإن بَدَتْ مُقَسَّمة.

والآن، في الأشياء المذكورة فإن جميعَ الأجزاءِ الأخرى ـ كتلك التي هي حياةٌ محضةٌ أو مادةٌ لا تُحِس ـ ليس بينها أخوةٌ: ورغم ذلك فحتى هنا ثمة صلةٌ تتكونُ بنوعٍ من التضامِّ وانجذابِ الشبيهِ إلى الشبيه. أما العقلُ فلديه هذه

الخاصةُ الفريدة: وهي أنه يميلُ إلى ما هو من عشيرته ويتحدُ معه، بحيث لا تنقطعُ مشاعرُ الألفةِ ولا تنفصم(1).

١٢-٣١ ماذا تريدُ بَعدُ؟ أن تبقَى على قيدِ الحياة؟ حسن، تريد أن يكونَ لديك حِسٌّ؟ حركة؟ نمو؟ ثم تتوقف مرة ثانية عن النمو؟ أن تستخدمَ صوتَك؟ عقلَك؟ ماذا في كلٍّ هذه الأشياءِ يستحقُّ أن تصبوَ إليه وأن تندمَ على فقده؟ إذا كان كلٌّ من هذه الأشياءِ جديراً بالازدراءِ فامضِ إذن إلى الغايةِ النهائية، وهي أن تتبعَ العقلَ وتتبعَ الرب. فإنه لا يَتَّسِقُ مع تمجيدِك للعقلِ والربِّ أن تبتئسَ لأن الموتَ سوف يحرمُك من هذه الأشياءِ الأخرى(2).

١٢-٣٢ ما أصغرَ نصيبَ كلٍّ منا من الزمن ـ حصته الضئيلة من الهوة الزمانية اللانهائية؛ لسرعانَ ما تبتلعُها الأبدية. وما أضألَ حصتَه من مادةِ "الكل" وروحِ "الكل". ما أضألها في جملةِ الأرض تلك البقعةَ التي تزحفُ عليها. تأملْ في كل هذا ولا تُكبِرْ شيئاً سوى الكدحِ إلى حيث تقودُك طبيعتُك، والتسليم بما تأتي به طبيعةُ العالم(3).

---

(1) في قدرة العقل (الفردي والكوني) على النفاذ (كالهواء وضوء الشمس) انظر ٨-٥٤، ٨-٥٧؛ وقارن ٩-٨، ٩-٩

(2) قارن بفقرة ١٠-٢٩

(3) انظر ٣-١٠

١٢-٣٣ كـيف يوظِّفُ عقلُك نفسَـه؟ هذا هو السؤال. وكلُّ مـا عداه، سـواء كان باختـيـارك أو لا، فمـجردُ رمـادٍ ميت ودخان.

١٢-٣٤ أوضحُ نداءٍ يدعونا إلى ازدراءِ المـوت هو أنه حتى أولئك الذين يعـتبـرون اللذةَ خـيراً والألـم شراً كـانوا رغم ذلك يزدرونه[1].

١٢-٣٥ بالنسـبة إلى هذا الرجلِ الـذي يَعُدُّ مـا يأتي في إبانه هو الخير الوحيد، والذي يستـوي لديه أن تكثرَ أو تقلَّ فرصتُه لأن يعبرَ عن العقل السليم في أفعاله، والذي لا يجد فارقا بين أن يتأملَ العـالمَ لفترةٍ أطولَ أو أقـصر ـ بالنسبـة لهذا الرجل. . حتى الموتُ ليس بالشيء المخيف[2].

١٢-٣٦ أيها الإنسانُ الفاني، لقـد عِشتَ كمواطنٍ في هذه المدينة العظيمـة. ماذا يُهِمُّ إذا كانت هذه الحـياةُ خمسـةَ أعوام أو خمسين؟ على الجميع تَسري قـوانينُ المدينة، فماذا يخيفُك في انصـرافِك من المدينة؟ إنَّ مَن يَـصرِفُكَ ليـس قاضـيـا مستـبداً أو فاسداً، إنهـا الطبيعةُ ذاتهـا التي أتتْ بك. إنها

(1) عن أبيقور انظر ٩-٤١، يقول أبيقور في إحدى رسائله "وطِّنْ نفسَكَ على ا... الموت أمر لا يعنينا؛ فكل خير وكل شر إنما يكمن في الإحساس، بينما الم... هو غياب الإحساس".

(2) انظر أيضاً ٣-٧

أشبهُ بمديرِ الفرقةِ الذي أشركَ ممثلاً كوميدياً في الروايةِ وهو يَصرِفُه من المسرح.

- "ولكني لم أمثِّلْ مشاهدي الخمسةَ، مثلتُ ثلاثةً فقط".

- حقاً، ولكنْ في الحياةِ قد تكونُ ثلاثةُ مشاهدَ هي الرواية كلها.

استئنافُ الحياةِ إنما يحددُه الكائنُ الذي ركّبَكَ أولَ مرةٍ والذي هو الآن يفنيك. وما لكَ من دورٍ في أيٍّ من العلتين. اذهبْ بسلامٍ إذن: فالإله الذي يَصرِفُكَ هو في سلامٍ معك.



التأملات

ماركوس أوريليوس

دراسة وتعليق

"تأملات ماركوس أوريليوس هي أَعَز قراءاتي
جميعاً إلى نفسي"

«الرئيس بل كلينتون»

1

ماركوس أوريليوس والرواقية

حياة ماركوس أوريليوس

ولد ماركوس أوريليوس أنطونينوس، واسمه الحقيقي ماركوس أنيوس فيروس، في السادس والعشرين من إبريل عام ١٢١ م، في عهد الإمبراطور هادريانوس، لأسرةٍ نبيلة قيل إنها تنحدر من "نوما" Numa الملك الثاني لروما ويُعَد أكثرَ الملوك الأوائل تقوَى وأشدهم ورعاً. شغل والدُ ماركوس، أنيوس فيروس، منصبَ البرايتور أي الحاكم القضائي، وشغل جده، واسمه أيضاً أنيوس فيروس، منصب القنصل ثلاث مرات. وقد توفي الوالد وماركوس بعدُ طفلٌ صغير فكفله جده.

وقد أُعجِب الإمبراطور هادريانوس (حكم من ١١٧-١٣٨م) بشخصية ماركوس وتوسَّمَ فيه نبوغاً وتقوى ورأى فيه مَخايِل. وكان يحب أن يدعوه "Verissimus" (الأصدق) بدلا

من "Verus"(الصـادق). وقد تزوج أنطونينوس بيـوس من عمـة ماركـوس، أنيا جاليـريا فاوستـينا، وتبنى ماركـوس فصار اسـمه ماركوس أوريليـوس أنطونينوس نسبة إلى أبيـه بالتبني أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (واسمه الحقيقي أوريليوس أنطونينوس، ولقب "بيوس" يعني "التقِي") الذي تسنم العرش بعد هادريانوس عام ١٣٨ ومـاركوس إذاك في السابعـة عشرة من عمـره. وزوَّجَه ابنتـه فاوسـتـينا Faustina عـام ١٤٥ . وحين توفي أنطونينوس بيوس عام ١٦١ ارتقى ماركوس عرش الامبراطورية. وحين اعتلى العرش أشـرك معـه، ضد رغبـة مجلس الشـيوخ، أخاه بالـتبني لوكـيـوس فيـروس Lucius Verus الذي تبناه أيضـاً أنطونينوس بيـوس، كـابنه الأصـغـر، مع ماركـوس. ومن ثم فـقـد صـار للامبراطورية حاكمان على العرش في وقت واحد.

لم يكد ماركوس يرتقي العرش حتى تقاطرت عليه المتاعب من كل صوب: في الشرق يتمرد البارثيون[1] ويدمرون فيلقاً رومانياً كاملاً ويهاجمون سوريا؛ فيبعث لهم ماركوس بأخيه فيروس على رأس جيش ليقمع هذه الثورة. وينجح فيروس، الذي انغمس في الشراب والفسق، في مهمته بفضل قادة جيشه.

وما تكاد تضع حروب الشرق أوزارها حتى تتحالف قبائل جرمانية قوية شمال الدانوب، الماركوماني والقادي والصرامطة والقاتي، لتهاجم الحدود الشمالية للامبراطورية وتهدد إيطاليا وبانونيا واليونان، فيزحف إليها ماركوس وفيروس على رأس فرق رومانية لتأمين جبهة الدانوب.

وفي روما ذاتها كان الطاعون، الذي انتقل من الشرق مع جيش فيروس، يفتك بالناس. وأتلفت فيضانات التيبر كميات هائلة من الحبوب وتسببت في مجاعة شديدة اضطرت ماركوس إلى بيع المجوهرات الملكية ليواجه المجاعة ويدبر الاحتياجات المُلِحة. وفي عام ١٦٩ مات فيروس فجأة، وانفرد ماركوس بإدارة الامبراطورية، وظل في رِباطٍ بقيةَ عمره، وتمكن من تحقيق الاستقرار في الامبراطورية ومن قهر أعدائه بفضل حنكته العسكرية وحكمته في اختيار قادة جيوشه.

---

(1) شعب قديم كان يعيش في جنوب شرقي بحر قزوين، وهو من الشعوب الإيرانية.

وفي عام ١٧٥ فُجِع ماركوس بخيانة أفيديوس كاسيوس Avidius Cassius قائد جيوشه في آسيا، والذي حاز مجداً في الحروب البارثية، إذ أعلن نفسه امبراطوراً على الرومان ظناً منه أن ماركوس، المعتل الصحة في ذلك الوقت، قد مات. وقبل أن يصل ماركوس إلى آسيا لمواجهة هذا الأمر قُتِل كاسيوس على يد بعض ضباطه. وحين وصل ماركوس إلى آسيا قُدِّمَ إليه رأس كاسيوس فأسف لمقتله ورفض مقابلة قاتليه لأنهم حرموه من غبطة تحويل عدو إلى صديق، وأبدى رأفةً مذهلة بأسرة كاسيوس وأنصاره، ولاتزال رسالته إلى مجلس الشيوخ، يناشدهم فيها الرفق بالجناة، باقيةً حتى اليوم تشهد بنبالة هذا الرجل وسعة صدره وصفاء سريرته.

خلال هذه الرحلة إلى الشرق تُوُفيت زوجته فاوستينا فجزع لموتها جزعاً شديداً، وظل وفياً لذكراها حتى آخر يوم من حياته. وما لبث أن استأنف حروبه على الجبهة الشمالية مكللةً بالنصر. غير أنه أصيب في معسكره بعدوى قاتلة، قيل إنها الطاعون، وقضى نحبه في السابع عشر من مارس عام ١٨٠ وهو يوصي جنوده بألا يبكوه بل يقاوموا الوباء الذي يفتك بالناس. فكان يومُ وفاته، على حد قول إرنست رينان، "يوماً مشئوماً على الفلسفة وعلى المدنية". وخلَفه ابنه كومودوس، الوحيد من أبنائه الباقي على قيد الحياة آنذاك، وحكم روما اثنتي عشرة سنة، فكان امبراطوراً ضعيفاً فاشلاً، وأفسد كثيراً من حملات أبيه وعقد سلام

متسرع غير حصيف؛ وكان مستبداً عنيفاً على غير طائل؛ حتى لَيقالُ إن العيب الوحيد الذي ينال من مكانة ماركوس أوريليوس هو أنه أنجب مثل هذا الغلام التافه الدموي.

على أن أخطاء ماركوس لا تقتصر على إنجابه كومودوس؛ فقد كان إشراكه فيروس، أخاه بالتبني، في الحكم خطأ كبيراً تغمده عفوُ الأقدار بصلابة ضباطه وبوفاته المبكرة. غير أن هذه السابقة التي استنَّها ماركوس أعقبت وبالاً على الامبراطورية في عصر دقلديانوس وشقت الامبراطورية إلى نصفين. ومن أخطاء ماركوس مركزيته الزائدة في الإدارة المدنية؛ وكذلك اضطهاده للمسيحيين، أو، بالأدق، تراخيه عن حمايتهم من الاضطهاد[1].

---

(1) يقول رسل في "حكمة الغرب": "ونظراً إلى أن الدولة كانت مهددة بأخطار خارجية وداخلية، فقد اتخذ من الإجراءات ما يساعد على حفظ النظام، فاضطهد المسيحيين، لا بدافع الشر، بل لأن رفضهم لعقيدة الدولة كان مصدراً للشقاق. ولعله كان في ذلك على حق، وإن كان الاضطهاد في الوقت ذاته هو دائماً علامة على ضعف من يمارسه. فالمجتمع الواثق من نفسه، المستقر بثبات، لا يحتاج إلى اضطهاد الخارجين عنه" (حكمة الغرب: الجزء الأول، ص ٢١٧). ويقول جون ستيوارت مِل في كتابه "عن الحرية": "هذا الرجل، المسيحي في كل شيء عدا العقيدة، اضطهد المسيحية!! لقد كان يعلم أن المجتمع القائم في زمنه كان في حالة يُرثَى لها، غير أنه رأى أن ما يُمْسك هذا المجتمع ويحفظه من أن يصير إلى الأسوأ هو الإيمان بالآلهة القائمة وتوقيرها، ورأى أن مهمته كحاكمٍ للامبراطوية الشاسعة ألا يدع مجتمعه يتفتت ويتفسخ، ولم يتصور إمكان إقامة روابط جديدة تمسك المجتمع إذا ما أزيلت الروابط القائمة. ولما كانت المسيحية تستهدف صراحة حل هذه الروابط، وكان عقله في الوقت =

أما مزايا حكمه فأكثر من أن تحـصى: فقد كان قائداً عسكرياً قديراً، على تواضع بِنيتـه، وإدارياً حصيفاً ذا ضـمير حي. وعلى الرغم من ممارسته للفلسـفة وشغفه بها فـإنه لم ينزلق إلى محاولة إعادة تشكيل العالم وفقاً لأي مخطط نظري أو تصور مسبق، وهو منزلَق من السـهـل أن يقع فـيـه أي فـيلسـوف يتـسنى له، مـثل ماركوس، حُكمُ العالم؛ بل اكتفى بالسير على الطريق الذي مهده أسلافه، لا يطمح إلا في أن يؤدي واجبه جهد ما يستطيع، ويقاوم الفـساد مـا أمكنه. يقـول مـاركـوس: "لا تؤَمِّل في جـمهـورية أفلاطون الطوباوية، بل اقنَع بأصغر خطوة إلى الأمام، ولا تستهِن بهذا الإنجـاز. ما أتفه أولئك البـؤساء الذين ينخـرطون في الأمور السيـاسية ويظـنون أن أعمالهم لهـا صفة فلسـفيـة. إنهم جميـعاً يَهْرِفون. ومَن ذا يستطيع أن يغـير آراءهم؟ وبدون تغير الرأي ماذا يكون هناك غـير العـبودية _أناس يئنون وهم يتظاهرون بالطـاعة؟ امض إذن، وحـدثني الآن عن الإسكـندر وفـيليب وديميـتـريوس الفاليري؛ فقد كنتُ خليقاً أن أتبـعهم لو أنهم رأوا ما تريده طبيعة

= نفسه يستغرب حكاية الإله المصلوب ولا يسيـغها، فقد خلص أرقُّ الفلاسفة جميعاً، مـدفوعاً بالواجب المقدس، إلى إصدار قرار باضطهاد المسـيحية. أيظن مَن يناوئ حرية الفكر اليوم أنه أكثر حكمـةً وفضيلةً من ماركوس أوريليوس، أو أكثر منه دأباً في البحـث عن الحقيقة والتزاماً بهـا إذا وجدها؟! فما لم يدَّعِ ذلك فليكُفَّ عن ادعاء العصمة لنفسه ولجموعه وتكرار ما وقع فيه ماركوس أوريليوس العظيم وأدى إلى أوخم العواقب." (انظـر في ذلك فصل "فقه الديمقـراطية"، في كتابنا "صوت الأعماق" ص ٦٧ وما بعدها).

العالم وتتلمذوا عليها. أما إذا كانوا ببساطة يمثلون أدوار أبطال الدراما، فأنا بحِلٍّ من أن أقلدهم. بسيطةٌ هي ومتواضعة مهمةُ الفلسفة؛ فلا تمِل بي إلى الخيلاء والغرور" (التأملات: ٩-٢٩).

انصرف ماركوس في إدارته إلى إرساء العدالة وحماية الولايات من الظلم وإعانة المدن المنكوبة، وإيجاد قوانين داخلية لحماية الضعفاء والتخفيف عن العبيد، ورعاية الأطفال الضعفاء والأيتام وتعليمهم، جاعلاً من نفسه أباً لمن فقد أباه وراعياً لمن فقد الرعاية.

يتفق جيبون مع أغلب كتاب القرن الثامن عشر في اعتبار فترة حكم الأنطونيين كعصر ذهبي. والأنطونيون هم الأباطرة الذين حكموا روما في القرن الثاني الميلادي: تريانوس وهادريانوس وأنطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس (وكومودوس الذي نستثنيه من هذا الإطراء). يقول جيبون: "إذا سُئِلَ إنسان أن يحدد الحقبة من تاريخ العالم التي بلغت فيها حالة البشرية غاية في السعادة والازدهار، لذكر بلا تردد تلك الفترة التي امتدت من وفاة دوميتيانوس إلى تولي كومودوس". ذلك أن كلاً من هؤلاء الأنطونيين كان يخلف سلفَه لا من طريق الوراثة بل من طريق التبني القائم على اختيار الأفضل وتعَهُّده وتدريبه.

غير أن برتراند رسل يرى في ذلك رأياً آخر، ويقول إن من الصعب القبول برأي جيبون على علاته؛ فلقد كانت حقبة

الأنطونيين مثقلة، كغيرها من الحقب، بالشرور والآثام. فالرق يستنزف عافية العالم القديم، وعروض المبارزة ومصارعة الوحوش تنبئ بتحجر قلب من يستمتع بمثل هذه المشاهد، والنظام الاقتصادي سيئ للغاية: الزراعة منحسرة في إيطاليا وأهل روما يعتمدون على محاصيل الأقاليم، والفقر يطحن مزارعي الأقاليم وبروليتاريا المدن، والمركزية الإدارية خانقة مفرطة، والظلم ضارب أطنابه، وعوامل الضعف والهشاشة لا تخفى على النظر الثاقب الذي يتجاوز الظاهر الوردي إلى الباطن المتآكل. "وعندما نقارن بين نبرة ماركوس أوريليوس ونبرة بيكون أو لوك أو كوندرسيه نرى الفرق بين عصرٍ مجهَد وعصر مبشِّر. من الممكن للناس في العصر المبشر احتمال الشرور الراهنة لأنهم يرونها إلى زوال؛ أما في العصر المجهَد فحتى الخيرات الحقيقية تفقد مذاقها. لقد كانت الأخلاق الرواقية ملائمة لزمن إبكتيتوس وماركوس أوريليوس لأن شرِعتها كانت شرعة التجلد لا شرعة الأمل"[1]. وما كانت مظاهر البؤس والذبول لِتَخْفَى على عيني ماركوس الثاقبتين، وإنها لتاركةٌ في نبرته حزناً وأسى وانقباضاً يشيع في ثنايا "التأملات"، ويبرر قول القائل إن ماركوس أويليوس يمثل الرواقية وقد صبغها أفول روما بلونٍ قاتم.

لم تكن الديانة الرومانية الوثنية في ذلك العصر لتغني النفوس الكبيرة كثير غَناء؛ فأكثر أساطيرها طفولية ممتنعة، وأكثر تعاليمها

(1) History of Western Philosophy: p. 268-269.

لا يمت إلى الأخلاق بصلة وثيقة. فقد كانت الديانةُ الرومانية، في حقيقة الأمر وصَميمِه، أقربَ إلى "الصفقة" بين الإنسان والآلهة: يبذل الناس للآلهة تضحيات معينة ويؤدون طقوساً شكلية، لكي تسدد لهم الآلهة ثمن ذلك حظوةً وأنعماً، سواء أحسنوا أم أساءوا، وبغض النظر عن نواياهم واستحقاقهم. فلم يكن أمام النفوس الورعة سوى الفلسفة تلوذ بها وتلتمس لديها السكينة الروحية والرضا العقلي. وكانت الفلسفتان السائدتان في ذلك الوقت هما الأبيقورية والرواقية.

الأبيقورية

ولد أبيقور Epicurus عام ٢٤١ ق.م لأبوين أثينيين، وفي سن الثامنة عشرة انتقل من ساموس إلى أثينا، ثم رحل إلى آسيا الصغرى حيث جذبته فلسفة ديمقريطس. وفي عام ٣٠٧ ق.م وصل إلى أثينا مع جماعة من أتباعه وأسس "الحديقة" the Garden إلى الجنوب من أكاديمية أفلاطون. عاش أبيقور وأتباعه في "الحديقة" حياة جمعية بعيدة عن صخب الحياة المدنية ونزاعاتها. وقد وصل إلينا المذهب الأبيقوري في أوضح صورة في قصيدة الشاعر الروماني لوكريتيوس Lucretius (حوالي ٩٩-٥٥ ق.م.) المسماة "في طبيعة الأشياء" . De Rerum Natura وفي الوقت الذي كتب فيه لوكريتيوس قصيدته كان المذهب الأبيقوري قد انتشر خلال العالم المتوسطي كله، وحظي باحترام صفوة

المجتمع الروماني لاتجاهاته التحررية ومحاربته للخرافة، وإن كانت الرواقية قد أخذت تحل محله بالتدريج.

ينقسم المذهب الأبيقوري إلى ثلاثة أقسام: نظرية المعرفة، والطبيعيات، والأخلاق. أما نظرية المعرفة فتقوم على الإدراك الحسي. فالحواس هي مَنفَذنا الوحيد إلى العالم، والإحساسات هي معيار الحق. فالنفس عند أبيقور لا تعدو أن تكون نوعاً من المادة تختلط جزئياته بالذرات المكوِّنة للجسم. ويفسر الإحساس بأنه تصادم انبعاثات من الأشياء المدرَكة مع ذرات النفس. وقد تخدعنا بعض الانبعاثات فتُبدِي لنا الشيءَ على غير ما هو عليه، مثل انثناء العصا في الماء. لذا يفرق الأبيقوريون بين الإحساسات sensations والأحكام judgements ويذهبون إلى أن الإحساسات بحد ذاتها لا تخطئ وإنما يأتي الخطأ من الأحكام. ومن ثم فهناك أحوال لا نملك فيها البت في أمر الأحكام المتضاربة حين تكون مدعمة بنفس الدرجة بأدلة حسية ومتوافقة معها.

والنظرية الطبيعية الوحيدة التي توافق إحساساتنا وتؤيِّد بها هي النظرية الذرية atomism ولذلك اقتفى الأبيقوريون أثر ديمقريطس وذهبوا إلى أن العالم مكون من عدد لانهائي من الذرات تتحرك في الخلاء. صحيح أنهم لم يوافقوا ديمقريطس في قوله بعشوائية حركة الذرات إلا أنهم أدخلوا مفهوم "الانحراف" swerve ليفسروا اصطدام الذرات واجتماعها وافتراقها، وهو يؤثر في حركة الذرات في مواضع زمنية ومكانية تتعذر على التحديد. ومن ثم

فهم لا يتركون في نظريتهم مكاناً للغائية الأرسطية والأفلاطونية، بل كل شيء عندهم قابل للتفسير في حدود اجتماع الذرات وافتراقها على نحو عرَضي لا غاية فيه، ويتركون في الوقت نفسه مسحةً من حرية الإرادة في عالم آلي محدد فيما عدا ذلك تحديداً تاماً(1).

والأبيقورية في صميمها نظرية أخلاقية. والهدف من دراسة الطبيعة عند الأبيقوريين هو أن تسهم بعد كل شيء في سعادة الإنسان وهنائه. غير أنهم، على عكس أرسطو، يماهون بين السعادة واللذة. فاللذة حالة إنسانية طبيعية، وهي لا تعدو أن تكون غياب الألم. والألم هو، ببساطة، إعاقة الحالة الطبيعية. ومن ثم فأن يلتمس المرء اللذة هو أن يلتمس العيش وفقاً للطبيعة. والفضائل الأخلاقية ضرورية من أجل العيش وفقاً للطبيعة ولكنها ليست مكوِّنات لهذا العيش؛ إنها وسائلُ لغاية؛ والغاية هي اللذة. الخير إذن هو اللذة. والأبيقورية هي نظرية "هيدونية" hedonistic غير أنها تختلف عن اللذة الصاخبة التي أشيعت عن الأبيقورية بغير حق: فأغلب اللذات الجسدية يعقبها الألم (لذة الخمر مثلاً يعقبها الخُمار)، أما لذات العقل فلنا عليها سيطرة أكبر. والحق أن أبيقور وجماعته كانوا يحيون حياة متقشفة، على

(1) Dion Scott-Kakures, Susan Castagnetto, et al.; Harpercollins College Outline: History of Philosophy; HarperPerennial; 1993, pp. 63-65.

عكس ما يظنه عنهم أغلب الناس! والقلق النفسي هو أشد أنواع الألم؛ لذا فإن الخلو من القلق هو أعظم اللذات. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الطبيعة، إذ تساعدنا في نيل أعظم اللذات الخالصة: فالنظرية الذرية في الطبيعة تفيدنا في التخلص من أقسى ضروب القلق وهو الخوف من الموت. فحين يحل الموت تفقد ذرات النفس تماسكها مع الجسم وتتبعثر، وتظل باقية بوصفها ذرات ولكنها لا تعود قادرة على الإحساس، ومن ثم فإن الخوف من الموت يتنافى مع العقل لأن الموت ليس شيئاً يمكننا أن نجربه(1). فلا النفس ولا الإحساس ولا الوعي يدوم بعد الموت لأن الموت، ببساطة، هو تشتت الذرات التي نتكون منها(2).

وصفوة القول في الأخلاق الأبيقورية أن على المرء أن يسلك سبيل القصد والاعتدال لكي يبلغ حالة من التوازن الذي لا يعكر صفوه شيء. هذا التوازن هو أرفع اللذات جميعاً، ومن ثم فهو الخير الأسمى عند الأبيقوريين الحقيقيين.

الرواقية

قامت الرواقية، شأنها شأن أكثر المذاهب الفلسفية التي أعقبت أرسطو، استجابة لحاجة عملية لا لترفٍ نظري، ولكي تعين

---

(1) يقول العقاد في معنى قريب:

خَفِّفِ العَيْشَ فإنَّ المَوْ ت لا يفجعُ مَوْلُودا
وإنَّ المَوْتَ إذْ يأتيـ ـكَ لا يُلْفيكَ مَوْجُودا

(2) Ibid., pp. 65-66.

الإنسـان في الشدائد والمحن، وتعلـمه كـيف يصمـد في الخطوب ويثـبت في الأزمات العنيـفة الـتي اعتـورت المجتـمع في العصـر الهلينستي.

ومن يوغل في الفلسفـة الرواقية فسوف يتنسم عـبيراً لا يمت إلى أثينا بقدر ما يُذَكِّره بنفحـات الشرق وحكمائه وأنبيائه. وليس بِدعاً أن يصفها البعض بأنـها أشبه بـ "بوذية أوروبية"، أو "يوجا غـربية". ذلك أن أغلب مـؤسسـيهـا الأوائل كـانـــوا شرقـيين سوريين(1).

أما شـيخ الرواقيين الأوائل فـهو زينون Zeno الفينيقي الذي ولد في كتيوم Kition بقبرص في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميـلاد. وقد جـاء إلى أثينا في شأن تجاري لأسـرته فجـذبته الفلسـفة، فأقـام في أثينا وجعل يـتنقل من مدرسـة فلسفـية إلى أخرى، استـزادة من العلم، حوالي عشرين سـنة، وحضر دروس كسيـنوكرانيس الأكاديمي واستلبـون الميجاري وتتلمذ بخـاصة على أقراطيس (كـرايتس) الكلبي. ثم أنشأ مـدرسة خاصـة به، واتخذ "الرواق المزخـرف" Stoa Poikile مكاناً لإلقـاء دروسـه. وهو إيوان عند مدخل الأجـورا في أثينا، ذو أعمدة مـزدانة بنقوش من ريشة المصـور بوليجنوط، كـان من قبل منتـدى للأدباء والفنانين، ومنه جاء اسم "الرواقية" Stoicism. كان زينون انتقائياً يأخذ من كل مذهب ما يروقـه، غير أن آراء المدرسة الكلبيـة كانت الأقرب

(1) والأواخر رومانيين غربيين.

إلى مزاجه، وعنهـا أخذ ازدراء التقاليد والأوضـاع القائمة والآراء السـائدة والمال والجاه والموت نفسـه، واتباع الفطرة والعـودة إلى الطبيـعة؛ فالسـعادة هي في أن يستكفـي المرء بنفسه ويسـتقل عن غيره؛ إنها شيء داخلي أمره بيدنا ومَرَده إلينا وحدنا ولا يملك أحد أن يسلبنا إياه. وأخذ عن الكلبـيين أيضاً نزعتهم الاسـمية nomi-nalism و"مـواطـنة العـالم" cosmopolitanism. وعن هيراقليطس أخـذ فكرة العقل الكلي المتجسـد في اللوجوس الذي يشمل عـقل العالم وعقل الكائنات الإنسـانية، وفكرة نهر التغـير والصـيـرورة، وفكرة "الاحـتـراق الـكوني" /ekpyrosis conflagratio والتجدد الدوري و"العَود الأبدي"(1).

لم يبق لنا من أعمال زينون إلا مقتطفات ضئيلة، نعرف منها أنه يعرِّف الإله بأنه العقل الناري للعالم، وأنه جوهر مادي، وأنه يتخلل العالم كمـا يتخلل الماء في الرمل أو كما يتخلل الشـهد في الخلايا. وكان زينون، وفـقاً لديوخينيس اللائيـرتي، يرى أن القانون الكلي، أي العـقل الذي يتخلل كل شـيء، هو نفسـه زيوس الحكم الأعلى للعالم. فالإله، والعقـل، والقدر، وزيوس، شيء واحد. القدر هو القوة التي تحرك المادة؛ و"العناية" و"الطبيـعة" أسماء أخرى للشيء نفسـه. ويبدو أن زينون كـان يؤمن بالتنجـيم والعِرافة، ويـعزو إلى النجوم قـوةً تنبُّـية. أما المذهب الرواقي في الفـضيلة فـلا يظهر في المقتطفات المتبقية من زينون وإن بدا أنه كان يعتقده ويذهب إليه.

(1) أخذ فكرة العَود الأبدي أيضاً عن الفيثاغوريين.

أما كليانثيس Cleanthes، خليفة زينون في الرواق (ولد عام ٣٣١ق.م)، فلم يبق من مصنفاته إلا مقتطفات صغيرة أهمها قصيدته الرائعة "أنشودة إلى زيوس" التي لم يبق منها إلا أربعون بيتاً، والتي تشيع فيها نبرة مسيحية ندهش لصدورها عن فيلسوف وشاعر وثني. وفيها خلاصة للطبيعيات والأخلاقيات الرواقية. ونظم كليانثيس أيضاً دعاءًا صغيراً في الإذعان للقدر، بقيت منه أبيات ذكرها إبكتيتوس الرواقي في دروسه (الموجز-53) وترجمها سينيكا بتصرف إلى اللاتينية. يقول الدعاء:

قُدني يا زيوس، وأنت أيها القدر

إلى حيثما رسمتما لي الطريق

فأنا متبعُكما دون تردد؛ وحتى لو أخذني الارتياب

فتثاقلتُ وتَمَلَّصْتُ، فلن أكون مع ذلك أقل متابعةً لكما.

أما خريسبوس Chrysippus (٢٨٠-٢٠٧ ق.م.)، الذي خلَفَ كليانتس على الرواق، فكان أغزر الرواقيين إنتاجاً وأقدرهم على الجدل. ولد في مدينة صول بقبرص، وتولى إدارة الرواق فكان مجتهداً دءوباً دقيقاً في مواعيد دروسه. وكان واسع الاطلاع دائب التأليف فكتب في المنطق والطبيعيات والأخلاقيات، ويقال إنه كتب نَيِّفاً وسبعمائة كتاب، لم يبق منها إلا شذور قصيرة. يعد خريسبوس أول من قدم عرضاً منهجياً مترابطاً للرواقية، وبفضله أصبحت الرواقية فلسفة مكتملة الأركان واضحة المعالم، حتى قيل

بحق إنه "لولا خريسبوس لما كان الرواق". وهو المؤسس الحقيقي للمنطق الرواقي والسيكولوجيا الرواقية. ويقول شيشرون إن خريسبوس هو صاحب النظرية التي يفرق فيها بين العلل الأولى والعلل الثانية، ليوفق بين نظرية القضاء والقدر وبين فكرة المسئولية والحرية الأخلاقية[1]. ويقال إنه ذهب إلى أن الإله لا دخل له في إحداث الشر، وإن كنا لا نعرف كيف أمكنه أن يوفق بين ذلك وبين مذهب الحتمية. وفي موضع آخر يتعامل خريسبوس مع مشكلة الشر على طريقة هيراقليطس قائلاً إن الأضداد يتضمن أحدها الآخر، وإن الخير بدون الشر مستحيل منطقياً؛ فوجود الخير يتطلب بالضرورة وجود الشر. ومما يؤثر عن خريسبوس قوله إن الإنسان الصالح سعيد دائماً والشرير غير سعيد، وتشدده في مسألة "الأشياء الأسواء أو غير الفارقة" indifferentia التي ليست خيراً ولا شراً، كالحياة والموت واللذة والألم والصحة والمرض والغنى والفقر. إلخ، وكذلك فكرته عن الجامعة العقلية الروحية التي تقول بأن الفيلسوف لا وطن له أو أن وطنه هو العالم كله، وتأكيده على أهمية دراسة المنطق باعتبارها ركناً أساسياً للرواقية، وعدم تسامحه في ذلك شأن غيره من الرواقيين الذين جعلوا للأخلاق الصدارة المطلقة على المنطق.

---

(1) يقول خروسبوس إن القضاء المحتوم إنما ينصب على العلل الثانية؛ أما ميولنا، وهي العلل الأولى، فهي في مقدورنا ونحن أحرار في توجيهها. (الفلسفة الرواقية، ص ٧٢)

الرواقية الوسطى: يمثلها بنايتيوس وبوسيدونيوس. ولد بنايتيوس في رودس حوالي عام ١٩٨ ق.م، وتأثر بفكر أفلاطون وأرسطو، فعمد إلى تعديل بعض الأفكار الرواقية والتخفيف من صرامتها. واتسمت كتابته بالطلاوة والفصاحة. تأثر به شيشرون الذي يُعَد أهم مَن عَرَّف الرومانَ بأصول الرواقية. أما وبوسيدونيوس فهو مؤرخ وفيلسوف سوري الأصل. عاش من سنة ١٥٣ حتى سنة ٥١ ق.م؛ تتلمذ على بنايتيوس الذي توفي حوالي عام ١١٠ ق.م، واشتهر بسعة معارفه: فكان مؤرخاً كبيراً واصل أعمال المؤرخ بوليبيوس، وعالماً طبيعياً وفلكياً بارزاً[1] وفيلسوفاً لاهوتياً، قام بأسفار كثيرة، بعضها للدراسة المحضة، وصادق الكثيرين من عظماء الرومان، وتتلمذ عليه شيشرون وتأثر به أكثر مما تأثر بنايتيوس. حاول التوفيق بين الرواقية والأفلاطونية. وله إسهامات في الجغرافيا ونظريات في الرياضيات. وصل

(1) أقر بوزيدونيوس بإمكان نظرية اريسنارخوس الساموسي القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس التي تظل ثابتة، وأن الأرض تدور حول محورها مع سيرها في مدارها. غير أنه عارض هذه النظرية لأسباب دينية، وكان وراء اطراحها على مدى ألف وخمسمائة عام. وقد سبق للفيلسوف كليانثيس الرواقي من قبله أن عارض هذه النظرية بشدة إلى حد المطالبة بإدانة اريستارخوس بتهمة الضلال. ذلك لأن إزاحة الأرض عن مركز العالم لا بد أن تؤدي إلى هدم المعايير الأخلاقية، ومن شأن مثل هذه النظرية أن تؤدي إلى القضاء على النظرية الأخلاقية التي قالت بها الرواقية، ونظرية العناية التي تقول بأن كل شيء في الكون قد رُتِّبَ ونُظِّم لكي يؤدي إلى سعادة الآلهة وسعادة الإنسان.

وبوسيدونيـوس إلى أدق تقدير، في العالم القديم، لبـعد الشمس عن الأرض، وقدَّر أنه بالإبـحار غرباً من قـادش يمكن بلوغ الهند بعد ٠٠٠, ٧٠ ستـاديون (مقياس طول يوناني قـديم)، وقد أخذ كولمبس فيما بعد بهذه الملاحظة وكانت وراء ثقته فيما أزمع عمله.

مذاهب الرواقية القديمة

الفلسفة عند الرواقيين طريقة حـياة قبل أن تكون ترفاً ذهنياً أو ثراء معرفيـاً. إنها ضرب من العمل أو الممارسة يكفـل للمرء حياة منسـجمـة سعـيدة؛ أو هي في عـبارة واحـدة "فن الحيـاة" ars vivendi بتعبير شيشـرون. فالعلوم الجزئية لا تقدم لنا إلا معارف جزئية تفيدنا في معرفة ما ينبغي علينا أن نصنعه بشيء بعينه أو في مواضع بـعينها، ولكـنها لا تدلنا على الموقف الذي ينبـغي لنا أن نتخذه تجاه الحياة في عمومهـا أو تجاه الأشياء في كلِّيَّتها؛ فذاك أمر يحتـاج إلى علم آخر فوق العلوم الجزئيـة، هو "الحكمة" التي لا يبلغـها المرء إلا بممـارسة شاقـة دءوب للفلسفـة. والفلسفـة عند الرواقيين هي "علم الأمـور الإلهية والأمـور البشرية" كمـا يقول شيـشرون. وحيث إنـهم ذهبوا إلى أن العقل عنـصر مشـترك بين الكائنات الإلهية والبشرية فـإن الفلسفة عندهم هي علم الموجودات العاقلة، أو علم الأشياء كلها: الأشياء الطبيعية عندهم مندمجة في الأشياء الإلهية. والفلسفة عند الرواقيين هي الشعور بكمون العقل في الطبيعة، ومن ثم فإن واجب الفـيلسوف هو نبذ كل ما يخالف

العقل سواء في طبيعة الكون أم في سلوك الإنسان، والتفطن إلى أن ما يبدو أحياناً مخالفاً للعقل إنما هو في حقيقة الأمر معقول ومقبول حين تُدْرِجه النظرة الفلسفية العميقة في سياقه الأوسع وتسلكه في إطاره الكلي العريض.

والفلسفة مبحث واحد متصل، وإن اضطر الرواقيون إلى تقسيمه، لدواعي الدرس والتعليم، إلى ثلاثة أقسام كبرى: المنطق (ويتضمن عندهم نظرية المعرفة وفلسفة اللغة)، والطبيعيات (وتتضمن عندهم الميتافيزيقا واللاهوت والنفس)، والأخلاقيات. تتراتب هذه الأقسام في الأهمية عند أغلب الرواقيين؛ فالأخلاقيات لها الصدارة لدى عموم الرواقيين[1]، وإذا كان بعضهم يقدم عليها علم الطبيعة فإنما يعني بذلك أن الأخلاقية الصحيحة تقوم على معرفة الطبيعة وتنتج عنها مباشرة. فمن المحال أن يكون للإنسان مذهب في الأخلاق دون أن يستند على أساس من الطبيعة والميتافيزيقا، إذ لا يستطيع أن يكون له قواعد للسلوك دون فكرة عامة عن الكون الذي يحيا فيه[2]. وقد شبهوا الفلسفة ببستان: المنطق سوره، والطبيعيات أشجاره، والأخلاق ثمره. وشبهها البعض بالمدينة المحصنة: المنطق حصونها، والطبيعة

(1) يبدو أن خريسبوس أولى الطبيعة والمنطق أهمية متساوية وأضفى على الدراسات النظرية قيمة منفصلة، وبفضل تأثيره ظهر من الرواقيين من أنجزوا إنجازات رياضية وعلمية كبيرة.

(2) الفلسفة الرواقية، ص ٩١

سكانها، والأخلاق دستورها. والبعض شبهها بالبيضة: المنطق قشرتها، والطبيعة بياضها، والأخلاق محها (صفارها). وجملة القول أن التراتب الذي وضعه الرواقيون للفلسفة، سواء في التعليم أو في التصنيف، هو الذي يصعد من الأدنى إلى الأرفع: فيبدأ بالمنطق، ويصعد إلى الطبيعة، وينتهي إلى الأخلاق _ذروة الفلسفة وثمرتها وغايتها.

المنطق الرواقي

أخذ الرواقيون بالمذهب الحسي في نظرية المعرفة: "لا شيء في الذهن ما لم يكن قبل ذلك في الحس"[1]. ويشبهون، مثل أرسطو من قبل، الذهن قبل ورود الإحساسات عليه بالصحائف البيضاء التي لم يُنقش عليها شيء. فالإدراك الحسي هو المصدر الأساسي للمعرفة، وخداع الحواس إنما هو في حقيقة الأمر "حكم" judgement زائف، وبالإمكان تلافيه بقليل من التحوط.

وإلى جانب الإدراك الحسي أخذ الرواقيون بما يعرف بـ "المعاني الأولية" أو "الأفكار الفطرية" أو "الأوليات". ذلك أن المنطق اليوناني الاستنباطي، وكذلك البحث العلمي بعامة، يثير مشكلة المقدمات الأولى. فالمقدمات الأولى ينبغي أن تكون عامة (على الأقل جزئياً)، وليس ثمة طريقة لإثباتها. ذهب الرواقيون

(1) Nihil est in intellectu quod non prius fuerit in sensu.

إلى أن ثمة مبادئ معينة واضحة بذاتها ويسلم بها البشر جميعاً، يمكن أن توضع، شأن الهندسة الإقليدية، كأساس للاستنباط. يمكن للأفكار الفطرية كذلك أن توضع كنقاط بدء للتعريفات. وقد ظلت هذه الوجهة من الرأي سائدة طوال العصور الوسطى، وأخذ بها بعض أصحاب المذهب العقلي من المحدثين، فهي تعد حجر الأساس، من الوجهة الميتافيزيقية، في المنهج الديكارتي(1).

تبدأ المعرفة عند الرواقيين بـ "الانطباع" أو "التصور" أو "التمثيل" representation (phantasia) وهو الأثر الذي يطبعه على الذهن شيء خارجي كما ينطبع الخاتم على الشمع. وهو بمثابة أول حكم على الأشياء يَعرِض للنفس فتمنحه "القبول" أو "التسليم" أو "التصديق" assent، وهذا "التصديق" قد يكون على حق وقد يكون على غير حق. فإذا كان على حق تكون النفس قد بلغت الفهم أو "الإحاطة" comprehension أي إدراك الأمور على نحو يطابق تصورها. وأول مراتب اليقين هو "التصور المحيط" أي الانطباع الواضح القاهر phantasia katalêptikê الذي له من القوة والبداهة ما يحملنا على التصديق به والإذعان له. ويذهب زينون إلى أن الإنسان حين يقع في الخطأ، فيصدق شيئاً باطلاً، فإثم ذلك عليه هو لا على الأشياء كما وردت عليه وتأدت إليه دون أن تفرض عليه اعتقاده، بل تركت له من الحرية والاختيار ما لم يحسن الاستفادة منه. ولقد سلم الرواقيون بأن

(1) History of Western Philosophy, p. 275.

أغلب الإدراكات الحسية لا يجبرنا، بل يترك لنا وجوه الاختيار في الاعتقاد، وأن الحكمة عبارة عن معرفة هذه الوجوه والتوقف عن الحكم والإمساك عن التصديق والاعتقاد[1]. يقول ماركوس في "التأملات": ". لا شيء من هذه الأشياء يُصدِر حكماً عن نفسه أو يفرض نفسَه علينا. فالأشياء ذاتها خاملة؛ وإنما نحن الذين نُنتِج الأحكام عنها ونطبعها في عقولنا. وإن بوسعنا ألا نطبعها على الإطلاق، وأن نمحو في الحال أي حكم تصادف انطباعُه"[2] (١١-١٦)

أراد الرواقيون أن يؤسسوا منطقاً لا تتعارض فيه المعرفة الحسية مع المعرفة العقلية، فبحثوا عن "الحقيقة" في الأمور الوجودية الواقعية التي يشهدها الناس في تجارب حياتهم، ومن هنا أخذوا بـ "المذهب الاسمي" nominalism ومؤداه أنه لا يوجد خارج الذهن إلا أفراد جزئيون وأشياء مفردة مشهودة محسوسة؛ أما "الأجناس" و"الأنواع" و"الصور" و"المُثُل" وغير ذلك من المعاني العامة أو "الكليات" فهي في الحقيقة مجرد "أسماء" ليس لها أي وجود خارج الذهن. إنها اختلاقات عقلية، لا وجود لها خارج الأشياء (كمثُل أفلاطون) ولا هي موجودة في الأشياء (كما هي عند أرسطو). إنها مجردات ذهنية قائمة في عالم الأذهان ولا يقابلها شيء في عالم الأعيان أو العالم الواقعي.

(1) الفلسفة الرواقية، ص ١١٠

(2) سيكون هذا المبدأ الإبستمولوجي هو أساس العلاج الرواقي كله كما سنرى في حينه.

من هنا يصدر حرص الرواقيين في منطقهم على ألا يستعملوا إلا قضايا شخصية، أي ألفاظاً تعبر عن وقائع وأحداث فردية. وهم بذلك يستبِقون منطق جون ستيوارت مِل، ويستبقون كذلك المنطق الجديد logistic، وبخاصة منطق رسِل، بحرصه الدائم على التعبير عن الوقائع واعترافه بالعلاقة الوثيقة بين نشاط الفكر والوجود الواقع.

وقد صاغ الرواقيون نظرية القياس الشرطي والانفصالي hy-pothetical and disjunctive syllogism وهم أول من أدخل مصطلح "الانفصال" في المنطق. واكتشفوا علاقة منطقية مهمة تسمى في المصطلح الحديث بالتضمن (أو اللزوم) المادي[1]. كذلك اخترع الرواقيون مصطلحات للنحو الذي أصبح لأول مرة على أيديهم ميداناً للبحث العلمي المنظم. فأسماء الحالات النحوية اختراع رواقي. وقد وصلت الترجمات اللاتينية لهذه الحالات إلى اللغات الأجنبية الحديثة عن طريق النحويين الرومان، ومازالت تستخدم حتى اليوم[2].

---

(1) هي العلاقة بين القضيتين في الحالة التي لا تكون فيها الأولى صادقة والثانية كاذبة. فلنتأمل القضية: "إذا هبط البارومتر نزل المطر" فهنا نجد العلاقة بين عبارة "هبط البارومتر" وعبارة "نزل المطر" علاقة لزوم مادي. (رسل، حكمة الغرب، الجزء الأول ص ٢١٤)

(2) رسِل، حكمة الغرب، الجزء الأول ص ٢١٤

الطبيعيات الرواقية

يستغرق علم الطبيعة في عرف الرواقيين عدداً كبيراً من المباحث تشمل الطبيعة وما بعد الطبيعة واللاهوت والنفس. ولدراسة الطبيعة عند الرواقيين غايةٌ أخلاقية بالدرجة الأساس: فالأخلاق لا تقوم في فراغ، ومن المحال أن يؤسس الإنسان قواعد للسلوك من غير أن يكون له علم بالعالم الذي يعيش فيه. والرابطة الوثيقة بين الميكروكوزم (الإنسان) والماكروكوزم (العالم) تحتم على عالِم الأخلاق أن يدرس الطبيعة والمنطق لكي يبلغ مقصدَه على النحو الصحيح. فإذا كانت الفضيلة هي الحياة في وفاق مع الطبيعة فمن المتعين على الإنسان أن يلم بهذه الطبيعة التي يتعين عليه أن يعيش في وفاق معها.

ثمة مبدآن أولان في الطبيعيات الرواقية: المبدأ المنفعِل وهو المادة (بوصفها ماهيةً غُفلاً من كل صفة)، والمبدأ الفاعل والإلهي وهو العقل الكامن في المادة ويُحدِث الأشياءَ جميعاً بإعطائها صورَها. وذهب الرواقيون فضلاً عن ذلك إلى أنه لا قدرة على الفعل ولا قابلية للانفعال إلا للأجسام، ومن ثم فالشيء لا يكون حقيقياً (واقعياً، موجوداً) ما لم يكن جسمانياً. وحتى المبدأ العاقل لا يخلو من أن يكون جسمانياً؛ إنه جسم لطيف يداخِل المادة وينساب فيها كما تنساب النطفة في أجسام الكائنات الحية. وقد أغرق الرواقيون في ماديتهم حتى قالوا بأن خواص الأجسام وصفاتها، كاللون والرائحة والطعم والشكل والصوت ـ كلها

أجسام، بل إن الصفات الأخلاقية نفسها، كالخيرات والفضائل هي أيضاً أجسام!! وإذا كان كل موجود جسماً فلا وجود للاجسميات. واللاجسميات هي المعاني العامة، والمعبَّر عنه (المعنى أو اللكتون) والخلاء والمكان والزمان. وهنا تتورط الطبيعيات الرواقية في ضروب من الغموض والتناقض[1].

وللرواقيين نظرية في الطبيعيات تسمى "المداخلة" total compenetration مُفادها باختصار شديد أن الأجسام تتمازج وتتداخل بعضها في بعض تداخلاً تاماً، بحيث يحتوي كل جزء، بمعنى ما، على جميع الأجزاء الأخرى، ويمكن لأصغر الأجسام أن يُداخل أكبرها جِرماً ويجوس خلاله: ورب قطرة من الخمر تملأ البحر كله بل العالم أجمع! غير أن الأجسام تظل محتفظة بخواصها كلها، فالمداخلة لا تترك علاقة واضحة asamos أو asemos فهى بمثابة الرشح الذي لا يكون فيه الجسم المتداخل في الآخر قابلاً لأن ينفصل ولا أن يستحيل جسماً آخر. وعلى هذا النحو ينتشر الجسم الفاعل خلال الجسم المنفعل، وينتشر العقل خلال المادة والنفس خلال البدن؛ فالأشياء لا يؤثر بعضها على بعض تأثيراً من بُعد؛ بل إن شئتَ فقل إن كلَّ جسم هو بوجهٍ ما كامنٌ في جميع الأجسام الأخرى، ماثل في العالم بأسره، والعالم كله حاضر في كل واحد[2]. يوجز ماركوس أوريليوس فكرة

(1) الفلسفة الرواقية، ص ١٤٩-١٥٤

(2) انظر تفصيل نظرية "المداخلة" في كتاب د. عثمان أمين "الفلسفة =

المداخلة في قوله: ". . إن جميع الأشياء، رغم انفصالها وتمايزها، يتخلل بعضها بعضاً ويستجيب بعضها لبعض" (التأملات - ٤-٢٧).

والطبيعة عند الرواقيين شيء واحد؛ وهي كائن حي مفكر عاقل، جسمه العالم ونفسه الإله المنبث في كل مكان (وحدة الوجود، بانتِيزم). إنه اللوجوس أو العقل الأزلي أو النار المبدعة التي تشكل المادة وفقاً لخطتها. وهذه الخطة يتم تنفيذها ويعاد مرة ومرات إلى غير نهاية (العَود الأبدي)، بدءاً من حالة النار الخلاقة التي تتولد منها العناصر الأخرى، إلى خلق العالم الذي نعرفه، ثم عودة إلى النار مرة ثانية (الاحتراق العام ekpyrosis/ conflagratio) وهو احتراق هادئ غير عنيف، وملائم للطبيعة وموافق لنظام الكون، ولذا يسميه زينون وخريسبوس "تطهير العالم" أي إعادته إلى كمال حاله. وتُشَبَّه هذه النار الخلاقة بالجرثومة التي تحتوي مبادئ الأشياء جميعاً وحكاياها التي سوف تجري لاحقاً. ولذا يسمى الإله أيضاً بـ "القدر"، على أن نضع بالاعتبار أنه يدبر أمر الكون ويسيِّره "من داخله" وليس "من خارجه" كشأن الخالق في محاورة أفلاطون "طيماوس". ومذهب "العود الأبدي" يعني أن العالم الذي ينشأ عن "الاحتراق العام"

= الرواقية"، ص ١٥٦-١٦١ ؛ ويكفي أن يضغط القارئ ضغطة واحدة على هاتفه الخلوي فيرد عليه صديقه من أقاصي الأرض، لكي يعلم أن فكرة "المداخلة"، بضرب 'اصفح عن تفصيلاتها الساذجة القديمة، ليست بعيدة كثيراً عن التصديق، وأننا نعايش هذه المداخلة كل حين دون أن نفطن لذلك!

مشابه لسابقه طبق الأصل، تعيش فيه نفس الشخوص ويشهد نفس الأحداث، ولا جديد تحت الشمس.

الإنسان: والإنسان مكون من نفس وبدن، والنفس متصلة بالبدن، وهي من ثم جسم، إذ لا يمكن أن يتصل جسم إلا بجسم. وهي مبدأ حياة الإنسان ومبدأ حركاته وأفكاره. وإذا مات الإنسان فارقت النفس البدن، ولكنها تبقى بعد فنائه حتى يحترق العالم. والنفس مكونة من ثمانية أجزاء، أهمها ما يسمى "العقل المدبِّر أو المهيمِن أو الموجِّه" Hêgemonikon وهو أهم أجزاء النفس جميعاً ومصدر أفكارنا ومشاعرنا ووعينا ووجداننا. وحين يولد الإنسان يكون عقلُه الموجِّهُ خِلواً كالصفحة البيضاء، ثم تملؤها الانطباعات الحسية التي ترد عليه، ويكون منها ذكريات يتألف من مجموعها تجارب الإنسان. وبعد ذلك ترتسم الأفكار: فبعضها وارد من التربية التي يحصل عليها الإنسان، وبعضها يعود إلى جهده الذاتي، وبعضها فطري سابق على كل تجربة. والعقل البشري هو مجموع هذه الأفكار[1].

القضاء والقدر: قلنا إن الرواقيين يأخذون بمذهب "وحدة الوجود" (البانتزم)، ومفاده أن الإله والكون شيء واحد، وأن اللوجوس (العقل) هو مصدر الأشياء جميعاً وجوهرها الماثل في كل مكان. واللوجوس هو قانون يربط الأشياء رباطاً لا انفصام له ولا فكاك منه. وهذا القانون هو "القضاء والقدر": أي تسلسل

(1) الفلسفة الرواقية، ص ١٦٦

العلل أو الأسباب تسلسلاً يجعل كل حادث معلولاً لعلة، وكل علة معلولاً لأخرى، وهكذا إلى غير نهاية، ووفقاً لقدرٍ مرسوم. والزمان في الحقيقة لا يأتي بجديد، ولا شيء يحدث إلا وكان متضمَّناً من قبل في أصل الأشياء. وكل شيء في العالم خاضع للضرورة أو القضاء والقدر. غير أنها ضرورة عاقلة. والعناية الإلهية قد دبرت العالم أحسن تدبير، وكل ما في الكون ينم على حكمة عالية لا تخبط فيها ولا مصادفة ولا عشوائية؛ فالقضاء المحتوم هو نفسه عناية وتدبير يتغيَّا الخيرَ، والعالم القائم هو خير العوالم الممكنة. ومن السخف القول، مع أبيقور، بأن العالم ناتج من التقاء الذرات بالمصادفة والاتفاق، فمثل هذا القول يعني أننا لو ألقينا عشوائياً عدداً هائلاً من الأحرف الأبجدية لأمكن لهذه الأحرف أن تقع مرتبةً بحيث يتألف منها تاريخ "إنيوس" على حد قول شيشرون.

وكل موجود فلوجوده غاية؛ ولا شيء يوجد عبثاً من غير قصد. والأدنى موجود من أجل الأعلى: فالنبات والحيوان موجودان من أجل الإنسان. فالإنسان غاية الأشياء ومدارها.

عن الطبيعة واللاهوت الرواقيين تنجم مشكلتان لا بد للرواقي من حلهما حتى يبرأ المذهب من التناقض ويسترد شيئاً من الاتساق: الأولى مشكلة القدر وحرية الإنسان، والثانية مشكلة الشر.

القدر وحرية الإرادة الإنسانية: ثمة توتر ظاهر بين الحتمية العلِّية والحرية الإنسانية، بين الضرورة الكونية والإرادة البشرية. وقد أخذ الرواقيون بكلا الضدين: فقد ذهبوا إلى أن الأشياء جميعاً تمضي بقانون محتوم وقدرٍ مرسوم وتسلسل سببي لا اعتباط فيه ولا مصادفة. وذهبوا في الوقت نفسه إلى أن للإنسان حرية إرادة، وبوسعه أن يفعل أو يحجم عن الفعل وفق إرادته واختياره. وقد سبق أن ألمعنا إلى محاولة كريسبوس حل هذا المشكلة بالتفرقة بين العلل الثانية أو الأصلية التي تعبر عن طبيعة الشيء الذي نحن بصدده، والعلل الأولى أو القريبة أو المساعدة التي تعبر عن الفعل الذي ينصب على الشيء من خارج. مثال ذلك أن الاسطوانة أو المخروط لا يمكنهما أن يتحركا إلا إذا جاءتهما الحركة من الخارج (علل أولى قريبة)، ولكن أسلوبهما الخاص في الحركة ودورانهما حول نفسيهما إنما يجيئانهما من طبيعتهما الخاصة (علل ثانية أصلية). كذلك الحال بالنسبة للإنسان؛ فإرادته الحرة هي العلة الأصلية الكبرى للفعل، وما "التصور المحيط" القاهر الذي يستولي على النفس إلا علة مساعدة لا أكثر. وإذا كانت الاسطوانة لا تملك اختيار التوقف عن الدوران فإن الإنسان قادر بنفسه على النزوع و "التصديق" assent أو الإعراض والرفض: وهو على كل حال يستطيع أن يقبل أو يرفض "الانطباع" أو "التصور" الذي يأتيه عن طريق الظروف الخارجية، كما يستطيع أن يتجه إلى الأشياء أو يَزْوَرَّ عنها إذا شاء. فالإنسان إذن حر وله كسب

واختيار. و"القدر" ليس هو العلة الأصلية في حصول ما يحصل، بل إن سلطانه لا يعدو الظروف الخارجية والعلل المساعدة للأفعال(1).

مشكلة الشر: جابهت مشكلة الشر الرواقيين جميعاً، من حيث وجود توتر ظاهر بين العناية الإلهية، التي أخذوا بها وأكدوها، وبين وجود الشر في العالم وجوداً واقعياً ملموساً لا سبيل إلى إغفاله. وقد اختلفت معالجاتهم لهذه المشكلة، فذهب البعض إلى أن الشر في العالم مترتب على هبة الحرية الإنسانية. وأخذ البعض بالحل الهيرقليطي، اجتماع الأضداد، ومفاده أن الخير ضد الشر، ولا يوجد الضد من غير ضده، فوجود الخير إذن يستدعي وجود الشر، والشر إنما يخدم الخير، ومن الخطأ أن نريد أحدهما دون الآخر. وذهب البعض إلى أنه لا شر هناك إذا نظرنا إلى الأمر نظرة كلية كونية؛ فلكل شيء في الكون مكانه ووظيفته وغايته وطبيعته، وما يسميه الناس شراً إنما هو شر من حيث الجزء لا من حيث الكل، بينما هو يتجه في الحقيقة إلى كمال المجموع. ووجود الشر في الجزئيات شرط لخير الكل.

الأخلاق الرواقية

الرواقية مذهب أخلاقي عملي؛ والفلسفة عند الرواقيين هي ممارسة الفضيلة، وما البحث النظري وأفرعه العديدة سوى روافد

(1) الفلسفة الرواقية، ص ١٧٠-١٧١

لهـذا المذهب الأخلاقي، أو وسـائل لهـذه الغاية العـملية. وقـد يختلف الرواقيون في جانب أو جـوانب من المنطق أو الطبيعيات، أما المذهب الأخلاقي فواحد لا خلاف عليه إلا فيما ندر.

وإذا كانت السـعادة هي مطمح البـشر جمـيعاً فـإن الرواقيين يسـاوون بين السعـادة وممارسـة الفـضيلة، ويعَـرِّفـون السعـادة، والفضيلة، بأنها الحـياة وفاقاً للطبيعة، أي وفـاقاً للعقل. ولما كان العقل عندهم منبـثاً في العالم ومـتغلغلاً في الوجود كله وشـاملاً لعقل الإنسان وعقل الكون، فإن ممارسة الفـضيلة تعني الحياة وفقاً للقانون الكلي الذي يحكم العالم، والحياة وفـقاً للعقل تعني الحياة وفقـاً للطبيعة الخـاصة والطبيـعة العامة في آن مـعاً. والحكيم هو "مواطن العالم"، يقبل طوعاً كل ما يغزله له قدرُه ومصيره، حتى ما يبدو للنظرة الضيقة مصاباً أو نكبة؛ لأن نكبته الفردية أو مصابه الجـزئي إنما هو شيء منسلك في النظام الكلـي والقضـاء الإلهي، وفيـه خير العـالم وصالحه حـين يُنظَر إليه النظرة الشامـلة الكلية؛ وكل ما هو خير للكل فهو خيـر لأجزائه في نهاية التحليل، مهما بدت الأمـور غير ذلـك لكل أناني يريد أن يعيش في خـلاف مع مجـموع الأشياء كـأنه الورم في جسم العالم أو كـأنه الغريب في المدينة الكبـرى، ويريد أن يتمـرد على قَدَرِه فـلا يسوقـه تمردُه إلا حيث أرادت الأقدار.

وإذا كانت السعـادة هي مطمح الناس جميعـاً، فإن من يعلق سعادتـه على الظروف الخارجية سـيعيش مرتهناً لتـقلبات الزمن،

تتقـاذفه الأحداث وتتناهشـه المخاوف والوساوس، فيكون فـريسة للشـرور الخارجـية كـالفـقر والمرض والإهانة والأذى، وللشـرور الداخليـة كـالجزع والفـزع والرعب والحـزن والشك والندم. أمـا الرواقية فـتَعِد مُريدَها بسـعادة دائمة وهناء مقـيم: ذلك أن سعادة الإنسان، في نظر الرواقية، لا تخضع للظروف الخارجية بل لإرادة الإنسان الداخلية وقراره الـشخصي. فالأشياء الخارجـية لا تقتحم علينا وجودنا البـاطن ولا تؤثر بذاتها في شـعورنا الداخلي، وإنما المؤثر الحقيـقي هو استعدادنا النفسي الذي يجـعلنا نقيم وزناً لهذه الظروف ونحكم عليـها أحكامـاً قيمـية، أي نصـفهـا بالحسن أو القـبح، بالخيـر أو بالشر. أمـر السعـادة إذن مَنوط بأحكامنا نحن وإرادتنا وقـرارنا. وبوسعنا دائـماً أن نتـوقف عن هذه الأحكام أو نمحوها من خـاطرنا محـواً وننعم في الحال بالهناء و"الطمـأنينة" ataraxia.

وحتى "الانفعالات" emotions النفسيـة، كالألم والخوف، التي تبدو ناجمة مباشرة عن المؤثرات الخارجية هي في حقيقة الأمر تصورات و"أحكام" judgements عقلـية، فبين المؤثـر الخارجي (والداخلي أحياناً) والاستجابة الانفـعالية هناك دائماً عنصر فكري أو "معرفي" cognitive يتوسط الأمر ويكون هو السـبب المباشر للانفعـال: إنه حكمنا، أو رأينا، أو تقييـمنا للمؤثر، وهو من ثم أمر في يدنا وتحت تـصرفنا وبوسعنا تعـديله أو تصويبـه إذا شئنا. يفرق الـرواقيون مـثلاً بين الألم الجـسمي، وهو شيء خـارج عن

إرادتنا، وبين موقفنا النفسي من الألم وهو شيء خاضع لإرادتنا وبمقدورنا أن نقرر بحرية أن نستسلم للألم أو لا نستسلم.

والحكيم الرواقي يتمتع بِمَنْعة نفسية كاملة، لا سلطان للأهواء والانفعالات والأوهام على قلبه. لا يجزع في المحن ولا ينخذل في الشدائد، لا يرهن نفسه للأمل ولا يصغي لكاذب الرجاء. يحيا في سعادة دائمة، بالمعنى الرواقي للسعادة، أي الحياة المتدفقة في غِبطة، المسترسلة في دعة وحُنُوٍّ واكتفاء ورضا، الموافقة للعقل. ومهما تألم جسدُه وتبرَّم يظل عقله بمعزِل، "محصناً من أي مجرى يجري في الجسد" (التأملات: ٥-٢٦)، عالياً فوق الغضب والكدر، وإن شئتَ فقل "إن الحكيم لا يحس شيئاً من هذه الأمور التي تضطرب بها نفوس الناس" (سنكا: ثبات الحكيم - ١٠-٣).

وصفوة القول إن الأشياء، أو الأحداث، بحد ذاتها لا تقحم نفسها على العقل بل تقف هناك، خاملة محايدة، لا هي خير ولا شر، ولا هي حسنة ولا قبيحة؛ بل هي جميعاً "سواء" أو "أسواء" أو "لافارقة" : indifferentia الفقر والغنى، الصحة والمرض، الحياة والموت، اللذة والألم، الشهرة والخمول.. إلخ ، ليست بذاتها خيراً ولا شراً؛ فالخير الوحيد هو السلوك العقلاني الفاضل، والشر الوحيد هو السلوك الشرير المنافي للعقل.

ذلك أن الخير عند الرواقيين هو الشيء النافع لصاحبه تحت كل الظروف. فهل ينطبق هذا التعريف على المال مثلاً؟ كلا؛ فلا

يندر أن يستخـدم المرء المال في معاقرة الإثم ويستخـدم صحته في الظلم والبطش. المال، إذن، والصحة، ليسا خيراً في ذاتهما؛ وإنما هما كمثل غيرهما من الأشـياء التي يتكالب عليها الناس: "أشياء لافارقة" indifferentia.

على أن الرواقيين يقرون بأن هناك أشياء تناسب طبيعة الكائن للوهلة الأولى prima facie، وله أن "يفضلها" على غيرها "في حالة تساوي بقية العوامل" ceteris paribus، وأطلقوا على هذه الأشياء "المفضَّلات" preferables؛ فإذا خُيِّرنا مـثلا بين الصحة والمرض، بافتـراض تساوي بقيـة الظروف، لاخترنا الصـحة؛ وإذا خيـرنا بين الغنى والفقر لاختـرنا الغنى؛ والفعل الذي يتغـيا هذه الأشياء المفضلة يقال له "فعل مناسب"[1]. غير أن البَون عريضٌ بين هذا "الفعل المناسب" وبين "الفعل المستقيم"[2] الذي هو حق على الإطلاق. والحكيم يقوم كـغيره بأفـعال "مناسبة"، غـير أنه على استعداد دائماً للعدول عنه لكي يؤدي "فعلاً مـستقيماً". فهو يطلب الصحة في العادة، ولكنه إذا أدرك أن مصيره المرض اتجه من تلقاء نفســه إلى المرض، وقد يفضل الحيـاة في العادة، ولكنه على استعداد دائماً لتقبل الموت مادام ذلك أمـراً موافقاً للطبيعة. وبصفة عامة فإن مـا تقضي به خطة العناية هو دائماً عقلاني قلـباً وقالباً، ومن ثم فإن كل مـا سيـجري به القضـاء ينبغي أن يتقـبله الحكيم باعتباره موافقاً لطبيعته، ومُنْصَبّاً في مصلحته.

(1) هو فعلي إذ "أنتقي" eklegomai "أشياء مناسبة" oikeioi

(2) هو فعلي إذ "أختار" hairoûmai مسلك الفضيلة.

مصـاعب منطقـية: ثمة مـصاعب منطقيـة في صلب المذهب الرواقي: فإذا كـانت الفضيلة هي وحدها الخـير لَلَزِمَ عن ذلك أن تكون العناية مهتمة بأن تُحدث الفـضيلة ولا شغل لها غير إحداث الفضـيلة، غيـر أن قوانين الطبـيعة قـد أنتجت مـا لا يُحصَى من الآثمين. وإذا كانت الفضـيلة هي الخير الوحيد لما كـان هناك مبرر لإدانة القسوة والظلم، حيث إن القسوة والظلم يقدمـان لضحيتهما أفضل فرصة لممارسـة الفضيلة. ومادام العالم مسيراً تمامـاً بالحتمية فإن قـوانين الطبـيعـة هي التي تحدد هل سـأكون صـالحاً أو غـير صالح. فإذا كنتُ شـريراً فلقد أرغمتني "الطبيـعة" على أن أكون شـريراً، ولقد انتـفت عنـي الحـريـة التي يفـتـرض أن تمنحهـا الفضيلةُ[1].

من الصعب على العقل الحديث أن يتحـمس لحياة صالحة إذا لم يكن ثمة شيء سوف تحققه الحياة الصالحة. فنحن نقدِّر الطبيب الذي يُعَرِّض حياتَـه للخطر في وباء طاعون، لأننا نرى المرضَ شراً ونأمل في التوقِّي منه. ولكن إذا لم يكن المرض شـراً فإن للطبيب أن يلزم بيتَه مستريحاً. وبالنسبـة للرواقي فإن فضيلته تعد غاية في ذاتها لا شيئاً يفعل الخير. وحين نمضي معه إلى آخر المدى فإن مآل الأمور جميعاً هو احتراق العالم وتكرار العملية بأسرها. فهل هناك ما هو أكثر عـبثيةً وامتناعاً؟ قد يحـدث تقدم هنا أو هناك حيناً من الوقت، ولكن النهاية الوحيدة هي التكرار (الـرجعة/العَوْد). فإذا

(1) History of Western Philosophy, pp. 262-263.

ما شهدنا شيئاً مؤلماً غير محتمل فإننا نأمل أن تنتهي مثل هذه الويلات بمرور الزمن. على أن الرواقيين يؤكدون لنا أن ما يحدث الآن سوف يحدث مراراً وتكراراً. وكأنا بالعناية التي تشهد الكل سوف يعروها الضجر واليأس في النهاية بكل تأكيد(1).

ثمة إلى جانب ذلك برودٌ معين في التصور الرواقي للفضيلة. لا تُدين الرواقيةُ الانفعالاتِ السيئةَ فحسب بل جميع الانفعالات. فالحكيم خِلوٌ من الانفعالات لا يشعر بالتعاطف: فإذا ماتت زوجته أو أبناؤه فإنه يقول لنفسه إن هذا المصاب ليس عقبة أمام فضيلتي، ومن ثم فإنه لا يعاني منه معاناةً عميقة. أما الحياة العامة فقد يكون من واجبك الانخراط فيها لأنها تمنحك فرصة لممارسة العدل والعزيمة. . إلخ. على ألا تكون مدفوعاً برغبة في نفع الجنس البشري، حيث إن المنافع التي يمكن أن تقدمها _كالسلام أو وفرة الطعام _ليست منافع حقيقية، ولا شيء يهمك على كل حال إلا فضيلتك ذاتها. فالرواقي ليس فاضلاً لكي يفعل الخير، ولكنه يفعل الخير لكي يكون فاضلاً؛ ولم يخطر له أن يحب جاره كنفسه، فالحب، إلا في معناه السطحي، غير موجود في مفهومه عن الفضيلة. "وحين أقول هذا إنما أعني الحب كعاطفة لا كمبدأ. فالحب الكوني مبدأ بشّرَت به الرواقية، وقال به سينيكا وخلفاؤه، ولعلهم قد أخذوه عن الرواقيين الأوائل. إن منطق المدرسة الرواقية قد أفضَى إلى مذاهب متصلبة - مذاهب خففتها وهذبتها إنسانية

(1) Ibid., p. 263.

أتباعـها، الذين كانوا أفـضل حالاً بكثيـر مما كان يمكن أن يكونوا عليه لو أنهم كانوا متسقين (مع مذهبهم)"[1].

* * *

الرواقية الرومانية

حين دخلت الرواقية روما اصطبغت بالصبغة العملية، فنبذت التعقيدات المنطقية وتخلصت من كثير من تفصيلات علم الطبيعة، وركزت جل اهتـمامهـا على الجانب الأخـلاقي من المذهب. كان سينيكا، على سبيل المثال، يزدري علـم المنطق ويتنكب الطبيعيات إذا عَرَضَت له في أحـاديثه (باستثناء كـتابه "المسائل الطبيـعية")، وكان إبكتيتـوس أيضاً يمر على الطبيعيات في أحـاديثه مَرَّ الكرام. أما ماركوس أوريليوس فـلا يَعْرِض لها أصلاً، وفي الكتاب الأول من "التأملات" نجده يحمد الإله أنه لم يضع وقته في تحليل المنطق ولم يشغل نفسه ببحث الطبيعيات (١-١٧).

"لقد كان المذهب الرواقي، في تصـوره للإنسان، أكرم من نظريات العـصر الكلاسيكي. فـإذا كان أرسطو قـد ذهب إلى حد الاعتراف بأن اليوناني ينبغي ألا يكون عـبداً لأي واحد من البشر، فإن الرواقـية ذهبت إلى أن الناس جـميعـاً، بمعنى ما متـساوون، وكانت في ذلك تسير على هدى الممـارسة التي اتبعها الاسكندر، وإن كان الرق قـد انتشـر خلال عـصور الامبـراطورية على نطاق

(1) Ibid., p. 263.

أوسع مما كان في أي عهد مضى. وفي ضوء هذا الاتجاه الفكري أدخلت الرواقية التمييز بين القانون الطبيعي وقانون الأمم. والمقصود بالحق الطبيعي هنا ما يكون من حق الإنسان بناء على طبيعته البشرية وحدها. ولقد كان لنظرية الحقوق الطبيعية بعض التأثيرات النافعة على التشريع الروماني، لأنها خففت من محنة أولئك الذين حرموا من أن يكون لهم مركز اجتماعي بالمعنى الكامل. وقد أعيد إحياء هذه النظرية، لأسباب مماثلة في الفترة التالية لعصر النهضة الأوروبية، وذلك خلال الصراع ضد فكرة حقوق الملوك الإلهية"[1].

والحق أن الرواقية قد بثت مبادئها السمحة في القانون الروماني فأصلحته وهذبته وصبغته بصبغة عقلية أخلاقية كونية حتى صار، في عمومه، قانون الأمم المتحضرة حتى يومنا هذا:

- الحياة وفقاً للطبيعة أو طبقاً للعقل honeste vivere (أي أن الأخلاق قد صارت أساساً للحق نفسه الذي سيصبح قانون الإنسان في الجماعة)
- عدم الإضرار بالغير alterum non laedere (وتشمل عدم المساس بحرية الغير وسمعته وحياته)
- إعطاء كل ذي حق حقه suum cuique tribuere (وتشمل احترام الملكية)

(1) حكمة الغرب، الجزء الأول، ص ٢١٨-٢١٩

تلك هي قواعد التشريع الروماني، التشريع الذي وضعه كبار المشرعين الرومان في القرن الثاني الميلادي، وكلهم رواقيون أو متأثرون بالرواقية. يقول إرنست رينان: "إن المبدأ الذي يذهب إلى أن على الدولة إزاء أفرادها واجبات كواجبات الآباء قِبَلَ الأبناء هو مبدأٌ أُعلِن لأول مرة على رؤوس الأشهاد في عهد الامبراطور والفيلسوف الرواقي ماركوس أوريليوس"(1).

سينيكا

ولد سينيكا Seneca بقرطبة حوالي العام الثالث قبل الميلاد، لأسرة إسبانية أرستقراطية مثقفة. وانتقل إلى روما وهو صبي يافع، ودرس الفلسفة، ثم اشتغل بالمحاماة والخطابة ونجح فيهما نجاحاً باهراً، ومارس العمل السياسي حتى صار مستشارًا للامبراطور نيرون والذي كان قد أشرف على ترتبيته منذ صباه. وفي عهد كلاوديوس نُفِيَ إلى كورسيكا بناء على طلب ميسالينا زوجة كلاوديوس، ويبدو أن سينيكا، وكان آنذاك عضو مجلس شيوخ، كان كثير الانتقاد لسلوك الامبراطورة المثير للشبهات. وبقي في منفاه ثمانية أعوام ثم عاد إلى روما بعد مقتل ميسالينا لكي يتولى تربية نيرون، وريث العرش الامبراطوري الذي أنجبه كلاوديوس من زوجته الثانية أجريبينا. وحين تولى نيرون وأمعن في الطغيان والبطش والدموية فشل سينيكا، مربيه ومستشاره، في

(1) الفلسفة الرواقية، ص ٢٢٤-٢٢٥

رده إلى الاعتدال والقصد، واتهمه نيرون بالتآمر ضده، وأوعز إليه أن ينتحـر، على الطريقة السائدة آنذاك، بقطع شرايينه. وقد أخذ سينيكا يلقي خطبةً من أبلغ خطبه على جمع من رفاقه والدم يسيل من جراحه. وقد مات مِيتةً رواقيـة متفقة مع فلسفته، على الرغم من أن حياته لـم تكن في عمومها مـتسمة بالطابع الـرواقي: فقد جمع ثروة طائلة اكـتسب معظمـها من إقراض البـريطانيين بأرباح ضخـمة؛ وكـان أرستقـراطي المزاج يحتـقـر الجماهـير ويؤْثِر أن يتحـدث إلى مسـتمع واحد، وكـثير من آرائه نـعرفهـا من خلال رسائله التي بعث بها إلى تلميذه "لوكـيليوس" ومن أعماله النثرية الأخرى إلى جانب مسرحياته[1].

في هذه الرسائل يدعو سينيكا تلمـيذه إلى الرواقية، وإلى أن يترك الترف الأبيقوري ويأخذ نفسه بشيء من التقشف الرواقي، وأن ينصرف عن الآراء الشـائعة بـين الدهماء، ويعـتـزل المجالس والمجـتـمعـات والمنتديات والشئون العـامة، ويخلو إلى نفسه ويظل رغم ذلك من أهل المدينة الكبرى، مدينة العالم، وهي أحق المدن بالحكيم.

لم يقدم سـينيكا ميتافـيزيقا واضحـة المعالم، ولم يكن يولي الطبيعيات أهمية إلا مـا كان منها ذا صلة بالأخلاق. وفي أخلاقه كان انـتقائـياً يوفق بين الآراء المخـتلفة، ويتـجنب التطرف في أي اتجاه، فالطبيعة تكره الإسراف: فلننصرف عن شئون الدنيا، ولكن في بساطة ومن غير ضجة ولا إعلان، فإن فضل المجاهد لا يقاس

(1) عن سينيكا ومـؤلفاته النثـرية والشعرية راجع أحـمد عتـمان، الأدب اللاتيني ودوره الحضاري، العصر الفضي "أيجيبتوس" ١٩٩٠، ص ١١٢-١٣٣ .

بتجهم الملامح وقذارة الأسمال. ولنحسن إلى الغير ولكن الإحسان في السر لا يَعْدِله أي ضرب من الإحسان الظاهر. ولنصبر على الحياة، ولكن لنختر الموت طوعاً إذا كان الموت هو آخر معقل للحرية وآخر ملاذ للكرامة؛ ولننصرف عن عبادة المال، ولكن إذا جاءنا المال فليس من الحكمة أن ننبذه، فهو ابتلاء علينا أن نحتمله، وإنه لمن الضعف أن يعجز المرء عن احتمال الثروة(1). ولنصبر على موت الأحباب، ولكن ليس من الممكن دائماً أن يمسك الأب دموعه عند فقد ولدٍ عزيز. ولنغبط عيش الأكواخ التي عاش فيها آباؤنا الأولون، ولكننا لا نستطيع أن نحمل سَرِياً من سَراة الناس على أن يعيش في برميل. ولنعتدل في الشراب ولكن "كاتو" كان يدعونا أن نُغرِق فيه أحزاننا من حين إلى حين.

وقد حظي سينيكا في العصور اللاحقة بما هو أهل له من التمجيد والتشريف. وصار اسمه مرتبطاً بمبادئه النبيلة وكتاباته الآسرة أكثر من ارتباطه بممارساته العملية التي لا تخلو من أُشابة. وقد زعم العديد من آباء الكنيسة أنه مسيحي، وقيل إنه كانت هناك مراسلات بينه وبين القديس بولس، ويُسَلِّم بذلك رجال من طبقة القديس جيروم(2).

(1) يقول ماركوس أوريليوس في ذلك: "بلا زهوٍ تَقَبَّل الرخاءَ إذا أتى، وكن على استعداد لفقدانه إذا ذهب" (التأملات: ٨-٣٣)

(2) History of Western Philosophy, p. 267.

وراجع أحمد عتمان في مقدمة مسرحية سينيكا "هرقل فوق جبل أويتا" سلسلة من المسرح العالمي الكويتية عدد رقم ١٣٨ (مارس ١٩٨١).

إبكتيتوس

يوناني ولد في هيرابوليس بآسيا الصغرى حوال عام ٥٠ (وقيل ٦٠) م. وأُرسِل إلى روما ليكون عبداً لرجل من خلصاء نيرون هو إبافروديتوس Epaphroditus، ومن هنا جاء اسم "إبكتيتوس" Ep-ictetus وتعني باليونانية "العبد". وقدْ تركت فيه فترة العبودية من حياته آثاراً سيئة: عرجاً دائماً واعتلالاً صحياً عاماً.

تعلم إبكتيتوس الفلسفة وسط العبودية والبؤس. وتعلم أن يتحرر أخلاقياً قبل أن يتحرر رسمياً، ومن أقواله: "لا تقل إني مشتغل بالفلسفة فهذا غطرسة وتوقح، بل قل إني مشتغل بتحرير نفسي". وبعد أن نال حريته قام بتدريس الفلسفة في روما حتى عام ٩١، عندما أمر الامبراطور "دوميتيانوس" بطرد الفلاسفة من إيطاليا لأنهم كانوا ينتقدون حكم الامبراطور الإرهابي ويشكلون قوة معنوية تقف في وجه العرش الامبراطوري. فهاجر إلى نيكوبوليس Nicopolis في الشمال الغربي لليونان، وفتح بها مدرسة فلسفية كان الشباب الروماني الأرستقراطي يفد إليها ليتعلم من العبد الذي سعى إليه المجد على كره منه، وعلا شأنه لدى رجال البلاط في روما.

لم يكتب إبكتيتوس بنفسه أي كتاب في الفلسفة، وإنما يعود الفضل إلى تلميذه "أريانوس"، وكان من قادة الجيش الروماني وحاكما على "كبادوكيا"، في حفظ أقوال إبكتيتوس، فكتب كتاباً أسماه "المذكرات" أو "محادثات إبكتيتوس" Discourses (Entretiens)

بقي لنا منه أربعة أبواب، ونشر كتاباً اسمه "الموجز" أو "المجمل" أو "الكتيب" Manual اختصر فيه فلسفة إبكتيتوس اختصاراً قوياً متقناً.

عرف إبكتيتوس كيف يلائم بين الرواقية القديمة وبين الطبع الروماني العملي وحاجات العصر الجديد. فآثر الصياغة القصيرة المحكمة للخواطر الأخلاقية، وأعرض عن الخوض في الطبيعيات، لأنها مما يصعب إدراكه، فضلاً عن أنها قليلة الغَناء، لأن غاية الفلسفة عنده ليست البحث في العلل الأولى بل إصلاح النفس وتزكية الروح.

من الطبيعي لإنسان ذاق الرق في مطلع حياته أن تكون الحرية هي مدار حديثه وملاك تفكيره. "فالاشتغال بالفلسفة هو الاشتغال بتحرير النفس"، و"نحن لا نملك إلا حريتنا"، والحرية هي "أغلى النعم التي نحوزها في هذه الحياة". والحرية هي أن يسلك الإنسان وفقاً لإرادته واختياره فلا يقهره أحد على غير ما يريد. إنها حرية النفس التي تعرف كيف تحكم نفسها وفق قانون تسنه لنفسها.

وإذا تأمل الإنسان نفسه "ليعرفها" وفقاً لمبدأ سقراط، فسوف يتبين له أنه مستعبد لأشياء كثيرة: فهو عبد لجسمه، عبد للمال، عبد للجاه والسلطان. فإذا ما أراد لنفسه الحرية الحقيقية فليلتمسها لا في الأشياء الخارجية، ولا في جسمه ولا في ماله وجاهه، فكل ذلك مجرد رق أخلاقي؛ بل إنه واجدها في نفسه وفي شيء مستقل كل الاستقلال: وهو "قدرته على الحكم والإرادة.. ولا شيء من الخارج يستطيع أن ينال حرية النفس بسوء" (المحادثات - ١:١٧-٢١) فحرية الإنسان تفلت من سلطان الناس وسلطان الأشياء. و"نحن لا نملك إلا حريتنا" (المحادثات - ١ : ٤-

٢٧). والإله الذي منحنا الحرية محال أن يسلبنا إياها، فالمنحة الإلهية لا تسترد كالمنح البشرية[1].

والفيصل في أمر الحرية هو أن يفرق الإنسان بين ما في قدرته وما ليس في قدرته. ثمة أشياء ليست في قدرتنا واختيارنا: أجسامنا وأموالنا ومناصبنا.. إلخ، وأشياء في قدرتنا وتحت تصرفنا ونستطيع أن نوجهها كما نشاء: أفكارنا وعواطفنا وإرادتنا وأفعالنا وأحكامنا. علينا أن نتخذ أحكاماً موافقة لطبيعة الأشياء، فنعرف أن حدوث الأشياء أمر ضروري فنذعن لها ونتقبلها كما أوجدها مصَرِّفُها جل وعلا، وألا يصيبنا منها أي كَدر أو ابتئاس. فليست الأشياء هي ما يكدرنا بل حكمنا على الأشياء وتقييمنا لها. أما الأشياء ذاتها فمتساوية القيمة indifferent أي ليست بذاتها خيراً ولا شراً، إنما الخير والشر في إرادتنا. فإرادتنا وحدها تستطيع بإقرارها أو رفضها أن تعطي الأشياء قيمَها. وإذا كان الحكيم الرواقي قد ألغى في نفسه كل انفعال فإنما يفعل ذلك لكي يُخلي المكان لفعل الإرادة.

"احتمل وتَزَهَّدْ".. ربما تكون هذه خلاصة فكر إبكتيتوس ولباب الأخلاق الرواقية. احتمل (ما أصابك، وما ليس في مقدورك تغييره، ما ليس في ذاته خيراً ولا شراً)، وتزهَّدْ (فيما لا تملكه، ما ليس في مقدورك بلوغه، ولا هو في ذاته خير ولا شر).

ويتحدث إبكتيتوس عن أواصر القربى بين الإله والناس! ويجعلها مبدأ لفكرة عظمة النفس وفكرة الإخاء بين بني الإنسان؛ ويفضلها، كوثاقٍ يربط الناسَ جميعاً، على فكرة اشتراك الناس في العقل.

---

(1) الفلسفة الرواقية، ص ٢٤٥-٢٤٧

2

رواقية ماركوس أوريليوس
قراءة فى «التأملات»

رواقية مُعَدَّلة

كانت رواقية ماركوس أوريليوس رواقيـةً معتدلة ومعَدَّلة. فقد اطَّرح ماركوس بعـضَ مبادئ الرواق، ولم يَغْلُ في بعضـها الآخر غُلُوَّ القـدامَى، وتجنب الخـوض في المنطق والطبـيـعيـات، ودوَّن خواطره الشخصيـة بأسلوب بسيط، في الأغلب الأعم، تجنب فيه ذكر المصطلحات الفنيـة والتخريجات المعقدة. بذلك قـدم للرواقية صيغـة سلسة سائغة قـريبة المأخذ، فكانت "آخر رسـالة بعث بها العالم القديم إلى الأجيال المقبلة".

من ذلك أنه رفض زعم الرواقـيين بإمكان المعـرفة اليـقينيـة، وأخذ برأي متقدِيهم القائل بأن الحكيم الذي يملك المـعرفة اليقينية لا وجود له: "لكأنما أُلقِيَ على الأشـياء حجابٌ كثـيف حتى لقد بَدَت لعددٍ غـير قليل من كـبار الفلاسـفة غـيرَ قابلة للـفهم على

الإطلاق. وحتى الرواقيون أنفسهم بـدت لهم الحقائقُ عصيةً على الفهم، وبدا لهم كلُّ تصديق عقلي لإدراكاتنا شيئاً عُرضة للخطأ. فليس هناك مَن هو معصوم.. " (٥-١٠)

ومن ذلك أنه رفض أن توضع الآثام جميعاً في مرتبة واحدة. فقد ذهب قدامى الرواقيين إلى أن الـفضيلة "كلٌّ" واحد بسيط لا يتجـزأ، تملكهـا كلها أو لا تملك منهـا شيـئاً، وكذلـك الأمر في الرذيلة؛ ورفضوا فكرة التدرج الأخلاقي، وجـاءوا في ذلك بتشبيه معجِب فقـالوا بأن الإنسان إما أن يكون فاضلاً وإمـا غير فاضل، ولا يعد فاضـلاً من لم يبلغ الفضيلة بتـمامها، كمـا أن الغريق لا يكون أقل غرقـاً على بعد شبر من سطح الماء منه إذا كـان في قاع البحر. يقـول ماركوس: "إن ارتكاب الخطيئة بدافع الرغـبة لأشَدُّ مِن ارتكابها بدافع الغضب. إذ يبدو أن مَن أثاره الغضب إنما يحيد

به عن العقل شيء من الألم والتشنج غيـر الإرادي؛ أما مَن دفعته الرغبة إلى الخطيئـة فاستسلم للذة فيبدو أكـثر تهتكاً في إثمه وأقل رجولة. إن الأول أشبه بشخصٍ أوذِيَ فاضطره الألم إلى الغضب، أما الثاني فإنه هو هو مصـدر نزوته ومنشأ اندفاعته إلى الإثم حين تحدوه الشهوة إلى ارتكاب ما ارتكب" (٢-١٠)

ومن ذلك أنك لا تجد في كـلامه نبرة الثقة الـزائدة والاعتداد بالرأي الذي تجـده في أقـوال قدامى الرواقـيين. يقـول ماركـوس مخـاطباً نفسَـه: "ليس لديكَ مُتَّـسَعٌ للدرس والتحـصيل، ولكنَّ لديكَ متـسعاً لأن تكُفَّ الغطرسـة، ولديك متسعـاً لأن تعلو فوق اللذة والألم، ولديك مـتـسـعـاً لأن تـرتفع فـوق حب الشـهـرة والصـيت، وألا تحنـق على البليـد والجـاحـد، بل، حـقـاً، أن ترعاهـما" (٨-٨) ، "احرص ألا تَتَـقَيْـصَر، وألا تصطبغ بـهذه الصبغة، فقد تقع في ذلك إذا لم تتوخَّ الحذر.. " (٦-٣٠)

ومن ذلك أنه، بخـلاف الرواقـيين القـدامى، أخـذ بفكرة أفلاطون عن الواجب الاجـتماعي والسـياسي، فلما كـان الإنسان كائناً اجتماعياً فإن من واجـبنا إن نقوم بدورنا في الشئون السياسية العامة. يقول ماركوس: "إنني أصحو من نومي لكي أؤدي عملي كإنسـان. أمازلتُ كارهاً أن أذهب لكي أؤدي مـا خُلِقتُ من أجله وما وجِدتُ في العالم لكي أؤديه؟.. " (٥-١)

لقد قُدِّر لماركوس أوريليوس أن يكون امبراطوراً فيلسوفاً[1]، فلم يجتنب لحظةً صحبة الفلسفة، ولم يفرِّط في واجبات الملك والقائد العسكري. واستطاع أن يخفف من هذا التوتر الظاهر بين مسئوليات الحاكم ومسئوليات الفيلسوف؛ وقنَعَ بأن الفضيلة يمكن أن تجد لها مَنفَذاً إلى القصور، وبأن ممارسة الفلسفة يمكن أن تلطف من جفاء الحاكم وتجعله أكثر قبولاً وأحسن موقعاً في القلوب "لتكن الفلسفة لك ملاذاً دائماً ومُستراحاً ومَوئلاً، حتى تجعل القصر يبدو محتملاً لك، وحتى تبدو أنت محتملاً في القصر" (٦-١٢).

والحق أن الوظيفة العسكرية لم تكن متفقة مع روح الفيلسوف لدى ماركوس أوريليوس، على الرغم من إتقانه لهذه الوظيفة. يَرْشح ذلك من حديثه بين الحين والآخر: "العنكبوت فخورة حين تصطاد ذبابة. والإنسان فخور بصيده _أرنب مسكين، سمكة صغيرة في شبكة، خنازير، دببة، أسرى من الصرامطة. والجميع من حيث الدافع لصوص" (١٠-١٠)

قلعة الذات

لعل أهم ما يؤثَر عن ماركوس وصفته العلاجية بالرجوع إلى الذات، والخلو إلى النفس من وقت لآخر التماساً للأمان والسكينة، باعتبارها الحصن الداخلي المنيع. إنه المنتجَع العقلي

(1) يلقب ماركوس أوريليوس عادة بـ "الفيلسوف على العرش".

حيث الاستجمام الحقيقي والتجدد الدائم. وهو الحصن الذي كان يلجأ إليه ماركوس أثناء حملاته الشمالية وراء الدانوب، والذي يهيب بنا ماركوس أن نبحث عن مثله داخل أنفسنا.

يقول سينيكا: "لُذْ بذاتكَ" secede in te ipsum، ويقول ماركوس: "إنهم يبحثون عن منتجعاتٍ لهم - في الريف، على البحر، على التلال. وأنتَ بصفةٍ خاصةٍ عُرضةٌ لهذه الرغبة المشبوبة. ولكن هذا من شِيَم الطَّغامِ؛ فمازالَ بإمكانك كلما شئتَ ملاذاً أن تطلبه في نفسك التي بين جنبيك. فليس في العالم موضعٌ أكثر هدوءاً ولا أبعد عن الاضطراب مما يجد المرءُ حين يخلو إلى نفسه، وبخاصة إذا كانت نفسُه ثرية بالخواطر التي إذا أَظَلَّتْه غَمَرَتْه بالسكينة التامة والفورية. ولستُ أعنى بالسكينة إلا الحياة التي يحكمها العقلُ ويُحسِن قِيادَها. فلتمنحْ نفسَكَ دائماً هذا الاستجمام، ولتجدِّدْ ذاتَك. ولتكن المبادئ العقلية التي سوف تعود إليها هناك وجيزة وأساسية وكافية لأن تذهب بكل ألمك في الحال وتعيدك إلى أمورك المستأنَفة خالياً من السخط عليها أو التبرم بها (٤-٣). "تَذَكَّرْ أن عقلك الموجِّه لا يُقهَر إذا ما اعتصم بنفسه مكتفياً بذاته غير فاعلٍ شيئاً لا يريد أن يفعله، حتى لو كان موقفه مجرد عناد؛ فما بالك إذا كان الحكم الذي يكونه مؤيَّداً بالعقل والرَّوِيَّة. لذا فإن العقل الخالي من الانفعالات هو قلعة: ليس ثمة ملاذ للناس أقوى منه، ومن يأوي إليه فهو في حصنٍ حصين. فما أجهله من لا يرى هذه القلعة، وما أتعسه من لا يلوذ بهذا الحصن" (٨-٤٨).

علّمهم أو احتملهم

أخذ مـاركوس بالفكرة السقـراطية القائلة بأن "الفـضيلة علم والرذيلة جهل"، وألا أحد يرتكب الشر عن قصد _أي عن علم. ينتج عن ذلك، منطقـيـاً، أن علينا تجاه مـرتكِب الخطأ أن نعلمـه ونُبَصِّرَه بجـهله. وإلا نعلِّمْه فلنتسامحْ معـه ولا نُحَمِّله فشلَنا نحن وتقـصيرَنـا في إرشاده إلى المسلك الصـحيح. ". . ليـست هناك نفس تريد عمداً أن تُحرَم من الحقيقة؛ والشيء نفسه ينسحب على العدالة، والاعـتدال، والإحـسان، وكل هذه الفضـائل. من المهم للغـاية أن تضع هذا دائماً باعـتبـارك، فبذلك سـوف تكون أرفقَ بالجميع" (٧-٦٣). "لقد ابتُلِيَ كلٌّ منهم بذلك من جراء جهله بما هو خير وما هو شر؛ أما أنا وقد بَصُـرتُ بطبيعة الخير وعرفتُ أنه جميل، وبطبيعة الشر وعرفـته قبيحاً، وأدركتُ أن مرتكِبَ الرذائل لا يختلف عني أدنى اخـتلاف في طبيعـته ذاتها _فنحن لا تجمعنا قرابة الـدم والعِرق فحـسب بل قرابة الانتـساب إلى نفس الـعقل ونفس القـبس الإلهي - أمـا أنا وقـد بصـرت بهـذه القـرابة فلن يسوءني أي واحد من هؤلاء ولن يعديني بإثمه. وليس لي أن أنقِم منه قرابتي أو أسخط عليـه. ." (٢-١). "سَلْ نفسَك ماذا يكون هذا الشيء الذي يَعـرِض لي الآن؟ وأي نوع من الفضـائل يلزمني لمواجهته: الرفق مثلاً أم الـشجاعة أم الصدق . إلخ؟ . . هذا جاء من أحـد إخوتي من بني الإنسـان، قـريبي وزميلي، وإن كـان لا يعرف ما يليق بطبيعته ذاتها. غير أني أعرف: ومن ثم أعامله برفق

وعدل، متبعاً في ذلك القانون الطبيعي للأخوة. . " (٣-١١).
"من المفيد عملياً أن تعي هذا كلما صادفته: وهو تلك الفضيلة التي وهبتنا إياها الطبيعة لكي نقابل بها كل فعلٍ خبيث. وهبتنا الرفقَ ليكون ترياقاً للقسوة، وخصالاً أخرى نواجه بها إساءات أخرى. وبصفة عامة، بوسعك دائماً أن تعيد تعليم مَن ضلّ طريقَه؛ وكل من يفعل الشر فقد أخطأ هدفَه الحقيقي وضَلّ طريقَه" (٩-٤٢). "من الطبيعة الإنسانية أن تحب حتى من يزِلون ويسقطون. يتبين ذلك إذا ما أخذتَ باعتبارك، حين يخطئون، أن البشر إخوة، وأنهم يخطئون عن جهلٍ وليس عن عمد، وأن الموت لا يلبث أن يطويك ويطويهم. والأهم، أن المخطئ لم يضرك، ولم يجعل عقلك الموجِّه في وضعٍ أسوأ مما كان عليه من قبل" (٧-٢٢). "إذا استطعتَ بَيِّنْ لهم الطريقَ الأقوم، وإذا لم تستطع فتَذَكَّرْ أنه لذلك السبب قد أُوتيتَ مَلَكَةَ السماحة" (٩-١١).

نهر التغير

أخذ ماركوس عن هيراقليطس فكرة التغير الدائم لكل شيء. فالوجود تغير وصيرورة، ولا شيء يثبت على حاله اللهم إلا التغير نفسه! يقول هيرقليطس "إنك لا يمكن أن تنزل النهرَ نفسَه مرتين، لأن مياهاً جديدة تتدفق[1] عليكَ بلا انقطاع"، ويقول ماركوس إن "التغير هو أسلوب الطبيعة في عملها" (٨-٦).

(1) كان سقراط يسمي أتباع هيرقليطس باسم "المتدفقين"!

"تنشغل طبيعة العالم بهذا العمل: أن تحول الواقع إلى آخر، أن تغير الأشياء، أن تأخذها من هنا وتضعها هناك. كل الأشياء تَغَيُّر" (٨-٦). فالتغير ليس "صفة" للأشياء بل "أسلوب وجود". "الزمن أشبه بنهر من الأحداث الجارية وتيار عنيف. فما يكاد شيء يظهر للعين حتى ينجرف بعيداً (إلى الماضي) ويحل غيره محله، فما يلبث أن ينجرف بدوره" (٤-٤٣). "تأملْ دائماً كل ما يأتي به التغير، ورُضْ نفسَك على فكرة أن طبيعة "الكل" لا تُولَع بشيء قدر ولوعها بتغيير كل شكل من الوجود إلى شكل آخر، شبيه ولكن جديد.." (٤-٣٦). "فنظام الأشياء تحفظه التغيرات التي تعتور العناصر مثلما تحفظه التغيرات التي تعتور الأشياء المكونة من هذه العناصر" (٢-٣). "هل يخشى أحد من التغير؟ حسن، فأي شيء يمكن أن يحدث من دون تغير؟ أو أي شيء أعز على طبيعة "الكل" وأقرب إليها من التغير؟ هل بوسعك أنت نفسك أن تغتسل إذا لم ينل التغيرُ خشبَ الموقد؟ هل بوسعك أن تأكل دون أن يتغير ما تأكله؟ هل يمكن أن يتحقق أي شيء نافع في الحياة بدون تغير؟ ألستَ ترى، إذن، أن التغير بالنسبة لك هو الشيء نفسه، وأنه ضروري بنفس الدرجة لطبيعة الكل؟" (٧-١٨). والتغير يحفظ نظام الأشياء ويُبقِي العالمَ صبياً على الدوام: "..وطبيعة العالم، التي من خلال التغيير الدائم لأجزائها المكوِّنة تُبقِي العالمَ كلَّه صبياً وعفِياً" (١٢-٢٣). "بعض الأشياء تحث الخطو إلى الوجود، وبعضها يحث الخطو للخروج

منه، وبعضـها يولد هالكاً من الأصل. التـغير يجـدد العالم على الدوام، كما يجدد المسيرُ الدائبُ للزمن أمد العصور إلى الأبد. في هذا التيار المتدفق، حيث لا ثبـات لقدم، ماذا يمكن للمرء أن يُجِل من كل ما يتدافع أمـامه؟ لكأنه ما يكاد يولع بعصفور يطـير أمامه حتى يكون قد اختفى عن بصره.. " (٦-١٥).

أهمية دراسة الطبيعيات

لم يكن ماركوس أوريليوس شغوفاً بـالمنطق والطبيعيات، غير أنه أوصى بدراستهما بالنظر إلى الصلة الوثيقة بين الإنسان والكون (بين الميكروكوزم والماكـروكوزم). "من لا يعرف مـا هو العالم لا يعرف أين هو. ومن لا يعرف لأي غاية وُجِد العالم لا يعرف مَن هو ولا ما هو العالم. ومَن يجهل أي شيء من هذه لا يمكنه حتى أن يقـول لماذا وُجِد هو ذاتُه. مـا رأيك إذن في ذلك الرجل الذي يتجنب أو يطلب المديح من أناس لا يعرفون أين هم ومَن هم؟!" (٨-٥٢). "ضع نصب عينيك دائمـاً هذه الأشياء: ما هي طبـيعة "الكل"؟ ما هي طبيعتي الخاصة؟ ما علاقة هذه الطبيعة بتلك؟ أي صنف من الجـزء لأي صنف من الكل؟ وأن ليس بإمكان أحـد أن يحول بينك وبين أن تقـول ما تقول وتعـمل ما تعمل وفـقاً لتلك الطبـيعـة التي أنت جزء منهـا" (٢-٩). "لا شيء يؤدي بك إلى سمـو العقل مثل قـدرتك على أن تعرض كل عنصـر من عناصر خبرتك في الحياة على الفـحص المنهجي والصادق، وقدرتك على

أن تنظر إلى الأشياء دائماً بحيث يمكنك في الوقت نفسه أن تتأمل أي صنف من العوالم هذا وأي دور يسهم به هذا الشيء أو ذاك في هذا العالم، وأي قيمة يتحلى بها كل شيء بالنسبة إلى "الكل" وبالنسبة إلى الإنسان الذي هو مواطن هذه المدينة العليا التي تُعَد سائرُ المدن مجردَ عائلات فيها" (٣-١١).

الكوزموس

ذهب ماركوس إلى أن العالم كله ليس إلا كائناً واحداً حياً مترابط الأعضاء متواشج الأجزاء. وأن ما يحدث في الجزء يؤثر في الكل والعكس بالعكس، وأن الله والطبيعة شيء واحد (وحدة الوجود/ البانتِزم). "انظرْ دائماً إلى العالم على أنه كائنٌ حي واحد، يتكون من مادة واحدة وروح واحدة. انظرْ كيف يذوب الكل في هذا الوعي الواحد، كيف تخضع كل أفعاله لنزوعٍ واحد، كيف تتعاون الأشياء جميعاً في كل ما يحدث، انظر أيضاً الغَزْل الدائم لخيط الشبكة ونسيجها" (٤-٤٠). "ثمة ضوء واحد للشمس وإن تشتَّت على الجدران والجبال وما لا يُحصَى من الأشياء. ثمة مادة عامة واحدة وإن تكسَّرَت إلى ما لا يحصى من الأجسام لكل منها صورته وخصائصه. ثمة روح حيوانية واحدة وإن توزَّعَت بين ما لا يحصى من الأنواع والأفراد، وروح عاقلة واحدة وإن بدت مقسَّمة" (١٢-٣٠). "جميع الأشياء متواشجة متشابكة، يربطها معاً رباطٌ مقدس. لا شيء غريب عن الأشياء الأخرى؛ فجميعها قد رُتِّبَت معاً لكي تتعاون على تحقيق "النظام"

الواحـد للعالم. ذلـك أن "العالم" المؤلَّف من جـمـيع الأشيـاء واحـد، والإله المنبث فـي كل الأشـيـاء واحـد، والمادة واحـدة، والقـانون واحد، والعـقل الشائع فـي جمـيع الموجودات العـاقلة واحد، والحقيقة واحدة، لأن الحقـيقة هي كمال الموجودات العاقلة المشـاركة في عـقل واحـد" (٧-٩). "تأملْ مَليـاً ترابطَ الأشيـاء جميعاً في العالم وقرابتها. جميع الأشياء، بطريقة ما، متواشجة، ولديها من ثم مشـاعر ود بعضها تجـاه بعض: فالشيء يتلو الشيءَ في نظام منضـبط، من خـلال توتر الحركـة والروح الشـاملة التي تلهمـها ووحدة الوجـود كله" (٦-٣٨). "جميع الأشـياء، رغم انفصالها وتمايزها، يتخلل بعضها بعضاً ويستجيب بعضُها لبعض" (٤-٢٧). "في سلاسل الأشياء فإن اللاحق يكون دائماً مرتبطاً بما سبـقه. لا مجـرد إحصاء بسـيط لأشياءَ منـفصلة ومجـرد تعاقبٍ ضروري، بل ارتباط عـقلي: ومثلما أن الأشياء الموجـودة مترابطة بينها بانسجـام، كذلك عمليات الصيرورة لا تَعـرِض مجرد تتابع، بل انسجاماً صميماً مدهشاً" (٤-٤٥).

ويذهب الرواقيـون إلى أن جوهر العالم هـو العقل الكلي أو "اللوجـوس". وأن هذا العـقل مـبـثـوث في كل شيء وفي كل مكان. يقول مـاركوس: "لا تَعُد تتنفس فقط من الهـواء المحيط، بل خذ فكرَك أيضاً من العـقل الذي يضم الأشياء جميعـاً. فالقوة العاقلة منتـشرة، كالهواء، في كل مكان ومـتخلِّلة في كل شيء، طوع من يشاء أن يتشـرَّبها، تماماً كالهواء لمن يسـتطيع أن يتنفسه" (٨-٥٤).

الاقتصاد الكوني: يرى ماركوس أن كل جزء من أجزاء الطبيعة ضروري لها ومنسجم مع "الكل" ومتمِّم له.. حتى مخلفات الطبيعة ونفاياتها هي أشياء مقبولة ومعقولة في السياق الكلي، تُعاد دورته داخل الكل المكتفي بذاته: ".. ولا تسأل لماذا جُعِلَت مثل هذه الأشياء في العالم؟ فهذا سؤال مضحك عند دارس الطبيعة، مثلما يضحك عليك النجار أو الإسكاف إذا رآك تستاء لمنظر قُشارةٍ أو قصاصاتٍ، متخلفة عن عملهما، على أرض الورشة. على أن لدى هذين مكاناً ما لإلقاء مخلفاتهما، أما طبيعة "الكل" فلا شيء لديها خارج ذاتها. والعجيب في فنها أنها حددت حدودَها، وكل ما يفسد داخلها أو يشيخ أو ينتهي استعمالُه فإنها تعيدُ دورتَه داخلها وتخلق أشياء جديدة أخرى من هذه المادة نفسها، بحيث لا تحتاج إلى مادة من الخارج ولا إلى مكان تُلقِي فيه نفاياتها. إنها تامة إذن ومكتفية بمكانها، ومادتها، وفنها" (٨-٥٠). "كل الأشياء تأتي من هناك.. من ذلك العقل الكلي الحاكم، إما مباشرة وإما كنتيجة. لذا حتى فَكَّا الأسد المفتوحان، وحتى السم، وكل مؤذٍ من الأشياء، كالشوك، كالطين، هي نواتج بعدية للنبيل والجميل. فلا تحسبنها غريبة عما تقدسه، بل تأمَّل، وأنصِف، ينبوعَ الأشياء جميعاً" (٦-٣٦). "وحتى النواتج العرَضية لما يتم وفقاً للطبيعة لا يخلو من فتنة وجاذبية. حين يُخبز رغيف، على سبيل المثال، فلا بد من أن تحدث تشققات هنا وهناك ضد ما يقصده الخباز. على أن هذه التشققات غير المتعمدة تجذب العينَ بطريقة ما وتثير الشهية. التين

أيضاً يتفلق عند تمام نضجه. وفي حالة الزيتون الذي يُنضَج على شجرته فإن قرب التحلل يمنح ثمرته رونقاً معيناً. كذلك سنابل القمح المنحنية إلى الأرض، وجفن الأسد المُغَضَّن، والزبَد المتدفق من فم الخنزير، وغير ذلك كثير، كل أولئك أشياء بعيدة عن الجمال حين تؤخذ على حدة، ولكن تَرَتُّبها على عمليات الطبيعة يُضفِي عليها جمالاً وجاذبية. ومن ثم فأي إنسان لديه شعور واستبصار عميق بتشغيلات "الكل" سوف يجد لذة ما في كل جانب منها تقريباً، بما في ذلك النواتج العرضية" (٣-٢). "لكل شيء في الطبيعة، إذن، دوره في حبكة "الكل"، ولكل شخص وظيفته حتى النائم وحتى المخرِّب: "حتى النائمون هم عمال مشاركون في صنع ما يحدث في العالم. لكل واحد عمله المقيَّض له، وهناك وظيفة حتى للمناوئ الذي يريد أن يفسد الإنتاج، فالعالم بحاجة إليه أيضاً" (٦-٤٢). "تستخدم الطبيعةُ مادةَ العالم مثلما يُستخدَم الشمع: فتارةً تخلق منه كهيئة حصان، ثم تصهره وتستخدم مادتَه لخلق شجرة، ثم إنسان، ثم شيء آخر. كل شيء من الأشياء لا يدوم إلا قليلاً. ليس صعباً على الوعاء أن ينحطم، مثلما لم يكن صعباً عليه أن يَستوِي من قبلُ وعاءً" (٧-٢٣). "ستَخلُقُ أشياءَ أخرى من هذه المادة، ثم أشياء أخرى من هذه، وهكذا بحيث يبقَى العالَمُ صَبِياً على الدوام" (٧-٢٥).

يُفضِي الاعتقاد بالكوزموس (الكون الواحد المنظَّم) إلى الإيمان بالعناية ورفض نظرية التقاء الذرات بالمصادفة التي تقول بها

الأبيقـورية. لقد كانت الأبيقـورية في زمن ماركوس هي الفلسـفة المنافسة للرواقية في الاستحـواذ على قلوب الشبيبة الرومانية؛ ومن ثم فهـو كثيراً مـا يضع طبيعيـاتها (الذرات) كمـقابل للطبيعـيات الرواقيـة (الكون المنظَّم/العناية)، ويفـرض على نفسـه الاختـيار: " . .أم تراك ساخطاً عـلى ما قُسمَ لك منْ نصـيب في الكل؟ إذن فاذكـر أنك مضطر إلى أن تخـتار: فـإما عناية مـدبِّرة وإما ذرات عمـياء تلتقـي كيفـما اتفق وتفتـرق" (٤-٣). على أنه في بعض الفقـرات يخلص إلى نتائج أخلاقيـة واحدة من المقدمات الرواقـية والأبيقورية على السواء، فيستـهل القياس بعبارة "سواء كان الأمر ذرات أو عناية."، ومن ثم فإنه يتيح لـ "اللاأدري" agnosticist في مـجال الطبـيـعيـات أن يكون "رواقيـاً" stoicistفي مـجال الأخـلاق: "الكون لا يخـرج عن حـالـين اثنين: فـإمـا فـوضى واضطراب وتشتت(إلى ذرات)، وإما أنه وحدة ونظام وعناية. فإذا صح الافـتراض الأول فلمـاذا أرغب في المكوث في عالم مـركب عشوائيـاً ويعاني من مثل هذا الاختـلاط؟ ولماذا أُعَنِّي نفسي بشيء آخر غيـر تحول التراب إلى تراب؟ وفيم يخـالج نفسي اضطراب؟ فالتناثر سوف يصيبني إذن مهما فعلتُ. وإذا صح الافتراض الثاني أقدم إجلالي، واقفاً ثابتاً لا أتزعزع، متوكلاً على مَن بيده تصريف كل الأمور" (٦-١٠).

الأشياء اللافارقة Indifferentia

قلنا إن الرواقيين يذهبون إلى أن الخير الوحيد هو في الفعل العقلاني الفاضل، والشر هو في السلوك الأرذل المنافي للعقل. أما الأشياء الخارجية التي درج الناس على اعتبارها خيرات وشروراً، كالمال والجاه والصحة والمرض والحياة والموت والشهرة والخمول واللذة والألم.. إلخ، فهي أشياء "سواسية" أو "غير فارقة" indifferentia، أي لا يمكنها بذاتها أن تؤثر في العقل الموجِّه أو الحالة الداخلية للإنسان، وبالتالي فإنها ليست في ذاتها خيراً ولا شراً. ".. الموت والحياة، النباهة والخمول، الألم واللذة، الغنى والفقر.. ليست هذه الأشياء في ذاتها حسنة ولا سيئة، وبالتالي ليست في ذاتها خيراً ولا شراً" (٢-١١). "تَجَمَّل بالبساطة والتواضع وعدم الاكتراث بما ليس خيراً ولا شراً" (٧-٣١). "عِش الحياة على أفضل نحو ممكن؛ بوسع الروح أن تفعل ذلك إذا كانت غير مكترثة بالأشياء غير الفارقة. وستكون غير مكترثة بهذه الأشياء إذا نظرَت إليها ككل وإلى كل منها على حدة، وتذكَّرت أن لا شيء من هذه الأشياء يُصدِر حكماً عن نفسه أو يفرض نفسه علينا" (١١-١٦).

إن إسباغ قيمة على هذه الأشياء اللافارقة ليس مجرد خطأ في الحكم، بل إن له نتائج عملية وبيلة. "إذا كنتَ تَعُدُّها خيراً أو شراً تلك الأشياء الخارجة عن سيطرتك فسوف يترتب على ذلك

بالضرورة أن تتذمر على الآلهة وتبغض البشر كلما أصابك هذا الشر أو كلما فقدتَ ذلك الخير . . إننا لَنرتكب ظلماً عظيماً باكتراثنا بهذه الأشياء واعتبارها "فارقة". أما إذا قصرنا صفةَ الخير والشر على ما يقع في نطاق قدرتنا فلن يعود ثمة مبرر لاتهام إله أو لاتخاذ موقف عدائي من إنسان" (٦-٤١). "القيمة الحقيقية هي أن تفعل أو تُحجِم وفقاً لفطرتك الحقة . . وإذا أنت قبضتَ على هذه القيمة فلن تصبو إلى اكتساب أي شيء آخر، ولن تُعلِي من شأن كثير من الأشياء الأخرى إلى جانبها. وإلا فلن تكون حراً أو مكتفياً بذاتك أو خالياً من الانفعال، وستُضطر إلى الحسد والغيرة والتوجس ممن لديهم القدرة على أن يسلبوك هذه الأشياء، والتآمر على من يملكون ما تراه ثميناً. وباختصار، فكل من يشعر بالحاجة إلى أي شيء من هذه الأشياء يكون بالضرورة منغَّصَ العيش، بل سيدفعه ذلك في أحيان كثيرة إلى أن يتذمر على الآلهة" (٦-١٦).

السعي إلى الأشياء "بتحفظ"

من هنا ينبغي السعي إلى الأشياء المفضَّلة (المفضَّلات preferables)، أي الأشياء اللافارقة الملائمة للإنسان باديَ الرأي، بتحفظ، ومن غير لهفة زائدة، حتى لا نجعل صدمة الإخفاق تنال من سعادتنا وهنائنا. فلتَسْعَ إلى ما يناسبك "ولكن احرص ألا تدع التنعم به يجعل منك مدمناً له معتمداً عليه، كيلا تبتئس إذا ما

فقدته يوماً ما" (٧-٢٧)، " . . وتذَكَّر أن محاولتك كانت بتحفظ؛ إنك لم ترِد أن تعمل المستحيل. ماذا تريد إذن؟ جهداً ما مقيَّداً بشرط. ولقد حَقَّقْتَ هذا" (٦-٥٠). "بلا زهو تقبل الرخاء إذا أتى، وكن مستعداً لفقدانه إذا ذهب"(٨-٣٣).

التعامل مع العقبات

ترتبط فكرة التحفظ في السعي إلى الأهداف بفكرة أخرى تتصل بالتعامل مع المصاعب: فإذا كان الخير هو السلوك العقلاني الفاضل، فماذا لو صادفتنا العوائق واعترضت سبيلَنا العقبات؟ يجيب ماركوس ببساطة: لا شيء، ستكون تلك فرصةً أخرى لممارسة الفضيلة: " . . إن العقل لديه القدرة، بطبيعته وبإرادته، على أن يمضي خلال كل عقبة. في جميع الكائنات العضوية الأخرى فإن أي أذى يلحق بأي منها يجعله أسوأ في ذاته، أما في حالة البشر فإن الشخص في الحقيقة يصبح أفضل وأجدر بالثناء إذا استخدم الظروف التي تصادفه استخداماً صحيحاً" (١٠-٣٣)، "فإذا اعترض أحدٌ سبيلَكَ بالقوة فتذَرَّعْ بالهدوء، وحوِّل العائقَ إلى تمرُّسٍ بصنفٍ آخر من الفضيلة" (٦-٥٠). "هل اعترضكَ عائقٌ في سعيك إلى شيء ما؟ إذا كان سعيُكَ حقاً غير مشروط سيكون هذا العائق بالتأكيد مؤذياً لك ككائن عاقل. أما إذا قبلت المسار المعتاد للأشياء فليس ثمة مِن أذى بعدُ ولا عائق. أترى. . لا أحد سواك سوف يعوق الوظائف القويمة للعقل. فلا الناس ولا الحديد ولا الطغيان ولا السب يمكن أن يمس العقل. فمنذ أصبح

العقل دائـرة مكتملة فإنه مـا يزال في وحدته دائرة مكـتملة" (٨-٤١). "تلك القوة الحـاكمة بداخلنا، حـيثمـا كانت في توافق مع الطبيعة، تتخذ موقفاً مرناً من الظروف وتكيف نفسَها دائماً بسهولة ويسر مع مـا يعرض لها من أحـداث. فهي لا تتطلب مادةً مـعينة لعملها، بل تتجه إلى غرضها بأسلوب تكيفي فتحوِّل أي عقبة في طريقها إلى مادة لاستعمـالها. إنها أشبه بنار تسيطر على أي شيء يسقط في جـوفها. قـد تنطفئ الجذوة النحيـلة إثر ذلك، أما النار المضطرمة فتَـتَمَلَّك المادة التي تُركَم عليها، وتلـتهمها وتنزو فـوقها بفضل هذه المادة نفـسها" (٤-١). "قـد تعيقني هذه الأشـياء عن بعض نشـاطي، نعم ولـكنهـا لا تشكل عـوائق أمـام وجـداناتي ونوازعي، من حيث إن بهـا يقبع الالتزام المشـروط وقوة التكيف. إن العقل لَيتكيفُ ويدور حول أي عـائق للفعل لكي يخدم هدفَه: فيحـوِّل ما هو عائق عن عمل معين إلى مُـعينٍ على ذلك العمل، ويحـول العقـبةَ في طريقٍ مـا إلى تقـدمٍ على تلك الطريق" (٥-٢٠). إذن حيثـما وقف عائقٌ في طريقك فـتقبل العائقَ كـما هو وحوِّل جهـدَك بحكمة لمواجهة الظرف القائم، وسرعـان ما سوف يحل فعلٌ جديدٌ محل السابق متلائماً مع هذا الوضع الجديد الذي نتحدث عنه" (٨-٣٢). ليس في هذه المداورة العقلية أي حيود أو زيغ عن طريق العقـل: "يتحرك السـهمُ بطريقة، ويتحـرك العقلُ بطريقةٍ أخرى؛ ومع ذلك فإن العقل، حتى عندما يمارس الحيطةَ أو يدور حول بحثٍ معين، إنما يتحرك بنفس الاستقامة، ويمضي قُدُماً في طريقِه" (٨-٦٠).

ذلك أن العقل من نفسه في حصنٍ حصين. إنه بمعزِلٍ وبمنجاة من الأشيـاء الخارجيـة. "وما ان يسلّ نفـسَه ويكتشف قـواه حتى ينفصل بذاته عن تقلبات الجسد" (٤-٣). وليس للأشياء الخارجية أي سلطان على العقـل: إنها "هناك". . خاملة مـحايدة لا تملك للعقل ضَراً ولا رَشَداً. يقول ماركوس: "لا يمكن للأشياء ذاتها أن تَمَسَّ النفسَ أقلَّ مـساس. ليس لدى الأشـياء مـدخل إلى النفس وليس بمكنتـها أن تدير النـفس أو تحركـها. إنما النفس تدير ذاتهـا وتحرك ذاتهـا، وتقيم لنفسهـا ما تراه ملائمـاً من الأحكام على ما يعرض لها من أشـياء" (٥-١٩). "لا تفرضُ الأشياءُ الخـارجية، التي تطلبها أو تتجنبها، نفـسَها عليكَ فرضاً، إنما أنت، بمعنى ما، مَن يخرج إليها. فليهـدأْ حكمُك عليها وسوف تهدأ هي بدورها، ولن تراك تسـعى إليها بعـدُ ولا تتجنبـها" (١١-١١). "الأشـياء واقفة خارجنا، قـائمة بذاتها، لا تعرف شيئـاً عن نفسها ولا تُدلي بشيء. ما الذي يُـدلِي إذن؟ عقلُنا الموجِّه" (٩-١٥). "يـنبغي أن يبقى الجزء الموجِّه والحاكم من نفسك محصناً من أي مجرى يجري في الجسد" (٥-٢٩)؛ ". . فمن الخصـائص التي ينفرد بها العقل أنه يعزل نفسه ولا يتأثر بنشاط الحـواس أو نشاط الرغبات؛ فهذان النشاطان حيوانيان، بينما غاية النشاط العقلي أن يتسيد عليهما ولا يسلم قيادَه لهـما، لأن طبيعته ذاتهـا هي أن يضع كل هذه الأشياء تحت إمرته" (٧-٥٥). "العقل الموجه هو ذلك الذي يوقِظ نفسه،

ويضفي على نفسه الطبيعة التي يريدها، ويجعل كل ما يحدث له يبدو على النحو الذي يريده" (٦-٨). وإذا كان الجسد يعاني أو يتألم فذاك شأنه، أما الروح فبمقدورها "أن تحتفظ بصفائها وسكينتها وألا تُقَيِّمَ الألم على أنه شر. لأن كل رأي وحركة ورغبة ونفور هو في الداخل، حيث لا شر يمكن أن يبلغ إليه" (٨-٢٨). "العقل الموجِّه لا يكرثُ نفسَه: فلا هو يروِّعها ولا هو يسوقها إلى الرغبة. فليروِّعها ما شاء أو يؤلمها فإنه بذاته وبحكمه الخاص لن يعمد إلى الالتفات إلى مثل هذه الحالات. فليحرص الجسد على تجنب الألم ما وسعه ذلك؛ ولتقل النفسُ الحاسَّة إني أخاف أو أتألم. أما العقل الذي يضع التقييم العام لكل هذه الأشياء فلن يعاني على الإطلاق ـلن يندفع بنفسه إلى أي من هذه الأحكام. فالعقل الموجِّه بحد ذاته ليس به حاجة ما لم يخلق الحاجةَ بنفسه: ومن ثم فهو لا يُضَرُّ ولا يُعاقُ ما لم يضر نفسَه أو يعقْ نفسَه" (٧-١٦). "وحتى إذا جَرَفَكَ الطوفانُ فليأخذْ جسدَكَ البائسَ ونَفَسَكَ الضئيل وكل شيء آخر؛ أما العقل فلن يأخذَه" (١٢-١٣). "..والعقل بترفُّعه بنفسه يحتفظ بسكينته، العقل الموجِّه لا يعوقه الألمُ، وللأجزاء المتأثرة بالألم أن ترى فيه ما تراه" (٧-٣٣)

الضرر لا يكون إلا ذاتياً

يترتب علـى ما سبق أنْ ليس ثمـة من أذى حقـيقي يمكن أن يصيب الإنسان إلا ما يجـره العقلُ على نفسه، وذلك حين يخطئ في أحكامـه. ليس ثمـة أذى إلا الأذى الذاتي. "هل أسـاء إليك أحد؟ إنما إلى نفسه أسـاء" (٤-٢٦). "لا أذى لك يقبع في عقل غيرك، ولا حتى في أي تبدل أو تغـير لغطائك الجسدي. أين إذن يقـبع الأذى؟ في ذلك الجزء منك الذي يـضطلع بتكوين الأحكام عن الأذى. كُفَّ عن الحكم بأن بك أذى تكنْ قد سَلمتَ منه. ولو أن أقرب شيء منه، وهو جسدك، تعَرَّضَ لسكين أو كي، أو تُرِكَ ليتقيح أو يموت _فإن الملَكة التي تحكم هذه الأحكام ينبغي أن تظل هادئة.." (٤-٣٩). "إنما تؤذي النفسُ نفسَها عندمـا تصبح كياناً منفصـلاً أشبـهَ بورمٍ على جسـد العالم، فالسـخط على أي شيء تجري بـه الأقدار هو تمرد انفـصالي عن الطبـيعـة..، وحين تنأى بجانبها عن كـائن إنساني آخر أو حين يَلِجُّ بها الخصامُ فـتعمد إلى إيذائه. تلك هي حـال الأنفس التي اسـتبـد بها الغـضب؛ وحين تستسلم للذة أو للألم؛ وحين تتكلف وتُرائي وتفـعل أو تقول غير الصدق وغـير الحق؛ وحين تفـقد الهدف وتخـبط خبط عـشواء، فالفعل مهما صـغر ينبغي أن يؤدَّى لغاية ويَرمِي إلى هدف. وغاية الكائنات العـاقلة هي أن تتـبع العـقل وتلتـزم قـانون أقـدم دولة وحكومة - العالم" (٢-١٦)

الاستقلال عن إرادة الآخرين

يؤذِي الإنسانُ نفسَه حين يجعل سعادتَه معلَّقةً على آراء الآخرين فيه وحديثِهم عنه، ثم يريد أن يحصل عليها تَسَوُّلاً واستجداءً! "إنه شحاذٌ إذا اعتمد على الآخرين ولم يذخر في نفسه كل ما يحتاج إليه في الحياة" (٤-٤٩). "السعادة تتعلق على تقدير الذات لذاتها، ومازلت تحرمها من ذلك وتعلق سعادتك على الآخرين: ذواتهم وآرائهم وتقديراتهم" (٢-٦). "ما جدوى المديح؟ لكأني بك ترفض هِبةَ الطبيعة التي أودعتكَ إياها، والتي لا تعتمد على أقوال الآخرين، وتتشبث بشيءٍ آخر" (٤-١٩). "كل ما هو جميل على أي نحو من الأنحاء إنما هو جميل "في ذاته"، يذخر جمالَه في لبه وصميمه وليس المديح جزءاً منه. فالمديح لا يجعل الشيء أفضل مما هو ولا أسوأ" (٤-٢٠). "لا تتلفت حولك لكي تنقب في عقول الآخرين؛ بل انظر أمامك، إلى ما تقودك إليه الطبيعة.." (٧-٥٥). "ما أهنأ بالَه ذلك الذي لا يتطلع إلى ما يقوله جيرانه وما يفعلون وما يفكرون، بل ينصرف إلى أفعاله هو ليجعلها عادلة موقَّرةً مشربةً بالخير" (٤-١٨). "كيف تفهم خيركَ الخاص؟ عاشق الشهرة يجعل خيرَه في استجابات غيرِه. وعاشق اللذة يجعل خيره في خبرته السلبية. أما الحكيم فيرى خيره هو أفعاله ذاتها" (٦-٥١).

تقبّلْ قدرَك

كل ما يصيب الإنسان هو مقدَّر له منذ الأزل، وملائم له لأنه ملائم لطبيعة العالم، وخير له لأنه خير لـ "الكل"؛ وعلى المرء أن يرضى بنصيبه ويتقبل قدره: لأنه خير له من جهة، ولأنه لا مفر منه من جهة أخرى. "هل أَلَمَّ بك شيء؟ حسن، كل ما ألم بك كان مقدراً لك من "الكل" منذ البداية ومنسوجاً من أجلك" (٤-٢٦). "لا تحب إلا ما ألمَّ بك ونُسِجَ لك من خيط مصيرك. فأيُّ شيء أنسبُ لك من هذا؟" (٧-٧٥).

يقول سنكا "القدر يحدو العقلاءَ ويجرجر الحمقى". ويقول ماركوس "أَسلِم نفسَك طواعيةً إلى "كلوثو"، إحدى إلهات القدر، ودَعْها تغزل خيطَك على أي شكل شاءت" (٤-٣٤). "ما أشبه الإنسان المتبرم بكل شيء والساخط على كل شيء بخنزير الأضحية يرفس ويصرخ. كهذا الخنزير أيضاً ذلك الإنسان الذي يندب، صامتاً، في مخدعه كل القيود التي تربطنا بها. وحده الإنسان العاقل من أُلهِم أن يختار الاستسلام طوعاً لما يحدث. على أن الاستسلام المحض ضرورة مفروضة علينا جميعاً" (١٠-٢٨). "مثلما نقول جميعاً إن الطبيب قد "وصف" لهذا ركوب الخيل، ولهذا حمامات باردة، ولهذا المشي حافي القدمين ـ فإن لنا أن نقول بنفس المعنى إن طبيعة "الكل" قد "وصفت" لهذا المرء المرضَ أو العجزَ أو أي شيء آخر من هذه البلايا. في الحالة الأولى تعني كلمة "وصف" شيئاً من هذا القبيل: أن الطبيب قد

أوصى بهذا الإجـراء لهذا الشخص لكي يجلب له الصـحة. وفي الحالة الثانية تعني أن ما يقع لكل شخص هو مدبَّر بطريقة ما لكي يُفضِي إلى مصيره. ونحن نتحدث عن ملاءمة هذه الأحداث مثلما يتـحـدث البناءون عن مـلاءمـة قـوالب الحـجـر في الجـدران أو الأهرامات عندما يتراص بعـضها مع بعض في وضع معين. ذلك أنه في كلية الأشياء ثمة توافق واحد؛ ومثلما تتحد الأجسام المادية جميعـاً لتجعل العالم جسمـاً واحداً، كلاً منسجماً، كـذلك تتحد الأسباب جميعاً لكي تجعل القدر سبباً منسجماً واحداً. ذلك شيء يفـهمـه حتى أقل الناس علمـاً. فهم يقـولون "القدر أحـدث له هذا". فإن كان القدر "أحدَثَ" فقد "وَصَفَ" أيضاً. ولنقبلْ هذه الوصفات مـثلما نقبل وصفـات الطبيب _فكثيراً ما تـكون قاسيةً ولكننا نقبلها التماساً للشفاء" (٥-٨).

المبادئ الرواقية جاهزة للاستعمال

حين يتم تدريب الحكيم الرواقي تغـدو العقلانيـة فيه اعتـياداً ذهنياً وتغدو الفضائلُ طبيعةً ثانية، وتصبح مبادؤه العقلية ملازمة له لا تفارقه، لأنهـا جزء منه. "في تطبيقك لمبـادئك كن كالملاكم لا المبارز أو المُـجالد gladiator : فـالمجـالد مرتهـنٌ لسيـفـه الذي يستـخدمه، يرفـعه أو يُسـقَط عنه ويُقتَل؛ أما الملاكـم فلديه دائماً يده، وليس عليه إلا أن يسـتخدمـها" (١٢-٩). "تماماً مـثلما أن الأطبـاء دائمـاً جاهزون بأدواتهـم ومبـاضـعهم لـعلاج أي حـالة

طوارئ، ينبغي أن تكون مبادؤك العقلية جاهزة لفهم الأمور الإلهية والإنسانية، وأداء كل فعل، مهما كان ضئيلاً، بوعي بالرابطة التي تربط الإلهي بالإنساني. فلن يتسنى لك أن تجيد أي عمل يتعلق بالإنسان دون أن يكون لديك أيضاً مرجعية إلى الأمور الإلهية، والعكس بالعكس" (٣-١٣). إن الحكمة تطبيق وممارسة واعتياد بقدر ما هي تنظير وتحصيل وتأمُّل؛ وإن النفس لَـ "تصطبغ بالأفكار" حتى تصبح فيها سليقةً وخليقةً وماهية.

فعل الخير ثواب ذاتِه

كذلك الخير حين يصبح في الإنسان طبيعةً وسجيةً فإنه يأتيه عفواً من غير تكلف ولا جهد. إنه لينضح بالخير مثلما ينضح الإناء بما فيه، أو مثلما يؤدي الكائن وظيفته الطبيعية لا يفتعلها ولا يكاد يعيها. "مِن الناس مَن إذا أسدَى جميلاً إلى شخص سارع بتسجيله في حسابه كدَينٍ مستحق. ومنهم مَن لا يسارع بذلك غير أنه يضمر في نفسه أن هذا الشخص مَدين له، ويعي جيداً بما فعله. وهناك صنفٌ ثالث هو بمعنى ما لا يعي ما أتاه ولا يحشد له ذهنَه؛ وإنما هو كالكَرمة التي أهدت عناقيدَها ولا ترتقب أي مقابل. الفرس وقد أتم السباق، والكلب وقد طاردَ، والنحلة وقد أفرغَت عسلَها، والإنسان الذي أسدَى معروفاً - لا يلحظ أيٌّ من هؤلاء ما صنع ولا يلتمس عليه شهوداً، بل يمضي إلى فعلٍ جديد كما تمضي الكرمةُ لتقدمَ عناقيدَ جديدة في الموسم الجديد. فلتكنْ

واحداً من هـؤلاء الذين يجتـرحون الخيـرات دون أن يلاحظوها" (٥-٦).

إن الرحمة غاية في ذاتها وفعل الخير ثواب ذاته، يقول المعري في ذلك:

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنـه خيرٌ وأفضلُ لا لأجلِ ثوابها

ويقول ابنُ الرومي:

ليس الكريمُ الذي يعطي عَطِيَّته

علـى الثوابِ وإنْ أَغلَى به الثَّمَنا

إن الكريمَ الذي يعطِي عَطِيَّته

لِغَيرِ شيءٍ سِوَى استِحْسانه الحَسَنا

وإن الحكيم، بحسـه الاجتماعي وبتـوحده برفاقه البـشر، إنما يؤتي الخيرَ إنصافاً لذاته وبراً بنفسه قبل أي شيء آخر! "وإلا فأنت بعدُ لا تحب رفـاقك البشـر من قلبك، وفعلُك الخـيرَ لا يبـهجكَ كغـاية في ذاته.. مـازلتَ تفعل البـر بوصفـه أدباً وواجبـاً وليس بوصفه براً بنفسك" (٧-١٣). "مادمتَ فـعلتَ خيراً وتلَقَّاه آخرُ، فما لَكَ ماتزال تترقب، كالأبله، شـيئاً ثالثاً إلى جانب هذين: أن تنال صيتاً بفعل الخير، أو تتلقى مقابلاً؟!" (٧-٧٣). "هل صنعتُ شيئاً ما من أجل الصالح العام؟ إذن فقد تلقيت أجري. لتكن هذه دائمـاً قناعتك ولا تَكُفَّ أبداً عن فـعل الخيـر" (١١-٤). "الخطأ

خطؤكَ إذا كنتَ قد أسبغتَ معروفاً دون أن تجعل هذا المعروف غايةً في ذاته، وتجعل فعلك هو ثواب ذاته الذي لا يفتقر إلى أي ثواب آخر. فأي شيء آخر تريده أيها الإنسان من فعل المعروف؟ أليس بكافٍ أنك قد فعلتَ شيئاً متناغماً مع طبيعتك ذاتها _أتريد الآن أن تضع ثمناً له؟! وكأن العين تطلب مقابلاً على الرؤية، أو القدم على المشي!! فمثلما خُلِقَ هذان لغرضٍ معين ويحققان طبيعتهما القويمة بأن يعملا وفقاً لفطرتهما الخاصة، كذلك الإنسان خُلِقَ لكي يفعل الخير، وحيثما فعل خيراً أو أسهمَ في الخير العام فقد فعل ما خُلِقَ له ونال ما هو له" (٩-٤٢).

انصرف إلى اللحظة الحاضرة

"يَرقُدُ صاحِياً، يَحسِبُ المستقبل

يحاول أن يحل خيوطَ الماضي والآتي

وينشرهما ويفك ألغازَهما ويضمهما معاً

بين منتصف الليل والفجر، حيث الماضي خداعٌ كلُّه

والمستقبلُ لا مستقبلَ له"

ت.س.إليوت

يذهب ماركوس إلى أن المرء لا يملك في حقيقة الأمر إلا اللحظة الحاضرة، لأن ما عداها هو إما ماضٍ ذهبَ أو مستقبل غير معلوم وغير مضمون. ينتج عن ذلك أن المرء لا يمكن أن يخسر إلا

هذه اللحظة التي في يده، لأنه لا يملك شيئاً آخر حتى يخسره! "حين تتكدر في أي ظرفٍ فقد نسيتَ. أن كلاً منا لا يعيش إلا اللحظة الحاضرة ولا يفقد إلا إياها" (١٢-٢٦).

يترتب على ذلك أمورٌ كثيرة ينبغي أن نلتفت إليها: أولها أننا يجب ألا نسوف الخير، ويجب أن ننصرف إلى اللحظة الحاضرة ولا نكدرها بأطياف مَشاهدَ مَضَت، ولا بهواجس أمورٍ تأتي ولا تأتي. "انصرفْ إلى المسألة التي أمامك، سواء أكانت رأياً أم عملاً أم كلمة. إنك تستحق ما أنتَ فيه، لأنك اخترتَ أن تكون صالحاً غداً لا أن تكون صالحاً اليوم" (٨-٢٢).

ويترتب على ذلك أن الشهرة والمجد وخلود الذكر أوهام لا وجود لها: "اذكرْ أن كلاً منا لا يعيش إلا اللحظة الحاضرة، وما أضألها في الزمن، وأن كل ما سواها من العمر هو إما ماض غير عائد وإما مستقبل غير معلوم" (٣-١٠).

ويترتب عليه أن عبء اللحظة الحاضرة هو العبء الوحيد الذي ينبغي أن نحمله، وينبغي ألا نثقله بما ليس منه: "لا تزعجْ نفسَك بالتأمل في المشهد الكلي لحياتك. لا تَدَعْ فكرَك يضم في آن معاً كل ما أزعجَكَ فيما مضى وكل ما يمكن أن يزعجك فيما بعد. بل اسأل نفسَك في كل ظرف حاضر: "أي شيء في هذا يفوق احتمالي وينوء بي؟" ولسوف تخجل من مثل هذا الإقرار. ثم ذكِّرْ نفسَك أنه لا المستقبل ولا الماضي هو ما يثقل عليك، بل الحاضر وحده. وكم يهون عبء الحاضر إذا أمكنك فقط أن تحدده

وتضعه في حجمه، وأن توبخ عقلَك إذا كان يكلُّ عن الصمود لشيءٍ مخفَّف كل هذا التخفيف" (٨-٣٦).

طول الحياة غيرُ فارق

ويترتب على ذلك أيضاً أن طول الحياة غير فارق مادمنا لا نملك إلا اللحظة الضئيلة الحاضرة ولا نخسر إلا إياها: "حتى لو قُدِّر لك أن تعيش ثلاثة آلاف عام، أو عشرة أضعاف ذلك، فاذكر دائماً أن لا أحد يفقد أي حياة غير تلك التي يحياها، أو يحيا أي حياة غير تلك التي يفقدها. ينتج من ذلك أن أطول حياة وأقصرها سيان؛ فاللحظة الحاضرة واحدة في الجميع، ومن ثم فإن ما ينقضي متساوٍ أيضاً. يتبين إذن أن الفقدان إنما هو فقدانُ لحظةٍ لا أكثر. ذلك أن المرء لا يمكن أن يفقد الماضي ولا المستقبل، فكيف يمكن أن يُسلَبَ ما ليس يملك؟! تذكَّر إذن هذين الشيئين: أن الأشياء جميعاً هي ما هي منذ الأزل، تبدأ وتعود دواليك، وسيان أن يرى المرءُ نفس المشهد لمائة عام أو مائتين أو ما لا نهاية من الأعوام. وأن ما يُسلَبُ من المعمَّر هو ما يُسلَب من أقصر الناس عمراً. فليس غير اللحظة الحاضرة ما يمكن أن يُسلَب من الإنسان. فإذا صحَّ أن هذه اللحظة هي كل ما يملكه فمن غير الممكن أن يفقد ما ليس يملك" (٢-١٤).

ينبغي إذن أن يتخلص الإنسان من هاجس التشبث بالحياة وكأن امتداد الأجل عاماً أو أعواماً يمكن أن يُحدِث أيَّ فارق.

"كما لو أن إلهاً أخبركَ أنك ستـموت غداً أو بعد غد على الأكثر فلم تُعَلِّق أهمـية على فرق يـوم واحد. . كذلك ينبـغي عليك ألا تتصور فارقـاً يُذْكَر بين أن تموت بعد سنين طويلة وأن تموت غداً" (٤-٤٧). "استعرِضْ في ذهنك قائمةً بأولئك الذين تشبثوا بالحياة فترة طويلة، ماذا ربحوا من ذلك أكثرَ مما ربح من مات مبكراً؟ من المؤكد أنهم يرقدون الآن جميعاً في قبورهم. .انظر إلى هول فجوة الماضي من ورائك وإلى اللانهـاية الأخرى من أمامك. مـا الفرق من هذا المنظور بين رضـيعٍ عـاش ثلاثةَ أيام ونَسطورٍ عـاش ثلاثةَ أجيـال؟" (٤-٥٠). "كل ما تراه سـوف يزول سريعـاً؛ وأولئك الذين يشـهدون زواله سـوف يزولون هم أنفسـهم. مُتْ في أرذل العمر أو مت قـبل أوان موتِك. . كلاهما سـيان" (٩-٣٣). "ما من نشاط يضيـره أن يتوقف مادام توقف في الوقت المناسب، ولا فاعله يضيره شيئاً أن هذا النشاط المعين قد توقف. وعلى ذلك فإذا بلغَت جملةُ أفعاله، التي تشكل حياته، نهايتَها في الوقت المناسب فلا ضيـر عليها من مـجرد التوقف، ولا ضيـر على مَن ختم هذه السلسلـة من الأفـعـال في الوقت المناسـب. أمـا الوقت والأجل فتحددهمـا الطبيعة _طبيعة الإنـسان أحياناً كما في الشـيخوخة، وطبيـعة العالم في كل الأحـيان، والتي من خـلال التغيـير الدائم لأجزائها المكوِّنة تُبقي العالمَ كله صبـياً وعفياً. وكل ما ينفع العالم فهو حـسنٌ وفي إبَّانِه. لذا فلا بأس على الإطلاق بأن تنتهـي حياةُ كلٍّ منا، فلا النهاية عيبٌ ولا اختـيار ولا هي ضد الصالح العام. بل هي خير، إذ تتم في التـوقيت الملائم لـ "الكل"، وتصب في

صالحه، وتنسجم معه. فكذلك أيضاً يمشي المرء بعون الرب إذا مضى باختياره ووجهته على طريق الرب" (١٢-٢٣). "فلتأخذ دورَك" في الفناء ولا تنخذل. مُتْ بحريةٍ على أقل تقدير! "حبات بخورٍ كثيرة على نفس المذبح. إحداها تسقط أولاً، الأخرى لاحقاً. . لا فرق" (٤-١٥).

لا جديد تحت الشمس

وإذا كان المشهد الحياتي واحداً منذ الأزل فماذا يجديك من تكرار رؤيته: يقول لبيد بن ربيعة:

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها
وسؤالِ هذا الناسِ كيف لَبِيدُ

ويقول ماركوس: مثلما يحدث لك في المدرج وما شابه ذلك من الأمكنة، حيث ثبات المنظر ورتابة المشهد يبعثان على الضجر، كذلك الحال في خبرتك بالحياة ككل: كل شيء، هنا وهناك، هو نفس الشيء، وبنفس الأسباب، فإلى متى؟!" (٦-٤٦). "انظر وراءك إلى الماضي ـ إلى كل تلك التحولات الشديدة للأسر الحاكمة؛ وبوسعك عندئذ أن تتنبأ أيضاً بما سوف يكون: فمن المؤكد أنه سيكون مشابهاً لذلك تماماً وأنه لا يمكن أن يحيد عن إيقاع الحاضر. ومن ثم فإنه سيان أن تتأمل الحياة البشرية أربعين سنة وأن تتأملها عشرة آلاف من السنين: فأي جديد عساك تراه؟" (٧-٤٩).

يقول المعري في لزومياته:

وآخِرُها بأوَّلِها شَبيهٌ وتُصْبِحُ في عَجائِبِها وتُمْسِي
قُدُومُ أَصاغِرٍ ورَحِيلُ شِيبٍ وهِجْرَةُ مَنْزِلٍ وحُلُولُ رَمْسِ

ويقول ماركوس أوريليوس: "تأمل مثلاً عصر فيسباسيان، فسوف ترى نفس الأشياء: ناس تتزوج، وتنجب أطفالاً، ويدركها المرض، وتموت، وتقاتل، وتعيِّد، وتتاجر، وتفلح الأرض، وتُجامِل، وتتدافع، وتشك وتتآمر، وتتمنى موتَ الآخرين، وتتذمر على نصيبها المقسوم، وتقع في الحب، وتكنز المال، وتتوق إلى منصب القنصل والملك؛ والآن انقضت حياتهم وزالت. ثم عَرِّج على زمن تراجان، سترى أيضاً نفس الأشياء، والحياة انقضت أيضاً. وانظر كذلك في الأزمنة الأخرى، والأمم كلها في الحقيقة، وسترى حيوات كثيرة من الكدح تنتهي بسقوط سريع وتحلل إلى العناصر" (٤-٣٢). "كل ما يحدث فهو معتاد ومألوف كالزهر في الربيع والفاكهة في الصيف. كذلك أيضاً المرض والموت، الافتراء والتآمر ـوكل ما يَسُرُّ الحمقى أو يؤلمهم" (٤-٤٤). "..وأينما تُوَلِّ فسوف تجد الأشياء ذاتها التي يعج بها تاريخ العصور، القديمة منها والوسيطة والحديثة، وتعج بها المدن والديار في يومنا هذا. لا جديد.. كل شيء مألوف ومعروف.. وزائل" (٧-١).

التأهب للموت

"وما الموت؟ إن من يتأمل الموتَ في ذاته، ويُعمِل فيه التحليل العقلي ليجرده مما يرتبط به من دلالات سوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفةً طبيعية. ومن يرتاع لوظيفةٍ من وظائف الطبيعة فهو طفلٌ غرير. ليس الموت وظيفةً طبيعية فحسب بل إنه أيضاً لخير الطبيعة وصالحها" (٢-١٢).

يرى ماركوس أنه لا وجه للخوف من الموت على كل الأحوال؛ لقد وُلدتَ أيها الإنسان وكبرت وخبرتَ كلَّ ما تملكه الحياة من طرافة. "..فارحل الآن. فإذا كان لحياة أخرى فلن يخلو حتى هذا الشاطئ من الآلهة، وإذا لم يكن هناك أي حياة أو حس فلن تعود تعاني من الآلام واللذات، ولن تعود مستعبَداً لوعاءٍ جسدي هو سيد بالغ الدناءة بقدر ما إن عبده بالغ الرِّفعة. فهذا عقلٌ وروحٌ، وذاك مجرد تراب ودم" (٣-٣). "من يخشى الموت إنما يخشى فقدان الحس أو يخشى حساً من صنفٍ آخر. فإذا كنتَ سوف تفقد الحس فلن تشعر أيضاً بأي أذى. أما إذا كنتَ ستكتسب شعوراً مختلفاً فسوف تكون كائناً آخر ولن تتوقف الحياة" (٨-٥٨).

الموت وظيفة طبيعية لا عار فيها، وفعل طبيعي ينبغي أن يؤديه المرء بإتقان كأي فعلٍ آخر! "مادمتَ تؤدي واجبك فلا تعبأ بما إذا كنتَ بارداً أو دافئاً، نعساناَ أو يقظاً، يمدحك الناسُ أو

يذمونك، وبما إذا كنتَ تُحتَضَر أو تفعل شيئاً آخر! فحتى هذا.. فعل الاحتضار.. هو أحد أفعال الحياة. وبحسبك هنا أيضاً أن تتقن ما تفعله جهدَ ما تستطيع" (٦-٢). "الموت، شأنه شأن الميلاد، سر من أسرار الطبيعة: تضام، ثم انحلال، للعناصر نفسها. لا عارَ في الأمر بكل تأكيد: فلا شيء فيه مناقض لطبيعة الكائن العاقل أو مناقض لمبدأ تكوينه" (٤-٥).

وما بال الإنسان يخشى الموت وكأنه لم يجربه مِن قبلُ ويطَّلِعْ على نماذجَ منه في حياته السالفة: الموت تبدل مراحل، ولقد تبدَّلَتْ عليك من قبل مراحلُ وأطوارٌ فهل كان في ذلك ما يدعو إلى الخوف؟! "انتهاء عمل، توقف نشاط أو حكم.. هذا نوعٌ من الموت، ولكن لا ضير فيه. تحوَّل الآن إلى أطوار حياتك: الطفولة مثلاً، ثم المراهقة، الشباب، الشيخوخة. هنا أيضاً كل تغير هو موت (المرحلة): هل ثمة من شيء مخيف؟ وتحوَّل الآن إلى حياتك مع جدك، ثم مع أمك، ثم مع أبيك. وحيثما وجدتَ أمثلة أخرى عديدة للتحلل أو التغير أو الانتهاء فاسأل نفسك: "هل كان ثمة أي شيء يدعو إلى الخوف؟" بالمثل، فلا شيء مخيف في انتهاء، وتوقف، وتغير حياتك بأسرها" (٩-٢١).

وللموت مباهجُه أيضاً!! ألم يقل المعري في سِقْط زنده:

ضَجْعَةُ الموتِ رَقْدَةٌ يَستريح الـ جِسمُ فيها والعَيشُ مِثْلُ السُّهادِ

وفي لزومياته:

ما أَوْسَعَ الموتَ يَسْتَرِيحُ به الـ   جِسْمُ المُعَنَّى ويَخْفِتُ اللَّجَبُ

ويقول ماركوس: ".. فسوف يهون عندك لقاء الموت إذا نظرت إلى الأمور التي سوف يعفيك منها والشخصيات التي لن تعود تنغص روحَك" (٩-٣). "الموت انعتاقٌ من أي استجابة للحواس، ومن خيوط دُمَى الرغبة، ومن العقل التحليلي، ومن خدمة اللحم" (٦-٢٨). "انظر أي عناء نحتمله في هذه المسافة (بين الميلاد والموت)، وأية صحبة تكتنفنا فيها ومع أي صنف من الناس، وفي أي جسد واهن نقطعها بجهد جهيد" (٤-٥٠). ألا يكفي أن الموت يُخْرِجُك من ضجر الرتابة والتكرار: ".. كل شيء هنا وهناك هو نفس الشيء وبنفس الأسباب، فإلى متى؟!" (٦-٤٦).

"عليك إذن أن تقضي هذه الكسرة الضئيلة من الزمان في تناغم مع الطبيعة، وأن تغادرها راضياً، مثلما تسقط زيتونة حين تبلغ النضج، مبارِكةً الأرضَ التي حملَتْها، وشاكرةً للشجرة التي منحتها النماء" (٤-٤٨).

* * *

تناقضات ومصاعب منطقية: ثمة صعوبة يجدها المرء لدى جميع الرواقيين في التوفيق بين الحتمية وحرية الإرادة. يقول ماركوس "خُلِقَ البشر من أجل بعضهم البعض" عندما يفكر في

واجبه كحاكم. ويقول في الصفة نفسها "الشرير لا يؤذي غيره" عندما يفكر في المذهب القائل بأن الإرادة الفاضلة هي وحدها الخير. ولم يستدل قط على أن خير الواحد من البشر لا يقدم خيراً لغيره، وأن ماركوس ما كان ليؤذي أي شخص غير نفسه لو أنه كان امبراطوراً سيئاً كنيرون، مع أن هذه النتيجة تبدو مترتبة على مقدماته. يقول ماركوس "من الطبيعة الإنسانية أن تحب حتى من يزلون ويسقطون. يتبين ذلك إذا ما أخذتَ باعتبارك، حين يخطئون، أن البشر إخوة، وأنهم يخطئون عن جهل وليس عن عمد، وأن الموت لا يلبث أن يطويك ويطويهم. والأهم، أن المخطئ لم يضرك ـ ولم يجعل عقلك الموجِّه في وضعٍ أسوأ مما كان عليه من قبل" ويقول "أحب الجنس البشري.. اتبع الله.. ويكفي أن تذكر أن القانون يحكم الكل". هذه الفقرات تكشف بجلاء شديد تلك التناقضات الصميمة في الأخلاق واللاهوت الرواقيين. فالعالم كلٌّ واحد حتمي تماماً بحيث إن كل ما يحدث فإنما هو معلول لعلل سابقة. والإرادة الفردية في الوقت نفسه مستقلة تمام الاستقلال، ولا يمكن أن يُرغَم أحد على الإثم بأسباب خارجية. هذا تناقض. وهناك تناقض آخر وثيق الصلة به: فحيث إن الإرادة مستقلة، والإرادة الخيرة هي وحدها الخير، فمن غير الممكن لأحد أن يُلحِق بغيره خيراً أو ضراً: الإحسان إذن وهم![1]

(1) History of Western Philosophy, pp. 272-273.

أما الحصانة والمنعة اللتان يتمتع بهما العقل الرواقي (لا يضر ولا يعاق ما لم يضر نفسه أو يعق نفسه. . بوسعه أن يحتفظ بسكينته وألا يقيِّم الألم على أنه شر، وعلى الجسد المتضرر أن يرى في الأمر ما يراه.)، أما هذه المنعة أو الحصانة العقلية فأمر يتناقض مع الوقائع الإمبيريقية: إن أقل اضطراب جسدي، من مثل عسر الهضم، كفيل بأن يؤدي إلى عس المزاج ويؤثر على فضيلة المرء. وثمة أفانين من التعذيب تؤدي إلى انهيار عزيمة أي إنسان. كذلك العقاقير، كالأفيونات أو الكوكايين، يمكن أن تكسر إرادة أي إنسان وتطوعه وتفل عزيمته. فالإرادة ليست مستقلة عن الطاغية إلا إذا كان الطاغية غير مُلِمٍّ بالعلوم. يبدو أن الإرادة، الخيرة والشريرة، تخضع لأسباب وتتأثر بعوامل، وليست مستقلة إلى الحد الذي تصوره ماركوس والرواقيون[1].

وثمة تناقض آخر: ففي حين يدعو الرواقي إلى الإحسان إلى الغير، فإنه يؤمن، نظرياً، بأنْ لا أحد يمكن أن يقدم خيراً ولا شراً لغيره، مادامت الإرادة الفاضلة هي وحدها الخير ومادامت الإرادة الخيرة مستقلة عن الأسباب الخارجية. إنه تناقض شديد الوضوح فكيف أغفله الرواقيون؟! أغفلوه لأن لديهم ضربين من الأخلاق: أخلاقاً عليا تخص الرواقيين وأخلاقاً دنيا تخص الطغام. عندما يفكر ماركوس الرواقي عن نفسه فإنه يؤمن أن الخيرات الدنيوية غير فارقة indifferent والانشغال بها قد يضر المرء ويجعله يتمرد

(1) Ibid., pp. 273-274.

على إرادة "الكل" . غير أنه في الصعيد العملي حيث يدير الامبراطورية الرومانية فإنه يعرف جيداً أن هذا الفكر النظري لن يفيد: إن واجبه أن يرى أن شحنات الحبوب من أفريقيا تصل إلى روما في أوانها؛ وأن الإجراءات تُتَّخذ لتخفيف ويلات الطاعون، وأن الأعداء البرابرة لا يجب أن يُسمَح لهم باختراق الحدود. أي أنه فيما يتعلق برعاياه، الذين لا يعتبرهم فلاسفة رواقيين، يذعن للمعايير الأرضية المعتادة فيما هو خير أو شر. إنه يطبق هذه المعايير الدنيا لكي يؤدي واجبه كحاكم، والتناقض هنا أن هذا الواجب نفسه هو ما ينبغي على الحكيم الرواقي الالتزام به، مع أنه مستنبَط من منظومة أخلاقية يعدها الحكيمُ الرواقي مغلوطةً في الصميم[1].

(1) Ibid., p. 274.

3

العلاج الرواقي

"مدرسة الفيلسوف عيادةُ طبيب"

(محادثات إبكتيتوس - ٣: ٢٣-٣٠)

الفلسفة طب العقول

يقول شيشرون "ما لم يتم علاج الروح، وهو أمر لا يمكن بلوغه إلا بالفلسفة، فلن تكون ثمة نهايةٌ لأوصابنا". ويقول سنكا: "الفلسفة تشكل النفس وتشَيِّدها، وتنظم الحياة وترشد السلوك، وتبين ما يجب فعله وما يجب تركه، وتجلس على دفة القيادة وتهدي مسارنا ونحن نتأرجح وسط الشكوك". ويقول ماركوس أوريليوس: "لا تَعُد إلى الفلسفة كما يعود الطفلُ إلى المعلم، بل كما يعود الأرمدُ إلى إسفنجته ومرهمه، أو يعود آخرُ إلى كِمادته وغَسوله. بذلك سوف تبرهن على أن إطاعة العقل ليست عبئاً كبيراً، وإنما هي مصدر راحة. تذكَّر أيضاً أن الفلسفة لا تريد إلا ما تريده طبيعتُك، في حين تطلب أنت شيئاً يجافي هذه الطبيعة. فأي شيء أدعَى إلى القبول من حاجات طبيعتك نفسها؟ هذه هي ذات الطريقة التي تخدعنا بها اللذة: ولكن انظر ألستَ

ترى شيئاً أكثر قبولاً في الشهامة والكرم والبساطة والاتزان والتقوى؟ وأي شيء أكثر قبولاً من الحكمة ذاتها إذا كان ما يهمك هو التدفق المطمئن والدائم لملكتنا الخاصة بالفهم والمعرفة؟" (٥-٩).

الفلسفة عند ماركوس هي علاج وملاذ، ورفقة حياة: "الحياة صراع ومُقام غربة، والمجد الوحيد الباقي هو الخمول. أي شيء إذن بوسعه أن يَخْفِرنا في طريقنا؟ شيء واحد، وواحد فقط: الفلسفة. وما الفلسفة سوى أن تحفظ ألوهتَكَ التي بداخلك (عقلك) سالمةً من العنف والأذى، وأن ترتفع فوق الألم واللذة، ولا تفعل شيئاً بلا هدف، أو بلا صدق أو بلا أصالة، وأن تترك ما لا يعنيك مما يفعله الآخرون أو لا يفعلونه. وأن تقبل كل ما يجري عليك ويُقَدَّر لك بوصفه آتياً من نفس المصدر الذي منه أتيتَ.

وأخـيراً أن تنتظر الموتَ بـنفسٍ منشرحـة على أنه مـجرد انحـلال للعناصـر المكوِّنة لكل شيء حي. فـإذا لم يكن بأسٌ في التحـرك الدائم للعناصر من عنصر إلى آخر ففيمَ التوجُّسُ من تغير العناصر جميعـاً وانحلالها؟ ذلك شيء موافق للطبيعة، ولا ضـير البتة في أي شيء موافق للطبـيعة" (٢-١٧). فـإذا كان عملُنا وتخـصصُنا مفروضاً علينا، كزوجة الأب، فلتكن الفلسـفةُ لنا أماً طبيعية نلوذ بها على الدوام بالفطرة والغريزة، فنعـود من ثم إلى عملنا نحتمله ويحتملـنا: "إذا كان لك زوجةُ أبٍ وأمٌّ في الوقت نفسـه، فسوف ترعَى زوجةَ أبيك ولكن التجـاءَك الدائم سيكون إلى أمك. فليكن البلاط والفلسـفة بالنسبـة لك كزوجة الأب والأم، لتكن الفلسـفة لك ملاذاً دائماً ومُستَراحاً ومَوْئلاً، حتى تجعل القصرَ يبدو محتملاً لك، وحتى تبدو أنتَ محتمَلاً في القصر" (٦-١٢).

ليست الرواقية مـجرد مذهب فلسفي يحتوي، فيـما يحتويه، على نظرية للعلاج النفسي. إنما يمكن اعتبار الرواقـية في صميمها علاجاً نفسياً وإن كـان قائماً على أساسٍ فلسفي عريض[1]. الحياة السعـيدة (اليـوديمونية) عند الـرواقيين، أي الحيـاة السلسة الـتدفق الخالية من الاضطراب والانفعال، هي الحيـاة الصالحة، الحياة وفقاً للفضيلة. والفـضيلة هي الوفاق مع الطبيعـة أي مع العقل: العقل

(1) Don Woollen Jr. A Preliminary Study of Stoicism as Psych-therapy: Practical Philosophy 6:2 (Autumn 2003)- Frontiers of Philosophy in Practice.

الكلي والعقل الفردي (وهو جزء من العقل الكلي). يقول ماركوس: "بالنسبة لكل كائن عاقل فالعمل وفقاً للطبيعة هو أيضاً العمل وفقاً للعقل" (٧-١١). والفضيلة هي في الفعل العقلاني المستقيم المتجرد من أي غرض آخر. وتُماهي الرواقيةُ بين السعادة والحكمة والفضيلة: فالرجل السعيد هو الرجل الصالح وهو الرجل الحكيم.. مواطن العالم: الكون مدينته، والبشر إخوانه، وكل ماعدا ذلك من انتماءات هي أمر ثانوي عرضي. والحكيم يحب قدَرَه ويحتضن مصيرَه ويرضى بنصيبه من "الكل". يقول ماركوس: "لا تحب إلا ما ألَمَّ بك ونُسِجَ لكَ من خيط مصيرك. فأي شيء أنسب لك من هذا؟" (٧-٥٧).

تلح الرواقية على الثبات في الشدائد وتحمُّل المحن والخطوب، حتى لقد أصبحت كلمة "رواقي" stoical، شأنها شأن كلمة "فلسفي" philosophical، مرادفةً للثبات والسكينة وضبط النفس، والمناعة ضد المفاجئ والمباغت. "فن الحياة أشبه بفن المصارعة منه بفن الرقص، فهو أيضاً يتطلب أن يكون المرء مستعداً لمواجهة ما يحدث بغتةً وعلى غير انتظار" (٧-٦١). "اذرَعْ حياتَك دون أي ضغطٍ قهري، وفي أتم سكينة عقلية، حتى لو هتف العالم كله ضدك، وحتى لو مزقت الوحوش أعضاء هذه الكتلة الجسدية البائسة الملتحمة حولك" (٧-٦٨). "كن مثل رأس الأرض في البحر تتكسر عليه الأمواج بلا انقطاع وهو ثابت وطيد يخمد من حوله جيَشانُ الماء.." (٤-٤٩). "تَذَكَّر في نوبات

غضبك أن الغضب ليس من الرجولة في شيء، وأن الرحمة واللِّين أكثر إنسانية وبالتالي أكثر رجولة. فالرحماء هم ذوو القوة والبأس والشجاعة وليس القساة ولا الساخطون. فكلما تحَكَّمْتَ في انفعالاتك كنتَ أقربَ إلى القوة. فالغضبُ دليلُ ضعف شأنه شأن الجَزَع. فالغاضبُ والجَزِعُ كلاهما أُصِيبَ وكلاهما استَسلَم" (١١-١٨).

لكي تكون لدينا نظرية علاجية ينبغي أن يكون المدخل العلاجي مستمَداً مباشرة من نظرية سيكوباثولوجية شاملة. ولكي تكون لدينا نظرية في السيكوباثولوجيا ينبغي أن تشتمل هذه النظرية على تعريف لـ "السواء" normality ووصف للنمو الإنساني السوي.

يذهب الرواقيون إلى أن الميول السوية للكائنات، أي النزعات الأولى السابقة على أي رويَّة أو إرادة هي نوعان: ميول ترمي إلى حفظ الفرد نفسه، وميول ترمي إلى حفظ الجماعة التي ينتمي إليها الفرد. فكل موجود حي إنما يملك في الأصل بنيته الخاصة وله شعور بها. ومن أجل ذلك كان دائم البحث عما يلائمها والبعد عما لا يلائمها. ومن قال إن اللذة هي أول ما ترغب فيه الموجودات فقد أخطأ[1]؛ إنما تحصل اللذة للموجود حين يجد ما

(1) يقول ماركوس: "أما اللذة فإن القراصنة والمأبونون والطغاة ليتمتعون بها غاية المتعة. لو كانت السعادة هي اللذة لكان اللصوص والمأبونون وقتلة آبائهم والطغاة هم أسعد الناس" (٦-٣٤).

يتفق مع بنيتـه. والخير لكل موجود هو موافـقته طبيعتـه الخاصة. وموافقة الطبيعة عند الإنسان عبارة عن الحياة وفاقاً للعقل. والعقل هو الجزء الرئيسي فينا الذي يقـوِّم ماهيتَنا بما نحن ناس. ويلزم عن ذلك أن الحياة وفاقاً للطبيعـة هي الحياة وفاقاً للعقل. لكن الإنسان حين يحيا وفاقاً للعقل، لا يكون مـوافقاً لنفسه فحسب، بل يكون موافـقاً لمجموع الأشـياء أي للكون بأسره: لأن العـقل لا يختص بالإنسان وحـده. بل هو أيضاً من خصـائص الموجود الكلي، أي من خصـائص الكون. والعقل الإنساني ليس إلا جـزءاً من العقل الكلي الشامل؛ فبـالعقل نحيا في وئام مع أنفسنا، كمـا نحيا على وئام مع العالم أجمع[1].

يحـدد آرون بك في كـتابه "العـلاج المعـرفي والاضطرابات الانفعالية" خـمسة شروط للنظرية السيكوبالوجـية الصالحة، نراها جميـعاً مستـوفاة في العلاج الرواقي: (١) أن تفـسر الظاهرة التي تتناولهـا بأقل تعقيـد ممكن. (٢) أن تكون من المرونة بحيـث تتيح إنشاء تقنيات جديدة؛ دون أن تكون من التسـيب أو التعقيد بحيث تسمح لكل دخيل أو مرتجل من الإجراءات وتجد له تبريراً. (٣) أن تكون "قابلة للتحـقق" التجريبي verifiable أي قابلة للاختبار. (٤) أن تكون النظرية السيكوبالوجية وثيـقة الصلة بالعلاج النفسي الخاص بها، أي أن تكون المبادئ العلاجية المستفادة مستمدة منطقياً منها. (٥) أن تقـدم أساسـاً يبين لنا لماذا تعد التقـنيات العلاجـية

(1) الفلسفة الرواقية، ص ١٩٨-١٩٩.

المستمدة منها فعالة وناجعة، أي يكون المبرر المنطقي للعلاج وطريقة عمله متضمنين في النظرية.

العلاج العقلاني الانفعالي والعلاج المعرفي

ولعل من المفيد لنا في فهم النموذج العلاجي الرواقي أن نضاهي بينه وبين غيره من النماذج العلاجية. ومن النماذج العلاجية الحديثة التي تأسست بالكامل على النظرية الرواقية: العلاج العقلاني الانفعالي عند ألبرت إليس، والعلاج المعرفي السلوكي عند آرون بِك.

يقول ألبرت إليس: "يعود أصل العلاج العقلاني الانفعالي إلى الفلاسفة الرواقيين، وبخاصة إبكتيتوس وماركوس أوريليوس. ورغم أن أغلب الكتابات الرواقية الأولى ضاعت فإن زبدتها قد جاءتنا من خلال إبكتيتوس الذي كتب، في القرن الأول الميلادي، في "المحادثات" Discourses : "ليست الأشياء هي ما يكرب الناس، بل فكرتهم عن الأشياء"[1].

يصف إليس التسلسل الذي ينتقل من الحدث إلى الاستجابة الانفعالية، ويسمي هذا النموذج ABC : حيث Aهي المنبه المنشط أو الحدث المثير Activating event، و C هي الاستجابة الشرطية Conditioned response ، و B هي الفراغ[2] Blank

(1) Albert Ellis, Rational-Emotive Therapy: in Current Psychotherapies, F.E. Peacock Publishers. Inc. 1989, p. 202.

(2) هي أيضاً "الاعتقاد" Belief الذي نملأ به هذا الفراغ.

الكائن في ذهن المريض، والذي يمكن حين يملؤه أن يكون بمثابة جسر يصل بين A و C. بذلك يصبح ملء الفراغ، بمادة مستمدة من المنظومة الاعتقادية Belief system للمريض _هو المهمة العلاجية الأساسية. وبتعبير آخر فإن A هو الحدث الذي يحدث للفرد، و B هو المنظومة الاعتقادية Belief للفرد، أي تأويله الشخصي للحدث A، و C هي النتيجة الانفعالية التي يخبرها الفرد. ورغم أن معظم الناس يظن أن الحدث هو الذي يؤدي إلى انفعالهم، فإن إليس يجبهنا بغير ذلك: فالحقيقة أن تأويل الفرد للحدث، أي اعتقاده عن الحدث، هو ما يؤدي إلى استجابته الانفعالية. فالاعتقادات العقلانية تفضي إلى استجابات انفعالية عقلانية، والاعتقادات غير العقلانية تفضي إلى عكس ذلك. الاعتقادات غير العقلانية، إذن، هي العنصر المُمْرِض في هذه المنظومة. والتقنيات العلاجية هي تقنيات مصمَّمَة لكي نفند بها هذه الاعتقادات ونستبدل بها اعتقادات جديدة أكثر عقلانية تؤدي في النهاية إلى استجابات انفعالية جديدة.

أما آرون بِك، مؤسس العلاج المعرفي، فيقول في كتابه "العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية" بصريح العبارة: "هذا المنهج الجديد يقوم في الحقيقة على دعائم فلسفية ليست جديدة، بل هي موغلة في القِدم، وتعود إلى زمن الرواقيين. لقد اعتبر الفلاسفة الرواقيون أن فكرة الإنسان عن الأحداث، وليست الأحداث ذاتها، هي المسؤولة عن اختلاله الانفعالي. إلى هذا

المنطق الرواقي يستند هذا العلاج الجديد _العلاج المعرفي. فالمشكلات النفسية ترجع بالدرجة الأساس إلى أن الفرد يقوم بتحريف الواقع وليٍّ الحقائق بناءً على مقدماتٍ مغلوطة وافتراضات خاطئة. وتنشأ هذه الأوهام عن تعلم خاطئ حدث له أثناء مراحل نموه المعرفي. وبصرف النظر عن منشأ الأوهام، فإن صيغة العلاج تفصح عن نفسها ببساطة: فَعَلَى المعالج أن يساعد المريض على كشف مغالطاته الفكرية وتَعَلُّم طرائق بديلة أكثر واقعية لصياغة خبراته[1].

"ولكن ماذا عن تلك الانفعالات التي تقع للإنسان فجأة في غياب أي حدث خارجي يفسرها؟ في تأويل ذلك نقول إنه بالإمكان دائماً أن نتحقق من وجود "حدث معرفي" cognitive event، وهو فكرة أو ذكرى أو صورة، مندمج في المجرى الطليق للوعي، ومسبب لهذه الاستجابة الانفعالية. وقد يكون هذا الاتجاه المعرفي السائد هو علة استمرار الانفعالات غير السارة في الاضطرابات الانفعالية كالاكتئاب والقلق. كثير من السلوكيين لا يوافقوننا على أن الفكر يلعب دوراً محورياً في تشكيل الانفعال. ويحاول بعضهم أن يثبت أن المنبهات الخارجية تولِّد الاستجابة الانفعالية بصورة مباشرة وأن الشخص يقحِم تقييمه المعرفي

(1) آرون بِك: "العلاج المعرفي والاضطرابات الانفعالية"، ترجمة: د. عادل مصطفى ومراجعة أ. د غسان يعقوب. دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٥

للحدث بعد ذلك باستعادته وتأمله، أي "بأثر رجعي". ولكننا نستطيع أن نؤكد أن الشخص الذي تدرب على أن يرصد أفكاره ويمسك بها بمقدوره أن يلاحظ مراراً وتكراراً أن تفسيره للموقف يسبق استجاباته الانفعالية. فهو إذ يرى سيارة منطلقة نحوه على سبيل المثال، فإنه يفكر أولاً: "إنها ستصدمني" ثم يشعر بالقلق. بل إنه قد يغير تقييمَه للموقف فتتغير استجابته الانفعالية. إن من الصعب في الحقيقة أن نتصور كيف يمكن لشخص أن يستجيب لحدثٍ ما قبل أن يقيِّم طبيعةَ الحدث. وعلى النقيض من المنبهات المعملية البسيطة من مثل رنين الجرس أو صدمات الكهرباء، الشائعة في التجارب السلوكية، فإن مفرداتنا البيئية الدالة تتسم عامةً بالتركُّب والتعقيد بحيث تتطلب منا "ملكة الحكم" judgement لكي نقرر ما إذا كان موقفٌ ما مأموناً غير ذي خطر، وما إذا كان شخص ما صديقاً أو عدواً. تتجلى أهمية الكشف عن الوجه المعرفي للشخص بشكل خاص حين نكون بصدد استجابات انفعالية نقيضية. فحين نقف على المحتوى المعرفي ندرك على الفور أن ما يبدو مفْرِطاً غير واقعي من الغضب أو القلق أو الحزن الذي يبديه الشخص يستند في الحقيقة إلى تقديراته الشاذة للحدث. وفي أمراض الانفعال تسود وتطغى هذه التقديرات الشاذة[1].

هذه الدعوى القائلة بأن المعنى الخاص للحدث هو الذي يحدد الاستجابة الانفعالية له، تشكل جوهر النموذج المعرفي للانفعال

(1) المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣

واضطراباته. يُذْخَر هذا المعنى في مفردة معرفية a cognition هي عادةً فكرةٌ أو صورة خيالية. وفي بعض الأحيان تتألف المفردة المعرفية من دلالةٍ إضافية connotation أو حكم قيمة value judgement من قبيل "مخيف" أو "رائع". ومن المألوف أن نصادف انفعالاً معيناً لا يربطه سببٌ واضح بالماجريات الخارجية. فإذا طاف بنا في لحظةٍ ما طائفٌ من خيال أو كنا نجتر خاطراً ما، فإن انفعالنا إذّاك سيكون وليد الرؤيا أو الفكرة من دون المثير الخارجي. ثم إننا إذا حرّفنا واقعةً ما أو أسأنا تأويل موقف ما إساءةً بالغة فإن استجابتنا ستكون وفقاً لتحريفاتنا لا لِواقعِ الموقف، وانفعالنا سيأتي تابعاً للوهم لا للحقيقة[1].

يتألف العلاج المعرفي بمعناه الواسع من كل المداخل التي من شأنها أن تخفف الكرب النفسي عن طريق تصحيح المفاهيم الذهنية الخاطئة والإشارات الذاتية المغلوطة. ولا يعني تركيزنا على التفكير أن نغمط أهميةَ الاستجابات الانفعالية التي هي المصدر المباشر للكرب بصفة عامة. إنما يعني ببساطة أننا نقارب انفعالات الشخص من خلال معرفته أو من طريق تفكيره. وبتصحيح الاعتقادات الخاطئة يمكننا أن نخمد أو نغير الاستجابات الانفعالية الزائدة وغير المناسبة[2].

(1) المرجع نفسه، ص ٦٥-٦٦

(2) المرجع نفسه، ص ٢٢٧

إن مساعدة المريض في التعرف على تحـريفاته وتصحيحها هي عملية تتطلب استخدام مبادئ إبستمولوجية معينة: إن المعالج لَينقل إلى المريض ويبلغه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مبادئَ معينة: أولا: أن إدراكه للواقع ليس هو الواقع نفـسه. بل هو على أفضل تقدير صورة استقرابية للواقع. فالعينة التي يلتقطها للواقع هي عينة محـدودة بحدود وظائفه الحسـية _البصـر والسمع والشم.. إلخ. وهي حدود متـأصلة مفطورة. ثانياً: أن تأويلاته للمُـدخَل الحسي sensory input تتـوقف على عمـليات مـعرفـيـة من قبـيل دمج المنبهـات (المثيـرات) وتفريقهـا، وهي عمليات عُـرضةٌ بطبـيعتـها للخطأ. إن العمليات (والمداخلات) الفسيولوجية والسيكولوجية قد تغير إدراكنا وفهمنا للواقع تغييراً كبيراً.

كلنا يعرف جيداً أن تحريف الواقع قد يحدث عندما يكون المرء تحت تأثير العقـاقير، أو عندما يكون في حـالة إجهاد أو نقص في الوعي أو في حالة من الاستثارة الشديدة. وقد سبق أن رأينا أيضاً أن تقيـيم الواقع قد يعـتريه الخلل من جـراء بعض الأنماط الفكرية اللاواقعية. ففي عصـاب القلق، على سبيل المثال، يتمثل المريض جميع المنبـهات، حتى المأمونة منها، بطريقـة تجعلها توحي بالخطر وتنذر به. يسـتلزم استـخدام التقـنيات السيـكولوجية لـعلاج هذا العـصاب أن يكون المريض قـادراً من الأصل على أن يميـز ويدرك الفوارق بين الواقع الخارجي (المثيرات المحايدة غير المؤذية) من جهة والظاهرة السيكولوجية (تقييم الخطر) من جهة أخرى. ليس بمقدور

بعض المرضى (كمرضى الانسمام بالعقاقير ومرضى الذهان الحاد ذي الضلالات) أن يعي أو يميز هذا الفرق.

كذلك يتوجب على المريض أن يكون قادراً على أن يختبر الفرضيات ويمحصها قبل أن "يصَدِّق" assent عليها ويسلم بها كحقائق. فالمعرفة التي يُعَوَّل عليها تعتمد جوهرياً على امتلاك معلوماتٍ كافية تسمح لنا باختيار الأصح والأقوم من بين فروض بديلة[1].

مجمل العلاج المعرفي: صفوة القول أن العلاج المعرفي يقوم على نظرية في الشخصية ترى أن الفكر هو الذي يحدد الشعور والسلوك؛ أي أن الطريقة التي يفكر بها المرءُ هي التي تحدد الطريقة التي يشعر بها والأسلوب الذي يسلك به في أفعاله. ومن ثم يتألف العلاج من عملية تحقق تجريبي واختبار للواقع وحل للمشكلات يتحالف فيها المعالِجُ والمريض ويتعاملان مع الأفكار اللاتكيفية للمريض بوصفها فرضياتٍ قابلةً للاختبار، ويحاولان البحث عن أدلة تدحض هذه الفرضيات وتؤيد اعتقادات تكيفية بديلة تُفضي إلى التغير العلاجي المنشود.

ترى هذه النظرية أن عملية معالجة المعلومات لها دور حاسم في حياة الكائن العضوي وبقائه. فلو لم يكن للإنسان جهاز وظيفي يتلقى المعلومات ذات الصلة من البيئة ويقوم بمعالجتها وتركيبها ويصوغ خطة للفعل بناءً على هذا التركيب لكان مصيرُه الهلاكَ العاجل.

(1) المرجع نفسه، ص ٢٤٧-٢٤٨

وما يحدث في الحـالات المرضية من اكتـئاب وقلق ووسواس ورُهاب وبارانويا. . إلخ هو أن هناك تحيزاً منظماً يتدخل في عملية مـعالجـة المعلومـات. ثمة تحـيـز محـدَّد يلعب دوراً في منظومـة الأعراض الخاصـة بكل مرض من هذه الأمراض. فإذا كـان تفكير المرء يميل انتقائياً إلى تركيب ثيمات الخـسارة والفقدان والهزيمة فهو حري أن يصـير مكتئبـاً. وإذا كان تفكيره يميل إلى تأويل المثـيرات البيئية كدلائل خطر فهو مستهدفٌ للقلق. . وهكذا.

ومادام منشأ المرض هو وجـود تحيز وميل انتـقائي يتدخل في عملية معالجة المعلومات، فإن الهدف العلاجي المباشر هو "تحويل" جهاز معالجة المعلومات إلى وضع أكثر حياداً بحيث يقيِّم الأحداث بطريقة أقـرب إلى الاعتدال. الأمر هـنا أشبه ببرنامج الحـاسوب: فلكل اضطـراب برنامج خـاص هو الذي يملِي صنـفَ المعلومـات المسموح بإدخالها ويحدد السلوك الناتج. في عصاب القلق، مثلاً، يتم تشغـيل "برنامج حفظ الذات أو البـقاء": فيلتـفت الشخص انتـقائيـاً لإشارات الخطر، ولا يلتـفت لإشارات الأمـان. ويكون السلوك الناتج متـسقاً مع الطريقة التي تُدمَج بهـا هذه المعلومات، وهو سلوك يفرض على المرء أن يتفاعل مع المثيرات الهينة والمأمونة على أنها تمثل مخاطـر كبرى، ويستجيب لها استـجابةَ التجنب أو الهروب. ومن ثم تتـألف التقنيات العـلاجية من إيقـاف مثل هذا البـرنامج اللاتكيفي و"تحـويل" الجـهاز المعـرفي إلى وضع أكثـر اعتدالاً. ويتـم هذا التحويل عن طريق فحص منهـجي للتأويلات

الخاطئة وتصحيحها، والقيام بتغذية النظام بالمعلومات الصحيحة تغذية راجعة، الأمر الذي يحفز على إعادة التوافق ويدعم التوافق الجديد.

السيكوباثولوجيا الرواقية

إذا عدنا الآن إلى المصطلح الرواقي في السيكوباثولوجيا، نجد أن حجر الزاوية في النمو الأخلاقي عند الرواقيين هو "الاستخدام الصحيح أو القويم للانطباعات" (المحادثات- ١:١-٧، ٢: ٢٢-٢٩، ٤: ٦-٣٤). وقد قلنا آنفاً إن المعرفة عند الرواقيين تبدأ بـ "الانطباع" impression (phantasia) أو "التمثيل" representation أو "المظهر" appearance؛ وهو الأثر الذي يطبعه في الذهن شيءٌ خارجي كما ينطبع الخاتم على الشمع. والانطباع هو أكثر من مجرد مادة حسية خام؛ إنه خبرة حسية مصوغة على هيئة "قضية" proposition أو موضوعة في شكل "قَضَوِي" propositional . قد تكون هذه خبرة خارجية مدركة بواسطة الحواس أو خبرة داخلية من قبيل الذكريات أو التخيلات.

ولكي يكون الانطباع "قضوياً" propositional فلابد من أن يكون "تأويلاً" من صنفٍ ما. قد نقول عند هذه المرحلة إن شخصاً ما لديه "انطباع بـ" شيءٍ ما ..impression of (انطباع بِقِطة على البساط مثلاً). ثم تأتي المرحلة الثانية، وتأتي سريعاً بحيث لا يميز الناس المرحلة الأولى ولا يلتفتون إليها، وهي أن

لديه "انطباعاً بأن" شـيئاً ما. . ..impression that (انطباعاً بأن هناك قطة على البساط). قد يكون الانطباع صـادقاً، أي أن البقعة السوداء على البساط تشبه القطة حقاً. ولكن المرحلة الثانية قد تقدم تأويلاً مختلفاً، مثل وجود "انطـباع بأن" هناك سترة على البساط (أي أنهـا لم تكن قطـة على الإطلاق). إن المرحلـة الأولى هي وجود وعي بـشيء ما أو بآخر، أمـا المرحلة الثـانية فهـي "التزام بتأويلٍ" يفيد أن شيئـاً ما أو آخرَ هو القائم. ذلك هو "التصديق" assent العـقلي على الانطـباع الـغُـفل، وهذا التـصـديق يخلق "اعتـقاداً" بأن القضـية المحتـواة في "الانطباع بأن" صـادقة. في الانتقال من "انطباع بـ" إلى "انطباع بأن" فإن الفرد يصْدِر "حكم قيمة"، أو يطبـق "تقييماً" بما إذا كان هذا الشيء مـرغوباً أو غير مرغوب (سـائغاً أو غير سـائغ/ مواتياً أو غيـر موات)، وإلى أي حد؛ أو بما إذا كان "غير فارق" indifferent، ولماذا هو كذلك. ويبقى التـحدي الإبستـمولوجي هو العثـور على "معيـار" يحدد صدق "الانطبـاع" وبالتالي يجيز لنا "التـصديق" assent عليه. قلنا آنفـاً إن الرواقيـين خلصوا إلى أن هذا المعـيار هو "التـصور المحيط" أو الـقاهر phantasia katalêptikê أي الانطباع الأبلج الواضح الذي يحمل في داخله آية صدقه ويتحلى بقوة تحملنا على التصديق به[1]. غير أنه في حالة الانطبـاعات المركبة التي تنطوي

٣٦٣ نجد نظير ذلك في اللغـة العربية في مادة "صَحْصَحَ" (ومـادة "حَصْحَصَ" أيضاً)؛ تقول العرب: "صَحْـصَحَ الأمرُ" أي تَبَيَّنَ؛ وفي الذكر الحكيم "الآن حَصْحَصَ الحقُّ".

داخلها على حكم قيمة تتعقد الأمور ويصبح "التصديق" على الانطباع أمراً صعباً. يرى الرواقيون أن أغلب البشر بعيدون عن المعيار العقلاني للحكيم المثالي بعداً كبيراً، ومن ثم فمن المقدَّر عليهم أن يصدِّقوا على انطباعات زائفة. وينصحنا الرواقيون بأن نمارس أشد الاحتياط والتريث حين نقوم بالتصديق على انطباعات محملة بالقيمة value-laden، وأن نتوقف عن الحكم إذا كان ثمة ما يدعو إلى أقل شك.

منظومة القيم الرواقية، إذن، هي جوهر الفلسفة الرواقية ولباب العلاج الرواقي؛ فهي تقدم المعيار الذي تُقَيَّم به الانطباعات. وهي عُرضة لسوء فهم كبير، وهي صادمة لتوقعات الناس، وحتى إذا أمكنهم فهمها بدقة فإن من الصعب على معظمهم قبولها. غير أنها النتيجة المنطقية لوجهة النظر الرواقية فيما يشكل الحياة السعيدة أو المزدهرة.

تتطلب الحياة السعيدة حصول الفرد دائماً على الأشياء التي يتوق إليها، وتجنبه دائماً للأشياء التي لا يريدها. إلى هنا يتفق الرواقيون مع غيرهم ويبدو الأمر من نوافل القول. تكمن المشكلة بالطبع في أن هذه الحال تستعصي على منالنا في أوقات كثيرة. قد أرغب في المال الوفير، أو الصحة الجيدة؛ ولكن قد يحول دون ذلك حوائل ليس لي بها يد. وبقدر ما يواتيني ما يَسُرُّني وينصرف عني ما يسوؤني أعتبر نفسي سعيداً. غير أن هذا بعينه هو ما يضعني تحت رحمة مجموعة من العوامل الخارجية، ويجعل حياتي، في الأغلب الأعم، في تقلب انفعالي دائم.

والحل الرواقي لهذه المعضلة هو أن نقصر رغباتنا على تلك المجالات التي لدينا عليها سيطرة مطلقة. وبقدر ما تتقلص رغباتنا تتقلص معها فرصة إحباطها. وفي نهاية التحليل نجد أننا لا نملك، في الحقيقة، سلطة مطلقة إلا في مجال واحد، وهو مجال أفكارنا: كيف نحكم على الأمور، ما نفكر فيه، اعتقاداتنا ومواقفنا. . وباختصار: ما نفعله بالانطباعات، أو "استخدامنا للانطباعات" أو المظاهر على حد تعبير إبكتيتوس. غير أن قدرتنا على السيطرة على أحكامنا لا تمثل إلا نصف المعادلة؛ فإذا كانت أحكامنا خاطئة فأية فائدة وأي فرق في أن تكون تحت سيطرتنا؛ إن الحياة السعيدة ستفلت منا على أية حال.

يرى الرواقيون أن الاستخدام الصحيح للانطباعات يتطلب: (١) تقديراً صحيحاً لصدق الانطباع. (٢) تقديراً صحيحاً لقيمة الانطباع. ويرون أن جميع الانطباعات أو المظاهر غير قادرة على منح السعادة ولا قادرة على منعها. إنها "لافارقة" indifferent في هذا الشأن. وهكذا فحكمك بأن مرض شخص تحبه هو شر إنما هو حكمٌ خاطئ، وحكمك بأن شفاءه خير هو حكم خاطئ بالمثل. يقول إبكتيتوس: "تَعَوَّد منذ البداية أن تقول لكل انطباعٍ مزعِجٍ: أنتَ انطباع، ولستَ الطريقة الوحيدة لرؤية الشيء الذي يَعرِض. ثم افحصه وقَدِّره بمعيارك الذي لديك" (المحادثات: ١-٣). ويصف الموقف الصحيح تجاه المظاهر أو الانطباعات في فقرة مأثورة يقول فيها: "ليست الأشياء ذاتها ما يكرب الناس، بل

أحكامهم عن الأشياء. الموت مثلاً ليس شيئاً مريعاً، وإلا لرآه سقراط أيضاً كذلك؛ وإنما المريع حقاً هو الحكم بأن الموت مريع. لذا فعندما ينتابنا الإحباط أو الاضطراب أو الحزن فإن علينا ألا نلوم غير أنفسنا، أعني غير أحكامنا نحن" (الموجز-6). إصدار أحكام قيمية صائبة، إذن، هو الشطر الثاني من المعادلة في مسألة "الاستخدام الصحيح للانطباعات".

لِإساءة الحكم على الانطباعات عواقب وخيمة، ليست مباشرة بالضرورة، وليست مقصورة على مجال الانفعالات. والنظرية الرواقية في ذلك أكثر عمقاً وإحاطة من نظريات العلاج العقلاني والمعرفي. يرى إليس، على سبيل المثال، أن الانخراط في التفكير غير العقلاني من شأنه أن يورِث انفعالات مفْرِطة وغير تكيفية، وأن هذه الانفعالات هي ما يشير إلى الحاجة إلى العلاج. من جهة أخرى قد يعتقد شخص بأن امتلاكه منزلاً للاستجمام في العطلات هو "خير"، رغم أنه وفق المنظومة القيمية الرواقية شيء "غير فارق" indifferent؛ فمادام المنزل سليماً فليس ثمة نتائج سلبية ناجمة عن هذا الحكم الخاطئ، ولا داعيَ للتدخل العلاجي في نظر المدارس السيكولوجية الحديثة بما فيها العلاج العقلاني الانفعالي. غير أن الرواقيين يرون رأياً آخر: إن إساءة الحكم ذاتها مرض، حتى لو لم تصحبه أعراضٌ انفعالية. فالأمراض الانفعالية، إن وجِدت، هي مجرد نتاج ثانوي للمرض. إنما تَكَوُّن العادات المعرفية السلوكية اللاتكيفية، والتي هي النتاج المزمن

للأحكام، هي ما يستحق التدخل العلاجي. فالأحكام الصائبة تربِّي عاداتٍ معرفيةً وسلوكية إيجابية، والعكس بالعكس.

يقول ماركوس: "والتقدم بالنسبة للطبيعة العاقلة هو ألا تساير أي شيء زائف أو مبهم فيما ينطبع عليها" (٨-٧). و"الموضوعية الرواقية" تعني القدرة على التمييز والفصل بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية. "اعرفْ نفسَك"..، ذلك المبدأ السقراطي المنقوش على معبد كاهنة أبولو في دلفي، هو جوهر المنطق الرواقي. غير أن هذه المعرفة تتخذ في الرواقية طابعاً خاصاً؛ فالمعرفة الحقة هي بالضبط تلك القدرة على تَبَيُّن حدود الذات الداخلية: أي التمييز الدائم، في اللحظة الراهنة، بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية، أي بين العقل والمادة. يقول ماركوس أوريليوس: "ما كان للطريقة التي مزجَتْكَ بها الطبيعة بالكل المركب أن تحول بينك وبين أن ترسم حداً يحدُّكَ ويحفظ ما هو لك تحت سيطرتك" (التأملات: ٧-٦٧). ويقول إبكتيتوس: "أن تتعلم (تتدرب في الفلسفة) تعني بالضبط أن تعرف أي الأشياء نملكه وأيها لا نملكه" (المحادثات - ٤ : ٥-٧) وبوسعنا أن نصور هذا التمييز برسم حدٍ تصوري - دائرة حول حدود الذات الحقيقية. وقد وصف الرواقيون عقل الحكيم المثالي المكتمل التحديد على أنه "مسيِّجٌ نفسَه"، و"قلعة داخلية" منيعة، و"كرة في توازن تام". وماهية النفس عند الرواقيين أنها "فعل مستقل للإرادة الحرة": نوايانا، وأفكارنا، وقراراتنا. هذه رؤية وجودية

عميقة إلى النفس: الإنسان هو، جوهرياً، إرادة حرة في حالة فعل، وكل ما عدا ذلك فهو خارج عن النفس. "اليقظة الرواقية" إذن تعني الوعي الذاتي الدائم بحركات العقل متحملاً كل المسئولية عن أحكامنا وأفعالنا ومخاوفنا ورغباتنا. تقتضي اليقظة أيضاً أن نتملك أفكارنا، ونسترد إسقاطاتنا ونعلق كل الأحكام القيمية والانفعالية. إن أفكارنا تُسقِط معنى وشكلاً على إدراكاتنا الحسية، وبفصل هذه عن تلك نصل إلى الحقيقة والموضوعية. يقول ماركوس: "العين السليمة ينبغي أن ترى كل ما هو قابل للرؤية ولا تقول "أريد الأشياء الخضراء فقط" - فهذا حال عين مريضة.. والمعدة السليمة ينبغي أن تتقبل كل الطعام بنفس الطريقة التي تتقبل بها الطاحونة كل ما صُنِعَت لِطَحنه. وكذلك العقل السليم ينبغي أن يكون مستعداً لكل الاحتمالات" (١٠-٣٥).

والمبدأ المحوري للمنطق الرواقي هو "ليست الأشياء ما يكرب الناس بل أحكامهم عن الأشياء". إنه مبدأ علاجي جرى على أقلامٍ لا حصر لها:

- **يقول ماركوس:** "إذا كان بك كرب من شيء خارجي، فإن ما يكربك ليس الشيء نفسه بل رأيك عن الشيء، وبوسعك أن تمحو هذا الرأي الآن" (٨-٤٧). "فالأشياء ذاتها خاملة، وإنما نحن الذين ننتج الأحكام عنها ونطبعها في عقولنا. وإن بوسعنا ألا نطبعها على الإطلاق، وأن نمحو في الحال أي حكم تصادف انطباعهُ" (١١-١٦).

- **ويقـول شكسبـير**: "ليس ثمة شيء حـسن أو قبيح، بل الفكر هو الذي يجعله كذلك" (هملت _الفصل ٢ المشهد ٢).

- **ويقول سـبينوزا**: "ورأيت أن كل ما كنت أخـشاه وكل ما كان يخيـفني لم يكن هو في ذاته حسناً أو سيئـاً. إنما كان كذلك بحسب ما كان العقل يراه ويتأثر به".

- والمعنى نفسه يصوغه المتنبي شعراً في قوله:

وما الخوفُ إلا ما تَخَوَّفَهُ الفتَى

ولا الأَمْنُ إلا ما يراهُ الفتَى أَمْنا

- ويصوغه المعري في اللزوميات:

إذا تَفَكَّرْتَ فِكْراً لا يُمازِجُـــــهُ

فَسادُ عَقْلٍ صَحِيحٍ هانَ ما صَعُبا

- ورسم كرافـاجو مرة صـورة جنونية لنفســه، كميـدوسة، جاعلاً بدلاً من الشعــر أفاعي فأظهر نفسه وقد عـذبته لدغاً ثعابينُ دماغه[1].

- وفي كتابه "غزو السعـادة" يقول برتراند رسل: "أعتقد أن التعاسـة تعود، إلى حد كبـير جداً، إلى آراء خاطئـة عن العالم، وإلى نظريات أخلاقية خاطئة، وعادات حياتية خاطئة".

(1) ألكسندر إليوت: البـصر والبصـيرة (ترجمه جـبرا إبراهيم جبـرا بعنوان "آفاق الفن")، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٤، ص١٤٣

- **ويقول مارك توين**: "إنني رجلٌ مُسِنٌّ عركتُ الحياةَ وعانيتُ ويلاتٍ لا تُحصى عدداً. غير أن معظمها لم يحدث قَط!!"

فإذا ما انتقلنا إلى "تأملات" ماركوس أوريليوس وجدناه يلح على هذه الفكرة المحورية مراراً وتكراراً: "لا تُزايدْ على رواية الانطباع الأول بشيء من عندك. افترض أنه قد جاءكَ أن شخصاً ما يَعيبُكَ؛ هذا ما رُوي، أما أنك قد أُضِرْتَ فهذا ما لم يُرْوَ. أو هبني أرى طفلي مريضاً؛ هذا ما أراه، أما أنه في خطر فشيءٌ لا أراه. هكذا التزم دائماً بالانطباع الأول ولا تُضِفْ عليه شيئاً من أفكارك أنت. وهكذا كل ما في الأمر؛ وإلا فإن بوسعك أن تضيف ما لا نهاية له إضافةَ مَن يعرف كل ما يجري في العالم" (٨-٤٩). "بوسعك أن تنحي الكثير من المنغصات غير الضرورية التي تكمن بأكملها في حكمك أنت" (٩-٣٢). "اطَّرِح الحُكمَ تجد الخلاص. ومَن ذا الذي يمنعكَ من هذا الاطِّراح؟!" (١٢-٢٥). "اليوم هربتُ من كل المنغصات، أو بالأحرى نَحَّيتُها جانباً. لم تكن هذه شيئاً خارجياً، بل كانت بداخلي.. إنها أحكامي ليس إلا" (٩-١٣). "ما أيسر أن تطرد من عقلك كل انطباع منغِّص أو عارض وتمحوه محواً؛ وتنعم للتو بلحظةٍ حاضرة مفعمة بالراحة والسكينة" (٥-٢). "العسل مر لدى المصابين باليرقان. والماء رعب لدى من عضتهم كلاب مسعورة. الكرة بهجة لدى صغار الأطفال. لماذا أنا غاضب إذن؟ أم ترى أن الحكم الزائف أقل

تأثيراً من الصفراء للمصاب باليرقان، أو السم في المصاب برهاب الماء؟" (٦-٥٧). "أفقْ من نومك، وعد إلى رشدك، لتدرك أن كل الذي عكر صفوك كان أضغاث أحلام؛ والآن وقد استعدتَ وعيَك مرة ثانية انظر إلى هذه الأشياء مثلما كنت تنظر إلى تلك الأحلام" (٦-٣١). "وعليكَ أن تأخذ كل شيء بقيمته وحجمه، فبذلك لن تبتئس إذا عبرتَ على التوافه ولم تُعِرْها وقتاً أطول مما تستحق" (٤-٣٢). "لا تحلم بامتلاك ما لا تمتلكه، بل تأمل النعم الكبرى فيما تملكه.." (٧-٢٧). "أزِل الحكمَ تكن قد أزلتَ فكرة "لقد تضررت". أزِل فكرة "لقد تضررت" يكن الضرر نفسه قد أُزيل" (٤-٧). "..فلستُ مُضاراً إلا إذا عقدتُ الرأي بأنه ضرر، وبوسعي ألا أرى هذا الرأي" (٧-١٤). "إذا نَحَّيتَ حُكمَك على أي شي يبدو مؤلماً فأنت نفسُك ستكون محصناً تماماً من الألم" (٨-٤٠). "مَن منا ليس هو السبب في كَربِه الشخصي، وليس قلقُه من صنع يديه؟ تأمَّلْ: ليس ثمة امرُؤٌ يُعاق بِغَيرِه، وإنما كل شيء هو كما يجعله التفكيرُ كذلك" (١٢-٨).

ومن التقنيات العلاجية التي يلح عليها ماركوس في "التأملات" ذلك التحليل الجوهري الذي يجرد الأشياء من قشورها وواجهاتها الخارجية الزائفة، وصولاً إلى "الانطباع الموضوعي" الذي "يصدق" عليه الحكيم ولا يصدق على شيء سواه: "ما أطيب، عندما يكون أمامك لحم مشوي أو ما شابه من الأطايب، أن تستحضر في ذهنك أن هذا جثة سمكة، وهذا جثة

طائر أو خنزير، ثم أن هذا النبيذ الفاليري مجرد عصير عنب، وأن رداءك الأرجواني ليس أكثر من فراء خروف منقوع في دم المحار!. كذلك فليكن دأبك طوال حياتك: حيثما تبدَّت الأشياء خلابة المظهر فجردها وتَفَرَّس في طبيعتها الزائفة واخلع عنها كل دعاوى الزهو والخيلاء.. " (٦-١٣). "..مرة أخرى: الرخام مجرد راسب في الأرض، الذهب والفضة مجرد رواسب، رداؤك شعر حيوان، أرجوانك دم محارة، وهلم جرا.. " (٩-٣٦).

المواجَدة..النفاذ إلى عقول الآخرين

يلح ماركوس في "التأملات" على رابطة القُربَى بين بني البشر، تلك الآصرة القائمة على انتسابهم إلى عقل واحد، والتي تُلْزِم الإنسانَ بالتعاون مع الآخرين والرفق بهم واحتمال أخطائهم، والنفاذ إلى عقولهم الموجِّهة واستكشافها. وهي وصايا مطابقة لمبادئ كارل روجرز وغيره في "التقبل غير المشروط" و "الفهم الإمباثي" (المُواجَدَة empathy). "..وانفذ قدر المستطاع في عقل المتحدِّث" (٦-٥٣). "انفُذْ إلى عقل كل إنسان، ودَعْ كل إنسان ينفذ إلى عقلك" (٨-٦١). "هَلُمَّ إلى عقلكَ الموجِّه، وعقل "الكل"، وعقل هذا الشخص بعينه: إلى عقلك لتقوِّمَه، وإلى عقل الكل لتتذكر الأصل الذي أنت جزء منه، وإلى هذا الشخص عساك تعرف هل تصرف عن جهل أو عن علم، وعساك تتبين أيضاً أن عقله قريب لعقلك" (٩-٢٢).

في ظل هذه المبـادئ لا يعود هناك توتر بين المصلحـة الفردية ومصلحة المجـموع، فالرجل الحكيم يُماهِي بين مصلحـته الخاصة ومصلحـة البشر جميـعاً: "ما لا يضيـر المدينة لا يضير مواطـنيها أيضاً. إذا كـانت المدينة بخيـر فأنا إذن بخيـر" (٥-٢٢). "ما لا يفيـد السِّربَ لا يفـيد النحلة" (٦-٥٤). "خُلِقَ البـشر من أجل بعـضهم البـعض، إذن عَلِّمـهم أو تحـملهم" (٨-٥٩). "بهجـة الإنسان أن يؤدي العمل اللائق بالإنسان. والعمل اللائق بالإنسان هو الإحسان إلى جنسه الإنساني" (٨-٢٦).

طبقات الانتماء

"أقول للعالم إذن: إنني أبادلك الحب" (ماركوس أوريليوس:١٠-٢١)

الرواقي، إذن، هو "مواطن العالم" cosmopolitan، الكون مدينتُه والبشر إخوانُه. هذا الانتماء "الكوزموبوليتاني" لا يتعارض بحال مع انتماء المرء لجماعته الخاصة؛ فهو إذ يعصمه من الشوفينية البغيضة لا يمس عـشيرته ولا بلدته ولا قوميته بل "يتـراكز" معها فحـسب. إنما الانتمـاء أشبـه بدوائر متـراكزة (مـتحـدة المركز): "فبـصفـتي أنطونينوس فإن مـدينتي هي رومـا، وبصفتي إنـساناً فمدينتي العالم. لذا فإن ما هو خير لهاتين المدينتين هو وحده الخير بالنسـبة لي" (٦-٤٤). "هنا أو هناك لا فـرق، مادمت حـيثـما عِشت تتـخذ العالم وطنـاً لك" (١٠-١٥). "خُذني وارمِ بي في أي مكان شئتَ، فـأينما كنتُ سوف أحفظ الجـانب الإلهي مني

سعيداً - أي قانعاً، مادام وجداني وفعلي يتبعان فطرتَه الخاصة. هل هذا التغيرُ في المكان سببٌ كاف لأن تَشقَى نفسٌ ويسوء مزاجها فتكتئب أو تتوق أو تنكمش أو تخجل؟ وهل ستجد في المكان الجديد أي سبب يدعو إلى ذلك؟". (٨-٤٥). ".. وأن الكائن الإنساني وثيق القرابة بالجنس البشري كله، لا قرابة دم أو بذرة، بل مجتمع عقلي" (١٢-٢٦). "أيها العالم.. كل ما هو ملائم لك فهو ملائم لي، وكل ما هو في أوانه بالنسبة لك فهو كذلك عندي، لا متقدم لديَّ ولا متأخر. يقول الشاعر "عزيزتي مدينة سِيكروبس": ألا تقول أنت "عزيزتي مدينة زيوس؟". ولا يخفى على قارئ "مدينة الله" للقديس أوغسطين أنه قد تأثر فيها بعض الشيء بأفكار ماركوس أوريليوس.

تلك هي "الجامعة الروحية" الرواقية التي يحل فيها "الإنسان" محل "المواطن"، والوحدة العقلية محل الوحدة السياسية، والتي هذبت القانون الروماني وآزرت الدعوة المسيحية إلى المحبة والرحمة، وألهمت مفكري التنوير بفكرة الإخاء الإنساني والحرية والمساواة، وتزداد حاجتنا إليها في زمن العولمة وقد بات واضحاً للجميع أن البشرية مقبلة على حقبة جديدة ستكون فيها وحدة البقاء هي البشرية بأسرها لا الفرد الواحد ولا مجموعة الأفراد ولا المجتمع المحلي[1].

---

(1) انظر في ذلك كتابنا "العولمة_من زاوية سيكولوجية"، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٣١- ١٦٨

أصداء وجودية

الحياةُ مشروع. ولكي تتحقق كل ممكنات الإنسان وقدراته الكامنة ينبغي أن ينظر إلى حياته على أنها عملٌ فني عليه أن يبدعه إبداعاً وينقحه ويراجعه. "العقل الموجِّه هو الذي يوقِظ نفسَه ويكيف نفسَه، ويضفي على نفسه الطبيعة التي يريدها، ويجعل كل ما يحدث له يبدو على النحو الذي يريده" (٦-٨). من أجل ذلك لا بد للمرء من التوقف كل يوم بعض حين وإرجاء الاستجابات الاعتيادية، والالتفات اليقظ إلى النفس، ووضع كل شيء على محك النقد والتمحيص. "إن حياةً لا تخضع للنقد هي حياةٌ لا تستحق أن تُعاش" كما يقول سقراط.

في كتابه "تأملات لغير زمانها" يطرح نيتشه سؤاله عن الذات الحقة ويحدد الطريق إلى هويتها ووحدتها. فالإنسان يحيا حياته مستسلماً للكسل والنوم، غارقاً في بحر العادات والرغبات ومشاغل كل يوم. وفجأة يناديه صوت آت من أعماق ضميره: كن نفسك. كل ما تفعله الآن وتفكر فيه وتتوق إليه شيء مختلف عنك. وتصحو "النفس الشابة" من غفوتها وتحاول أن تسترد ذاتها. ها هي ذي تناجي نفسها قائلة: حقاً لستُ شيئاً من هذا كله. ما من أحد يمكنه أن يتولى عنك بناء الجسر الذي يتحتم عليك أن تعبريه فوق نهر الحياة، ما من أحد غيرك. صحيح أن هناك طرقاً وجسوراً وأنصاف آلهة لا حصر لها تريد أن تحملك عبر النهر. لكن ذلك سيكلفك الثمن الباهظ، والثمن الباهظ هو أن

ترهني نفسك وتضيـعيها. لا يوجد في العالم غـير طريق واحد، ولا أحد يمكنه أن يسير عليـه سواك. لا تسألي إلى أين يؤدي هذا الطريق؟ عليك أن تقطعيه. "كل نـفس شابة تسمع هذا النداء ليل نهار فترتجف، لأنها تشعر بالقدر المقسوم لها من السعادة منذ الأزل عندما تفكر في تحررها الحقيقي، غـير أنها لن تبلغ هذه السعادة ما بقيت مأسورة في أغلال الخوف والآراء الشائعة. وكم تصبح الحياة مجدبة من كل معنى ومن كل عزاء إذا حرمت هذا التحرر. فليس في الطبيعـة مخلوق أولى بالرثاء أو أدعى إلى النفور والاشـمئزاز من إنسان تهرَّبَ من روحه الحارس وراح يطوف بعينيه فيما حوله، ويتلفت مرة ناحـية اليمين وأخرى لليسـار أو الخلف. إن مثل هذا الإنسان لا يستـحق حتى أن نهاجمـه، لأنه مجرد قشرة خـارجية منزوعـة اللب، ثوب بال منتـفخ ملطخ بالألوان، شـبح بائس لا يستطيع حتى أن يثير فينا الخوف، وهو يـقيناً لا يستثير فينا العطف أو الإشفاق"(1).

أليس هذا وثيق الصلة بقول ماركـوس في "التأملات": "ما أشقى ذلك الإنسان الذي يظل دوماً لائبـاً محَوِّماً حول كل شيء، كـما يقـول بندار، "منقـباً في أحـشـاء الأرض"، متـحرقـاً إلى استشفـاف ما يدور ببال جيرانه. وما يدري أن بحـسبه أن ينصرف إلى الألوهة التي بداخله ويكون له خادماً حقيقياً" (٢-١٣).

(1) د. عبـد الغفار مكاوي: شـعر وفكر (دراسات في الأدب والفلسـفة). الهيـئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ٢٤١

الروح رحبة عميقة لا يكاد يلم صاحبها بما يجري فيها. والتعلم هو اليقظة والإفاقة، إذ يتعلم العقل المتنبه كيف يسترد خبرته من أسن العادة والتقليد والغفلة. على الروح أن تضطلع بنفسها بهذه المهمة من خلال ممارستها اليومية للنقد الذاتي، على طريقة ماركوس في تأملاته: "اتجه إلى ذاتك" (٧-٢٨).. "حصنك الصغير الذي بين جنبيك" (٤-٣). "ينبوع خير جاهز لأن يتدفق.." (٧-٥٩). "كيف تُؤَمِّن لنفسك نبعاً دائماً لا مجرد صهريج؟ بأن توطن نفسك طول الوقت على الحرية" (٨-٥١). "لماذا تشتتك الماجريات الخارجية كل هذا التشتيت؟ أعطِ نفسَك قسطاً من الفراغ لكي تتعلم درساً جديداً مفيداً، وكُفَّ عن التخبط هنا وهناك.." (٢-٧). "ما كان يوماً جهلُ المرء بما يدور في رءوس الآخرين سبباً للتعاسة والشقاء. إنما الشقي مَن لا ينتبه إلى خطرات عقله هو، ولا يهتدي، من ثم، بهديه وإرشاده" (٢-٨). "السعادة تتعلق على تقدير الذات لذاتها، ومازلتِ تحرمينها من ذلك وتعلقين سعادتك على الآخرين: ذواتهم وآرائهم وتقديراتهم" (٢-٦). "ما أهنأ باله ذلك الذي لا يتطلع إلى ما يقوله جيرانه وما يفعلون وما يفكرون؛ بل ينصرف إلى أفعاله هو ليجعلها عادلة موقرة مشربة بالخير" (٤-١٨). "كم تعجبتُ من أن كل إنسان يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر، بينما يضع رأيه في نفسه موضعاً أدنى من رأي الآخرين فيه" (١٢-٤).

في ضوء ما سبق يمكننا أن نقول، بلغةٍ سيكولوجية معاصرة، إن شطراً كبيراً من العلاج الرواقي يقوم على "نقل موقع الضبط". يشير مفهوم "موقع الضبط" locus of control إلى إدراك الشخص لما تَكُونُه الأسباب الرئيسية لأحداث الحياة: هل تعتقد أن مصائرك تصنعها أنت بنفسك، أو تعتقد أن مصائرك يصنعها الآخرون أو يصنعها الحظ أو المصادفة؟ هل تعتقد أن سلوكك تُسَيِّره قراراتُكَ الداخلية، أو تعتقد أن سلوكك تسيره الظروف الخارجية؟ هل ترى أن نتائج أفعالنا مترتبة على ما نفعله نحن (ضبط داخلي internal L.O.C) أو ترى أنها مترتبة على أحداث خارج سيطرتنا الشخصية (ضبط خارجي external L.O.C)؟

يُعَد "موقع الضبط" جانباً مهماً من جوانب الشخصية. وهو مفهوم أسسه جوليان روتر Jullian Rotter في الستينات من القرن العشرين، وكان يسميه "موقع ضبط التدعيم" L.O.C of reinforcement. يَعقِد روتر صلة بين السيكولوجيا السلوكية والسيكولوجيا المعرفية، فقد ذهب إلى أن السلوك تُسَيِّره "التدعيمات" reinforcements (المكافآت والعقوبات، أو الثواب والعقاب)، وأنه من خلال التدعيمات يؤسس الناسُ اعتقاداتهم عن أسباب أفعالهم، ثم تقوم هذه الاعتقادات بدورها بتحديد الاتجاهات والمواقف والسلوكات التي يتبنونها.

بصفـة عامة، وبشيء من التبسيط والتقريب، يُعَد الضبط الداخلي أفـضل تكيفـياً مـن الضبط الخـارجي. وتقوم كـثيـر من التدخلات العلاجية النفسية والتعليمية على نقل موقع الضبط لدى الشخص من الخارج إلى الداخل حتى يصبح مالكاً لإرادته متحكماً في أفعـاله محدداً لمصـيره. والرواقيـة، من بين جميع الفلسـفات والعلاجات، خـير ما يغرس في الإنسان "مـوقع ضبط داخلياً". فـالحكيم الحق هو شخص لا سلـطان للأهواء والانفعـالات على نفسـه. وإن سهام الحوادث لتـنكسر تحت قدميـه (على حد تعبـير سنكا). وإنه لا يعـرف الهم ولا الوجل ولا الأسف ولا الرجـاء، غني من غير مال، ملك من غير مملكة (بتعـبير شيشرون). يضاف إلى هذه الخصـال شيء أهم: هو أن لا شيء في الوجود يسـتطيع أن يسلبه إياه[1].

قهر الخوف من الموت

التأمل في قِصَر الحياة وزوالهـا، والتأهب للرحيل عن الحياة، ثيمة مـتواترة في "التأملات"، وفي غيرها من كـتابات الرواقيين. ولقد كان سقـراط، الأب الروحي للرواقيين وقدوتهم، يؤكد على أن الفلسـفة برمـتها هي اسـتعـداد وتأهب للموت! يقـول سنِكا: "القلب الـذي طردت منه رهبـة الموت لن يجـرؤ الخـوف على دخوله".

(1) انظر في ذلك كتـابنا "عزاء الفلسفـة: بوئثيوس"، دار رؤية للنشـر، القاهرة، ٢٠٠٨، ٣٠١-٣٠٢.

وفي "هملت" شكسبير نجد صدى رواقياً لتأمل الموت، في مشهد المقبرة، حيث يتناول هملت جمجمة يوريك، مضحك الملك، قائلاً: ". . ويحك يا يوريك المسكين! لقد كنتُ أعرفه يا هوراشيو. كانت دعابته لا تنتهي، وخياله بارعاً كل البراعة. لقد حملني على ظهره ألف مرة، والآن تعاف نفسي تصور ذلك. . من هنا كانت تتدلى الشفتان، اللتان قبلتهما مراراً يخطئها العد. أين نكاتك الآن ودعاباتك؟ وأغانيك وفكاهاتك البارعة، التي أثارت القهقهة حول الموائد؟ ألم تبق لديك نكتة واحدة تسخر بها من فمك المفتوح؟ هل أخنى عليك الدهر تماماً؟ اذهب الآن إلى مخدع السيدة العظيمة، وقل لها عبثاً تضعين الأصباغ سُمكها بوصة. إن هذا سيكون مصيرك. اجتهد لتجعلها تضحك من هذه النكتة. . " (هملت _الفصل ٥، المشهد الأول).

وفي "التأملات" يقول ماركوس: "لا تحتقر الموتَ، بل رحب به لأنه جزء أيضاً مما تريده الطبيعة. فمثلما نشبُّ ونشيخ، ومثلما نكبر وننضج، وتنمو أسناننا ولِحانا وشعرنا الرمادي، ومثلما نتزوج وننجب، كذلك نموت ونتحلل. فمَن أَلِفَ التفكيرَ والتعقل لا يجزع من الموت ولا يبتئس له ولا ينفر منه، بل ينتظره كما ينتظر فعلاً من أفعال الطبيعة. وكما أنك الآن قد تكون منتظراً طفلاً حملته امرأتك أن يولد من رحمها، كذلك ينبغي لك أن تتشوف إلى اللحظة التي تنسل فيها روحك من هذا الغلاف" (٩-٣).

وحين يتحدث المعالجون الوجوديون، مقتفين في ذلك أثر هيدجر، عن الوجود الأصيل_إلى_الموت authentic being-towards-death فإنما يرددون ثيمةً رواقية ويتخذون تقنية علاجية فلسفية قديمة هي "التأمل في الموت" melete thanatou. يقول ماركوس في "التأملات": "انظرْ إلى أي ضربٍ من الموت يولَد كلُّ شيء" (١٠-١٨). ويرى الوجوديون أن الوجود الإنساني هو "وجود للموت".. وجود متجه نحو الموت. فبمجرد أن يولد الإنسان يكون ناضجاً للموت، وكل حي يحمل جرثومة موته بين جوانحه منذ اللحظة الأولى. ولكن الناس يوهمون أنفسهم بالمِنعة من الموت ويتعامون عن حقيقته رغم أن فيها يتم الشعور بالفردية إلى أقصى درجة. فكل محتضَر يموت وحده ولا يسع أحداً أن يموت نيابة عنه. فالموت هو الحادثة الوحيدة في حياة الإنسان التي هي خاصة به بشكل فريد مطلق. وفي هذا القلق أعلى ما يكشف عن الوجود الذاتي الحق. وفيه ما ينتشل الإنسان من الخسران اليومي ويرده إلى الوجود الأصيل.. يرده إلى نفسه. إن الموت هو أصدق الممكنات الإنسانية وأكثرها جوهرية وأصالة. وليست هذه فلسفة تشاؤمية بل هي بالأحرى مذكِّرٌ حَيٌّ بأهمية العيش ذاته وجدِّيَّته، ونفاسة كل آنة من آنات الحياة. فالعزيمة هي الثمرة الطبيعية لـ "الوجود للموت" تكرسنا لوجودٍ أصيل، وتحملنا على أن نعرف قيمةَ وجودنا ونأخذه مأخذ الجِد، وأن نسعَى مِلءَ الممكن ونعيش مِلءَ اللحظة[1].

---

(1) انظر في ذلك مقدمة كتابنا "مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي".

الموت هو بين الهموم النهائية أكثرها وضوحاً وجلاءً. فليس بخافٍ على الجميع أن الموت آتٍ لا مَرَدَّ له. إنها حقيقة مرعبة. ونحن نستجيب لها في المستويات الأعمق من دواخلنا برعبٍ أكبر. فكل شيء كما يقول سبينوزا "يريد أن يبقى على حاله". إنه لصراعٌ صميمي ذلك الناشب بين وعينا بالموت المحتوم وبين رغبتنا الآنية في البَقاء. تلك هي الرؤية الوجودية. فالموت يضطلع بدورٍ كبير في خبرة المرء الداخلية، ويراوده كما لا يراوده أي شيء آخر. الموت يدمدم بلا توقف تحت غشاء الحياة. وهَمُّ الموتِ يغمر الإنسان منذ نعومة أظفاره. فالتعامل مع خطر المحو والإزالة هو من المهام الكبرى التي يتعين على الطفل أن ينهض بها في رحلة نموه. وليس لنا من سبيل كي نصمد أمام هذا الخطر المصلت إلا أن ننصب دفاعات ضد الوعي بالموت. وهي دفاعاتٌ قائمة على التعامي والإنكار، وتدخل في تشكيل بنية الشخصية. فإذا كانت دفاعاتنا غير توافقية أدى بنا ذلك إلى أمراض سوء التوافق. فالمرض النفسي ينجم إلى حد كبير عن فشلنا في تخطي حقيقة الموت والعلو عليها، والأعراض النفسية والبِنية الشخصية السيئة التوافق تنبع جميعها من رعب الموت وخوف المرء من الفناء والزوال[1].

(1) رولو ماي، إرفين يالوم: "مدخل إلى العلاج الوجودي"، ترجمة: د. عادل مصطفى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٩٧

وليس كالرواقية فلسفة تؤهل الإنسان للاعتراف بحقيقة الموت والصلح مع هذه الحقيقة، بل إلى التأهب للموت و "إتقانه" شأنه شأن أي عمل آخر يؤديه الإنسان! "فحتى هذا.. فعل الاحتضار.. هو أحد أفعال الحياة.. وبحسبك هنا أيضاً أن تتقن ما تعمله جهد ما تستطيع" (٦-٢). "وما الموت؟ إن مَن يتأمل الموت في ذاته، ويُعمِل فيه التحليل العقلي لِيجرده مما يرتبط به من دلالات سوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفة طبيعية. ومن يرتاع لوظيفة من وظائف الطبيعة فهو طفل غرير. ليس الموت وظيفة طبيعية فحسب بل إنه أيضاً لِخير الطبيعة وصالحها" (٢-١٢).

النظرة من فوق

"خُذْ نظرةً مِن فوق"

التأملات: (٩-٣٠)

من التقنيات العلاجية الرواقية اتخاذ منظورٍ إلهي تجاه نجاحاتنا وإخفاقاتنا، وتجاه جميع الأحداث والأشياء. "إنما يأتي العزاء من محاولة العلو إلى رؤية أحداث العالم كما يراها الله بقدر المستطاع وبقدر ما يمكن أن يتاح للبشر. وإنما يأتي القنوط نتيجة للرؤية الضيقة والمغرقة في البشرية والأرضية. مهمة الفلسفة أن ترتفع ببصائر الإنسان وأن تهبه شيئاً من الرؤية الإلهية. ومادام للفلسفة مثل هذه القدرة فإنها أمل الإنسان في العزاء. إن من المتعذر عليك

أن تفهم المحنة بمعزل أو تفهم البلاء على حدة، بل يتعين أن تضعه في المخطط الكلي للأشياء. أن تفعل ذلك يعني أن تتفلسف. إن الفلسفة لا تغير الأحداث ولا تعكس الحظ، غير أنها تقدم فهماً تعود بعده أحداث الحياة مقبولة بل ممتعة(1).

في "حلم سكيبيو" لشيشرون يظهر جده الأعلى ويشير له من مجرة "درب اللبانة" إلى كوكب الأرض الضئيل الهزيل. وفي الكوميديا الإلهية يقول دانتي "أرجَعتُ البصرَ خلال السموات السبع، فرأيتُ هذا الكوكبَ ضئيلاً جداً وضائعاً في الفضاء، فابتسمتُ مُرغَماً لمثل هذا المنظر المؤسف" (الكوميديا الإلهية: الفردوس ٢٢: ١٣٣-١٣٥). وفي "التأملات" يقول ماركوس أوريليوس: "تأملْ مسارات النجوم كما لو أنك تسير معها حيث تسير، وتأمل دوماً تحولات العناصر بعضها إلى بعض. جديرة هذه التأملات أن تغسل عنك أدرانَ الحياة الأرضية" (٧-٤٧). "ثم عندما تتحدث إلى بني الإنسان فلتنظر إلى الأشياء الأرضية كأنك تنظر إليها من نقطة عالية _الجموع، الجيوش، المَزارع، أحداث الزواج والطلاق والميلاد والموت، صخب المحاكم، الصحاري، شتى الأمم الأخرى، الاحتفالات، الجنازات، الأسواق _خليط كل الأشياء والاتحاد المنظم للأضداد" (٧-٤٨). "خُذْ نظرةً من فوق_ انظر إلى ألوف القطعان والأسراب، وألوف الشعائر والاحتفالات الإنسانية، وما لا يُحصَى من ضروب الترحال في العاصفة

(1) انظر في ذلك مقدمة كتابنا "عزاء الفلسفة، لبوئثيوس".

والهدأة، وألوان الاختلاف بين من يولدون ومن يعـيشون معاً ومن يموتون.. " (٩-٣٠). "إذا مـا رُفِـعْتَ فـجـأةً إلى ارتفـاعٍ هائل وأمكنك أن تنظر إلى مشاغل البشر بشتى صنوفها. هل هذه الأشياء تستدعي الزهو والخيلاء؟!" (١٢-٢٤). "... كم هي ضيقة تلك المساحة التي يـجول فيها مـجدُك؛ الأرض برمتها مـجرد نقطة في الفضـاء، فمـا أهون ذلك الركن الذي تقطنه ومـا أقلهم وأهونهم أولئك الذين ترتقب منهم هاهـنا التمجـيد والمدح. لن يبـقى لك سوى هذا: حصنك الصغير الذي بين جنبيك، فَأْوِ إليه.. حيث لا كربَ، على الأقل، ولا وَصَـب" (٤-٣٠). "ما أقصـر مدة المرء في هذه الحياة، وما أصغر البقعة التي يقطنها على الأرض. وقصير أيضاً مجدُه بعد وفاته مهمـا امتد، فهو قائم على تعاقب قليل من البشـر سرعان ما يموتون ولا يعـودون يعرفون أنفـسهم ناهيك بمن مـات منذ زمن بعيـد!" (٣-١٠). "قـصيـرة هي حيـاة المادحين والممدوحين مـعاً، الذاكرين والمذكورين. كل هذا في مـجرد ركنٍ من قـارة واحدة. وحتـى هنا ليس الجمـيع في تناغم بعضـهم مع بعض. ولا حتى الفرد في تناغم مع نفسه. والأرض برمتها مجرد نقطة في الفضاء" (٨-٢٠). "آسيا وأوروبا مجرد ركنين صغيرين من العـالم. كل محـيط هو نقطة في العـالم. جبل أثوس حـفنة تراب في العالم. الزمن الحـاضر كله هو ثقب دبوس في الأبدية. كل الأشياء ضئيلة وسريعة التغير وزائلة.." (٦-٣٦). "بوسعك أن تُنَحِّي الكثير من المنـغِّصات غير الضرورية التـي تكمن بأكملها

في حكمك أنت. عندئذ ستوفر لنفسك مكاناً رحباً بأن تفهم الكون كله وتستوعبه في عقلك، وبأن تتفكر في أبدية الزمان، وتتأمل في التغير السريع الذي يعتري كل شيء في كل جانب _ما أضيق الفجوة الزمنية التي سبقت مولدك والفجوة اللانهائية المماثلة التي تعقب فناءك" (٩-٣٢). "ما أصغرَ نصيبَ كلٍّ منا من الزمن _حصته الضئيلة من الهوة الزمانية اللانهائية؛ لَسرعانَ ما تبتلعها الأبدية. وما أضألَ حصتَه من مادة "الكل" وروح "الكل". ما أضألها في جملة الأرض تلك البقعة التي تزحف عليها. تأمَّلْ في كل هذا ولا تُكبِرْ شيئاً سوى الكدح إلى حيث تقودك طبيعتُك، والتسليم بما تأتي به طبيعةُ العالم" (١٢-٣٢).

تصويب الاستخدام اللغوي ("قلْ ولا تقلْ" الرواقية)

> **"ضع لنفسك تعريفاً أو وصفاً للشيء الذي يَعرض لعقلك.. بحيث يمكنك أن تُفضِي إلى نفسك باسمه الصحيح"**
>
> **(التأملات: ٣-١١)**

من التقنيات التي ألمح إليها الرواقيون بصدد التخلص من الانفعالات الضارة - تعديل الرصد اللفظي للموقف المنغِّص حتى تنكمش المحنة الموهومة وتتقلص، وربما تتبدد فيدرك المرء أنها لا وجود لها في حقيقة الأمر.

في مقاله "عـلاقة التفكير والسلوك الاعتيـاديين باللغة" يقول بنيـامين ورف إن نعت "فـارغ" حين يُلصَق ببرمـيل بنزين يصـبح حاملاً لخطر الحريق! إن الموقف هنا خطِر من الوجـهة المادية، غير أن الضرورة اللغـوية تضطرنا إلى استخـدام لفظة توحي بالخلو من الخطَر، وتضرب صفحاً عن "امتلاء" البـرميل في حقيقة الأمر بـ "الأبخرة" وبقايا السائل والمخلفات القابلة للاشتعال(1).

واللغـة عند الرواقيين هي فـعل للإرادة، به يُنظَر إلى العـالم بطريقة من شـأنها أن تحصر الخـبرة في صورة ثابتـة. ومن ثم فإن تَعَلُّم استخدام ألفاظ مخـتلفة هو نوع من تغيير زاوية تقاطُع الذات مع الحياة الجارية. إنه لا يغير الأشـياءَ وإنما يراها رؤية جديدة أكثر واقعيـة ودقة، يراها في نصابها الـصحيح: يقول إبكتـيتوس: "لا تقولن عن أي شيء "لقـد فقدتُـه"، بل قُلْ: "لقد رَدَدْتُه". هل مات ولدُك؟ لقد "استُرِدَّ". هل ماتت زوجتُك؟ لقد "استُرِدَّتْ". هل أُخِذَت منك ممتلكاتُك؟ ألم تُستَرَدَّ هذه أيضاً؟"

وفي "التـأمـلات" يقـول مـاركـــوس أوريليـوس إن كلمـة "الفقـدان" لا تعني أكثـر من "التغيـر"؛ وهو بذلك يذيب الوَقْعَ السيئ لكلمـة "فقدان": "الفـقدان ليس أكثر مـن تغير. طبيـعة العالم تفـرح بالتغيـر، وكل ما يجـري من الطبيعـة إنما يجري من

(1) انظر في ذلك فصل "النسبـية اللغوية"، في كتابنا "صـوت الأعماق _ قراءات ودراسات في الفلسفة والنفس"، دار النهـضة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢١٩

أجل الخير" (٩-٣٥). كذلك الشأن في كلمة "موت" أو "هلاك": "وتهلك يجب أن تؤخذ هنا بمعنى تتغير" (١٠-٧).

وطوال تأملاته تجد وقفات كثيرة للمراجعة اللغوية والتصويب اللفظي، وتجد استباقاً مدهشاً لفكر بنيامين ورف: "كل ما يوجد هو بمعنى ما "بذرة" لما يأتي بعده. فإذا كان مفهوم "البذرة" عندك محصوراً فيما يوضع في الأرض، أو في الرحم، فذاك لَعَمْري تفكيرٌ مُغْرِقٌ في السوقية" (٤-٣٦). "إنهم لا يعرفون ما تعنيه هذه الكلمات: "السرقة"، "البَذْر"، "الشراء"، "الاستجمام"، "الواجب"؛ فذاك شيء يحتاج إلى رؤية أخرى غير رؤية العين" (٣-١٥). ويبدو أنهم أيضاً لا يعرفون ما تعنيه كلمة "قدرة": "أكثر قدرةً على الإطاحة بخصمه أرضاً، ولكن ليس أكثر قدرة على الود أو التواضع، أو مواجهة الأحداث، أو العفو عن زلات جيرانه" (٧-٥٢)؛ ولا يعرفون معنى كلمة "مصاب": "..وهل تسميه "مصاباً" للإنسان، على كل حال، ذلك الذي لا يشذ عن طبيعة الإنسان؟ أو تسميه "شذوذاً" عن طبيعة الإنسان ذلك الذي لا يتعارض مع أهداف طبيعته؟" (٤-٥٠). "..كلٌّ يثمر ويؤتي أُكُلاً في أوانها؛ ولا يهم إذا كان الاستخدام الشائع يقصر معنى الإثمار على الكروم وأشباهه. فالعقل أيضاً له ثمره، العمومي والخاص: ثمة أشياء أخرى تنمو منه وتشارك في طبيعته" (٩-١٠). "ستتبين هذا بوضوح شديد كلما قلتَ لنفسك إنني "عضو" melos في منظومة الكائنات

العاقلة. أما إذا قلتَ إنني "جزء" .. merosبتغيير الحرف الواحد l إلى r، فأنت بعدُ لا تحب رفاقَكَ البشـر من قلبك، وفعلك الخيرَ لا يبهـجك كغاية في ذاته؛ مازلتَ تفـعل البر بوصفه أدبـاً وواجباً وليس بوصفه بِراً بنفسك" (٧-١٣).

وانظر إليه كيف يعالج الألم الناجم عما يظنه الناس "نحساً" أو "سوء حظ" _علاجاً "لغوياً" محضاً:

"- كنتُ ذاتَ يومٍ رجلاً مـحظوظاً، لا يتخلى عني الحظ في كل صغيرة وكبيرة؛ واليوم تخلى عني لا أعلم كيف.

- ولكن كلمة "محظوظ" تعني ذلك الرجل الذي حدد لنفسه حظاً سعـيداً؛ و"الحظ السعـيد" هو نزوع النفس إلى الخـير، هو الوجدانات الخيِّرة والأفعال الخيِّرة." (٥-٣٧). "تذَكَّرْ إذن في كل حدث منغِّص هذا المبدأ: ليس هذا بالحظ السـيئ، بل احتمال هذا بنبالة وكرم هو حظ سعـيد" (٤-٤٩). "أسعد الحظ كله أن تغادر الناس ولم تعـرف قَط طعم الكذب ولا الريـاء ولا الخـيـلاء ولا الغرور.." (٩-٢). "..**فلماذا لا أدعو اللـه أن يهبني نعمة ألا أخاف من أي شيء مما أخـاف منه، وألا أتَشَهَّى ما أتشـهاه، وألا أتألم من أي شيء، لا أن يجعل أي شيء من هذه الأشياء يحدث أو لا يحدث. جَـرِّب إذن أن تحوِّل دعاءَكَ على هـذا النحو** وانظر ماذا يكون" (٩-٤٠).

البُعد السلوكي في العلاج الرواقي

"بحسبك من كلامٍ عـما ينبغي أن يكون عليه الرجل الصالح - كن رجلاً صالحاً"

(التأملات: ١٠-١٦)

للعلاج الرواقي مرحلتان: الأولى مرحلة تعليـمية بالاستخدام الصحيح للانطباعات، ونقل موقع الضبط، وتعلم المنظومة القيمية الرواقيـة. والثانيـة مرحلة تطبـيقـية ترمي إلى إعادة بـناء العادات المعرفية وإعادة بناء العادات السلوكية.

ذلك أن تصويب الأخطاء المعرفية، على ضرورته، ليس يكفي لنسخ سنواتٍ طويلة مـن الاعتـياد الخـاطئ. إنما التـدريب الذاتي المســتمـر، على طريقة مـاركـوس أوريليوس، هو أمـر لا بد منه لتحويل الحكم الصحيح إلى "عادة" وخَليقة وطبيعة وسَجِيَّة، إلى شيء لا ينفـصل عن المرء لأنه صار جـزءاً منه. يقول مـاركوس: "في تطبـيـقكَ لمبـادئـكَ كن كـالملاكم لا كـالمُجـالد: فـالمجـالد (gladiator) مرتهنٌ لسيـفه الذي يستخدمه، يرفـعه أو يُسقَط منه ويُقتَل؛ أما الملاكم فلديه دائماً يدُه، وليس عليه إلا أن يستخدمها" (١٢-٩).

في "الأخلاق النيـقوماخيـة" (الجزء الأول _القسم ٤) يقول أرسطو إن مساواة الخـير بالمعرفة، على طريقة سـقراط وأفلاطون، هي مـبالغـة وشطط، وقـد أعاد الأمـر إلى نصـابه بأن أوضح أن

أساس المعرفة الأخلاقية عند الإنسان هو المجاهدة والكدح وتطورهما إلى خليقة مَكينة وسلوك ثابت(hexis) .وإن اللفظة نفسها "ethics"لَتَدُلُّ على أن أرسطو يقيم الفضيلة على الممارسة وعلى الإيثوس (ethos).. أي الطبع، الشخصية.

ينصح إبكتيتوس الطالبَ المبتدئ في الفلسفة بأن يوغل في التدريب برفق، ولا يتصدى في البدايات لما لا طاقة له به. فقد يكون إغراء المواقف الحياتية أشد من قدرة العقل على الحكم الصحيح، و"ليس من العدل أن تتبارى الجَرة النحاسية والجرة الخزفية كما تقول الحكاية"[1]؛ المباراة، مثلاً، بين المرأة الفاتنة والشاب المبتدئ في الفلسفة ليست مباراة متكافئة. والحل هنا ليس المزيد من المعرفة بل المزيد من التدريب والمِران وتقوية العادة. يقول ماركوس: "درِّبْ نفسَكَ حتى على ما يئستَ من التمكن منه. فاليد اليسرى، لنقص الممارسة، خرقاء في أغلب المهام؛ غير أنها أشد إمساكاً باللجام من اليد اليمنى _فلقد تدَرَّبَتْ على ذلك" (١٢-٦). "كيفما تكن أفكارُكَ المعتادة تكن طبيعة عقلك: فالنفس

(1) من "حكايات إيسوب": على ضفة النهر كانت هناك جرة ملقاة من النحاس وأخرى من الخزف. وعندما ارتفع المد طفت الجرتان وجرفهما التيار معاً. هنالك حاولت الجرة الخزفية بكل جهدها أن تتجنب الاقتراب من الجرة النحاسية التي صاحت: "لا تخافي يا صديقتي فأنا لن أرتطم بك". فقالت الجرة الخزفية: "ولكنني قد ألمسك إذا اقتربتُ أكثر من اللازم، وسواء صدمتُكِ أم صدمتِني فسوف أتضرر في الحالين. العبرة: القوي والضعيف لا تدوم لهما عِشرة.

تصطبغ بالأفكار. اصْبِغْ نفسَكَ إذن بسلسلة متصلة من الأفكار مثل هذه.." (٥-١٦). "التَّجَـهُّمُ شيءٌ مضاد لـلطبيعـة. وإذا أصبح عادةً متكررة فإن صَباحـةَ الوجه وتعبيره يموتان رويداً رويداً. وربما ينطفئـان في النهاية انطفاءاً لا ضَرَمَ بعـده" (٧-٢٤). "..كيف يمكن أن تموت مبادؤك مـا لم تمت التصورات العقليـة المناظرة لها؟ ولكن بيدك أن تُروِّح هذه التصـورات باستمرار وتُحْيِي ضِـرامَها" (٧-٢). "إذا قـذفَتْ بك الظروف في نوعٍ من الكَرب فـعُـدْ إلى نفسِكَ سـريعاً، ولا تبقَ خارج الإيـقاع أطول مما ينبغي، فـسوف يزداد تمكنك من التناغم بدوام العودة إليه".

د.عادل مصطفى
philoadel@yahoo.com

قطوف من "التأملات"(1)

تَذَكَّـرْ أن ملكةَ الرأيِ هي كلُّ شيء، وأن رأيَكَ بيـدِك. امحُ رأيَكَ إذا شئتَ، وستجد السكينـةَ. ستكون كالبـحَّار الذي يدور حول رأس الأرض، فيجد ماءً هادئاً، وخليجاً ساجياً بلا أمواج.

* * *

أعلى مراتبِ الحرية والقوة هي ألا يفعلَ الإنسانُ إلا ما يُرضِي اللهَ، وأن يتقبل كلَّ ما يَقسِمُه اللهُ له.

* * *

يقول الفـيثـاغوريون: "تأملوا السمـاءَ في الفجـر" كي نُذَكِّر أنفسَنا بثبات تلك الأجرام السـماوية، التي تؤدي الشيءَ نفسَه على الدوام وبالطريقة نفسها، ونُذَكِّر أنفسَنا بنقائها وتجرُّدِها: فليس على نجمٍ حجاب.

* * *

يحـتقـر بعضُـهم بعضـاً، وينافِقُـه رغم ذلك. يريدون العلوَّ والترقِّي، وينبطِحون رغم ذلك.

* * *

(1) لتجنب التكرار راعـيتُ في انتقاء هذه القطوف أن تكـون مما لم ينل قسطه من التنويه أثناء الشرح والتقديم والدراسـة، لا أن تكون أجودَ الشذور بالضرورة.

تَذَكَّرْ في نوبات غضبِكَ أن الغضبَ ليس من الرجولةِ في شيء، وأن الرحمة واللِّين أكثرُ إنسانيةً وبالتالي أكثر رجولة. فالرُحَماءُ هم ذَوُو القوة والبَأْسِ والشجاعة وليس القساة ولا الساخطون. فكلما تَحكَّمْتَ في انفعالاتكَ كنتَ أقربَ إلى القوة. فالغضبُ دليلُ ضعف شأنه شأن الجَزَع. فالغاضبُ والجَزِعُ كلاهما أُصِيبَ وكلاهما استَسْلَم.

* * *

حين تتكَدَّرُ في أي ظرفٍ فقد نَسِيتَ عدةَ أشياء: نسيتَ أن كل ما يجري فبإرادةِ طبيعة "الكل"، وأن الإثمَ لا يضيرُ إلا مرتكبَه؛ ونسيتَ أن كل شيء يحدثُ فقد كان يحدث هكذا فيما مَضَى، وسيظل يحدث هكذا في المستقبل، وما ينفكُّ يحدث الآن في كل مكان. وأن الكائن الإنساني وثيقُ القرابةِ بالجنسِ البشري كلِّه؛ لا قرابة دمٍ أو بذرة ـ بل مجتمع عقلي. ونسيتَ أيضاً أن عقل كلِّ إنسان إلهٌ ودَفْقَةٌ من الألوهية. وأنْ لا شيءَ ملكٌ لنا، بل حتى طفلُنا وجسدُنا نفسُه إنما جاء من ذلك المصدر. وأنَّ كلَّ شيءٍ هو كما أراده التفكيرُ أن يكون، وأن كلا منا لا يعيش إلا اللحظةَ الحاضرة، ولا يَفقدُ إلا إياها.

* * *

ما من نشاطٍ يضيرُه أن يتوقف مادام قد تَوَقَّفَ في الوقتِ المناسب، ولا فاعله يضيرُه شيئاً أن هذا النشاط المعيَّن قد تَوَقَّفَ.

وعلى ذلك فإذا بلغت جملةُ أفعالِه، التي تشكل حياتَه، نهايتَها في الوقت المناسب فلا ضير عليهـا من مجرد التوقف، ولا ضير على مَن ختَمَ هذه السلسلةَ من الأفـعال في الوقت المناسب. أما الوقتُ والأجلُ فتـحددهمـا الطبيـعةُ _طبـيعةُ الإنـسان أحيـاناً كمـا في الشيـخوخة، وطبـيعة العـالم في كل الأحيـان، والتي من خلال التغيير الدائم لأجزائِها المكوِّنة تُبـقي العالمَ كلَّه صبياً وعَفياً. وكل ما ينفع العـالمَ فهو حسـنٌ وفي إبَّانه. لذا فلا بأس على الإطلاق بأن تنتهي حياةُ كلٍّ منا، فلا النهـايةُ عَيْبٌ ولا اختيارٌ ولا هي ضد الصـالح العـام. بل هي خـيـرٌ، إذ تقـعُ في التـوقـيتِ الملائمِ لـ "الكل"، وتَصُبُّ في صالحه، وتنسجـم معه. فكذلك أيضاً يمشي المرءُ بِعَوْنِ الربِّ إذا مَضَى باختيارِه ووجهتِه على طريقِ الرب.

* * *

تَأَمَّلْ إذن ما يجرِي في مثل هذا الأمر الخفي. وانظر "القوة" وهي تَفعَلُ فِعْلَهـا، تماماً مثلما نرى "القوةَ" وهي تَحـمِلُ الأشياءَ إلى أسفل وإلى أعلى. انظر "القوةَ" لا بِالعَيْن، وإنْ لم تكن أقلَّ وضوحاً.

* * *

إذا نَفَضْتَ عن عقلك ما يَرينُ عـليه من انطباعات الحِس ومن هموم الآتي والماضي، جاعِلاً نفسَكَ مـثلَ كرة أمبدوقليس: "تامة الاستدارة تتقلب في نعيمِ وَحدتِها"، لا تبتغي إلا أن تعيش ما هو

حياتُكَ الحقة _أي الحاضر _سيكون بِوُسعِكَ أن تقضي ما تَبَقَّى لكَ من العمر في هدوءٍ وسكينةٍ وسلامٍ مع روحِكَ الحارس.

* * *

أوراق(1)

البعضُ تُبَعثِرُه الريحُ على الأرض

هكذا هي أجيالُ البشر

أطفالُكَ أيضاً مجرد "أوراق". أوراقٌ أيضاً تلك الأصواتُ التي تهتفُ بمدحِ الملك، وتلك اللعناتُ من مناوئيك، وهذا المَلامُ الصامتُ أو السخريةُ المكتومة.. مجرد أوراقٍ مماثلة أيضاً أولئك الذين سيتلقون وينقلون مجدَكَ المستقبلي للأزمنة الآتية. فكل هذه الأشياء "تنتج في فصل الربيع".. ولكن لا تلبث الريحُ أن تَذْرُوها..

* * *

الأرضُ تحبُّ المطر، والسماءُ الجليلةُ تحب أن تُمطِر. العالمُ كله يحب أن يخلق المستقبل. أقول للعالم إذن "إنني أبادلكَ الحب".

* * *

(1) أي أوراق شجر

. أما أن تظلَّ الإنسانَ نفسَه الـذي كنتَه حتى الآن، أن تَتَمزَّقَ وتتشَوَّه فـي هذه الحياة التي تحياهـا، فهو مجرد حـرصٍ بليدٍ على الحيـاة، أشبه بحـال المجالدين gladiators الذين أكلَت الوحوشُ نصفَ أبدانِهم وهرَسَـتْهم وسَـرْبَلَتْهم بالدم، ولا يزالون يتـوسلون للإبقاء على حـياتهم إلى اليـوم التالي رغم أنهم في اليـوم التالي سـيتـعرضـون في نفس الحـالة إلى نفس المخالب والأنيـاب. إذا أحسستَ أنكَ تسقطُ وتفقدُ توازنَكَ فالجأْ بنفسٍ راضيةٍ إلى ركنٍ ما حيث تستعيد اتزانَكَ. وإلا فاجـعَلْ لكَ مَخرَجاً عاجلاً من الحياة، لا بانفعالٍ بل ببـساطةٍ وحريةٍ وتواضع، جاعِـلاً هذا الرحيلَ إنجازاً واحداً مُشَرِّفاً في حياتكَ على أقل تقدير.

* * *

أَيُّما شيءٍ يحـدثُ لكَ فقـد كان يُعَدُّ لـكَ منذ الأزل، وكان مُقـتضَى الأسبـابِ يَغْزِلُ لكَ منذ الأزل خيطَ وجـودِكَ وخيطَ هذا الحدثِ المحدَّد.

* * *

تَشاغُبُ أطفالٍ ولُعَبهم، أرواحٌ ضئيلةٌ تحمل جثثاً، هكذا شأن كل شيء ـ إن العـالم السفلي في "الأوديسـه" لَيبـدو للعين أكـثرَ واقعية!

* * *

عليكَ أن تتركَ خطأَ غيرِكَ حيثُ ارتُكِب.

اليومَ هربتُ من كل المنغِّصات، أو بالأحرى ألقيتُ بها جانباً.
لم تكن هذه شيئاً خارجـياً، بل كانت بداخلي: إنها أحكامي ليس إلا!

* * *

الأشيـاءُ واقفـةٌ خارجنا، قائمـة بذاتها، لا تَعـرِفُ شيـئاً عن نفسِها ولا تدلِي بِشيء. ما الذي يُدلِي إذن؟ عقلنا الموجِّه.

* * *

قد يُرتكَب الظلمُ بالإحجامِ عن الفعلِ، مثلما يُرتكَب بإتيانه.

* * *

لا تكن متثـاقلاً في فعلِكَ، ولا مُشَوَّشـاً في محادثتِكَ، ولا غامضـاً في تفكيرك. ولا تترِكْ عقلَـكَ نَهْباً للانقباض ولا لـلتيه. واجعلْ في وقتِكَ ساعةً للفراغ والترويح.

- "إنهم يقتلونني، يمزقونني، يلعنونني".

- وكيف يمكن لكل ذلـك أن يَحُولَ بين عقلكَ وبين الصـفاء والحكمة والرصانة والعدل؟ هَبْ واحداً أتَى إلى نَبعٍ من الماء النَّمير وأخذَ يَلْـعنُه، فهل سـيمنع النبعَ من أن يظل يتـدفَّقُ بالماء الزُّلال؟ وهَبْه ألْقَى فيه بِشَيْءٍ من الطين والرَّوث.. فلن يلبثَ النبعُ أن يفتته ويزيحه ويعـود إلى نقائه. كيف إذن تُـؤَمِّنُ لِنفسِكَ نبعـاً دائماً لا

مجردَ صهْرِيج؟ بأن تُوَطِّنَ نفسَكَ طولَ الوقتِ على الحرية، وتظلَّ قانعاً، بسيطاً، متواضعاً.

* * *

العقل الخالي من الانفعـالات هو قلعة: ليس ثمة مَلاذٌ للناس أقوى منه، ومَن يَأْوِي إليه فهو في حِـصنٍ حصين. فما أجهلَه مَن لا يرَى هذه القلعةَ، وما أَتْعَسَهُ مَن لا يَلُوذُ بهذا الحِصْن.

* * *

تَذَكَّرْ أن تَغْييرَكَ لرأيكَ أو قبولَكَ لتصويبٍ يأتي من غيرِكَ هو شيءٌ يَتَّسِقُ مع حُرِّيَّتكَ قـدرَ اتساق عنادكَ وإصراركَ على خطئك. فالفعلُ فعلُكَ، تَحُـثُّه رغبتُكَ أنتَ وحكمُكَ، وفهمُكَ في حـقيقة الأمر.

* * *

نَقِّبْ في ذاتكَ. هاهنا بالداخل ينبـوعُ خيرٍ جـاهزٌ لأن يتدفَّقَ في أي لحظةٍ إذا ما بَقِيتَ تُنَقِّب.

* * *

تَخَيَّلْ أنكَ الآنَ ميتٌ، وأن حـياتَكَ انتهت في هذا اللحظة. ثم عِشْ ما تَبَقَّى لكَ من العمر في وفاقٍ مع الطبيعة.

* * *

كـمال الخلق في هذا: أن تعـيش كل يوم كمـا لو كان آخـرَ أيامك، بغير سعارٍ وبغير بلادة وبغير رياء.

* * *

تَستَخـدِم الطبيعةُ مـادةَ العالمِ مثلمـا يُستخدَم الشـمع: فتارةً تَخلقُ منه كهيئةِ حصان، ثم تصهره وتستخدم مادتَه لِخَلقِ شجرة، ثم إنسان، ثـم شيءٍ آخر. كل شيء من هذه الأشـياء لا يدوم إلا قليلاً. ليس صـعباً على الوِعاءِ أن يَنْـحَطِمَ، مثلما لم يكن صعـباً عليه أن يَستَوِي من قبلُ وعاءً.

* * *

الأبهةُ الفـارغة للمـواكب والاحتـفالات، عـروض المسرح، القطعـان والأسـراب، عروض المقـارعـة بالسيف، عَظْـمةٌ مُلقـاةٌ للجراء. فُـتاتٌ مُلقَى لسمك الـبركة، نملٌ يَكْدَحُ ويَنُوءُ بأحـماله، عَدْوُ فئرانٍ مذعورة، دُمَى تُرَقِّصُها خيوطُها. هكذا أشياءُ العالم.

* * *

الموتُ انعـتاقٌ من الاسـتجـابة للحـواس، ومن خيـوط دُمَى الرغبة، ومن العقل التحليلي، ومن خِدمة اللحم.

* * *

من العـار أن تَخذُلَكَ الروحُ في هذه الحـياة قبل أن يـخذلكَ جسمُك.

* * *

كَمْ رِفاقٍ أَتَيْتُ مَعْهُمْ إلى العا   لمِ يوماً أراهُمُ الآنَ غُيَّبْ

* * *

سرعان ما ستصير رماداً أو عظاماً، مجردَ اسمٍ أو حتى لا اسم. والاسمُ ماذا يكونُ غير صوتٍ وصدى؟ وكل ما نُعْليه ونُغليه في الحياة هو شيءٌ فارغٌ وعفنٌ وتافه: جِراءٌ يَعَضُّ بعضُها بعضاً، وأطفالٌ تتشاجر، تضحك، وما تلبث أن تبكي. أما الإخلاصُ والشرفُ والعدلُ والصدقُ فتفرُّ إلى أوليمبوس من كل أرجاء الأرض المترامية.

* * *

انظرْ مَلِياً كيف يُزاحُ كلُّ ما هو قائمٌ وكل ما هو قادمٌ ويصير ماضياً ويزولُ زوالاً. الوجودُ مثلُ نهرٍ في تدفقٍ دائم، وأفعالُه تَعاقُبٌ ثابتٌ للتغيُّر!! وأسبابُه لا تُحصَى في تَنَوُّعِها. لا شيءَ يَبقَى ثابتاً حتى ما هو حاضرٌ عَتِيد. تَأَمَّلْ أيضاً الهُوَّةَ الفاغِرةَ للماضي والمستقبل التي تبتلعُ كلَّ شيء. أليس بأحمقَ مَن يعيشُ وسطَ هذا كلِّه ثم تُحَدِّثُه نفسُه بأن يَلِجَّ في الأمَلِ أو يهلكَ في الكفاح أو يسخطَ على نصيبِه؟! وكأن أيَّ شيءٍ من هذا دائمٌ له أو مُقَدَّرٌ أنْ يُؤَرِّقَه طويلاً.

* * *

ثراءٌ طائلٌ لا يتركُ مَحلاً لقضاء الحاجة! .. ذلك حالُ الثروةِ وامتيازاتُ الفخامةِ والشهرة.

سـأبقَى سـائراً في طريقِ الطبـيعـةِ حـتى أسـقطَ وأخلدَ إلى الراحة، فـألفظ أنفاسي الأخيـرةَ في هذا الهواء ذاته الذي تَنَفَّسْـتُه عبرَ أيام عمـري، وأسقط على ذات الأرض التي مَنَحَت أبي بذرتَه ومنحت أمي دمَهـا ومرضعـتي لبنَها، الأرضِ التي أطعمَـتْني يوماً بعـد يومٍ وسقـتني سنواتٍ طوالاً. الأرض التي احـتـملَتْ وَطأتي عليها واحتملت مني كلَّ ضروبِ الإساءة.

* * *

اسلُكْ دائماً الطريقَ القصير. وطريقُ الطبيـعةِ قصير. وابتغِ ما هو أقوَمُ وأسلمُ في كل ما تقول وتفعل. فمثلُ هذا العَزمِ كفيلٌ بأن يُحَرِّرَ المرءَ من العَناءِ والجَهْدِ والاضطرار إلى التحايل والرِّياء.

* * *

عليكَ أن تقـضي هـذه الكِسـرةَ الضـئـيلةَ من الزمـان[1] في انسجامٍ مع الطبيعة. وغادِرْها راضياً، مثلما تَسقُطُ زيتونةٌ حين تبلغ النضجَ، مـبارِكَةً الأرضَ الـتي حَمَلَتْـها، وشاكـرةً للشجـرةِ التي مَنَحَتْها النَّماء.

* * *

الناس في خصامٍ مع ألصق رفيق ـ العقل!

* * *

(1) أيْ عمرَك.

إذا كان غـريباً في الـعالم مَن لا يَعـرفُ مكوِّناته، فليس أقلَّ غُـربةً مَـن لا يعـرف مـاجَــرَياته. إنه آبقٌ إذا تَملَّصَ مـن المبـدأ الاجتـماعي، أعـمى إذا غَضَّ عينَ عقله، شحـاذ إذا اعتـمدَ على الآخرين ولم يذخرْ في نفسه كلَّ ما يحتاج إليه في الحياة، ورمٌ في الكون إذا انسحبَ وفصلَ نفـسَه عن مبدأ طبيـعتنا المشتركة بتَـبَرُّمه بنصـيبِـه.. منشقٌّ خـارجٌ على المجـتمع إذا سلَّ روحَـه من روح الكائنات العاقلة جميعاً، والتي هي وحدة.

* * *

كم هي ضيقةٌ تلك المساحةُ التي يَجُولُ فيها مَجدُك.

* * *

ليس في العالم مـوضعٌ أكثـرُ هدوءاً ولا أبعد عن الاضطراب مما يجد المرءُ حين يخلو إلى نفـسه، وبخاصة إذا كانـت نفسُه ثريةً بالخواطر التي إذا أظَلَّتْه غَمَرَتْه بالسكينة التامة والفورية.

* * *

ما أشقى ذلك الإنسانَ الذي يظل دوماً لائبـاً محوِّماً حول كل شيء، منقباً في أحشـاء الأرض، متحرقاً إلى استـشفاف ما يدور ببال جـيرانه. وما يدري أن بحـسبِه أن ينـصرفَ إلى الألوهة التي بداخله ويكون خادماً حقيقياً لها.

* * *

. . وعليكَ بعـد ذلك أن تحذَرَ ضربـاً آخر من التخـبط: إنه لضربٌ آخر من الكسل والمَوات ما يأتيه أولئك الذين يكدحون بلا هدفٍ ويضربون في الأرض بلا وجهـة، لا وجهة في الفعل، ولا وجهةً، بالأحرى، في القول والتفكير.

* * *

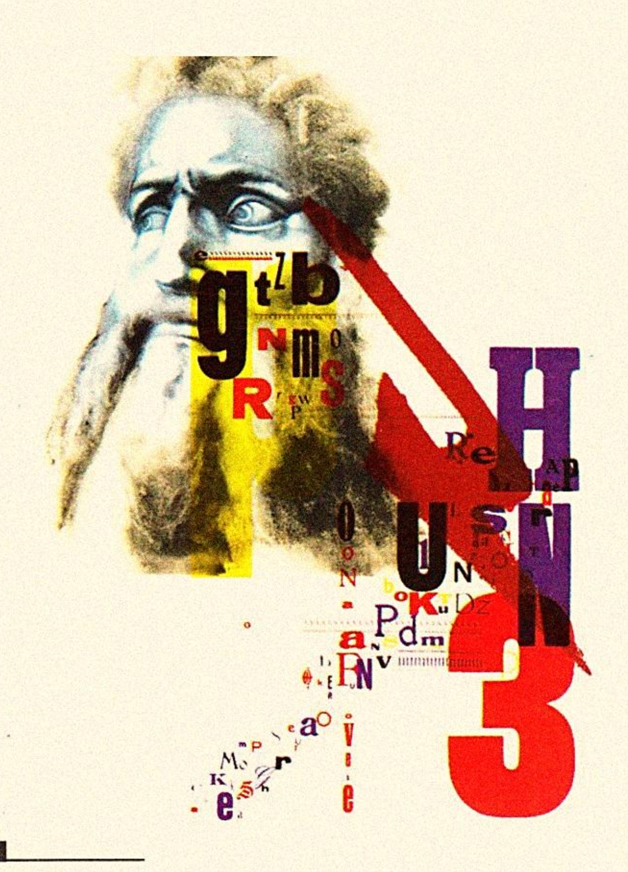
انظرْ إلى أي شيء موجود ولاحظْ أنه منذ الآن في عملية فناء وتغير؛ يـتجدد، بمعنى ما، من خـلال الفساد أو التبـدد. وبعبارة أخرى: انظرْ ـإلى أي ضربٍ من "الموت" يولدُ كلُّ شيء!

* * *

الغلاف الخلفي

".. الحياةُ صراعٌ ومُقامُ غُرْبَة، والمجدُ الوحيدُ الباقي هو الخمول أي شيء إذن بوُسْعه أن يَخْفرَنا في طريقِنا؟ شيءٌ واحد.. وواحدٌ فقط. الفلسفة"

ماركوس أوريليوس



" .. الحياة صراع دائم ومقام غربة . والمجد الوحيد الباقي هو الخمول . أي شئ إذن بوسعه أن يخفرنا في طريقنا ؟ شئ واحد .. وواحد فقط : الفلسفة" .

"تأملات" ماركوس أوريليوس أشبه ما تكون بمفكرة دوّن فيها تأملاته . ربما وهو في خضم المعارك وفوق الجبال أو في أعماق الغابات. وربما كان أحياناً في قصره المنيف. المهم أنها تأملات مكتوبة بعيداً عن قصدية الدرس المتعمق أو الخطاب المنمّق وما شابه . ومع ذلك فالمرء يدهش من كثرة الإشارات لعيون الكتب والمؤلفات في الأدب الإغريقي واللاتيني. فليس الأمر قاصراً على الرواقيين السابقين. بل يشمل كل المدارس الفلسفية والمذاهب الأدبية عند الإغريق والرومان . هذه التعددية في مصادر "أوريليوس" تدل دلالة واضحة على عمق ثقافته وغزارة اطلاعه .

أما الترجمة التي نقدمها هنا . فهي لدارس مجتهد للفلسفة وذواقة للأدب. إنه مترجم يحب المادة التي يترجمها ويعيش المبادئ التي يشرحها. لذلك كان أسلوبه مستساغاً . ومع أنه يترجم النص الإغريقي عن الإنجليزية . فإنه لم يفقد الكثير من روح النص الأصلي . الذي راجع ترجمته على النص الإغريقي للتأملات . الدكتور أحمد عتمان .

ولقد نجح المترجم في أن يصل إلى صيغة شائقة لأفكار الفيلسوف الرواقي. ونحن على يقين تام من أن القارئ العربي سيجد متعة فائقة وفائدة ملموسة في قراءة هذا النص . الذي يمكن أن نجد فيه العزاء الوافي عما نقاسيه في أيامنا هذه .

